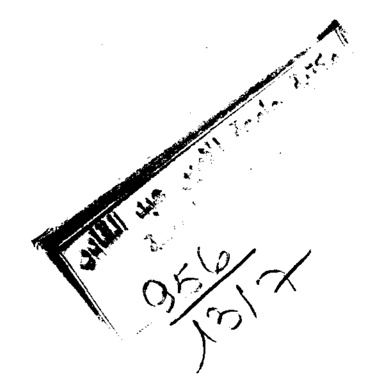
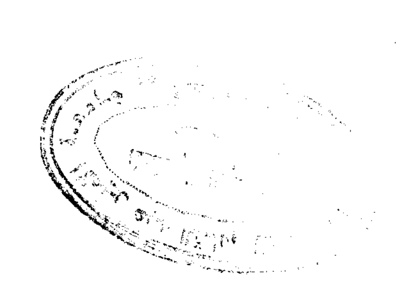

سلسلة الدراسات الكبرى
جودت عبد الكريم يوسف
العلاقات الخارجية للدولة الرستمية
المؤسسة الوطنية للكتاب

جودت عبد الكريم يوسف



العلاقات الخارجية للدولة الرستمية



المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر: 81/1044

[illegible] 1984

أولا ـ هيكل الموضوع ، ودواعي اختيـاره :

كان هناك رد فعل لضعف اطلاعي على تاريخ المغرب الإسلامي ، في مرحلة دراستي الثانوية . ظهر ذلك أثناء اقامتي بالجزائر ودراستي الجامعية بها . فقد بدأ ينمو في نفسي اهتمام بتاريخ هذه المنطقة ، خاصة تاريخ الجزائر ، بحكم ارتباطي بها ، وصادف هذا تحرّرها من استعمار دام اثنتين وثلاثين ومائة سنة ، فأخذت تثور في نفسي تساؤلات عما اذا كانت هذه الدولة الحالية هي أول دولة جزائرية مستقلة ؟ من أجل هذا ، نما ذاك الاهتمام فكان دافعا لي لدراسة تلك الدولة الرستمية ، لأنها تمثل أول وجود سياسي للجزائر الاسلامية ، وقد اتجهت رغبتي خاصة الى علاقاتها الخارجية ، لأنها تكشف عن مدى حيوية هذا الشعب ودوره في النشاط الحضاري بصفة عامة .

إن مما شجعني على مباشرة العمل ، عدم وجود انتاج ثقافي يتعرض للموضوع بشكل واسع ومستقل ، لقد وردت دراسات وجيزة لا تفي بالغرض المطلوب ، مثلما فعل شيخ بكري ولويكي LEWICKI ، وكان هذا الوضع يستلزم دراسة الموضوع بتفصيل أوسع قدر الامكان ، هذا بالاضافة الى إهمال المؤرخين المشارقة لتاريخ المغرب الاسلامي بشكل عام والدولة الرستمية بشكل خاص .

حتى لا يكون العمل عشوائيا ، فقد جعلت الموضوع تحت عنوان « العلاقات الخارجية للدولة الرستمية » ثم قسمته الى خمسة فصول ، كان الفصل الأول بعنوان « الدولة الرستمية » وجعلته بمثابة تعريف بهذه الدولة ، حتى اذا فرغت ، انتقلت الي علاقاتها الخارجية ، وخصصت الفصل الثاني لعلاقاتها مع جيرانها في القيروان ، وكان تحت عنوان « تاهرت والنظام السياسي في افريقية » فاستعرضت العلاقة السياسية بين تاهرت والقيروان ، ثم ناقشت الوضع العسكري بينهما ، وبعد ذلك ، تناولت العلاقة المذهبية والتبادل الثقافي ، وأنهيت الفصل ببحث التبادل التجاري بينهما ، ومن هذا الفصل انتقلت الى الفصل الثالث ، والذي جعلته بعنوان « تاهرت والنظام السياسي في الأندلس » تناولت فيه بحث العلاقة بين تاهرت

وقرطبة مثلما فعلت في الفصل السابق ، ويكاد يكون هذا نفس المنهاج الذي اتبعته في علاقات تاهرت مع الأدارسة وبني مدرار في الفصل الرابع . ولما كانت هناك دولتان ــ في فاس وسجلماسة ــ مختلفتان مذهبا وسياسة ، فقد تناولت علاقة كل منهما مع تاهرت على حدة ، وقدمت فاس على سجلماسة ، رغم تأخرها في الظهور ، وذلك لصلة سجلماسة ببلاد السودان ، وهي البلاد التي خصصت لها الفصل الخامس ، تناولت فيه موضوع علاقتها بتاهرت ، مركزا على الجانب الاقتصادي لأنه كان عماد العلاقة بينهما . ولم يفتني أن أنهي كل فصل باشارة الى العوامل المؤثرة في علاقة تاهرت (1) بجيرانها .

ان بحث علاقة تاهرت مع هؤلاء الجيران ، لا يعني الحصر ، أو قصرها عليهم . لأن تاهرت ارتبطت كذلك بالشرق الاسلامي ، بعلاقات مختلفة . فقد كانت لها علاقة ببغداد . ظهرت في القاء العباسيين القبض على الرستمي أبي اليقظان عند ذهابه للحج ، وكانت علاقاتها أشد ما تكون مع الأباضية هناك ، تجلى هذا في الإعانات المالية التي قدمت للدولة الرستمية ، ومن خلال الاتصالات التي تمت بين اباضية المشرق والمغرب ، والتي تحمل معنى التأييد السياسي والإقتصادي لتاهرت ، كما قامت علاقة ثقافية بين تاهرت والمشرق ، ظهرت في تلقي الامام الرستمي الأول ــ عبد الرحمن ــ العلم في البصرة ، وارسال الامام عبد الوهاب الأموال لشراء الكتب ، ووفود عدد من علماء المشرق على تاهرت مثل بشر بن غانم الخراساني (2) كما أسهم التجار في الربط بين تاهرت والمشرق ، على الأقل من الناحية الاقتصادية .

قبل أن يخرج هذا البحث بالصورة التي هو عليها ، كانت قد اعترضتني صعوبات لم تضعف من عزيمة الأصرار على مواصلة البحث ، لكنها حالت دون اخراجه بشكل أفضل . فمن جهة يعتبر هذا العمل المتواضع أول تجربة أقوم بها في ميدان البحث ، لكن هذه العقبة ذللت بفضل ارشادات وتوجيهات أستاذي المشرف الدكتور لقبال موسى . والتي كان يسديها بين الحين والآخر وبذلك ، فان أولى المصاعب التي واجهتني وأهمها . تتمثل بالمصادر والمراجع . وقد ساعدتني اقامتي في الجزائر على البحث في مكتباتها العامة ، كمكتبة الجامعة والمكتبة الوطنية ، ومكتباتها الخاصة ، كمكتبة الشيخ اطفيش في بني يزقن ــ قرب غرداية ــ وتمكنت من الحصول على بعض المراجع من مكتبات خارجية ، بعضها عربية والبعض الآخر أوروبي ، ومع هذا الاطلاع فقد ظلت المصادر والمراجع عقبة قائمة .

(1) وردت تاهرت على صورة تيهرت بين الحين والاخر واللفظتان زناتيتان بمعنى اللبؤة

أنظر : محمد رمضان شاوش : الدر الوقاد . ص : 18 .

ثانيا ـ نقد المصادر والمراجع :

1 ـ كتب التاريخ والحضارة :

أ ـ المخطوطة :

ذكر المؤرخون الاباضيون آن الفناء قد لحق بمكتبة المعصومة على يد ابي عبد الله الشيعي عند دخوله تاهرت ، ويبدو أن فقدان الانتاج الفكري لعلماء تاهرت ، قد ضاع بسبب حزازات ومنافسات وحروب تاهرت الداخلية ، وربما فقد بعضه على يد الرستميين الفارين (1) ، لذلك لم يصل الينا من تلك المؤلفات شيء ، باستثناء مخطوط ابن الصغير الذي يحمل عنوان « تاريخ الأئمة الرستميين » وقد عثر عليه المستشرق الفرنسي موتيلنسكي في منطقة وادي ميزاب ، وذكر آنه لا توجد من هذا المخطوط الا نسخة واحدة ، قام بنشرها في المؤتمر الدولي الرّابع عشر للمستشرقين المنعقد في الجزائر سنة 1905 ، ومازالت مكتباتنا العربية بحاجة اليه .

تآتي آهمية ابن الصغير باعتباره من سكان تاهرت ، ومعاصرا للرستميين ، كما آنه ينتمي الى مذهب غير المذهب الاباضي ، في نفس الوقت ، يعتبر كتابه آقدم مصدر مغربي يتعلق بالرستميين ، فذكر في مجرى حديثه عن آبي اليقظان « قد لحقت آنا بعض آيامه وامارته وحضرت مجلسه »(2) ، الا آن ابن الصغير لم يذكر شيئا عن حياته الشخصية ، ولم تتعرض له كتب التراجم والطبقات ، ولذا لا يعرف الا بلقبه ، وترجح وداد القاضي أن ولادته كانت بين سنتي 265 ـ 270هـ/878 ـ 883م (3) . وذكر نفسه في كتابه « ان لي في الرهادنة دكانا آبيع فيه وآشتري »(4) وهذا يدل على آنه كان تاجرا ، لكنه لم يكشف عن نوع تجارته ، ويرى ابراهيم فخار آنه كان وراقا ، ربما استدل على ذلك من اهتمام ابن الصغير بالعلم/وكونه فقيها الى جانب عمله التجاري ، واذا ربط هذا باهتمامه بمجالسة الاباضية ، ومناظرتهم ، مع اختلاف مذهبه عنهم ، واقامته في تاهرت فترة ثم اختفائه ، آمكن احتمال امتهانه التجارة ستارا لنشاط دعائي يقوم به في تاهرت لجهة ما .

لم يكشف ابن الصغير النقاب عن المذهب الذي ينتمي اليه ، لكنه نفى صراحة انتماءه للمذهب الاباضي ، ويشير سليمان الباروني الى آنه مالكي ، ربما كان هذا من نسج مؤرخي

---

(1) حول مسألة مكتبة المعصومة ، أنظر : لقبال موسى . «**من قضايا التاريخ الرستمي**» ، الاصالة ع 41 ، ص : 51 ـ 59 .

(2) ابن الصغير : **السير** ، ص : 44 .

(3) وداد القاضي : «**ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية**» الأصالة ع 45 ، ص : 38 .

(4) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 46 .

الاباضية ، ليعطوا لكتابه أهمية أكبر ، على اعتبار أنه وثيقة مالكية في مدح الاباضية ، في وقت أصبح فيه هؤلاء كجزيرة في محيط مالكي ، كذلك ، فان لويكي Lewicki . يشير الى انتمائه للمذهب الشيعي (1) ، وهو يعتمد على عبارة لابن الصغير نصها : « براءتهم ممن والاه رسول الله ، وقال من كنت مولاه فعلي مولاه» (2) ، ويبدو أن هذا لا يكفي للتأكيد على شيعية ابن الصغير ؛ فان هذا الحديث ثابت لدى أهل السنة ، وربما ترجع الروح العلوية فيه ، الى حب المغاربة بشكل عام لآل البيت وكل من هو علوي ، حتى قيل أن النساء المغربيات المالكيات يقلن عند طلق الولادة : « يامحمد ، يا علي » (3) .

ناظر رجل من وجوه الاباضية يسمى أبو الربيع سليمان ابن الصغير وقال له : « من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراق .... » (4) ويظهر من هذه العبارة أن ابن الصغير وأصحابه ليسوا من المالكية ولا من الأحناف ، من جهة أخرى ، يستبعد أن يكون معتزليا ، ويستشف هذا مما ذكره نفسه : «قال لي أحمد بن بشير : اجتمعت المعتزلة والأباضية بنهر مينة لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة» (5) «وتدل صيغة الأخبار على عدم وجود أية صلة لابن الصغير بهؤلاء ، والا لوردت العبارة بشكل آخر كقوله : اجتمع أصحابك والاباضية ، وهي الصيغة التي خاطبه بها أبو الربيع من قبل .

يقول أبو الربيع في مناظرته لابن الصغير : تقولون « ان الرجل اذا زوج ابنته البكر وهي صغيرة وأدركت ، أن لا خيار لها في نفسها » (6) في نفس الوقت ، يذكر علي الخفيف « أن ليس عند الشافعية والحنابلة تفريق بسبب خيار البلوغ .... ولا تخيير اذا ما باشر الأب أو الجد عقد النكاح عندهم » (7) ، ويفهم من هذا ، أن ابن الصغير ربما كان شافعيا او حنبليا ، لقد كان على علاقة وطيدة بأحمد بن بشير الذي كان يعتمد على أحكام الشافعية في فتواه (8) فهل تدل هذه العلاقة على أنه كان شافعيا ؟

---

(1) LEWICKI, *Arabic External Sources*, p. 25.

(2) ابن الصغير : **السير** ، ص : 10 .

(3) أبن أبي الضياف : **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان** ، تونس 1963 ، ج 1 ص : 121

(4) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 57 .

(5) نفس المصدر ، ص : 44 .

(6) ابن الصغير : **السير** ، ص : 57 .

(7) علي الخفيف : **فرق الزواج في المذاهب الاسلامية** ، ص : 6 .

(8) الزبيدى : **طبقات النحويين واللغويين** ، ص : 306 .

* على أية حال ، تناول ابن الصغير في كتابه تاريخ الأئمة الرستميين وسيرهم ، فتعرض لكيفية تولي عبد الرحمن الامامة ، والى سيرته في حكمه ، وتلقيه مساعدات من اخوانه اباضية المشرق ، وأورد عبارات وجيزة ومفيدة في علاقة تاهرت بجيرانها في تلك الفترة ، ثم تعرض لولاية ابنه عبد الوهاب ، مركزا اهتمامه على افتراق الأباضية على يديه ، وعلى سوء سياسته ، بعدما قدم لذلك بعبارات المدح كقوله : «كان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا» ، ثم تعرّض للامام أفلح ، فأشار الى ازدهار تاهرت في عهده ، وأبرز اهتمامه بمسألة تعيين القاضي ، لكنه مع ذلك لم يغفل الاشارة الى سوء سياسته ، ثم ذكر ولاية أبي بكر فأشار الى ضعف شخصيته وقبح سياسته ، وبعدما أشار إلى أبي اليقظان وضبطه أمور البلاد ، ذكر ولاية أبي حاتم ، وما واجه من معارضة ، الى آن ولي الأمر عمه يعقوب بن أفلح ، ولم يستتب الأمن ثم نجح أبو حاتم بالعودة الى الإمارة ، وبدأ محاولاته الإصلاحية ، وينتهي ابن الصغير بطعن خطباء الأباضية ، بسبب خطبة التحكيم .

ذكر ابن الصغير ذلك معتمدا على الرواية الشفوية ، خاصة لعهد أبي اليقظان وماقبله ، فذكر : «أخبرني غير واحد من الأباضية عمن تقدم من آبائهم» ، «أخبرني جماعة من الاباضية وغيرهم» ، ويبدو أنه كان يعبر عن اعتماده على غير الأباضية بقوله : «حدثني بعض من أثق به» «وحدثني غير واحد» ، «وقد حكى لي جماعة من الناس» ، كما أعتمد على مشاهداته وملاحظاته الشخصية ، وهذا يتعلق بأواخر أيام الدولة الرستمية .

يفيد كتاب ابن الصغير في تصوير الحياة بتاهرت ، وعلاقاتها الداخلية ، ومن خلال بعض العبارات ، يمكن رسم خطوط عريضة لعلاقات تاهرت الخارجية ، فكان من أوائل من ذكروا مسير قوافل تاهرت التجارية شرقا وغربا وجنوبا ، وأشار الى زيارة ابن عرفة لبلاد السودان ، وعلى كل ، فإن هذه العبارات لا تفي بالغرض المطلوب .

اعتمد على ابن الصغير مؤرخون اباضيون ـ كما سيأتي ـ ومالكيون ، فقد ذكر أن الأباضية «تسمى منهم بالوهبية ، وهذا الاسم لست أعرفه وقد سمعت أنهم انما سموا بهذا الاسم لاتباعهم عبد الوهاب » (1) ويؤكد البرادي خطأ هذه النسبة معتمدا على كتاب اسماعيل الجيطالي ، ويرى « أن الوهبية سموا بذلك لإتباعهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وكذلك هو عندنا ، فلو نسبت لعبد الوهاب لكانت الوهابية » (2) ومع هذا ، فان الرقيق القيرواني يذكر ، أن عبد الوهاب بن رستم الأباضي صاحب تيهرت «هو الذي تنسب اليه

---

(1) ابن ،الصغير : السير ،ص : 16 .

(2) البرادى : الجواهر ،ص : 164 .

الوهبية » (1) فهل اعتمد على ابن الصغير؟ ، كما أشار الرقيق الى موادعته روح بن حاتم ، دون أن يشير الى محاصرته طرابلس ، وذكره البكري دون أن يشير الى هذا الحصار ، الا أن ابن خلدون وهو الذي اعتمد على القيرواني والبكري ، ذكر أن عبد الوهاب حاصر المدينة ، ويبدو أنه المالكي الوحيد الذي أشار الى مشاركته في الحصار ، فهل اعتمد على ابن الصغير؟

يبدو أن علماء الاباضية قد عكفوا أمام غلبة المذهب المالكي في بلاد المغرب وسعة انتشاره ، على دراسة تراثهم الثقافي والتعمق فيه ، واحيائه والاضافة اليه ، فظهرت مؤلفات عديدة ، كان منها «كتاب السيرة وأخبار الأئمة» لأبي زكريا يحي بن أبي بكر السدراني الورقلاني (ت 471هـ/1078م) ، وما يزال هذا الكتاب مخطوطا ، وظهرت له ترجمة باللغة الفرنسية من قبل المستشرق الفرنسي ايميل ماسكري E. Masquery سنة 1878 م ، ثم ظهرت ترجمة أخرى لجزء منه للمستشرق الفرنسي روجير لوتورنو – R. Le Tourneou تناول فيه أبو زكريا المذهب الأباضي في المغرب الإسلامي ، وتاريخ الأئمة الرستميين ، ثم ذكر مقاومة الاباضية للفاطميين وثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، ثم ترجم لعدد من شيوخ الاباضية وعلمائهم .

تظهر عاطفة أبي زكريا المذهبية في مواضع متفرقة من المخطوط ، تخرجه أحيانا عن روح البحث العلمي ، فذكر – على سبيل المثال – حصار ابن الأشعث لعبد الرحمن بن رستم في جبل سوفجج ، ورد فشل هذا الحصار الى تفشي الجدري في جيش ابن الأشعث مما اضطره الى فك الحصار ، ولم يشر الى العوامل المختلفة التي أفشلت الحصار – ان كان وقع ، كما أن أبا زكريا يؤرخ للأئمة الرستميين ، متجاهلا علاقات تاهرت الخارجية الا ما ورد عرضا ، ومع هذه المآخذ ، الا أن كتابه لا يخلو من فائدة ، فقد أورد عبارات مفيدة بشكل مباشر أو غير مباشر ، فهو يذكر مسعودا ومروان الأندلسيين ، وحصار طرابلس ، وموقعة مانو ، ولم يكن هذا من باب اهتمامه بعلاقات تاهرت . ولكن أبا زكريا لا يشير الى حادثة كبيرة مثل حادثة « طبنة » في حين أشار الى محاصرة أبي حاتم الملزوزي القيروان ، ويبدو أن عاطفته المذهبية لم تسمح له بذكر هزيمة عبد الرحمن في طبنة ، لأن هذا لا يتناسب وميوله تجاه الرستميين ، وكان هذا طابع المؤلفات الاباضية مما يفرض على الباحث أن يكون يقظا في أخذه الحقيقة التاريخية دون نظر ومقارنة .

اعتمد أبو زكريا في كتابه على عدد من المؤرخين الاباضيين ، عبر عنهم بقوله : « ذكر بعض أصحابنا » وعلى غيرهم من المؤرخين مثل ابن الصغير ، والرقيق القيرواني في حادثة دخول الاباضية القيروان ومغامرة ابن طولون ، ونقل عن البكري ما يتعلق ببناء مدينة تاهرت .

(1) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص : 173 .

ب ـ المصادر المطبوعة : وهي على أنواع :

1) الكتب السنية : من أقدم ما كتب عن المغرب الإسلامي ، كتاب «فتوح مصر المغرب والأندلس» لابن عبد الحكم (ت سنة 257هـ / 871م) و «فتوح البلدان» للبلاذري (ت سنة 279 هـ / 892م) وغيرهما ، وكان من الممكن أن تكون مصادر هامة باعتبارها معاصرة للرّستميين ، لكنها لم تتعرّض لهؤلاء الا ببعض العبارات القليلة المفيدة ، فإن البلاذري أول من أشار الى حادثه العباسية ، وعنه أخذها المؤرخون ، كابن الأثير وابن خلدون والقلقشندي ، وربما أخذ هؤلاء عن مصدر مجهول . وكان هذا شأن المؤرخين في المشرق الإسلامي ، أي اهمال التأريخ للدولة الرّستميّة عامة .

يلاحظ أن القسم الكبير من مؤلفات مؤرخي المغرب الإسلامي ، في القرون الإسلامية الأولى قد ضاعت ، مثل كتاب مغازي افريقية الذي وضعه سليمان بن أبي المهاجر الإفريقي قبل نهاية القرن الثاني الهجرى ، كذلك كتاب أبي عبد الله محمد الوراق الذى ألفه للحكم المستنصر في مسالك افريقية وممالكها ، وكتابه الآخر «في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة» ، وكتاب الرقيق القيرواني» تاريخ افريقية والمغرب» ، اذ أن الجزء الذي عثر عليه ، يتناول عهد الولاة ابتداء من عقبة بن نافع الى ولاية أبي العبّاس عبد الله الأغلبي ، وقد استفيد من هذا الجزء ، فهو أقدم مؤلف تعرض لحادثة طبنة ، وأول من أشار الى معاهدة السلم وحسن الجوار المبرمة بين الامام عبد الوهاب والامير روح بن حاتم ، ولم يتحرج القيرواني في ذكر أخبار دخول الاباضية طرابلس والقيروان بقيادة أبي الخطاب ، نقلا عن أبن حسان اليحصبي (ت سنة 292هـ / 905م) ، فهل تعرض القيرواني واليحصبي للرستميين في تاريخيهما المفقودين ؟

على كل ، فقد احتفظ الرقيق بأهميته ، في اعتماده على مصادر معاصرة للرستميين وجعلت منه شهرته التاريخية مصدرا لمن جاء بعده كابن عذارى وابن خلدون وابن الاثير وغيرهم .

من أشهر المصادر التاريخية السنية كتاب «البيان المغرب في أخبار المغرب» لابن عذارى (ت سنة 712هـ / 1312م) ، تناول فيه تاريخ المغرب من الفتح الاسلامي ، بمعنى أنه غير متخصص في الفترة المدروسة ، وتأتي أهميته في اعتماده على سابقيه من المؤرخين كاليحصبي وابن حماد وابن القطان والرقيق القيرواني والوراق وعريب وابن حزم والبكرى والطبرى والعذرى وغيرهم (1) .

(1) حول نقل ابن عذارى عن البكرى قارن ما ورد بخصوص اختلاف الامربين ولدى اليسع في : البكرى : جغرافية المغرب ، ص : 150 . وابن عذارى : البيان ج 1 ، ص : 157 . وعن تأثره بالعذرى حرفيا انظر ماورد بخصوص حرق ابن رستم مراكب المجوس عندهما .

تناول ابن عذارى كغيره من المؤرخين المالكيين دول المغرب السنية المعاصرة للرستميين بتفصيل واسع ، لم تحظ به الدولة الرستمية ولا دولة بني مدرار في سجلماسة ، ومع ذلك احتفظ بوصف مدينة تاهرت نقلا عن ابن القطان ، وذكر أئمتها ابتداء من مؤسسها عبد الرحمن الى سقوطها بشكل موجز ، وقد ضمن كتابه بعض العبارات المفيدة في مجال العلاقات الخارجية ، فذكر حادثة طبنة ، ونزول جيش هرثمة بن أعين تاهرت ، وذكر بعض الشخصيات الرستمية في الأندلس ومكانتهم هناك ، كما ذكر صلة النسب بين تاهرت وسجلماسة ، أما عن بلاد السودان فلم يورد عنها الا بعض العبارات التي جاءت عرضا في سياق حديثه عن المسلمين ، وهي في مجموعها ليست كافية لرسم صورة واضحة عن علاقات تاهرت الخارجية ويبدو أن موقف ابن عذارى هذا يعود الى اهتمامه بالتاريخ السياسي للمنطقة ، وتأثره بعاطفته المذهبية .

من مشاهير هؤلاء المؤرخين ابن خلدون ، فقد تأثر بأبن عبد الحكم والطبري المسعودي والكلبي وابن الأثير والرقيق القيرواني وابن القطان وابن رشيق والبكري وابن سعيد ، وابن حيان وابن حزم وابن النحوي وغيرهم ، ولسبب ما ، كان ينقل أحيانا دون ذكر المصدر مكتفيا بقوله : « ذكر بعض مؤرخي المغرب » ، وعلى أية حال ، فهو كسابقه ، ظهر اهتمامه بدول المغرب السنية كدول الأغالبة والأدارسة وأمويي الأندلس ، لكنه لم يول دولة الرستميين أو صفرية سجلماسة مثل هذه الأهمية ، مكتفيا باشارات وردت أثناء تعرضه لقبائل زناتة مثل نفزاوة وهوارة ولماية ، تتعلق بالرّستميين ، بمعنى أنه لم يفرد لتاهرت حيزا خاصا ، ومن غير المحتمل أن المصادر كانت تعوزه وهو المؤرخ الواسع الاطلاع ، بل ربما كان دافع موقفه مذهبيا ، ومع هذا ، فقد كانت عباراته تلك مفيدة على قلتها ، فهو ينفرد بين المؤرخين بتقديم معاهدة السلم بين تاهرت والقيروان الى عهد الامام عبد الرحمن بن رستم ، وهو يرى أن اشتراك الامام عبد الوهاب في حصار طرابلس كان تلبية لنداء هوارة طرابلس ، وهو يخالف بهذا مؤرخي الاباضية(1). كذلك يكاد ابن خلدون ينفرد بذكر وقوع عمل عسكري بين الرستميين والأدارسة ، ويلاحظ قلة اهتمامه ببلاد السودان خاصة في القرون الإسلامية الأولى ، ربما لقلة معلوماته عنها ، بدليل اهتمامه بذكر القرون المتأخرة من تاريخ تلك البلاد ، ضمن ذكره لمختلف الأجناس والأمم .

لم يتنبه ابن خلدون لبعض الهفوات التي ظهرت في كتابه ، فقد جعل عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح وجعل قدومه المغرب مع طوالعهم ، ثم ذكره معاصرا لروح بن حاتم ،

---

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص 287 . ويرى مؤرخو الاباضية أن الحصار وقع وعبد الوهاب في طريقه الى الحج ، أنظر : الدرجيني : **طبقات المشايخ بالمغرب** ، ج 1 ص : 66 .

بمعنى أنه أعطى له عمرا غير محتمل ، كذلك فهو ينقل حادثة العباسية ، وارسال قرطبة هدية لافلح ، وهو ما لم تذكره المصادر الاباضية نفسها ، ومع ذلك ، فقد ظل كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » مصدرا هاما لكل باحث في تاريخ المغرب الاسلامي .

يبدو أن الخضوع للانتماء المذهبي كان مسيطرا على مؤرخي العصور الوسطى ، فان ابن الأبار (ت سنة 658هـ/ 1260م) وصفه دوزي Dozy بأنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة ، حمل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وتاريخ الاسلام عامة ، ما لم يصل اليه الا القليل ، ومن يطلع على كتابة « الحلة السيراء في شعر الأمراء » يرى تأثره بسابقية من المؤرخين أمثال عيسى بن أحمد الرازي ، وأبي عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب كتاب الحدائق المؤلف للحكم المستنصر ، وابن حيان ، وابن حزم ، وأبي بكر محمد بن محمد الصولي وغيرهم ، ويظهر أن موقفه يشبه مواقف غيره من المؤرخين من غير الاباضية فقد تعرض لدول المغرب الاسلامي في القيروان وفاس وقرطبة المعاصرة للرستميين ، الا أنه لم يخصص من كتابه للدولة الرستمية ولو مجالا ضيقا ، مع أنه يعترف بوجودهم ، ربما كان هذا لتحيز مذهبي ، فقد كان طالبيا أو شيعيا ، وكان هذا نفس موقفه ازاء بني مدرار ومع هذا الاهمال ، فكتابه حوى بعض العبارات القليلة المفيدة ، فاحتفظ بأبيات للشاعر التاهرتي بكر بن حماد ، قالها في مدح الأمير الاغلبي ابراهيم الثاني ، كما أشار الى وجود شخصيات رستمية في الأندلس.

ان من يطلع على مؤلفات هؤلاء وغيرهم من غير الاباضية ، يلاحظ أنهم يجتمعون حول موقف واحد من الدولة الرستمية ، قائم على تجاهلها الا من بعض العبارات القليلة ، ويمكن أن يتجلى هذا عند مؤرخي شبه جزيرة الأندلس ، فإن ابن القوطية (367هـ ـ 927م) قد خصص كتابه لها ، متجاهلا علاقات أموي قرطبة بتاهرت ، الا بعض العبارات المفيدة ، فقد أشار الى وجود « مذهب الخارجية في الأندلس » وذكر ظهور عمر بن حفصون في تاهرت وشخصيات رستمية في قرطبة ، لكن هذه العبارات قليلة بالنسبة الى كتابه ، ولا تدل على إهتمام بالرستميين . وكان هذا شأن ابن حيان (ت سنة 469هـ/ 1076م) ، فقد استعرض تاريخ أمويي الأندلس ، دون أن يولي علاقاتهم الخارجية اهتماما ، لكنه كسابقة أورد بعض العبارات الهامة ، فذكر الشخصيات الرّستمية هناك ، وركز على مشاركة عبد الرّحمن بن رستم في صد هجوم المجوس على اشبيلية ويعتبر ابن حيان من بين أقدم وأشهر مؤرخي اسبانيا الاسلامية ، واعتمد على ابن مفرج وابن القوطية والرازي وغيرهم .

الى جانب هؤلاء ،كان ابن سعيد (ت سنة 673هـ/1274م) قد وضع كتابه « المغرب في حلى المغرب » ولم يحفل بدوره بعلاقات قرطبة الخارجية وخاصة مع تاهرت ، على أن هذا لا يعني انعدام الفائدة ، فقد أعاذ ذكر بعض العبارات الواردة عند سابقية ، الا أنه تجاهل دور ابن رستم في صد المجوس ، وانفرد بذكر قدوم أبناء الامام عبد الوهاب الى

البلاط القرطبي والاحتفال بهم وانفاق ألف دينار ، ويعتبر كتابه من المصادر الهامة في تاريخ الأندلس لاعتماده على اوائل المؤرخين مثل صاحب « السقط » وابن عبد البر ، وابن حيان ، والحجاري ، وابن مفرج ، ويبدو أنه تأثر بابن حزم والحميدي ، ومع هذه الأهمية لكتابه ، الا أنه لا يبدو فيه اهتمام ابن سعيد بعلاقات تاهرت بقرطبة ، شأنه في هذا شأن المقري في كتابه « نفح الطيب » ولسان الدين ابن الخطيب في كتابه « أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام » ، من المحتمل أن تعود هذه المواقف من علاقة الرستميين بجيرانهم الى أنهم يؤرخون لمنطقة محددة كالأندلس ، لكن هذا لا يمنع من اهتمامهم بتاهرت ، الا اذا كان مرجع ذلك مذهبيا .

ويظهر التأثير المذهبي عند مؤرخي الادارسة ، كابن أبي زرع في كتابه « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ومحمد بن جعفر بن ادريس الكتاني في كتابه « أزهار العاطرة الأنفاس » ومحمد بن علي السنوسي في كتابه « الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية » وغيرهم ، فقد اطنب هؤلاء في ذكر الأدارسة بعبارات ملؤها التعظيم والتبجيل ، ولم يخرجوا عن محيط دائرتهم ، فأرخوا لهم كأشخاص وأهملوا التأريخ لمجتمع المغرب الأقصى ، وهكذا لاقت علاقة تاهرت مع فاس – على الأقل – اهمالا من قبل هؤلاء كما لاقته مع غيرها .

يعتبر الطبري (ت سنة 310هـ / 922م) من أوائل أصحاب . الحوليات ، ويمتاز بأنه كان معاصرا للرستميين ، وبذلك كان من الممكن أن يكون هاما في موضوع تاريخ دولتهم . الا أن من يطلع على كتابه ، يبدو له أن الطبري قد خصصه لتاريخ المشرق الإسلامي ، ويظهر بجلاء اهماله لتاريخ بلاد المغرب الاسلامي عامة والدولة الرستمية بشكل خاص ، فلم يذكر في هذا المجال سوى بعض العبارات القليلة ، فكان أول من أشار الى نزول ادريس مدينة تاهرت ، ومع هذا فان كتاب الطبري ، يكاد يكون عديم الأهمية في موضوع البحث .

كذلك ، فان ابن الأثير (ت سنة 630/1231م) ، قد خصص كتابه لتاريخ المشرق الاسلامي ، مع بعض الاهتمام ببلاد المغرب ، واعتمد في هذا على الرقيق والوراق والبكري وغيرهم ، ومع هذا فقد تجاهل تاريخ الدولة الرستمية التي يعترف بوجودها ، فذكر « زال ملك بني رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت » ويبدوا أن ذلك يعود الى ضعف اهتمامه بتاريخ المغرب عامة ، واهتمامه بالحياة السياسية واهماله التاريخ لحياة الشعوب الإقتصادية والاجتماعية والثقافية ، شأن غيرة من أوائل المؤرخين .

ولا يختلف المقريزي (ت سنة 845هـ / 1442م) عن سابقيه ، فقد اعترف بوجود الدولة الرستمية ، فذكر أنه « زال .... ملك بني رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت »(1)، ومع هذا فقد أهمل التاريخ لها ، فلم يشر الى أئمتها ولو بايجاز . فكانت فائدته لموضوع البحث محدودة ، اقتصرت على عبارات قليلة ، لها علاقة بخروج أبي عبد الله الشيعي الى سجلماسة ، وبسيرة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، فذكر سفره الى بلاد السودان واقامته معلما في تاهرت الى حين سقوطها ، وربماكان وراء هذا الموقف دافع مذهبي ، وربما لأنه خصص كتابه للأئمة الفاطميين .

2) الكتب الاباضية : ظهرت عدة مؤلفات اباضية ، تناولت الأئمة الرستميين في تاهرت ، كان منها كتاب « طبقات المشائخ بالمغرب » لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (2) (ت سنة 670هـ) وكان اعتماد مؤلفه على مصادر اباضية وغيرها ، مثل كتاب أبي عمارعبد الكافي (3) ، وكتاب السيرلأبي الربيع سليمان بن يخلف ، وقد اعتمد بشكل رئيسي على كتاب السيرلأبي زكريا حتى ذكر الدرجيني في كتابه « كمل بحمد الله ما يقابل الجزء الأول من كتاب الشيخ أبي زكريا »(4)، ومن المرجح أنه أعتمد على كتاب ابن سلام بن عمر اللواتي ، لأن الدرجيني كان ينقل دون اشارة مكتفيا بقوله : « حدث غير واحد من أصحابنا » ويشير الى استناد بعض هؤلاء على الامام افلح عن أبيه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم ، واعتمد الدرجيني على مصادر غير اباضية مثل كتاب ابن قتيبة والجاحظ ، وذكر « قد وقفت في كتاب المسالك والممالك من ذكر بناء تاهرت على ما هو أوضح وأزيد فائدة » ، أي أن الدرجيني اعتمد على البكري ، مثلما اعتمد على كتاب الرقيق القيرواني ، فذكر : « واستخلصه عن مقتضى ما ذكره الرقيق في تاريخ افريقية ما تدعو اليه الحاجة » (5) كما اعتمد على ابن الصغير ، يظهر هذا في ذكره مساعدة اباضية البصرة للامام عبد الرحمن ، وقضية ابن عرفة .

---

(1) المقريزي :**إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء** ، تحقيق ونشر جمال الدين الشيال ، القاهرة 1367هـ/ 1948 م .

(2) عن ،مؤرخي الاباضية أنظر : وعن الدرجيني

T. LEWICKI: *Les historien biographes Ibâdites. F.O.*, 1961/62. pp. 1-134.

IBID; *Notice sur le chronique ibâdite. R.O.*, 1936.

(3) أنظر : عمار الطالبي : « أبو عمار الكافي والنسق الحلامي » الأصالة ع41 ص : 172 ـ 179 .

(4) الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب ج 1 ص 195 .

(5) الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب 61 ص : 42 ، 91 .

استعرض الدرجيني سير الأئمة الرستميين ، وخصص لهم مكانا واسعا ، الا أن من يطالع كتابه ، يشعر بنوع من المبالغة بتأثير المذهب كقوله في الامام افلح أنه أقام بتاهرت «سالمة أيامه من الشوائب متصفا بجميل الخير وحميد المناقب ، رادعا لكل باغ وظالم لا تأخذه في الله لومة لائم »(1) متجاهلا سياسته في تاهرت ، والتي يمكن الرجو ع اليها في كتاب ابن الصغير ، كما أن قلم الدرجيني لم يطاوعه في كتابة سيرة الامام أبي بكر بن أفلح ، التي كشف عنها ابن الصغير نفسه بافاضة ، وتظهر عاطفة الدرجيني نحو الأئمة في دفاعه الواضح عن مواقفهم ، فهو لم يذكر خروج الرستميين عن مباديء المذهب بجعلهم الحكم وراثيا .

مهما كان الأمر ، فان كتاب « طبقات المشائخ بالمغرب » ذو فائدة هامة لمن يبحث في تاريخ الدولة الرستمية ، لذكره سير أئمتها ، الا أن هذه الفائدة محدودة بالنسبة لعلاقات تاهرت الخارجية ، وتكاد تنحصر في ذكره مسعودا ومروان الأندلسيين ، وحصار طرابلس ومعركة مانو ، كما أشار بعبارات الى علاقة تاهرت ببلاد السودان ، اعتمادا على أبي الربيع سليمان الويسياني .

لا يختلف الأمر عما سبق بالنسبة لأبي العباس أحمد بن عثمان الشماخي (2) (ت سنة 928هـ) وكتابه السير » ، فقد تعرض لذكر الرستميين ، معتمدا على مصادر اباضية وغيرها مثل كتاب ابن سلام بن عمر ، وأبي الربيع سليمان بن يخلف ، وأبي زكريا ، والدرجيني ، وغيرهم ، وعلى كتاب تاريخ الأئمة الرستميين لابن الصغير ، وعلى المسعودي ، والرقيق القيرواني والبكري من غير الأباضية ، وقد وقع كسابقه أسير العاطفة المذهبية ، يظهر في انحيازه الى أئمة تاهرت في جميع مواقفهم ، فهم دائما أهل الورع والتقوى ، القائمون على الخير ، وأما غيرهم كالثائرين عليهم ، فهم أهل الظلم والشر ، حتى لم ينج من هذا الحكم ابن فندين ــ أحد المرشحين للامامة عند وفاة عبد الرحمن ــ بينما كان الإمام عبد الوهاب « الامام الباسل الشجاع التقي اللين الحليم أمير المؤمنين»(3)، وعلى كل ، فاذا كان كتابه يفيد في التاريخ للرستميين ، فهو قليل الفائدة بالنسبة لعلاقات تاهرت الخارجية ، ويمكن أن ينطبق هذا القول على مختلف المؤلفات الاباضية .

3 ــ كتب الطبقات : تعتبر كتب الطبقات والتراجم مكملة للمصادر التاريخية ، بما تحويه من المعلومات المفيدة ، ويعتبر كتاب « طبقات علماء افريقية وتونس » لأبي العرب

(1) المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 62 .

(2) T. Lewicki, *Une chronique ibâdite*, «Kitab As-Siyar», *R.E.I.*, 1934 pp. 59-78.
المهدى البوعبدلي : « لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر » الأصالة ، ع1 ع41 ، ص : 196 ــ 202 .

(3) الشماخي : السير ص : 144 .

(ت سنة 333هـ) من أقدم هذه الكتب التي وصلتنا ، فقد ذكر قائمة من العلماء من بينهم بكر بن حماد التاهرتي ، وذكر موقف المالكية من الفرق الاسلامية ، وتأتي أهمية هذا المصدر في أن مؤلفه عاش فترة من حياته معاصرا للدولة الرستمية ، الا أن من المآخذ التي تسجل عليه ، قصره الذكر على علماء افريقية وتونس المالكيين ، وتجاهله علماء الاباضية هناك ، ومع هذا فقد ظل مصدرا لمن جاء بعده مثل القاضي عياض في كتابه « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» (1) وبذلك ، فإن فائدته في موضوع علاقات تاهرت الخارجية ، كانت فائدة محدودة ، وكان هذا نفس شأن غيره من أصحاب كتب الطبقات ، مثل المالكي وكتابه «رياض النفوس» والدباغ في كتابه «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» ، فإن ذكرهم لبعض العبارات المفيدة في علاقات تاهرت ، لم يكن من باب اهتمامهم بالرستميين ، فقد كان ذكرهم بكرا بن حماد ، يعود الى اعتباره عالما وشاعرا مالكيا سكن القيروان ، وعلى كل ، فان هذه الخيوط الواهية التي قدموها ، يمكن أن تضاف الى ما عثر عليه من معلومات هنا وهناك ، مما يساعد على رسم صورة تقريبية لعلاقة تاهرت بجيرانها .

يمكن أن يكون أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت سنة 379هـ/989م)مثالا آخر لأصحاب التراجم في كتابه « طبقات النحويين واللغويين » فقد ذكر عبارات هامة على قلتها ، في ميدان العلاقة الخارجية لتاهرت ، فأشار الى علاقة الأغالبة بالاباضية من خلال موقفهم من أبي الوليد عبد الملك بن قطن المهري (2) الأباضي ، وأوضح دور تاهرت كحلقة وصل بين تجار المشرق الاسلامي وبلاد السودان ، فذكر مرور رجل يمني بتاهرت في طريقه الى تلك البلاد ، الا أن مثل هذه العبارات المفيدة ، قليلة في كتابه ، وربما تعود مواقف هؤلاء الى تأثير مذهبي الذي يتضح عند غيرهم ، مثل ابن الفرضي والخشني والحميدي .

4 ـ كتب الجغرافية والرحلة : يعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (3) (المتوفي حوالي سنة 272هـ/ 885م) من أقدم كتب الجغرافية ، وقد كان هذا موظفا في ادارة البريد العباسية ، مما أتاح له سعة الاطلاع ، الا أنه اهتم بالمشرق دون المغرب الاسلامي ، ومع هذا ، فقد أورد بعض المعلومات المفيدة على قلتها ، فذكر مشاهير مدن المغرب ، والمسافات بينها ، ووضع حدودا لدوله ، وأشار الى وجود الاباضية في تاهرت ، والمعتزلة في ايزرج

---

(1) قارن ما ورد بخصوص رسالة ابن فروخ الى مالك : أبو العرب : **طبقات** ، ص : 110 .عياض : **ترتيب** المدارك ، ج ، 1 ص : 341 .

(2) الزبيدى : **طبقات** النحويين واللغويين ، ص : 249 ـ 250

(3) حول ابن خرداذبة أنظر : عبد العزيز سالم : **التاريخ والمؤرخون العرب** ، ص : 185 .

والصفرية في درعة ، ويبدو انه كان يطلق « الحبشة » على بلاد السودان . وتجدر الاشارة الى أنه لم يصل بلاد المغرب ، بل اعتمد على التقارير التي وصلت اليه وعلى التجار أيضا .

وضع ابن الفقيه (1) كتابه « مختصر كتاب البلدان » حوالي 290هـ/903م، وهو كسابقه ركز اهتمامه على المشرق ، ومع هذا ، فقد أورد بعض المعلومات ، تعتبر قيمة ، نظرا للعصر الذي عاش فيه ، فذكر طرق المغرب ودولة ، وسلعة التجارية ، وهو من أوائل من ذكروا بلاد غانة وذهبها ، لكنه يشبهه بالنبات فذكر أنه « ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس »(2) ، وهو لم يصل بلاد المغرب ، فاعتمد على التجار المسافرين وعلى مؤلفات السابقين كابن خرداذبة ، ثم أصبح مصدرا لغيره مثل ياقوت الحموي والمسعودي .

يبدو أن من بين دوافع هؤلاء الجغرافيين الى اهمال ذكر بلاد المغرب ، ضعف المعلومات الذي يتضح أكثر عند ابن رسته ، فقد جعل هذا تاهرت من بلاد ادريس على البحر ، بينما هي في مناطق الهضاب العليا ، كما أن هؤلاء قد وقعوا تحت تأثير انتمائهم المذهبي ، والذي عبر عنه ابن رسته صراحة بقوله عن الاباضية أنهم:« ضرب من الخوارج لعنهم الله تعالى » ، هذا الأمر ، جعل الاستفادة من مؤلفاتهم ، خاصة فيما يتعلق بموضوع البحث قليلة .

من أشهر أوائل الجغرافيين المسلمين(3) اليعقوبي (ت سنة 284هـ أو 292هـ/897م أو 905 م) ويبدو أنه أول من أفسح مجالا أوسع في كتابه للمغرب الإسلامي ، فذكر مدن المغرب ووصفها ، وتتبع الطرق بينها ، وضمنها بعض المعلومات التاريخية الهامة . وأشار الى اتصال بلاد المغرب ببلاد السودان ، وتأتي أهميته في كونه معاصرا للرستميين ، وفي وصوله بلاد المغرب ومروره بتاهرت (4) ، فمعلوماته عنها نتيجة المشاهدة ، الا أن اليعقوبي يفصح عن عدم ، وصوله المغرب الأقصى بقوله عن ذهب وفضة تامدلت : « ويقال أن الرياح تسفيه ... » كما قد تدل عبارته : « بلغني أن ملوك السودان ... » أنه لم يصل بلاد السودان

---

(1) عنه أنظر : نفيس أحمد : **جهود المسلمين في الجغرافيا** ، ترجمة فتحي عثمان ، ص : 48 .

(2) ابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** ، ص : 87 .

(3) عن هؤلاء الجغرافيين أنظر: R. Blachere et H. Darmoun, *Géographes arabes: du Moyen Age*, Paris, 1957.

(4) عن اليعقوبي أنظر : زكي محمد حسن : **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى** ، دار المعارف ـ مصر 1945 ص : 35 . فقد ذكر وصوله بلاد المغرب ، وعن وصوله تاهرت أنظر : لقبال موسى : «**من قضايا التاريخ** الرستمي» ص : 58 .

مع هذا فان ما يقدمه من حوادث تاريخية لا تكفي لازالة الغموض الذي يكتنف علاقات تاهرت الخارجية ، وحتى المعلومات الجغرافية التي أوردها لا تكفي لابراز العلاقة الاقتصادية . أما في ميدان التبادل الثقافي بين تاهرت وجيرانها ، فهو لا يقدم شيئا يذكر ، فهل يعود هذا الاهمال الى كونه مولى لبني العباس وميوله الشيعية(1)؟ وعلى أية حال ، فان المعلومات القليلة التي يقدمها في موضوع البحث تساعد في رسم صورة للعلاقات الخارجية .

يتفق اليعقوبي في تجاهله أمر الدولة الرستمية مع غيره من الجغرافيين المسلمين مثل الاصطخري (المتوفى حوالي 340هـ/988م) في كتابه « المسالك والممالك » والمقدسي المتوفي حوالي 378 هـ / 988 م)في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وابن حوقل (ت 367هـ/977م) في كتابه « صورة الأرض » .

وضع ابن حوقل وصفا لمدينة تاهرت والطرق التي تربطها بغيرها ، في اطار ذكره لبلاد المغرب عامة ، وفائدته التاريخية قليلة ربما لاهتمامه بالجغرافية ، ولأنه متأخر عن الرستميين ، وربما تحت تأثير عاطفة مذهبية ، فقد كان يجول في المغرب الاسلامي جاسوسا فاطميا (2) في زي تاجر.

ذكر ابن حوقل : « هذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب حد برقة الى البحر المحيط مما انتهيت اليه وأدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه « وهو بهذا يكشف عن مصادر كتابه ، وربما زار بلاد السودان فقد ذكر» : رأيت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون باودغشت » (3) ، فهل كانت رؤية الصك بأودغشت أم كتابته ؟ لأن هذا يبرز ان كان ابن حوقل وصلها أم لا .

قدم ابن حوقل عبارات مفيدة في علاقات تاهرت ، لكنها ليست كافية لرسم صورة تامة الوضوح عن الموضوع ، ومع هذا ، فقد ظل كتابه مصدرا هاما ، فاعتمد عليه الادريسي ، ودل على هذا قوله : « حكى الحوقلي ....» (4) والقلقشندي في كتابه « صبح الأعشى (5) وغيرهما .

---

(1) دفع جد اليعقوبي حياته ثمنا لميوله الشيعية وقد ظلت هذه الميول في الأسرة الى عهد اليعقوبي نفسه ، أنظر : كراتشكوفسكي : **تاريخ الادب الجغرافي العربي** ، ص : 158 .

(2) نفس المرجع ص : 204 ، زكي محمد حسن : **الرحالة المسلمون** ، ص : 39 ـ 42 .

(3) حول هذا الصك انظر : N. Levtzion, *Ibn hawqal, the cheque. J.A.H.*, 1968, vol IX- nº 2

(4) الأدريسي : **صفة** ، ص : 60

(5) انظر : القلقشندى : **صبح الاعشى** ، ج 5 ، ص : 11 .

لا يختلف الأمر بالنسبة لجغرافيي المغرب الاسلامي ، ومن بين هؤلاء أبو عبيد البكر (1) (ت سنة 487هـ/1094م)، جغرافي أندلسي ، وضع كتابه معتمدا على الوراق وعلى ملاحظات وأقوال المسافرين والتجار الذين زاروا بلاد المغرب والسودان ، وكان يحتل منصبا هاما في قرطبة مما سمح له بالاطلاع على الوثائق الأندلسية ، وقد احتفظ ببعض المعلومات ، تعتبر فريدة في بابها بعد ضياع كتاب محمد الوراق ، فذكر بناء تاهرت ، ووصفها ، وغير ذلك ، فجاء في كتابه « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » - وهو جزء من كتابه المسالك والممالك - « ذكر محمد بن يوسف أن عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لأبي الخطاب » (2) ، كما كان اعتماده على الوراق في ذكر أخبار بلاد السودان فذكر : « قال محمد بن يوسف : أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي شيخ من أهل الحجج والخير ، قال أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار أودغشت .... » (3) .

نظرا لأهمية كتاب البكري فقد كان مصدرا لغيره فتأثر به الحموي وابن خلدون ، ويظهر هذا فيما ذكراه عن مجمع الواصلية قرب تاهرت ، وتأثر به ابن عذاري ، وابن القاضي وصاحب كتاب الاستبصار (ق 6 هـ) وابن الخطيب في ذكره دولة بني مدرار ، كما كان عليه اعتماد بعض جغرافيي الأندلس مثل ابن غالب محمد بن أيوب الأندلسي (ق 6هـ) في كتابه فرحة الأنفس ، ومع هذه الأهمية ، فقد كانت فائدته محدودة في مجال علاقات تاهرت ، انحصرت في بعض العبارات نظرا لاهماله الدولة الرستمية ، وربما يعود هذا لأن كتابه جغرافي ، يتناول كامل بلاد المغرب الاسلامي وبلاد السودان ، وربما يعود لتأثره بانتمائه المذهبي . وهذا الموقف ، القائم على تجاهل تاريخ الدولة الرستمية ، يصدق أيضا على غيره من جغرافيي المغرب الاسلامي .

2 - الحفريـات ونتائجهـا :

جرت حفريات (4) في تاهرت ، قام بها جورج مارسيه G. MARCAIS ودوسوس لامار DESSUSLAMARE في سنة 1941م ، أسفرت عن اكتشاف مباني ومطامير وقطع فخارية ، ويظهر أن هذه المكتشفات لا تفيد في موضوع علاقات تاهرت الرستمية بجيرانها ، ذلك أنها محدودة ، ليس بينها ما يمكن أن ينسب لأحد جيران تاهرت ، كقطع نقدية أو سلع تجارية ، كما أنها تعود في الغالب الى عهد متأخر عن الرستميين .

---

(1) عنه أنظر : نفيس أحمد : **جهود المسلمين في الجغرافية** ، ص : 75 .

(2) البكري : **المغرب** في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص : 68

(3) نفس المصدر ، ص : 158 - 159 .

(4) عنها انظر : ر ، بورويبة : «**الفن الرستمي بتاهرت وسدراته**» الاصالة ، ع 41 ، ص : 180 - 192 .

يبدو أن هناك حفريات أخرى جرت في بلاد المغرب ، كان من نتائجها ظهور عدد من القطع النقدية لها علاقة بتاهرت ووليلي ، أشار كولان G.S. Colin الى وجودها . ـ كما سيأتي ـ كما عثر دوفيس DEVISSE في حفرياته في أودغشت على قطع نقدية ، ربما كانت رستمية واجمالا فان نتائج الحفريات المفيدة في علاقات تاهرت الخارجية تعتبر محدودة .

3 ـ المراجع والأبحاث :

ظهرت الى جانب تلك المصادر مراجع مفيدة ، منها بلغة عربية وأخرى بلغات أجنبية ، ويلاحظ فيها جميعا أنها غير متخصصة ، يتناول بعضها تاريخ الدولة الرستمية ضمن تاريخ المغرب الاسلامي عامة ، بمعنى أنها اذا تعرضت لعلاقات تاهرت الخارجية ، فان هذا يرد عرضا ومختصرا (1)، وحتى المراجع التي خصصت لدراسة هذه الدولة ـ على قلتها ـ لم تتطرق الى موضوع البحث بشكل مقبول ، كما فعل ابن تاويت في بحثه « دولة الرستميين » لقد تعرض محمد طالبي الى علاقة تاهرت بالقيروان ، لكن عمله هذا يتمثل بتخصيص عدد من الصفحات للموضوع في اطار تناوله الامارة الاغلبية ، أي أن عمله لم يكن مخصصا لموضوع البحث . وبالتالي فهو لم يتناول العلاقة بدقائقها وبشمولية . وهذا ما فعله شيخ بكري ، فقد خصص بضع صفحات لعلاقات تاهرت بجيرانها ، ومن يطلع على هذا العمل يلاحظ الايجاز فيه .

تناول محمد علي دبوز تاريخ الدولة الرستمية باسهاب ، وتعرض لعلاقاتها الخارجية ، في كتابه « تاريخ المغرب الكبير » ، لكنه لم يشر الى المصادر التي اعتمد عليها الا نادرا ، كما طغت العبارات الأدبية على أسلوبه ، ربما تحت تأثير مذهبي ، فكان على الباحث أن يكون حذرا عند الاستفادة منه .

وظهرت مراجع وأبحاث أخرى أجنبية ، اطلع أصحابها على المصادر الاسلامية العامة والمصادر الاباضية ، واختاروا منها الحقائق التي استهوتهم ، ثم أخضعوها لطريقتهم في التحليل ، وأسلوبهم في التفكير ، فجاءت ممثلة لاتجاهاتهم ، وربما أرادوا منها خدمة فكرة سياسية لديهم . وقد نشر لويكي Lewicki بحثا حول علاقة تاهرت ببلاد السودان ، ركز فيه على ابراز الأباضية بصورة منفصلة عن مجتمع المغرب الاسلامي . وعلى أية حال ، فهي مراجع مفيدة ، وان كانت قليلة ، وتتناول جانبا من جوانب العلاقة في أغلب الأحيان .

---

(1) أنظر : على سبيل المثال : عبد العزيز سالم وآخرون : **تاريخ المغرب العربي الكبير**.

الى جانب ما تقدم ، فقد قمت بزيارة مفيدة الى مكتبات خاصة مثل مكتبة اطفيش في بني يزقن ـ الجزائر ـ ومراسلات الى مكتبات عربية وأوروبية ، والى بعض المؤرخين مثل الدكتور أبراهيم فخار ، والدكتورة ماريا خيسوس فيغيرا ، كما أجريت مقابلات شخصية مع بعض المؤرخين المهتمين بتاريخ المنطقة مثل سليمان بن داود في الجزائر.

* * *

النتيجـــة :

أمام هذا الوضع للمصادر والمراجع ، واتصافها بتجاهل تاريخ الدولة الرستمية ، كان على الباحث أن يكون يقظا في اختيار النصوص ، التي تنطبق على تاهرت الرستمية ، وأن يجرد الحقائق التاريخية من التأثير العاطفي الذي قد يشوبها والاستفادة مما بين يديه ، باستعمال المنطق ، واستقراء النصوص وانتهاجه ما أمكن طريق البحث والتحليل والاستنتاج ، وبالنسبة لموضوع البحث ، مع هذا الوضع المشار اليه ، فقد ركزت على الأطراف الأخرى للعلاقة ، وأعني بها القيروان وقرطبة وفاس وسجلماسة وبلاد السودان ، لأنها حظيت باهتمام أوسع من قبل المؤرخين ، وحاولت الكشف عن سياستها العامة ، عسى أن يساعد في الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربطها بتاهرت .

وأخيرا ، فان ما أقدمه الآن ، هو محاولة أولى ، وثمرة جهود بذلت لاضافة لبنة الى الجهود المبذولة لكتابة صفحة من التاريخ الاسلامي لبلاد المغرب ، فعسى أن تكون هذه المحاولة المتواضعة قد فتحت بابا للبحث ، خدمة للحقيقة التاريخية ، واني أعترف أن هذا البحث لم يخرج بهذا الشكل الا بفضل جهود مشتركة ، وهكذا فلا يسعني الا أن أقدم شكري لكل من مد يد العون لي من قريب أومن بعيد ، وأخص بالذكر أستاذي المشرف الدكتور لقبال موسى ، الذي واصل رعايته لي بالنصح والارشاد ، كما أشكر القائمين على مكتبة الجامعة والمكتبة الوطنية ومكتبة الشيخ اطفيش في بني يزقن ، وكل الأصدقاء الذين وقفوا بجانبي في عملية الحصول على بعض المراجع وفي عملية الاخراج ، ولأخي حكمت تقديري على مساعدته في ترجمة بعض النصوص ، وختاما ، أترك تقدير الجهود التي بذلت لاخراج هذا البحث الى السادة أعضاء اللجنة الموقرة .

والله ولـي التـوفيـق ، ، ،

* * *



تأسيس الدولة الرستمية :

كان سكان المغرب عند الفتح الاسلامي على شكل قبائل بدوية متعددة ، يميزها الافراط في حب الاستقلال والحرية . ويراسها ملوك ورؤساء « يطيعونهم فلا يعصونهم ، ويأمرونهم فلا يخالفونهم » (1) شأن العرب في جزيرتهم ، وكان لهم مع المسلمين الفاتحين مواقف مختلفة : فئة معارضة ، وهي طبقة ارتبطت مصالحها بالروم فتحالفت معهم ، اذ حين توالت هزائم الروم أمام الجيوش الاسلامية ، استغاثوا بالبربر « فأعانوهم ونصروهم » (2) ، ويمكننا أن نرد هذا التحالف لاعتبارات سياسية واجتماعية ودينية ، ثم أخذ هؤلاء المتحالفون يترقبون الفرصة للوثوب على الحكم الاسلامي ، وذلك على شكل معارك عسكرية (3) وتحريض البربر على المقاومة والدخول في الاسلام والانتماء للجماعات الاسلامية المعارضة ، بهدف الاساءة للاسلام والمسلمين ، وقد أشار لقبال موسى (4) لهذا المعنى ، فلاحظ أن أحد رؤساء أول ثورة خارجية ظهرت في طنجة ، كان عبد الأعلى بن

---

(1) ابن حوقل : **كتاب صورة الأرض** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلاتاريخ ، ص : 164 .

(2) الرقيق القيرواني : **تاريخ افريقية والمغرب** ، تحقيق المنجي الكعبي ـ مكتبة السقطي تونس 1968م ، ص : 43 وقد ذكر أن عقبة بن نافع سار لا يدافعه أحد حتى انتهى الى باغاي والروم يهربون من طريقه... ورحل منها يريد المغرب حتى نزل تاهرت فاستغاث الروم بالبربر فاعانوهم ونصروهم ، انظر : ص : 43، 44 . وهذا يكشف عن وجود الروم في تلك المنطقة .

(3) حسين مؤنس : **ثورات البربر في افريقية والأندلس** مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، 1948 ، ص : 192 .

(4) لقبال موسى : «**الحركة الخارجية المغربية**» المجاهد الثقافي ، ع 5 مارس 1968 .

جريج الرومي أو الافريقي ، خليفة ميسرة ، وقد يفسر هذا ظهور الخوارج في الجهات التي يستوطنها الروم ، وبهذا يمكن اعتبار مقاومة المغرب للعرب ، ونقض الصلح معهم كان من تدبير « الروم والفرنجة وجماعة من البربر يشايعونهم » (1)

وهناك فئة ثانية وقفت موقفا محايدا لأنها كانت تعرف أن مساعدتها للعرب تعني انتقالها من احتلال لاحتلال. جهلا منها بطبيعة الاسلام أما الفئة الثالثة التي تشكل أغلبية البربر فرأت في الاسلام سبيلا للانتقال الى حياة أفضل ، فأقبلت تعتنقه وتؤيده ، زادتها مبادؤه السامية في العدل والمساواة والتآخي ، وتوافق طبائعهم مع الطبائع العربية اقبالا عليه .

في هذا الوقت ، كانت الخلافة ترسل الولاة من المشرق لادارة المغرب وحفظ الأمن ، ومواصلة الفتح ، لكن هؤلاء أظهروا عجزا مما كان يضطر الوالي أحيانا للاستعفاء أو تضطر الخلافة لاستبداله ، ويبدو أن سوء الحالة الاقتصادية في تلك الفترة قد ظهرت معها الضرائب فادحة ، كما أن عدم قدرة الولاة على التمييز بين الأراضي المفتوحة صلحا أو حربا ، قد دفع بعضهم لتخميس البربر ، وقد نقبل هذا عن بعض الولاة كابن الحبحاب ، لكننا نرى أن الثورات استمرت طيلة عهد الولاة ، مما يجعلنا نعتقد أن أسبابا أبعد كانت وراء هذه الاضطرابات ، التي كانت سببا في ارتكاب بعض الولاة تصرفات ، جعلت مادة حية لاثارة البربر لذلك وبعد ما كانت مقاومة المغرب للعرب ذات طابع رومي ، ثم رومي بربري ، أصبحت ذات طابع مذهبي في الغالب صفري وأباضي ، في القرن الثاني الهجري .

أضف الى هذا ، ظهور جماعة من العرب البلديين في افريقية ، أخذت نفوسهم تطمع للوصول الى كرسي القيروان ، وتمكن أحدهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري من ذلك سنة 126هـ/743م ، الا أن وضع المغرب ظل مضطربا فكانت هناك ثورات اباضية ، كما حدث انشقاق في الأسرة الفهرية الحاكمة ، وتحركت قبيلة ورفجومة بقيادة زعيمها عاصم بن جميل (2) وشايعه من نفزاوة

(1) فروخ عمر : **العرب والاسلام في الحوض العربي** ط1 ، 1378 / 1959 ، منشورات المكتب التجاري بيروت ، ص : 62 .

(2) ذكر المالكي أنه صفرى ، أنظر : المالكي : **رياض النفوس** ، ص : 110 .
وذكر اليعقوبي أنه اباضي ، أنظر : **تاريخ البلدان** ، ج 3 ، ص : 100 .

عبد الملك بن أبـي الجعد الورفجومي (1) ويزيد بن سكوم الولهاصي*، وتمكنت من دخول القيروان سنة 137 هـ / 755 م . فقتل رجالها وكل من وجدوه من قريش . وسلبوا ونهبوا ، وارتكبوا المنكر والكبائر ، وقد استغل الاباضية هذه الأرضية ، لبناء دولة وفق مذهبهم ، وكان ذلك على مراحل :

1 ـ مرحلـة الدعـوة :

يبدو أن تحديد زمن معين لدخول الخوارج المغرب (2) ، مسألة صعبة ، ويحتمل أن يكون دخولهم في العقود الأخيرة من القرن الأول الهجري (3) ، على شكل مهاجرين للإقامة والاستيطان . وتجار وجنود في الجيوش الإسلامية . ودعاة منظمين مثل سلمة بن سعد ، الذي نجح في استمالة عدد من الرجال ، وأرسل بهم الى زعيم المذهب أبي عبيدة ـ كما سيأتي ـ ليتلقوا العلم عنه ويعود الى المغرب ، ويعرفون بحملة العلم .

انتشر هؤلاء الخوارج بين البربر في القرى والأرياف (4) ، واتبعوا كل طريق يؤدي لنشر مذهبهم ، يظهرون التدين والعلم والمهارة ، واستغلوا حماس البربر واقبالهم الشديد على تعلم أصول الدين وانشغال الولاة بتثبيت الفتح ، فأخذوا يخاطبون الناس بلهجاتهم ويلقنونهم تلك الأصول وفق مذهبهم ، وركزوا على الجانب الثوري منها ومباديء العدل والمساواة والشورى ، فنجح بذلك الخوارج في نشر مذهبهم .

2 ـ مرحلـة التأسيـس :

اتسع انتشار المذهب الاباضي في المغرب ، وحين شعر الاباضيون بكثرة عددهم وبقوتهم وبتأييد اباضي المشرق لهم ، بدأ المخاض لميلاد أول دولة

---

(1) ذكر المالكي أن قبيلة ورفجومة صفرية ، أنظر : المصدر السابق ، ص : 102 ، وذكر السلاوي أبو العباس الناصري : أن عبد الملك ويزيد بن سكوم اباضيان ، أنظر : **الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى** ، ج 1 ، ص 109

(2) علي الشابي : **نشوء المذهب الخارجي** بافريقية والمغرب ، مجلة الفكر الشركة التونسية لفنون الرسم ـ تونس عدد 9 ، جوان 1967 ، ص : 28 .

(3) اعتمدنا على ما ذكره المقريزي عن وجود الخوارج في الستينات في مصر ، أنظر : المقريزي : **الخطط المقريزية** ـ مطبعة الساحل الجنوبي ، بيروت ، ج 2 ، ص : 70 .

(4) توماس : **الدعوة الى الاسلام** ، ص : 151 ـ 152 .

اباضية في المغرب ، بامامة عبد الله بن مسعود التجيبي ، التي امتدت من سرت الى قابس ، ويبدو أن هذه المحاولة كانت سابقة لأوانها ، فقد فشلت أمام عبد الرحمن بن حبيب ـ والي القيروان ـ فكانت محاولة ثانية بعد فشل المحاولة السابقة ، اذ اجتمع الاباضيون واختاروا عبد الجبار بن قيس المرادي اماما ، فاتخذ الحارث بن قيس وزيرا ، وحين لم يتمكن عبد الرحمن من التغلب على خصمية بقوة السلاح ، لجأ الى الخديعة فأرسل لهما من قتلوهما في دار الندوة (1) ، وهكذا فشلت امامة عبد الجبار ، فولى البربر على أنفسهم اسماعيل بن زياد النفوسي ، الذي عظم شأنه وكثر اتباعه فنجح في الاستيلاء على مدينة قابس ، فخرج ابن حبيب بنفسه اليه ، وعندما وصل قابس ، سير ابن عمه شعيب بن عثمان فانتصر على الاباضيين وقتل اسماعيل وانهزم أصحابه(2) ، وهنا رأى الاباضيون عجزهم أمام اصرار عبد الرحمن بن حبيب ، فاستكانوا الى حين .

يبدو أن جهود حملة العلم قد أثمرت في المغرب ، وأن اضطراب وضع القيروان قد سارع بهم للعودة الى منطقة طرابلس ، ليبدأ الاباضيون هناك محاولة جديدة لتأسيس دولتهم ، وفعلا اجتمعوا في صياد وعقدوا الامامة لأبـي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (3) سنة 140هـ/757م، ثم رأوا أن الوقت قد حان للبدء في العمل والانتقال لدور الدفاع (4) فاحتلوا طرابلس (5) في نفس العام ، ومهما قيل عن الأسباب التي دفعت بأبي الخطاب للسير الى القيروان (6) فقد أخذ

---

(1) عبد العزيز سالم وآخرون : تاريخ المغرب العربي الكبير ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ 1966 ، ج 2 ص : 326 .

(2) ابن عبد الحكم : **فتوح مصر وافريقية** ، تحقيق عبد المنعم عامر . نشر لجنة البيان العربي ، القاهرة . ص : 302 . أنظر كذلك : سعد زغلول ، عبد الحميد ، **التاريخ العباسي والاندلسي** ، مكتب كريديه اخوان ، بيروت 1976 ، ص : 400 .

(3) أبو زكريا : **السيرة وأخبار الأئمة** ، ص 18 ، كذلك : أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني : **طبقات المشائخ بالمغرب** ، تحقيق : ابراهيم طلاي مطبعة البعث ـ قسنطينة ، ج 1 ، ص : 23 .

(4) فرحات الجعبيري : **نظام العزابة عند الاباضية الوهبية** في جربة ، المعهد القومي للآثار والفنون . المطبعة العصرية ، تونس 1975 ، ص : 23 الشماخي : **مقدمة التوحيد** ، ص : 50 .

(5) الشماخي : **السير** ، ص : 126 ، الدرجيني : المصدر السابق ج 1 ، ص : 26 .

(6) ذكر الرقيق القيرواني أن رجلا اباضيا دخل القيروان ثم عاد الى أبي الخطاب وشكا اليه أمر امرأة اعتدى رجال ورفجومة على شرفها ، انظر : المصدر السابق ، ص : 141 وذكر الدرجيني أنها أرسلت الى أبي الخطاب بطاقة تشكو اليه وتستنجد به ، أنظر الدرجيني : المصدر السابق ، ص : 26 .

جيشه وتوجه اليها في سنة مجدبة ، فخرجت ورفجومة لقتاله ، فثار سكان المدينة بها ، ودارت رحى الحرب ، وانتهت بانتصار الاباضيين ، ودخول أبي الخطاب القيروان (1) سنة 141هـ/758م ، ولم يول نفسه عليها ، ولم يتول عربيا ، بل ولي الفارسي عبد الرحمن بن رستم ، فعقد الولاية له ، وعاد الى طرابلس لمواجهة جنود العباسيين ، وهكذا ابتدأت الدولة الاباضية الخطابية (2) .

فرارعبد الرحمن الى المغرب الأوسط :

أقام عبد الرحمن على سدة الولاية يدير شؤون البلاد ، فعين العمال على النواحي منهم عبد الله بن عقيب على كتامة ، ويبدو أنه شعر باهتزاز كرسي القيروان فأخذ يجد في بناء قاعدة خلفية تكون له عمقا ، فقد كان يعلم أن الخلافة العباسية لن ترضى بهذه الهزيمة ، ولن تتنازل عن افريقية لخصومها الخوارج ، وأن طبيعة تكوين المجتمع القيرواني تجعله لا يقبل بالحكم الاباضي ، فكانت استكانتهم لعبد الرحمن اعترافا بجميل الاباضيين ، وانتصارا لموقف ورد فعل المنصور ، وقد كانوا أرسلوا له وفدا من أعضائه : نافع بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن أنعم (3)، كما وفد عليه جميل السدراتي الاباضي .

عزم والي مصر محمد بن الأشعث على التدخل في أمور المغرب ، فسير قواته الموجودة في برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي ، لكن هذا هزم أمام مالك بن سحران الهواري الذي أرسله أبو الخطاب لمواجهته (4) ، فسير ابن الأشعث سنة 142هـ/760م أحد قواده أبا الأحوص عمر بن الأحوص العجلي ، فخرج أبو الخطاب للقائه ، ودارت بينهما معركة في مغمداس انتهت بهزيمة أبي الأحوص الى مصر (5)، في حين عاد أبو الخطاب الى طرابلس منتصرا ، وحين

---

(1) أبو زكريا : **السير** ، ص 27 ، سليمان الباروني : **مختصر تاريخ الاباضية** ، مطبعة الادارة ، نشر مكتبة الاستقامة ، تونس 1357هـ/1938م ، ص : 33 .

(2) في حين جعلها حسين مؤنس دولة اباضية رستمية ، انظر: **ثورات** البربر ، ص :185 لقبال موسى : **المغرب الاسلامي ، ص** : 228 .

(3) المالكي : **رياض النفوس**، ص : 102

(4) الشماخي : **السير** ، ص 130 .

(5) الشماخي : **السير** ، ص : 130 .

وصلت أنباء الهزيمة الى المنصور سير جيشا الى محمد بن الأشعث « وأمره بالمسير بسرعة » (1) ، فخرج ابن الأشعث في 40 ألف رجل (2) ، منهم ثلاثون ألفا من جند خراسان وعشرة آلاف من جند الشام ، وحين علم أبو الخطاب حشد حوالي 200 ألف (3) رجل وطلب معونة من ابن رستم الا أن النزاع وقع في صفوف جيشه بين زناتة وهوارة ، ثم تم اللقاء بين الجيشين في أرض سرت ، في موضع تاورغة ، فقتل أبو الخطاب وعدد كبير من أصحابه وانهزم الآخرون سنة 761/144 ، ثم خرجت زناتة للقاء ابن الأشعث بجيش قوامه 16 ألف جندي بقيادة أبي هريرة الزناتي (4) فهزمه ابن الأشعث .

في هذه الأثناء ، كان عبد الرحمن قد خرج لنجدة أبي الخطاب ، وما أن وصل قابس ، حتى بلغته أنباء الهزيمة ، فأنفض عنه جنده ـ وهم اباضيون ـ فعاد الى القيروان ، فوجدها ثائرة على عامله ، وفت في عضده هزيمة أبي هريرة ـ السابق الذكر ـ فأحتمل أهله وماله وثلة من أعوانه ولحق باباضي المغرب الأوسط « ونزل على قبيلة لماية لقديم حلف بينه وبينهم (5) وللأخوة المذهبية 144هـ/761م ، ويعتبر فراره هذا نقطة تحول في تاريخ الاباضية في المغرب .

مبايعته بالامامة :

كاد يقضي على دولة الاباضيين في المهد لولا نجاحه في تهيئته قاعدة آمنة للمستقبل في المغرب الأوسط ، فهناك اجتمع أتباع المذهب الاباضي في

---

(1) سعد زغلول عبد الحميد : **التاريخ** العباسي والاندلسي ، ص : 414 .

(2) الطبري : **تاريخ** الأمم والملوك ، ج1 ، ص 304 ، حوادث سنة 145 فجعلهم الشماخي 50 ألفا وقيل 70 ألفا ، أنظر : الشماخي : المصدر السابق ، ص : 131 الدرجيني : **الطبقات** ، ص 32 . ذكره القيرواني : العوام بن عبد العزيز البلخي ، ص 142 .

(3) ابن عذاري : **البيان** المغرب في أخبار المغرب ، مطبعة المناهل ، بروت 1947 ـ 1950 ، ج1 ، ص : 171 ، وقيل 90 ألفا . أنظر : الدرجيني : المصدر السابق ، ص : 33 . وبقي معه بعد وقوع النزاع 12 ـ 14 ألف جندي أنظر : الشماخي : **السير** ، ص : 132 ، وقد اتهمت زناتة أبا الخطاب أنه يحابي هوارة . أنظر : سعد زغلول : المرجع السابق . ص : 415 ، وحول مقتل أبي الخطاب أنظر : الدرجيني : **الطبقات** ، ج1 ، ص : 34 . الشماخي : **السير** : ص : 132 .

(4) لقبال موسى : المغرب الاسلامي ، ص 235 ط 1 الجزائر 1969 ، سعد زغلول : المكان السابق

(5) ابن خلدون : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** ، بيروت 1959 ، ج6 ، ص : 247 .

مكان اقامته في لماية وبايعوه أماما عليهم (1) ، لعدم اتفاقهم على رئيس منهم ولكونه لا قبيلة له تحميه ولعلمه ولتجربته في الحكم أضف الى هذا أنه أصبح الأخير من حملة العلم ، وبهذا فهورأس المذهب الاباضي في المغرب ، ويبدو أنه عرف سابقا كيف يجد أشخاصا من أبناء مذهبه ، بين تلك القبائل يعتمد عليهم ، فكانت مبايعته تتويجا لجهود مسبقة بذلها في تلك المنطقة ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها مبايعة بالامارة أولا سنة 144هـ/761م، تلتها مبايعة بالامامة (2) سنة 160 ـ 162هـ/ (6/777 ـ 8/779م) ، الا أنه من الواضح أنهما كلمتان بمعنى واحد ، هو رئاسة الجماعة دينيا ودنيويا ، وبذلك فان الأمر لا يعدو أن عبد الرحمن كان في سنة 144هـ اماما ضعيفا في دورالكتمان ثم قوى أمره بفضل جهوده ، وبمن قدم اليه من نفوسة وهوارة ، اثر هزيمتهم أمام يزيد بن حاتم ، فاستطاع الانتقال الى دور الظهور واعلان امامته في 162/160هـ ونظرا لقصر مدة حكمه في القيروان ، واهمال المؤرخين لها فقد نجيز لأنفسنا اعتبار بيعته الأولى في المغرب الأوسط بداية حقيقية لحكمه ، وكان الاباضيون في هذا الوقت قد رأوا وجوب بناء مدينة تكون عاصمة لهم (3).

بناء تاهرت (4) :

ليس هناك تحديد قاطع لتاريخ بناء مدينة تاهرت ، رغم أن بعض المصادر

---

(1) ابن ، الصغير : **تاريخ أخبار الأئمة** الرستميين : نشر موتيلنسكي .

(2) ذكر السلاوي : انهم بايعوه بالخلافة سنة 144هـ، أنظر: السلاوي : **الاستقصا** ج1،ص:115 وينقل موتلنسكي عن فورنيل :أن عبد الرحمن كان في هذا الوقت أميرا ، أنظر: أعمال المؤتمر السابق ج 3. ص :5، ويذكر أبو زكريا :أن امامته كانت 162/160هـ. المصدر السابق، ص: 7، وقد جعلها سليمان الباروني : 160هـ/776م ، أنظر **مختصر** تاريخ الاباضية ، ص : 37 ، بينما جعلها ابن عذاري : 161هـ/777م، أنظر المصدر السابق، ج 1، ص : 197 .

(3) أبو عبيد البكري : **المغرب في** ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر 1857، ص: 66 ـ 68 . كذلك ياقوت الحموي : **معجم** البلدان ج1،ص: 813، وحول مدينة تاهرت ، أنظر: جورج مارسيه: المعارف الاسلامية ج 4 ، ص : 525، انظر: كذلك جورج مارسيه ودسوس لامار.

(4) [illegible] : [illegible] **والمغرب** ، الجزائر 1857 ، ص : 66 ـ 68. كذلك ياقوت الحموي : **معجم البلدان** ، ج 1 ص : 813 وحول مدينة تاهرت أنظر : جورج مارسيه ، **تاهرت** : **دائرة** المعارف الاسلامية ج 4 ، ص : 525 ، انظر : كذلك جورج مارسية ودسوس لامار.

G. MARCAIS et DESSUS-LAMARE, *Tihart*, *Tagdemt*, p. 26.

قد جعلت سنة 144هـ ابتداء بنائها وذكر الرقيق القيرواني ، ان عبد الرحمن قد وصل تاهرت منهزما أثر حصار طبنة سنة 154هـ/771م، وهذا يعني اما أنها كانت قائمة في هذا التاريخ ، أو أنه يقصد أن عبد الرحمن قد وصل الى حيث قامت تاهرت فيما بعد (1) .

لقد كان نزول عبد الرحمن بمن معه على قبيلة لماية بناء على اتفاق مسبق كما سبق ، كما أن عدد هؤلاء المهاجرين لم يكن يتطلب مدينة خاصة بهم وهم لم يتأكدوا بعد من المستقبل الذي ينتظرهم والأرجح أنهم أقاموا بين أظهر القبائل الاباضية خاصة منها لماية ، كما كان يقيم عبد الرحمن مع صديقه أبي الخطاب في منطقة طرابلس ، ثم ازداد عدد هؤلاء المهاجرين بعد ذلك بمن وفد على عبد الرحمن ، وقد ذكر أبو زكريا أنه قد لحق بعبد الرحمن « ستون شيخا من شيوخ الاباضية من طرابلس(2) ، ثم وفدت أعداد هائلة من النفوسيين ، اثر هزيمة اباضيي جبل نفوسه ومقتل امامهم أبي حاتم (3) ، من قبل يزيد بن حاتم سنة 154هـ/771م ، ويبدو أنه لم يكن بالامكان أن يظل هؤلاء مشتتين بين قبائل اباضية في منطقة تاهرت ، فاتفقوا مع عبد الرحمن على « بنيان مدينة تجمعهم (4) وهذا يجعل من المرجح أن يكون بناء تاهرت قد وقع سنة 161هـ/ 777 ـ 778م(5) .

نزل عبد الرحمن بجماعته أرضا كانت غيضة أشبة ، فاختار منها موضعا مربعا لاشعراء فيه كان ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة ، في سفح جبل يدعى

---

(1) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص143 ويفهم مما ذكره ابن خلدون أن بناء تاهرت كان سنة 144هـ، أنظر : ابن خلدون : **العبر**، ج 6، ص : 225 .

(2) أبوزكريا : **السير**، ورقه 31 .

(3) هو أبو حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري ، أنظر الدرجيني ، المصدر السابق ، ص : 36 ، بينما ذكره أبو القاسم بن ابراهيم البرادي : بن لبيد ، وحول حروبه ، أنظر: نفس المكانين السابقين ، كذلك الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص: 143 ـ 146، أما اليعقوبي فقد ذكره «يعقوب بن تميم الكندي المعروف بأبي حاتم» أنظر: تاريخ **اليعقوبي** : دار الفكر ـ بيروت 1375هـ/1956م، ج 3، ص : 100 .

(4) البكري : المصدر السابق ، ص : 68 .

(5) ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص : 196 ، الزركلي : **الأعلام** ، ج5 ، مادة عبد الرحمن بن رستم

جزول (1) ، فاتفق معهم أن يبيحوا لأتباعه بنيان المساكن مقابل أن يأخذوا الخراج من الأسواق وقد أورد أبو زكريا رواية تتعلق بابتداء تأسيس المدينة تشبه ما نسج من روايات حول تأسيس القيروان ، ذلك أن عبد الرحمن أمر مناديا أن ينادي بسباع المنطقة ووحوشها يدعوها للخروج فشوهدت خارجة تحمل أولادها (2) ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يدرك أن هذا سيترك أثرا في نفوس البربر . فقد ذكر حسين مؤنس أن بعض البربر أسلم حين رأى عقبة يخرج الحيات من موضع القيروان (3)

دل عبد الرحمن على نظره باختياره المغرب الأوسط قاعدة له ،ونزوله منطقة تاهرت فهي بعيدة عن القيروان ، تفصل بينهما منطقة الزاب وجبال أوراس . وهي بمأمن من ضربات الأسطول البيزنطي لبعدها عن الساحل (4) . وفي موقع متوسط بين التل والصحراء ، وبذلك فهي حلقة وصل بين تجارة الصحراء وما وراء البحر على الطريق بين الشرق والمغرب الأقصى والأندلس . اضافة الى ذلك فهي تقع في منطقة خصبة ذات مناخ ملائم . كما أنه باختياره هذا الموقع يكون قد تخلص من مشكلة المياه ، فهي تقع على نهرمينة ونهر ناتش . وهناك عامل آخر على درجة كبيرة من الأهمية هو وقوعها في قلب منطقة تسكنها قبائل اباضية متعددة (5) .

ويتساءل المرء عن السبب الذي حال دون اتخاذه تاهرت القديمة عاصمة له . ويبدو أنه وجد معارضة من سكانها ، فقد ذكر البكري « إنهم لما أرادوا بناء

---

(1) ذكره صاحب كتاب الاستبصار جبل قرقل . أنظر: مؤلف مجهول : **كتاب** الاستبصار الاسكندرية 1958 ، ص : 178 .

(2) أبو زكريا : **السير** ، ص : 39 ، كذلك البكري : المصدر السابق ، ص: 68 ، الدرجيني : المصدر السابق ، ص : 41 .

(3) حسين مؤنس : **فتح العرب المغرب** ، ص : 273 .

(4) أرشيبالد : **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط** ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ص : 162 .

(5) حول هذه القبائل : انظر : خارطة تاهرت وضواحيها وحول اختيار موقع تاهرت . انظر : وكذلك أنظر : CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjisme Berberie*, Alger 1957, p. 64-65.
الحبيب الجنحاني : « **تاهرت عاصمة الدولة الرستمية** » ، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، عدد : 40 تونس 1975 ، ص : 11 ـ 14 .

تاهرت كانوا يبنون النهار فاذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة (1)، وربما أن عبد الرحمن قد جرى على عادة القادة المسلمين في تأسيس مدن اسلامية بحتة كالقيروان .

ومهما كان الأمر ، فان الاباضيين شرعوا في البناء ، وقد ذكر البكري أنهم بنوا في ذلك الموضع «مسجدا وقطعوا خشبة من تلك الشعراء (2) كما ذكر ابن الصغير أن وفد البصرة قد وجد بباب عبد الرحمن « غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شِقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح به » (3) وبذلك يكون بناء تاهرت من خشب وطين ، وهذه البساطة في البناء تتفق وسياسة عبد الرحمن القائمة على التقشف والتواضع (4) . وقد رافق شروعهم في البناء والعمارة ، أحياء الموات وغرس البساتين واجراء الأنهر ، واتخاذ الرحى وغير ذلك ، واتسعت المدينة « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار » (5) وهكذا بدأت حركة عمرانية في تاهرت رافقها ازدهار اقتصادي ، واستمرت على ذلك ، فكثرت الأموال « فتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع » (6) ، والى جانب هذا ، فان الدور كانت تتألف كل منها من عدة بيوت (7) . وذكر ابن حوقل أن لسكان تاهرت « مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم » (8) الا أن اليعقوبي يذكر أن « شرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قبلي يقال له جزوْل » (9) ، وبذلك فان ما ذكره ابن حوقل لا ينطبق على تاهرت الرستمية .

---

(1) البكري : **المغرب** ، ص : 66 .
(2) المصدر نفسه ، ص : 68 .
(3) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 11 .
(4) كان أثاث منزله : حصير فوقه جلد ، ووسادته التي ينام عليها ، وسيفه ورمحه وفرسه ، أنظر : نفس المكان .
(5) المصدر نفسه ، ص : 17 .
(6) المصدر نفسه ، ص : 26 .
(7) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 46 .
(8) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 86 .
(9) اليعقوبي : **البلدان** ، مطبعة بريل – ليدن ، ط2 ، 1892، ص: 358.

وقد جرت العادة في بناء المدن الاسلامية أن يبني المسجد الجامع أولا . ثم تقام بجانبه دار الامارة والسوق ، ويبدو أن الرستميين قد خرجوا عن هذه القاعدة فقد بنوا المسجد الجامع أولا حقا . لكن ابن الصغير لا يشير الى وجود دار امارة في تاهرت . فقد ذكر أن عبد الرحمن كان يصرف أمور الناس في المسجد الجامع (1) وأشار الى وجود دار الزكاة ودار القضاء (2) . كما وجد في تاهرت عدة أسواق . وربما يعود ذلك الى أن كل جماعة سكنت منفصلة عن الأخرى ، لها مسجدها الخاص . فتكون قد أقامت لها سوقا خاصا بها كذلك .

وقد ذكر البكري أن « لتاهرت قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة (3) . وقيل أن المعصومة هي مكتبة تاهرت ، الا أن اليعقوبي وابن الصغير لم يشيرا الى وجود قلعة أو مكتبة بهذا الاسم ولا الى وجود قصبة في تاهرت ، مع أنهما ذكرا عددا من الحصون والقلاع المحيطة بها مثل اسكدال وتسلونت وحصن لواته . فقد ورد في قول ابن الصغير أن محمود بن الوليد ـ ثائر بتاهرت ـ قد صعد الى أعلى موضع في المدينة يعرف « بالكنيسة » (4) وأضاف أن أبا اليقظان « أتى الظاهر المشرف على المدينة المعروفة بقلعة نفوسة » (5) وربما كان هذا ما دعا لقبال موسى أن يرى بأن بعض المنشآت التي ورد ذكرها عند الجغرافيين والرحالة العرب ، كقلعة المعصومة ، قد ظهرت في فترات متأخرة عن العهد الرستمي (6) .

---

(1) حين قدم وفد البصرة بهدية من أباضية المشرق الى أباضية المغرب ، قال لهم عبد الرحمن : « نخرج الى المسجد الجامع ، نصلي بالناس ، ونعلمهم بماجئتم به » وتم ذلك . أنظر: ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 12 .

(2) المصدر نفسه ، ص : 25 ؛ 43 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 66 . حول ما يقال عن مكتبة المعصومة وحرقها . أنظر: لقبال موسى : **من قضايا التاريخ الرستمي** ، مجلة الاصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر عدد : 41 جانفي 1977 ، ص : 51 ، 59 .

(4) تطلق الكنيسة على دارابني دبوس : أحمد ومحمد ، انظر : ابن الصغر ، المصدر السابق ، ص : 55 .

(5) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 41 .

(6) ذكر لقبال موسى : « ان بناء قلعة المعصومة ربما تم في العهد الفاطمي » ، أنظر: المرجع السابق ، ص : 58 .

وفيما يتعلق بسور تاهرت فان اليعقوبي يصف تاهرت نقلا عن أبي معبد الرستمي دون أن يشير الى احاطتها بسور (1) ، ويمكن أن يفهم هذا من ابن حوقل فقد وصف تاهرت القديمة بأنها ذات سور ، لكنه حين ينتقل الى وصف تاهرت الحديثة لا يشير الى مثل ذلك (2) ، الا أن ابن الصغير يشير الى وجود أبواب للمدينة ، فذكر باب الصفا بقوله عن دخول وفد البصرة تاهرت : «دخلوا من الباب المعروف بباب الصفا »(3) ، وأضاف أن يعقوب بن افلح أمر « بأبواب المدينة فغلقت الا باب واحدا » (4) ، وهذا يعني أن تاهرت كانت محاطة بسور ، وليس من المستبعد أن يكون الرستميون قد تأثروا بفن البناء المعماري القروي ، فقد ذكر اليعقوبي أن القيروان مدينة : « كان عليها سور من لبن وطين فهدمه زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب »(5) ، وقياسا على ذلك ، يصبح من المحتمل أن يكون سور تاهرت من لبن وطين ، ويمكن أن يكون هذا أمرا مقبولا مادام الرستميون قد انتهجوا سياسة المسالمة وحسن الجوار ، وأهملوا الناحية العسكرية ـ كما سيأتي ـ ثم جعلوا تاهرت مركزا تجاريا مفتوحا للجميع . وبذلك لم يكونوا بحاجة الى تلك التحصينات كبناء سور وقصبة من الحجر ، وهذا لا يتفق وما أسفرت عنه حفريات

---

(1) اليعقوبي : نفس المكان (البلدان ، ص : 358).وأبو معبد هو عبد الرحمن ابن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن رستم .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 86 .

(3) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 11 . أورد البكري هذا الباب على صورة «الصبا». أنظر : البكري ، المصدر السابق ، ص : 66 . أنظر : كذلك رشيد بورويبة : **الفن الرستمي** : تاهرت وسدراته» : الاصالة ، عدد 41 ، جانفي 1977،ص:184. ومن المرجح أنه على الصورة التي وردت عند ابن الصغير ، اذ بما أنه الباب الشرقي ، فربما قصد به باب الحج مثلما قيل باب الأندلس . وربما تيمنا بباب الصفا ، أحد أبواب مكة .

(4) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 55 وربما كانت هذه الأبواب هي : باب الصفا ، وباب المنازل ، وباب المطاحن ، أنظر: البكري : المكان السابق رشيد بورويبة ، المكان السابق . أنظر كذلك : القلقشندي نقلا عن العزيزي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 111 .

(5) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص :8. وكانت مدينة فاس« بناؤها مداد وحصنها طوب » أنظر : أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، مطبعة بريل، ليدن، ط2، 1906، ص : 229 .

الأثريان جورج مارسيه ودسوس لامار (1) G. Marçais et bessus-Lamare فقد أكتشفا عدة مباني‌ء ومطامير وقطع فخار ، ومن هذه المباني‌ء سور المدينة والقصبة ووصفاهما الأثريان بأنهما من الحجر والملاط ، وبناء على ما سبق ذكره ، يبدو أن هذه المكتشفات ترجع الى فترات متأخرة عن العهد الرستمي .

ومهما كان الأمر ، فان تاهرت اتسعت وتطورت ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي(2)،« كما قدم اليها الاباضيون من الجزيرة العربية وفارس » .

وذكر الشماخي أنه :« انتقل اليها أهل الأموال والتجار من مصر وافريقية والمغرب »(3) ووفد عليها جماعة من الأندلس كما سكنها مسلمون ومسيحيون ويهود ، وسكنها من أصحاب المذاهب : سنيون وشيعة وصفرية ومعتزلة وجموع الاباضيين .

ويظهر ازدهار تاهرت وتطورها الاقتصادي في نواحي مختلفة ، فمن الناحية الزراعية ، فان المقدسي يصف تاهرت بأنها « التفت بها الأشجار وغابت في البساتين» (4) الكثيرة الموفقة ، والفواكه الحسنة والسفرجل الذي ليس له نظير(5) ، فكانت مدينة واسعة البرية والزروع والمياه (6) ، ومن مزروعاتها ، العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب .

---

(1) نشرت نتائج الحفريات في . G. Marçais et Dessus-lamare, *op. cit.*, pp. 24-57.
Rachid Bourouiba, *Tahert à l'époque rostémide*, Algérie-Actualité, n° 495, 1975, pp. 14-17.

(2) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 13 .

(3) الشماخي : السير، ص : 158.

(4) المقدسي ، : أحسن التقاسيم ، ص : 229 .

(5) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج5، ص : 111

(6) الاصطخري : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، دار القلم ، القاهرة ، 1961 ، ص : 34 .

واعتنى سكان تاهرت كذلك بتربية الماشية حتى أصبحت « أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » (1) .

ومن الناحية الصناعية كانت يدوية بسيطة ، صنعوا المنسوجات والزجاج والفخار والمصنوعات الخشبية والحديدية كالأسلحة والأقفال والأواني المختلفة ، وصنعوا المنتوجات الحيوانية ، واشتهرت تاهرت بتجارتها ـ كما سيمر ـ فنظم الرستميون الأسواق وجعلوا لكل حرفة سوقا ، وعينوا المحتسبين ، فعمرت أسواقها وكثرت حماماتها وخاناتها ، حتى غدت قاعدة المغرب الأوسط « لمكانتها الدينية وتقدمها الاقتصادي » (2)

هكذا نجح عبد الرحمن بن رستم وأتباعه في خلق نواة جديدة لمملكة اباضية أصبحت القطب الذي تجمع عليه الاباضيون ، وكانت بمثابة تحد للقيروان والخلافة في الشرق ، وايذانا بتصميم الاباضيين على تأسيس دولة خاصة لهم ، وربما قصد عبد الرحمن تخليد نفسه ببناء مدينة ، كما درج على ذلك كثير من رجال العصور الوسطى .

فلسفتها السياسية :

هناك مبادىء تحكمت في سياسة الرشميين :

- **دعوة اباضية :**

تعتبر حادثة التحكيم ابتداء ظهور الخوارج ، الا أنه يمكن الرجوع بنشأتهم الى أيام الرسول الأولى ، ذلك أن أحد رجال بني تميم وهو ذو الخويصرة حرقوص التميمي قد طعن الرسول في عدله عند تقسيم غنائم خيبر ، فهم عمر بن الخطاب بضربه لولا تدخل الرسول (3) ، وهذا الموقف لم يكن غريبا من قبيلة قال أحد شعرائها :

---

(1) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 86 .

(2) G. Marçais, *La berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, **Paris. 1946, p. 104.**

(3) الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** ، حوادث سنة 8هـ ، ج 3 ، ص : 1682 ، وأضاف بأن سعد بن عبادة ـ من الأنصار دخل على رسول الله فقال :«يا رسول الله هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في=

اذا غضبت عليك بنـو تميـم حسبت الناس كلهم غضـابا

ويبدو أن علاقتها بقريش لم تكن حسنة ، فقد قال بعض القريشيين : (1)

اذا ماكنت متخذا خليـلا فلا تجعل خليلك مـن تميـم

وان من يتتبع زعماء الخوارج يجد أنهم ينتمون في الغالب الى تميم وكندة والأسد والى قبيلة طي ، ومراد ومعافر (2) وهي قبائل يمنية ذات حضارة وملك ، وهي بطون بني كهلان الذين شاركوا اخوتهم الحميريين الملك ، ثم أنفردوا به بعد تقلص ملك حمير (3) ، وهذا يعني أنهم كانوا يشعرون بأنهم لا يقلون مكانة عن قريش فبدأوا ينافسونها على الزعامة . ويبدو أنهم عجزوا عن نقل الرئاسة الى بيوتهم فرأوا انتزاعها من بيت بني هاشم ـ أكبر بيوت قريش ـ كخطوة أولى نحو انتزاعها من قريش عامة ، فمالوا الى المهاجرين والأنصار (4) الذين بايعوا أبا بكر (5) .

التزمت تلك القبائل الهدوء طيلة خلافة أبـي بكر وعمر ، نظرا لما عرف عنهما من العدل والاستقامة ، لكنهم ثاروا على عثمان ووالوا عليا الى أن كانت قضية التحكيم . ويفهم سبب ذلك من قولهم لابن الزبير عن عثمان أنه آثار القربى وأخذ

= أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء»» ، أنظر : نفس المصدر، ج3، ص: 1684. والمعروف أن الأنصار هم من الأوس والخزرج وهم من الأزد ، أنظر : أبو الفداء : **مختصر تاريخ البشر** ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ج1، ص: 127. وحول « ذو الخويصرة » أنظر كذلك : المبرد : **الكامل**، باب الخوارج، ط2 ، منشورات دار الحكمة ، دمشق 1972، ص: 30 ـ 31 .

(1) المبرد : المصدر السابق ، ص : 19 .

(2) أمثال : قطري بن الفجاءة وعبد الله بن الصفار وبنو الماحوز من تميم ، والأشعث ابن قيس وصالح بن مسرح وعبد الله بن يحيى من كندة ، وأبو حمزة المختار وعبد الله بن وهب الراسبي وحوثرة الأسدى من الأسد ، وعبد الرحمن بن ملجم من مراد ، وأبو الخطاب بن السمح المعافري ، وحابس الطائي .

(3) عمر رضا كحالة : **معجم قبائل العرب** ، ج3 ، ص : 1002 مادة كهلان بن سبأ .

(4) أبو يعقوب يوسف الورجلاني : **الدليل والبرهان** ، ط . القاهرة ، 1306هـ ، ج1 ، ص : 35 .

(5) أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : **البدء والتاريخ** ، ط 2 ، مكتبة الأسدى ، طهران 1962 ، ج5 ، ص 135 .

الفيء فقسمه في فساق قريش ومجان العرب (1) وغير ذلك ، وواضح من قولهم نظرتهم السياسية والدينية والاقتصادية .

لم يستمر ولاؤهم لعلي ، بل خرجوا عليه عند قبولة التحكيم ، مع أنهم كانوا حرضوه على قبوله (2) ولم تجد مجادلات ابن عباس لهم وافهامهم (3) ، فخرجوا على علي وانشقوا عنه ، ويبدو أن التحكيم لم يكن السبب الرئيسي لخروجهم عليه ، فمن المحتمل أن خروجهم كان لخلاف بينهم وبينه ، فربما أنهم رأوا في عقد الصلح بين علي ومعاوية عجزهم عن السيطرة على الدولة الاسلامية (4) ، وربما خرج البعض ، لأن عليا كان في موقف يبشر بالنصر ، وقبوله التحكيم يعني حرمانهم من الغنائم (5) .

كان أبو بكر قد أمد المثني بمن حسنت توبته من المرتدين لأنهم أكثر حماسة في القتال وبمن قدم عليه من عشائر اليمن (6) ، ثم أمد عمر جيش سعد بألفي يماني وألفي نجدي من غطفان وقيس ، وانتخب سعد استعدادا للقادسية من بني تميم والرباب أربعة آلاف ومن أسد ثلاثة آلاف ، كما قدم العراق بعض جند الشام بعد معركة اليرموك وفتح دمشق ، ومعظمهم من همذان ومراد (7) ، وهذا أوجد في العراق بيوت شرف ترى أنها دخلت الاسلام وجاهدت ، لكن قريشا استأثرت بالزعامة ، فأنفوا من طاعتها واتهموها بالظلم ، وطالبوا بالمساواة بين جميع القبائل .

---

(1) الطبري : المصدر السابق وحوادث سنة 65 ، ج7 ، ص : 516 ، كذلك ، الزركلي : **الاعلام** ، مادة : نافع بن الأزرق ، ج 8 ص 315 .

(2) أبو الفداء : المصدر السابق ، ج 2، ص : 88 _ 89 .

(3) أبو عبيد القاسم بن سلام : **كتاب الأموال** ، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي ، نشر المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة 1353هـ ، ص : 159 .

(4) علي حسن الخربوطلي : **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي** ، دار المعارف بمصر ، 1959 ، ص : 58.

(5) أبو الفداء : المكان السابق . لقد حرم علي أتباعه من غنائم معركة الجمل ، وقد كان هذا الأمر أحد ثلاثة أمور نقموها عليه وخرجوا عليه بسببها _ كما ذكر ابن اسلام _ فقال : «...وأما الأخرى فانه قاتل ولم يسب ولم يغنم » ، أنظر : ابن سلام : المصدر السابق ، ص : 159 .

(6) اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ج2 ، ص : 90 .

(7) علي حسن الخربوطلي : المكان السابق .

وقد ذكر ابن سلام قول أبي بكر « فاما هذا المعاش فالتسوية فيه خير » وقال عمر بن الخطاب: « لئن عشت الى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم » (1) ، أما عثمان فكان كما أشرنا سابقا واستأثر عماله بالفيء والغنائم لأنفسهم فقد قال سعيد بن العاص : انما هذا السواد بستان قريش ، فقال له الأشتر : تزعم أن السواد الذي افاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك .

وكان علي يوزع كل ما يصله من مال ، فلا يخزن في بيت المال ، فقد أتاه مال من أصفهان ، فقال : أغدوا الى عطاء رابع اني لست بخازن ، ويروي عنه التسوية (2) وبمجيء الأمويين بدأ العراق يفقد كثيرا من الامتيازات التي نالها في عهد علي ، ذلك أن الأمويين كانوا بحاجة الى مزيد من الأموال لتثبيت أركان دولتهم ، واسكات المعارضة ، فاشتطوا في جمعها ، فنقم الناس عليهم تلك السياسة.

لم يظل الخوارج من العرب ، بل انضم اليهم الموالي (3) ، فقد انتقل أربعة آلاف فارسي الى البصرة ، ثم انتقل اليها جماعة من أصفهان وانضموا الى بني تميم ، فقد كان من يسلم من الفرس يدخل في ولاء قبيلة عربية ويتعصب لها ، ويبدو أن نسبة كبيرة من الفرس قد تحالفت مع قبائل اليمن ، ابان حكمهم له . فقد ذكر ابن سلام قبائل الأسد أو الأزد « هم قوم من الفرس في هذا المعنى وفي الرواية الأخرى من العرب » (4) ، ويبدو أن هؤلاء الموالي لم يعاملوا على قدم المساواة مع العرب في عهد الأمويين ، فكانوا يحاربون بلا عطاء ، بل انهم استمروا يدفعون الجزية ولم تسقط عنهم بالاسلام (5) كان الموالي يعتبرون من

---

(1) ابن سلام : المصدر السابق ، ص : 263، 264.

(2) ابن سلام : المصدر السابق ، ص : 264 ، 270 ، 271 ناجي حسن : **الأثر الاقتصادي في الحياة السياسية في صدر الاسلام والعصر الأموي** ، المؤرخ العربي الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ، بغداد 1975 ، عدد 2 ص : 232 ـ 233 .

(3) علي حسن الخربوطلي : المرجع السابق ، ص : 290، عمر أبوالنصر : **الخوارج في الاسلام** ، ص : 38 .

(4) ابن سلام : المصدر السابق ، ص : 21، ذكر أنهم سموا بالأسبذيين وكانت تطلق عليهم العامة الأزديين ويطلق عليهم أهل العلم الأسديين ، نفس المكان .

(5) المصدر نفسه ، ص : 48، فقد ذكر أن الأمويين أو بعضهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم« فلا يسقط اسلام العبد عنه ضريبته »..

الناحية الاجتماعية في درجة أقل من العرب ، ويظهر هذا في قول عربي عن مهمة الموالي ، بأنهم « يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (1) ، والى جانب هذا ، فان تعصب الأمويين بعروبتهم ، وخروجهم عن الدين أحيانا ، والصراعات العربية بدافع العصبية ، قد كان له رد فعل لدى الموالي ، فظهر منهم من يحن الى أيام دولتهم الفارسية سواء من موالي العراق أوفرس اليمن .

نتيجة لما تقدم ، فقد بدأت نفوس الموالي تنزع للثورة ، وأعجبتهم مباديء الخوارج التي تدعو الى المساواة والديمقراطية ، والتقت الأهداف ، فمالوا اليهم ، وشاركوهم الثورة على الأمويين ، ومن أولئك وهؤلاء كان حزب الخوارج .

كان هؤلاء الخوارج على رأي واحد لا يختلفون الا في الشيء الشاذ من الفروع ، الى أن دب الخلاف بينهم حول مسألة الاستعراض – بمعنى قتل أطفال المخالفين ونسائهم – فافترقوا سنة 65هـ (2) وكان الأزارقة (3) – أتباع نافع ابن الأرزق – أكثر الخوارج تطرفا ، وككل حركة ظهرت فيها جماعة متطرفة ، فلابد أن يظهر بها جماعة معتدلة هي جماعة الاباضية التي أنكرت الاستعراض .

يعتبر المذهب الاباضي أول المذاهب الفقهية في نشأته ، فهو يعود الى امام المذهب أبي الشعثاء جابر بن زيد ، الذي أخذ العلم عن ابن عباس وعائشة (4) ثم انتقل الى تلميذة أبي عبيدة فأخذه منه حملة العلم ، وكان يطلق على أتباعه « أهل الدعوة » أو جماعة المسلمين ، حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، فنسب

---

(1) علي حسن الخربوطلي : المرجع السابق ، ص: 258. لقد كان أبو عبيدة – امام المذهب الاباضي بعد جابر – قفافا ، أنظر : الدرجيني : المصدر السابق ، ص: 20. وكان من موالي بني تميم : أبو يعقوب يوسف خلفون المزاتي : أجوبة ابن خلفون تحقيق عمرو خليفة النامي ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1394هـ/1974م ، ص : 107.

(2) الطبري : المصدر السابق ، حوادث سنة 65هـ ، ج 7 ، ص : 519 ، عمر أبو النصر : المرجع السابق ، ص : 81 – 82 .

(3) أبو الحسن محمد بن أحمد الملطي : **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع** : استانبول ، مطبعة الدولة 1936م ، ص : 135 .

(4) السالمي عبد الله بن حميد : **اللمعة المرضية من أشعة الاباضية** ضمن مجموع ست كتب ، المطبعة العربية 1968 ، ص : 57 .

الى عبد الله بن اباض (1) ، وينكر الاباضيون اليوم انتماءهم لمذهب الخوارج ، الا أن أمهات الكتب تنص صراحة على أنهم من الخوارج (2) ثم انفصلوا عنهم لاختلافهم في المواقف الكلامية والسياسية .

وفي المغرب الاسلامي ، فان المسلمين قد انتصروا على الروم والافارقة (3) ، ومن تحالف معهم من البربر واعتبروهم أعداء ، فاستباحوا أموالهم واعتبروها غنائم ، وقضوا على ملكهم ، وقد أدى هذا الى اثارة نقمة هؤلاء ضد الفاتحين ، وبدأوا يتلمسون الوصائل المختلفة لاسترداد ما ضاع منهم ، ويبدو أن من بقي منهم في المغرب الاسلامي ، قد لعب دورا رئيسيا في ثورات المغرب ، الا أنهم ما كانوا يستطيعون ذلك لولا ظهور بعض الظروف كاضطراب أحوال المشرق ، وسوء ادارة بعض ولاة المغرب ، وانتقال مذهب الخوارج الى المغرب (4) .

لقد كان مصير هؤلاء ـ الروم والأفارقة — أما الهروب من المغرب أو دفع الجزية (5) والرضوخ لحكم المسلمين ، واما اعتناق الاسلام ، وقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن معظم سكان مدن منطقة الجريد كقسطيلية ونفطة والحامة هم من بقايا الروم الذين كانوا قبل الفتح وأسلموا على أموالهم (6) ، ويبدو أن هؤلاء كانوا وراء الثورات التي شهدتها تلك المنطقة .

---

(1) توفي سنة 86هـ الموافق 705م ، أنظر : الزركلي : **الأعلام** ، مادة عبد الله بن اباض ، ج5 ، ص : 184 .

(2) عبد الباقي ابراهيم محمد : **الدين والعلم والحديث** ، ص : 263 ، الطاهر الزاوي : **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** ، ص : 122 ، وحول انتمائهم للخوارج أنظر : قدامة ابن جعفر : **كتاب الخراج وصنعة الكتابة** ، ص : 265« وهي في يد صاحب الاباضية وهم ضرب من الخوارج » .

(3) الأفارقة أجانب استوطنوا افريقية (المغرب الأدنى) وكانوا على علاقة حسنة مع الروم ، وقد وضعهم العرب بمنزلة الروم . أنظر : حسين مؤنس : **ثورات البربر** ، ص : 153 ـ 154 .

(4) حول انتشار مذهب الخوارج في المغرب الاسلامي . أنظر : علي الشابي : **نشوء المذهب الخارجي بافريقيا** ، مجلة الفكر ، جوان 1967 لقبال موسى : الحركة الخارجية : المجاهد الثقافي ، مارس 1968 .

(5) ذكر الرقيق القيرواني أن حسان « كتب الخراج على عجم افريقية وعلى من أقام على النصرانية من البربر والروم ، المصدر السابق ، ص : 64 .

(6) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص 156 ـ 157 .

والى جانب هؤلاء كانت هناك بعض القبائل تطمح للسيطرة على غيرها ، ويبدو أنها فشلت فرأت الانتماء الى مذاهب الخوارج ، واعتبرتها وسيلة تنضوي القبائل الأخرى باسمها ، تحت قيادتها ، ورأت هذه القبائل في العرب عائقا وخصما سياسيا يحول دون تحقيق أهدافها ، ويظهر أنها قد أسندت هذه المهمة لزعمائها ، فرجل مثل أبي قرة كان أميرا ولاشك ، وربما أن بعض شخصيات المغرب قد أخذت تنافس العرب في حكمهم ، فلجأت الى قبائلها تستثيرها ، بل ان بعضهم كان مغاليا فتشبه بمسيلمة الكذاب الذي « ادعى النبوة استقلالا ثم مشاركة مع النبي » (1) فقد ذكر السلاوي أن عاصم بن جميل « كان كاهنا يدعي النبوة » (2) وذكر ابن خلدون صالح بن طريف وادعاءه النبوة ، ورأى أنه « انتحل ذلك عنادا ومحاكاة لما بلغه شأن النبي » (3).

كانت هناك نقمة اقتصادية في المغرب الاسلامي على ولاة القيروان ، ولم يكن دافعها ما قيل عن استئثار العرب بالأراضي الخصبة ، لأن العرب حصلوا عليها من يد الروم كأرض فتحت عنوة في حين كان البربر في الجبال قبل ابتداء الفتح الاسلامي ، بل كان مصدر هذه النقمة ، سوء أدارة الولاة الاقتصادية ، ذلك أنهم اشتطوا في جمع الضرائب ، تطبيقا لسياسة الخلافة المالية ، كما اعتاد هؤلاء الولاة أن يكثروا من التحف والهدايا الى الخلفاء مرضاة لهم ، كبشر بن صفوان ، لذلك أقدم بعضهم على تطبيق نظام سيء للضرائب ، فقد وضع يزيد بن أبي مسلم الجزية على من أسلم من أهل الذمة منها تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق فقتله البربر(4) كما أن عمر بن عبيد المرادي — والي ابن الحبحاب على طنجة — « تعدى في الصدقات والقسم وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين » (5) ، فنفرت

(1) أبو الفداء : المصدر السابق ، ص : 65 .

(2) السلاوي : **الاستقصاء** ، ج 1 ، ص : 109 .

(3) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 429 ، وجاء في تعليق حسين مؤنس **حول نص** جديد لفتح العرب للمغرب ، أن ابن طريف كان اسرائيليا ، أنظر : صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد — الادارة العامة ، الثقافة العامة — مصر — 1373 / 1954 عدد 1 — 2 ، ص : 224 .

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج4 ، ص : 403 ، وحول اهتمام الولاة بالهدايا ذكر السلاوي أنهم « كثر عبثهم بذلك في أحوال البربر ، فأجمعوا الانتقاض » ، أنظر السلاوي : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 95 .

(5) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 109 ، ابن خلدون **العبر** : ح 4 ص : 405 .

قلوبهم عنه ، واتفقوا على الانتقاض ، شجعهم على ذلك ، بعدهم عن القيروان ، وخروج جيوش المسلمين الى صقلية ، وانتشار مذاهب الخوارج بينهم .

وكان الى جانب ما تقدم دافع اجتماعي ، يظهر في صراع البربر من أجل مساواتهم بالعرب (1)، فقد أقبلوا على الاسلام ، خاصة الزناتيون منهم ، وكلهم أمل في « أن يكون لهم في دولة نصيب فخيب العرب آمالهم بهذه السياسة العصبية التي انتهجوها » (2) وتتضح في رسالة البربر الموجهة الى الخليفة هشام ابن عبد الملك ومنها ، « أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا أصاب نفلهم دوننا ... واذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا وأخر جنده ... »(3) كما أن انتشار الحركة الخارجية « طغام البربر » (4) لدليل على أن هناك طبقة اجتماعية تسعى لرفع مكانتها ، فقد كان ميسرة المدغري أو المطغري سقاء في القيروان ، ومن رواد المجالس العلمية فيها ، وهناك استهوته مباديء الصفرية فاعتنقها .

هكذا أدت دوافع مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية ، الى ارتماء جماعات مختلفة من البربر في أحضان المذاهب الخارجية ، للقيام على الحكم العربي ، وربما يفسر هذا فعل ورفجومة ، عند دخولها القيروان ، على أن هذا ليس أمرا شاملا ، فقد أقبلت بعض قبائل زناتة على الاسلام ، ولما لم تقم القيروان بنشر تعليم الدين واللغة بشكل فعال بينها ، وجدت هذه القبائل في دعاة الخوارج معلمين مجدين ، فأقبلت عليهم ، وازدادت اقبالا باعجابها بمباديء الاسلام ، وبما أظهره الدعاة من تقوى وتمسك بالدين ، ويبدو أن هذه القبائل لم تحفل بأمر الثورة على القيروان ، كما هو الأمر في قبائل منطقة تاهرت ، اذ أن اعتناقها

---

(1) ربما من أجل هذا وضعت أحاديث نسبت للرسول في مدح المغرب : أنظر : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني : **طبقات علماء افريقية وتونس** ، تقديم وتحقيق : علي الشابي ونعيم حسن اليافي ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس : 1968 ، ص : 63 ـ 65 . كذلك الدرجيني : المصدر السابق ج 1 ص : 15 ـ 19 ، كما يبدو أنه سبب انتساب بعض المغاربة الى العرب كبهلول بن راشد : أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 134 .

(2) المالكي : **رياض النفوس** ، مقدمة الكتاب بقلم حسين مؤنس ، ص : 15 . كذلك : حسين مؤنس : **ثورات البربر** ، ص : 153 ـ 154 .

(3) الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** ، ج 4 ، ص : 255 .

(4) ابن خلدون : **العبر** : ج 6 ، ص : 221 ، كذلك السلاوي : **الاستقصاء** ، ج1 ص : 95 .

المذهب الاباضي المعروف باعتداله ، لدليل على أن الثورة لم تكن شغلها الشاغل، ويبدو أن هذا ماجعل حسين مؤنس يشك في نسبة ثورات المغرب الى الخوارج(1). هذا يعني أن احتجاج سكان المغرب الاسلامي على السياسة العربية ـ السابقة الذكر ـ كان يأخذ شكل صدام مباشر مع القيروان كما فعلت الصفرية ، أو شكل الاستقلال عن القيروان واقامة مجتمع يسوده نظام اجتماعي خاص ، يتحقق فيه العدل والمساواة ، كمحاولة قبائل تاهرت .

وكان للاباضيين مواقف ومباديء في أمور الشرع والدين ، فهم يرون أن الامامة حق لكل مسلم تتوفر فيه شروطها ، أي دعوتهم الى المساواة والديمقراطية ، وأن أرض المسلمين من غيرهم أرض توحيد ، تجوز الاقامة بينهم والتعامل معهم ، في حين تكون أرض السلطان الجائر أرض حرب ، وتجب محاربته ، لذلك نراهم لا يقرون الا بامامة أبي بكر وعمر والسنين الأولى من خلافة عثمان ، وامامة علي الى قبوله التحكيم ، واما دار الشرك فيجيزون الاقامة فيها اذا كان المسلم يتوصل لأداء شعائر دينه ولو سريا ، لكنهم لا يحبذون السفر اليها والاجتياز فيها (2)، فقالوا بأن قبور من مات فيها لا ينظر الله اليها يوم القيامة ، وأما موقفهم من أهل الكتاب فيدعون الى التوحيد أو الجزية أو الحرب (3)، ويرون أن القرآن مخلوق ،ولا يمكن رؤية الله وصفاته ليست زائدة على ذاته ، وأن الله لا يغفر الكبائر الا اذا تاب مرتكبها قبل الموت ، وهو يعتبر كافر للنعمة ، وهم لايؤمنون بمنزلة بين المنزلتين ، ويقولون بالقعود (4) .

لم تتوقف جهود زعماء المذهب في البصرة على الأمور الكلامية ، بل انتقلوا الى أعمال العنف والحرب ، بدعوى انتشار ظلم وجور خلفاء الدولة الأموية ،وأن

---

(1) « وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات الى الصفرية والاباضية » حسين مؤنس: **ثورات البربر** ، ص : 155 .

(2) طفيش محمد بن يوسف : **شامل الأصل والفرع** ـ المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1929 ، ص : 259.

(3) الورجلاني أبويعقوب يوسف: **الدليل** ، ج 3 ، ص 52 ـ 53 .

(4) سترد بعض مبادئهم في مواضع أخرى فيما بعد .

عليهم القيام لتغيير هذا الوضع ، فبدأوا بنشاط سياسي وعسكري (1)، حتى رأت الخلافة بهم خطرا على أمن الدولة ، فوجهت اليهم ضربات قاسية ، جعلتهم يتشتتون في أطراف الدولة الاسلامية ، في حين دخل بعضهم دور الكتمان في البصرة كأبي عبيدة .

نشر الفارون الى حضرموت واليمن المذهب ، ومن هناك قدم حملة العلم الى أبي عبيدة في البصرة مثل أبي أيوب وائل الحضرمي (2) ، وحين اشتدت سواعدهم قاموا بانتفاضات ثورية ، فاحتلوا في فترة من حروبهم مكة ، ونجحوا أخيرا في تأسيس أمامتهم الاباضية الأولى في حضرموت 129هـ/7ـ746م بزعامة عبد الله بن يحي طالب الحق ـ وكان قيامها نتيجة جهود مختلفة لعب فيها أبو عبيدة دورا رئيسيا فكان الرأس المدبر والمنظم للجماعة الاباضية/ واستطاع بعلمه وذكائه أن يحسن تعبئة الوافدين اليه من حملة العلم ، كما أرسل الى عبد الله بن يحي عددا من مشائخ أباضيي البصرة لمساعدته في تنظيم الامامة ، ومدهم بمساعدات مالية وأسلحة (3)، ومما يظهر دور أبي عبيدة في نجاح الاباضيين في الجنوب ، ذلك الاجتماع الذي عقد في منى ـ قرب مكة ـ بعد مقتل عبد الله بن يحي ورفاقه ، بسبب اختلاف الاباضيين حول من يخلفه ، وضم الاجتماع أبا عبيدة وحاجب الطائي وغيرهما من مشائخ أباضيي البصرة من جهة ، وعلماء وفقهاء حضرموت من جهة ثانية ، ويبدو أن هذا الاجتماع كان لبحث تنظيم الدولة الاباضية هناك (4) .

وفي عمان انتشر المذهب بمن وصلوها كتجار ونحو ذلك ، بالاضافة الى حملة العلم العمانيين أمثال منير بن النير ، وبشير بن المنذر ، وموسى بن أبي جابر ، ومحمد بن المعلا (5) ، الذين أخذوا العلم عن أبي عبيدة والربيع بن حبيب ، ويبدو أن الاباضيين هناك نجحوا في تأسيس امامة اباضية برئاسة الجلندي

---

(1) قام الاباضيون بنشاطهم العسكري مع بقية الخوارج قبل انقسام هؤلاء الى فرقهم المعروفة ، أما بعد ذلك فكانت أول ثورة لهم بزعامة عبد الله بن يحيي سنة 129هـ . أنظر : دائرة المعارف الاسلامية، **مادة اباضية** ، ج 1 ، ص : 12 .

(2) المزاتي أبويعقوب : المصدر السابق ، ص : 110 .

(3) T. LEWICKI, *Les ibâdites dans l'arabie du Sud au Moyen Agé*, folia orientalia, 1959, p. 6-7.

(4)

(5) السالمي : المرجع السابق ، ص : 62 .

(أو الجلنداء) بن مسعود (1) 135هـ/752م، ولم تشهد عمان استقرارا بل تناوب الأئمة الاباضيون وولاة الخلافة الاسلامية السلطة (2) ، فقد استعاد العباسيون سلطتهم 136هـ/753م حين أرسلوا جيشا بقيادة خازم التميمي ، ثم عادت الامامة الاباضية لتحكم الاقليم 177هـ/793م حيث تتابع على حكمها خمسة أئمة اباضيون ، ثم استنجدت النزارية بوالي البحرين العباسي 281هـ/893م الذي اجتاح الاقليم وأسقط خامس الأئمة وأعاد النفوذ العباسي ، واستمر الحال على هذا المنوال الى فترة متأخرة .

لم تقتصر جهود أبي عبيدة على جنوب الجزيرة ، بل تواصلت الى المغرب ، فعلى صعيد الدعاية المنظمة ، بث الدعاة هناك مستعينا بمشائخ من اليمن وحضرموت منهم عبد الله بن مسعود التجيبي وعبد الجبار بن قيس المرادي ، والحارث بن تليد الحضرمي (3) ـ السابق ذكرهم ـ وبالاضافة الى هؤلاء ، نذكر سلمة بن سعد الذي كان يعقد حلقاته في مسجد القيروان ، واستطاع أن يكسب الى جانبه عددا من الرجال منهم : عاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي وداود القبلي النفزاوي وعبد الرحمن بن رستم ويرسل بهؤلاء الى البصرة ليأخذوا العلم عن امام المذهب ، وهناك انضم اليهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، ثم عاد هؤلاء الى المغرب ليضيفوا جهودهم الى جهود من سبقهم مثل محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني .

انتشر هؤلاء الدعاة بين قبائل المغرب ، وحين اشتدت سواعدهم ، عقدوا الامامة لأبي الخطاب ، ربما تلبية لرغبة أبي عبيدة الذي قال لهم : « ... فولوا على أنفسكم رجلا منكم ، فان أبي فاقتلوه ، وأشار الى أبي الخطاب » (4) ثم

(1) هو جلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي الأزدي ، قد أرسل سيدنا محمد (صلعم) عمرو بن العاص الى جده جيفر يدعوه للاسلام فأسلم . أنظر : اليعقوبي : **تاريخ اليعقوبي** ، ج2 ، ص : 50 وكان الجلندى زعيما للاباضية في عمان أواخر الخلافة الأموية الى أن اختاروه أماما عليهم ، الطبري : المصدر السابق ، حوادث سنة 134 هـ ، ج 6 ، ص : 116 .

(2) فاروق عمر فوزي : **ملامح من تاريخ حركةالاباضية** ، المؤرخ العربي ، 1975 ص : 176 .

(3) ابن عبد الحكم : **فتوح مصروالمغرب** ، ص : 301 .

(4) الأزكوي سرحان بن سعيد : **كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة** ، نص نشره : فاروق عمر فوزي : المرجع السابق ، ص : 180 .

انتقلوا الى دور الدفاع فاحتلوا طرابلس ثم القيروان ـ كما سبق ـ واذا كان الحظ لم يحالف أبا الخطاب فقتل 144هـ 761م ، فقد حالف ابن رستم حيث تمكن من تجديد الامامة الاباضية في تاهرت ـ كما أشرنا .

ويتجلى دور أباضيي المشرق في نجاح المذهب في المغرب ، في أن الذين زرعوه في المنطقة هم دعاة من البصرة أو ممن تلقى علومه فيها ، وفي استمرار المشاورات بين علماء البصرة ورجال الدعوة في المغرب ، فباشارة أبي عبيدة « أسس الاباضية في كل من المغرب وحضرموت دولا مستقلة » (1) ، وبتلك المساعدات المادية التي كانت ترسل من الشرق (2) .

يظهر مما سبق أنه لا يمكن فصل ما حدث في المغرب عما كان يحدث في المشرق ، وبذلك يمكن اعتبار قيام الامامة الاباضية في تاهرت بمثابة المرحلة الحاسمة من جهود الاباضيين ، قام بها رجال عرفوا بالعلم والذكاء ، ونجحوا في استعمال البربر أداة لتنفيذ خطط وتوجيهات وضعت في البصرة .

الاستقلال :

أشرنا الى أن المغرب ساده نظام قبلي ، ولم تتمكن قبائله من الاتحاد لأن كل قبيلة فيها شيخ أو شيخان وتخاف أن يرفع الشيخ المقدم أهل بيته وعشيرته على غيره (3) ، ويستفاد من ذلك أن البربر لم يكونوا قد توصلوا الى تحقيق الدولة البربرية ، ولا يوجد لهم محاولة في العهد الاسلامي قبل اعتناقهم المذهب الاباضي ، ولم يقم فيهم من يستطيع أن يكون لهم قطبا ، يجمعهم حول فكرة معينة ويفهم من رسالة البربر الى يزيد بن عبد الملك « أنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك »(4)، انهم لم يطمحوا للاستقلال في تلك الفترة (5) ، بل انهم

---

(1) المزاتي أبويعقوب : المرجع السابق ، ص : 107 .

(2) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 10 ـ 15 .

(3) المصدر السابق ، ص : 9 ، كذلك : الفرد بل .A. Bell ، **الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي** ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دارليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، 1969 م ، ص : 48 ـ 49 .

(4) الطبري : المصدر السابق ، ج 9 ، ص : 1435 ، حوادث سنة 102هـ .

(5) M. Brett, *Northern Africa.*, p. 4.

ـ البربر ـ كانوا يقبلون ولا يعارضون رئاسة من غيرهم من عرب وفرس كأبي الخطاب وابن رستم .

وعلى كل فان العصبية العرقية قد عجزت عن توحيد قبائلهم ، ويبدو أن بعض القبائل كانت تطمح الى توحيد المغرب ، فرأت في مذهب الخوارج قطبا تجتمع عليه بأسرها ـ كما سبق ـ وربما كان هذا من بين دوافع قبائل منطقة تاهرت الى اعتناق المذهب الاباضي ، واعتبرته عاملا مساعدا للعصبية العرقية ، ففي ظله « اجتمع رؤساؤهم »(1) ويبدو أن بعض رؤساء هذه القبائل قد نبه الى حاجتهم الى هذا الاتحاد « فقالوا قد علمتم انه لا يقيم أمرنا الا أمام نرجع اليه » (2) فخطت بذلك خطوة جريئة نحو الوحدة ، وربما لكي يكتب لهذه المحاولة النجاح ، لم تحاول أية قبيلة اسناد أمر الامامة لأحد شيوخها ، فاختارت عبد الرحمن بن رستم ـ كما سبق ـ وربما كانت تأمل أن ينتقل الأمر الى أحد شيوخها بعدما تتوطد دعائم دولتهم الوطنية الناشئة ، وبعدما تألف الخضوع للسلطة المركزية ، وربما كان خروج ابن فندين (3) وهوارة على الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن محاولة لنقل الامامة الى زعيم بربري ، اذ مهما قيل عن دوافع هذا الخروج ، فهي لابد تخفي وراءها دافعا وطنيا الا أن الرستميين بسياستهم قد حالوا دون نجاح هذه المحاولة .

هذا لا يعني أن تنسب الى مؤسسها عبد الرحمن فتعتبر دولة فارسية (4) ، لأنه قد ترك وطنه صغيرا وعاش في مجتمع عربي اسلامي ، واعتنق المذهب الاباضي فاكتسب عصبية مذهبية ونال تأييد القبائل لهذه العصبية ، دون اعتبار لأصله وبلده ، وربما أراد لها الرستميون أن تكون فارسية ، فاعتمدوا على العنصر الفارسي ، لكنهم واجهوا معارضة واضطرابا ساعد على ضعفها .

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 9 ، حيث يشير الى اجتماعهم لانتخاب امام لهم .

(2) نفس المكان .

(3) حول انقسام الاباضية ، أنظر : الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 47، 67، 77، 106، كذلك : T. Lewicki, *Les subdivisions de l'ibadiya*, p. 72. «Studia islamica», 1958 p. 71-82.

(4) عبد الله بن يحيي الباروني النفوسي : **رسالة سلم العامة** ، في حديثه عن أبي حاتم قال : «وبه انتهت امامة الفرس» ، ص : 15 .

ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فشل سياستها في المغرب الاسلامي ، رأت أن تعدل بارادتها عن تمسكها بفكرة الجماعة الى فكرة المصالح الاقليمية فابتدأ العرف يجري بجواز قيام أمراء الى جانب الخلافة (1) ، على أساسُ التبعية الاسمية أو على الأقل التزام الهدوء ، ومن الممكن أن تنطبق هذه السياسة على اباضيي تاهرت ، مادامت تنطبق على صفرية سجلماسة ، فان أبا القاسم سمكو « خطب في عمله للمنصور والمهدي »(2) ويبدو أن هذه الخطبة استمرت الى عهد اليسع بن مدرار (3) وبذلك لايستطيع المرء أن يقر بوجود دولة مثل تاهرت ، دبت فيها المنازعات والخصومات الى جانب القيروان التي سيطرت على غرب البحر الأبيض المتوسط الا أن يقر بهذه العلاقة ، وهذا أمر محتمل ، مادامت تاهرت تبدوكامارة صغيرة في المغرب الأوسط ، من الدولة الرستمية المجزأة ، ومادام حماس أتباع المذهب الاباضي قد خفت ، بعد فشل جهودهم في تحقيق الهدف الذي أتوا من أجله الى المغرب ، فمالوا الاعتدال والسكون ، وأخذوا يسعون لاقامة مجتمع خاص بهم ، يسوده نظام اجتماعي مبني على أسس مذهبية ، نجحوا في تحقيقه الى حد ما ، فمارسوا استقلالا تجلى ذلك في الامامة ، فكان الامام الرستمي يتولاها دون تدخل خارجي ، ويعين القاضي وصاحب الشرطة وصاحب بيت المال ، وتجلى في ارتباطها بعلاقات خارجية وفق مصلحتها ، ولم تكن القيروان تعارض مثل هذا الاستقلال وهي التي سمحت للجماعات الاباضية في افريقية أن تمارس حياتها المذهبية والاجتماعية الخاصة بها .

ويبدو مما تقدم أن الدولة الرستمية كانت دولة دينية ، برئاسة اباضية ، مستقلة ضمن الاطار الاسلامي .

---

(1) اتبع العباسيون هذه السياسة منذ عهد هرون الرشيد (170 ـ 193هـ)، أنظر : سيدة اسماعيل كاشف : **مصر في عصر الولاة** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص:28، وقد اقتطع المعتصم القائد التركي أبا جعفر اشناس مصر 219هـ ، نفس المرجع ، ص:29، الا أن هذه السياسة تأكدت في القرنين الثالث والرابع الهجري فظهرت الدولة الظاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

(2) القلقشندي : المصدر السابق ، ج 5 ص : 165 .

(3) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص: 204 ، كذلك : ابن خلدون : **المقدمة** ، فهو يذكر أن اليشع (اليسع) اعتقل المهدي « مرضاة للخليفة » ، ص : 21 .

نظام الحكـــم :

كان الاباضيون قد أنكروا على الأمويين ثم العباسيين استئثارهم بالخلافة وحصرها في بيتهم فرفعوا شعارا يدعو لاصلاح نظام الحكم ، وأخذوا يطالبون بجعل الخلافة اسلامية ، كما دفعهم ظلم وجور بني أمية وبني العباس ، أن يحددوا واجب الخليفة بأن يتقيد بالكتاب والسنة وآثار الصالحين ، وأن عليه أن يقيم حدود الله ويؤمن السبل ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وينشر العدل والمساواة ، وأن يخضع لاشراف شيوخ المذهب من الشراة والطلبة والمشائخ . فان رأوا منه انحرافا أوجبوا عزله فاذا امتنع أوجبوا قتله ، لأنه في اعتبارهم الراعي الأمين والحارس المخلص للشريعة الاسلامية ـ كما يتصورونها ـ وهو من أصلح الناس وأعمالهم ، والرئيس الروحي والزمني لهم (1) ، وللامام مجلس شوري واعوان يساعدونه ، ولم تكن سلطته تشمل جميع الاباضيين في المغرب ، فقد وجدت امارات مستقلة عنه مثل امارة دمر ، وامارة ابن مسالة الهواري ، ولم تشمل اباضية المغرب الأقصى ، لكننا نعلم أن سلطته الدينية على الأقل ـ امتدت الى منطقة طرابلس ، خاصة جبل نفوسة ، ومنطقة الجريدة (2) ـ كما سيأتي ـ

ويحمل الامام ألقابا أخرى مثل أمير المؤمنين ، وكان « يسلم عليه بالخلافة » (3) وللامامة عندهم أطوار : طور الكتمان ، والظهور ، والدفاع ، والشراء ، وليس هناك فترة محددة لكل منها .

هذا ، على الصعيد النظري ، أما على الصعيد العملي عند الرستميين ، فان عبد الرحمن قد أخذ ولاية القيروان بعقد من أبي الخطاب وموافقة أهل الحل والعقد ، وتولى امامة تاهرت بعد تشاور جماعة الاباضيين فيها ، فعقدوا له البيعة على أن يلتزم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين ، وقد تشبه عبد الرحمن بعمر بن الخطاب ، فجعل الامامة شورى بين جماعة من مشائخ المذهب (4)

---

(1) T. Lewicki; *Les subdivisions de l'ibadiya*, p. 72.

(2) M. Brett: *Northern Africa*, p. 5.

(3) ابن خرداذبة : **المسالك والممالك** ، مكتبة المثنى ـ بغداد 1889 ، ص : 87 ، وأنظر كذلك : ياقوت الحموي : **معجم البلدان** ، مادة تاهرت ، ص : 815 ، ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ص : 247 .

(4) طفيش محمد بن الحاج يوسف : **الرد على العقبي** ـ المطبعة الحجرية تونس 1321هـ ، ص : 100 .

وانتهى الأمر بتولي ابنه عبد الوهاب الامامة . فقامت في وجهه معارضة تزعمها ابن فندين ويسود الغموض حول كيفية تولي افلح الامامة ، الا أن المعارضة استمرت في عهده الى حين وفاته ، فتولاها أبو بكر بمساعدة جماعة من الناس ، فاحتج آخرون على هذا الحضر للامامة ، وقام عبد العزيز بن الآوز(الأوس» ينادي بأعلى صوته « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين » (1) وقام نزاع في تاهرت ، أخرج على أثره أبو بكر وأخوه أبو اليقظان ، ثم عقد الناس الولاية لأبي اليقظان ، وكان هؤلاء من العجم ونفوسة والرستميين ولواته ، واضعين المعارضة تحت واقع الأمر ، وبعد وفاة أبي اليقظان قامت « العوام وأهل الحروف ومن لف لفهم ، فقدموا ابنه أبا حاتم بلا مشورة أحد من الناس » (2) وكان أبوحاتم يطعم ويكسي ويستميل وجوه أهل تاهرت « فان كان على قرب استمالة به الى نفسه وان كان على البعد زاوده وأعطاه » (3) ، ثم حدث نزاع في الأسرة الرستمية على الامامة بين أبي حاتم يوسف وعمه يعقوب بن أفلح ، واستمر النزاع بينهما ، واستمر تغابهما بالتناوب على الامامة (4).

بعد هذه الصورة للامامة في تاهرت ، نلاحظ أنها لم تخرج عن دائرة الرستميين ، فاذا خرجت عن أحدهم تولاها آخر ، قد يكون ابناء كولاية عند الوهاب بعد أبيه ، وأخا كولاية أبي اليقظان بعد أخيه أبي بكر ، وقد يكون عما كولاية يعقوب بعد ابن أخيه أبي حاتم ، بهذا نستطيع القول أن الامامة لم تكن للمسلمين عامة ، ولم تكن وراثية بالمعنى الضيق ، وهو أن يرث الابن أباه ، فقد ظلت مقصورة على وراثية البيت الرستمي ، شأن الخلافة الأموية والعباسية ، واذا استثنينا عبد الرحمن ، فما من امام رستمي الا وقامت في وجهه معارضة من الرستميين أنفسهم وغيرهم . وهذا يعني أن كلا من هؤلاء كان يعتمد على جماعة تناصره

---

(1) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 31 .
(2) نفس المصدر ، ص : 49 .
(3) المصدر نفسه ، ص : 55 .
(4) ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب في أخبار المغرب** ، مطبعة المناهل ، بيروت ، 1947 ـ 1950 ، ج 1 ، ص : 197 .



وتؤيده حتى يصل كرسي الامامة ، حتى بلغ بأبي حاتم أن استعان بالمسيحيين (1) . كما يعني أن الشوري كانت قائمة في اختياز الامام لكنها شورى محدودة ببيت معين هو البيت الرستمي ، وكان الاختيار خاضعا لمبدأ الأفضل الا أن الوصول الى الكرسي كان خاضعا لمبدأ الأقدر.

بهذا يتضح أن الرستميين كانوا يرفعون شعارات نظرية في الامامة وغيرها ، ثم اصطدموا بالواقع عند التنفيذ ، فخرجوا عن الالتزام بمبادئهم ، وهذا ما أدى الى جعل نظام الحكم أقرب الى الملكية منه الى الجمهورية ، بل أن لويكي يعتبر الدولة الرستمية مملكة ، فيقول انه « كانت توجد في شمال افريقيا مملكة تاهرت » (2)، واذا كان هذا أمرها من ناحية الحكم ، فقد كانت دولة دينية في أمورها اليومية ، حتى أن صاحب كتاب « العرب والبربر » Arabs and berbers جعلها مملكة بلا ملك (3) .

المساواة والعدل :

استطاع عبد الرحمن أن يجمع الناس حوله بما أوتي من حميد الأخلاق وتمسكه بدينه ، فتقاطر اليها الناس من مختلف الأصقاع والنواحي ، وأقاموا في وئام وتوافق تجمعهم المصالح المشتركة وتبعد عنهم روح التعصب الجنسي والمذهبي ، واستمروا على ذلك حتى دب الخلاف ، وابتداء النزاع على الامامة ، وحين أنس الرستميون من انفسهم قوة بما هم عليه من الدين والعلم وبما لهم ، وبحصولهم على تأييد بعض القبائل البربرية ، طمعوا في حصر الامامة في بيتهم ،

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 49 ، لقد ذكرنا سابقا أن الروم استعانوا بالبربر لمواجهة عقبة بن نافع عند تاهرت ، وبذلك فمن المحتمل أن يكون قد ظل بقايا من الروم ونصاري البربر يدفعون الجزية ، فقد كان عبد الرحمن بن رستم « ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية » ابن الصغير ، ص : 15 ، وهناك من يرى أن هؤلاء المسيحيين هم من نصاري البربر ، انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة « **الرستميون** في حين يرى حبيب الجنحاني انهم من الوافدين على تاهرت من الشرق وافريقية ، وليسوا من بقايا نصارى البربر. أنظر : «**تاهرت عاصمة الدولة الرستمية**» ، ص : 33 ، وكانوا من وجوه وحماة البلد ومن خاصة الامام الرستمي ، انظر : ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 36 ، 52 .

(2) T. Lewicki, *Arabic external sources*, p. 23.

(3) E. Gellner and ch. Micaud, *Arabs abd Berbers*, p. 144.

كما سبق ، وجعلوا من أنفسهم طبقة مميزة ، وبدأوا يأخذون باعتبارهم الوجو والاشراف ويحرصون على كسب ودهم وتأييدهم ، وجعلوا لهم مكانة خاصة ، فلا تجرى عليهم الأحكام أحيانا ، وكلمتهم مسموعة ونفوذهم واضح ، كأبي يعقوب المزاتي وابن وردة (1) ، والى جانب هذه الطبقة نجد طبقة العامة ، وتشمل صغار التجار وأصحاب الحرف والفلاحين ، وهناك أيضا طبقة العبيد وهم من السود والصقالبة (2) .

لم يقتصر التمييز في تاهرت على الناحية الاجتماعية ، بل وجدت طبقات متمايزة عن بعضها اقتصاديا ، فهناك كبار الأغنياء ، والتجار ، فقد امتلك أحد الأثرياءثلاثين ألفا من الأبل وثلاثمائة ألف من الغنم واثني عشر ألفا من الحمير ، وكان ابن وردة ـ السابق الذكر ـ يمتلك سوقا خاصا به في تاهرت ، وكان المشرف على السوق يخشى الدخول اليه لمراقبته لمكانة ابن وردة عند الرستميين (3) ، وكان من الأثرياء كذلك الامام عبد الوهاب وغيره ، فقال« لولا أنا ومحمد بن جرني وابن زلغين لخرب بيت المسلمين ، أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام » (4) ، والى جانب هذه الفئة ، نجد الطبقة الوسطى التي استطاعت

---

(1) ابن الصغير : المصدرالسابق ، ص : 27 ـ 54 .

(2) ذكر ابن الصغير أن قاضي تاهرت محمد بن عبد الله قال : « فتحت الباب فاذا أنا بجارية منبهرة ومعها صقلبي معه سراج » انظر : نفس المصدر ، ص 43 . كما ذكر أن الاباضية اشتروا للقاضي محكم الهواري « خدما صفرا » نفس المصدر ، ص : 25 . وهذا يدل عن وجودهم في تاهرت وقد ذكر المقدسي أن الرقيق من الصقالبة من بلاد البلغار وأنهم يحملون الى مدينة خلف بجاية بالأندلس أهلها يهود فيخصونهم ثم يخرجون الى مصر والروم ، انظر : المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 325 ـ 242 . وذكر ابن حوقل أن من بين ما يجهز من المغرب الى المشرق « الخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة على الأندلس» ابن حوقل : **صورة الارض** ، ص : 95 .

(3) لم يرد ذكر المحتسب بهذا الاسم في تاهرت الرستمية ربما لأن وظيفة الحسبة لم تكن منظمة فيها كما في افريقية والأندلس ، ويمكن التعرف على المحتسب ومهامه في شخص يدعى عند الرستمين « المشرف على السوق » انظر : لقبال موسى : **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ، ص : 33 ، ويبدو أن مهمة المشرف على السوق كانت تسند الى صاحب الشرطة ، فقد ذكر ابن الصغير أن صاحب شرطة افلح كان « اذا تخلل للمدينة لافتقادها لم يحبس أن يدخل سوق ابن وردة يتخلله هيبة » . انظر : ابن الصغير : المصدرالسابق ، ص : 27 . ثم أمر أبو اليقظان «قوما من نفوسة يمشون في الأسواق » ابن الصغير ، ص : 41 .

(4) الشماخي : **السير** ، ص : 205 .

أن تصل الى مستوى حسن من الحياة الكريمة بما تدره عليها حرفها البسيطة ومتاجرها الصغيرة ومزارعها ، ويظر كذلك أن وجود « السراق وقطاع الطرق » (1) تعبير عن وجود طبقة فقيرة سيئة الحال ، تجري الصدقات على بعض أفرادها ، وكان الى جانب هؤلاء طبقة لم تحصل على أدنى حقوقها الانسانية هي طبقة العبيد ، وممكن كان يمتلك العبيد اضافة الى الرستميين ابان وحموية من أغنياء تاهرت .

يبدو لنا ـ اذا استثنينا الامام الأول ـ أن للأئمة الرستميين دورا كبيرا في خلق هذه الطبقات المتمايزة ، من جراء حرصهم الأول على الوصول الى الامامة والاحتفاظ بها ، وقد كانوا اذا وصلوا الحكم عادوا والتزموا بمذهبهم ، فيشاورون مشائخ البلد في أمر تعيين القاضي أو صاحب الشرطة ، فيوافق على تعيين من يرغبونه ، ممن ليس له رغبة في الحكم ، فهذا أفلح يوافق على اسناد القضاء الى محكم الهواري (2) الساكن بجبل أوراس ، والذي كان من المخلصين لدينهم ومذهبهم ونشر العدل والمساواة بين الناس ، فقد تخاصم عنده أبو العباس ـ ابن الامام عبد الوهاب ـ وصهر الامام افلح ، وظن أبو العباس أن القاضي سينحاز اليه ، فسبق خصمه اليه ، فقربه القاضي وأكرمه ، وحين وصل خصمه منزل القاضي ، أكرمه وساواه بأبـي العباس ، فخرج هذا الى أخيه أفلح غاضبا ، ومن مشاهير البربر المتمسكين بدينهم ، الحريصين على تنفيذ أحكامه ونشر المساواة والعدل محمد بن عبد الله ابن أبي الشيخ (3)، الذي أصبح قاضيا لأبي اليقظان ، وحدث في عهده أن زكريا ـ ابن الامام ـ خطف فتاة وفر بها ، فتخلى القاضي عن منصبه حين وجد نفسه عاجزا عن اقامة الحد (4) . ويظهر أن الامام الرستمي

---

(1) ابن الصغير : المصدرالسابق ، ص : 57 .

(2) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 23 ـ 24 . كان افلح قد اعترض على الأمر فقال للاباضية : «ويحكم دعوتكم الى رجل ، كما وصفتم في ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه» لكنه وافق بعد ذلك أمام اصرارهم . نفس المصدر ، ص : 24 .

(3) نفس المصدر : ص : 42 . وقد أصبح ابن عبد الله قاضيا لأبي حاتم . أنظر : نفس المصدر ، ص : 56 .

(4) نفس المصدر ، ص : 43 .

كان يسعى لكسب ثقة الناس بتعيين القاضي الذي يرتضونه ـ كما سبق ـ لكنه كان يسمح للقاضي بنشر المساواة والعدل الى الحد الذي يرضي الناس ولا يهدد الامامة .

الحـريـة :

عرفنا أنه كان في تاهرت كبار التجار وصغارهم ، وفي هذا دليل على الحرية التي كان يتمتع بها سكان تاهرت ، ويلاحظ وجود مشرفين على الأسواق (1) في تاهرت ، يطوفون في الأسواق لمراقبتها وهذا يعني أنهم كانوا يسيرون على مبدأ الحرية الأقتصادية المقيدة .

وقد ذكرنا سابقا أن تاهرت قد ضمت مختلف القوميات من بربر وعرب وفرس ، والديانات السماوية ، ومختلف المذاهب ، كان الرستميون كثيرا ما يعقدون الحلقات للبحث والمناقشة ، كتلك التي دارت بين الاباضيين والواصلية ، واشتهر من العلماء الاباضيين في الجدل والمناظرة والتأليف عبد الله بن اللمطي وهو الذي « يناظر المعتزلة والواصلية وسائر الفرق بالمغرب » (2) كما درج العلماء الاباضيون على دعوة الأئمة السنيين الى تاهرت للمناقشة ، وكان « من أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه الطف مناظرة »(3) وهذا يعني أن تاهرت قد عاشت حرية فكرية ، لكننا اذا التفتنا الى تلك المجادلات ، نجدها تدور حول أمور فلسفية دينية كالتوحيد والصفات والقضاء ، والقدر والزواج (4) ، وكلها في مؤلفات اباضية أو متأثرة بها ، ولا نجد مجادلة واحدة تبحث في نظام تاهرت السياسي ، كما نجد وثيقة واحدة للجماعات المعارضة كالنكارية والمعتزلة ، بل ان الرستميين كانوا يحذرون من قراءة كتب المعارضة ، ولئن أفادت هذه المجادلات

---

(1) لمزيد من التفصيل حول الحسبة والمحتسب ، انظر : لقبال موسى : **الحسبة** المذهبية في بلاد المغرب العربي .

(2) البرادي أبو القاسم بن ابراهيم : الجواهر **المنتقاة** ـ نشر سليمان بن مسعود المجدلي ـ قسنطينة 1305هـ ، ص : 175 ، انظر كذلك : ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 44 ـ 45 .

(3) المصدر نفسه ، ص : 57 .

(4) المصدر نفسه ، ص : 57 ـ 60 .

في تبسيط المذهب ونشره ، الا أنها كانت كابحة لجماح الفكر ، مما يجعلنا نعتقد أن الرستميين سمحوا لتاهرت بحرية فكرية مقيدة ، وقد ذكرنا سابقا أنه كان لاباضيي تاهرت حرية اختيار قضاتهم لكن لم تكن لهم مثل هذه الحرية في اختيار أئمتهم ، بمعنى وجود حرية سياسية مقيدة . ومما تقدم نخلص الى القول بأن تاهرت قد اعتمدت في سياستها على مبدأ الحرية المقيدة .

المصلحة :

لم تكن الدولة الرستمية ملتزمة بمباديء المذهب كل الالتزام ، لأن من أتوا بعد عبد الرحمن آثروا مصلحتهم الخاصة ، فاهتموا بالحياة الدنيا ، وشغلوا بالتجارة عن نشر المذهب (1) حتى أصبحوا من كبار الأثرياء ، وأظهروا ذكاء ودهاء سياسيا ، فعبد الوهاب يطلب تحكيم الربيع بن حبيب عند معارضة ابن فندين له ، كسبا للوقت ، وهم كانوا عارضوا التحكيم ، ولم يتورعوا عن اتباع سياسة فرق تسد والتأريش بين القبائل ، فأرش افلح « بين لواته وزناته وما بين لواته ومطماطة ، وما بين الجند والعجم » (2) ولجأوا الى المصاهرة أحيانا فكانت ابنة لرجل من لواته أو غيرها ، خطبها ابن مقدم الأوس ، فخاف عبد الوهاب من هذا الائتلاف فخطبها لنفسه ، ولجأوا الى دفع الهبات والصلات احيانا أخرى وقد دفع بهم حرصهم على مصلحتهم الى اتباع سياسة ميكافيللية ، تمثلت باستعانتهم بالمسيحيين (3) ـ كما سبق ـ وبدل أن يدافع الرستميون عن مدينتهم أمام الشيعي ، لجأوا الى الانتهازية ، فقتل بنو اليقظان عمهم أبا حاتم سنة 294هـ/ 907م(4)، وخرج يقظان الى الشيعي آملا أن يتركه أميرا على تاهرت تحت امرته بل أن دوسرة (5) ابنة أبي حاتم اصطحبت أخاها وتقدمت الى الشيعي تعده من نفسها ان ثأر لأبيها وربما ان نصب أخاها أميرا كما سيأتي .

---

(1) سليمان بن داود : مقابلة شخصية الجزائر 30 / 5 / 1975 .

(2) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 27 .

(3) المصدر نفسه ، ص : 36 فذكر أن أبا بكر « ابتدر اليه خاصيته من المسيحيين والرستميين ، كما خرج هؤلاء مع أبي حاتم من تاهرت » ، انظر : ص : 52 .

(4) ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص : 197 .

(5) ورد اسمها على هذه الصورة عند سليمان الباروني : **الازهار** الرياضية ج2 ، ص : 292 . وعلى صورة دوسر ، أنظر : أبوزكريا : **السير** ، ورقة 108 ، الدرجيني : المصدر السابق ، المخطوط ورقة 29 .

تركت هذه السياسة بصماتها على المجتمع التاهرتي ، فبدل أن يعمل الرستميون على اذابة العصبية ومحوها ، عملوا على اذكاء نارها ، فنمت روحها ، وكثرت المنازعات ، فأثرت على علاقتهم بجيرانهم وحددت مسارها باتجاه المسالمة وحسن الجوار.

المسالمة وحسن الجوار (1) :

سنرى فيما بعد أن علاقة سلمية أو على الأقل ليست عدائية ، ربطت تاهرت بنظام القيروان السياسي ، ويبدو أن روح بن حاتم أراد أن يصفي الحساب مع جماعة الاباضيين في تاهرت بعدما بطش يزيد بن حاتم بالخوارج قبلة ، فلجأ الرستميون وهم كانوا ذاقوا ضربات ولاة القيروان الى ذكائهم السياسي ، وحصلوا على معاهدة موادعة ، ظلت سارية المفعول ، ولم يذكر لنا المؤرخون وقوع مواجهة مباشرة بينهما ، ولم تحدثنا كتب التاريخ عن وقوع منازعات وخصومات ، كتلك التي وقعت بين الأغالبة والأدارسة ، وكان من المتوقع مع الاختلاف السياسي والمذهبي أن تقع حروب بينهما ، الا أن المصلحة والرغبة الصادقة في المعيشة المشتركة الهادئة ، سيطرت عليها .

وكان هذا شأنهم مع أدارسة المغرب الأقصى وصفرية سجلماسة وأموي الأندلس كما سيأتي . ولم تستطع رمال الصحراء الكبرى أن تقف حاجزا أمام مصلحة الرستميين ، فتمكنوا من اقامة علاقة طيبة مع أهالي السودان الوثنيين ، وسارت قوافلهم التجارية بين تاهرت والسودان .

ترتب عن سياسة حسن الجوار هذه ، أن دول المغرب لم تنهك قواها فيما بينها فظهرت علاقات شعبية ، عبرت عن روح وحدة المغرب الاسلامي ، وأوجدت قيروانات عملت على نشر الاسلام والعروبة ، وربط المغرب بالمشرق ، وأوجدت بتنافسها حركة حضارية واسعة « كما حافظ الرستميون على وجودهم بجانب أنظمة مخالفة لهم سياسيا ومذهبيا .

---

(1) انظر : TALBI, *L'emirat aghlabide*, p. 353 et *suite*. كذلك العدوي ابراهيم أحمد بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي العربي . ط 1 ، المطبعة الفنية الحديثة ـ القاهرة 1970 ، ص : 203 ـ 206 .

الامتداد الجغرافي :

مارس الرستميون سياستهم تلك على مساحة من المغرب الاسلامي ، أجمع المؤرخون الاباضيون ومن تأثر بهم ، أنها كانت تمتد من تلمسان الى سيرت ، في حين أنكر بعض المؤرخين هذا الامتداد ، فجعلها بعضهم ضمن اطار الدولة الادريسية ، فاعتبروا « تاهرت على البحر من بلاد ادريس بن ادريس » (1) وجعلها بعضهم ضمن اطار دولة الأغالبة ، فذكر ابن ابي دينار أن حكم بني الأغلب كان « الى حد السوس من بلاد المغرب الا ما خرج عن أيدي بني الأغلب عند تمكن الأدارسة من بلاد المغرب » (2) ، وأنه لمن غير الممكن قبول هذه الاعتبارات قبل ملاحظة بعض معطيات المنطقة .

فهناك امارة بني مسرة بمدينة أوزكي في نواحي سعيدة ، وامارة بني مسالة من هوارة بواد يعرف باسمها ، بينه وبين المدينة نحو عشرة أميال (3) وأميرها « مخالف لابن افلح يحاربه »(4) وفي الشمال والشمال الشرقي ، إمارات علوية كامارة بني محمد بن سليمان وهناك امارة ابراهيم بن محمد بن محمود البربري المعتزلي ، في مدينة تلي تاهرت تدعى ايزرج ، و« بلاد مغيلة بجبل ونشريس من عمل تاهرت » (5) وهي ليست اباضية ، وغير خاضعة للنفوذ الرستمي ، وفي الشرق والى الجنوب من متيجة امارة هاز ، وأهلها ليسوا اباضيين ، يعقبها وعلى مرحلة منها امارة بني برزال في ناحية قصر البخاري ، وحدها الى منطقة الزاب الأغلبية ، وهم اباضيون ، وعليهم رئيس منهم يقال له مصادف بن جرتيل . وفي الجنوب فقد امتدت حدود الدولة الرستمية حتى شملت شمال الصحراء بما في ذلك

---

(1) ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر : **الاعلاق النفيسة** ـ مطبعة بريل ـ لندن 1891 ، مكتبة المثنى ـ بغداد ، ص : 129 ، كذلك انظر : H.W. Hazard, *Atlas of islamic history*, U.S.A., 1952, p. 11.

(2) ابن أبي دينار : **المؤنس في اخبار افريقية وتونس** ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1967 ، ص : 45 .

(3) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 21 .

(4) اليعقوبي : **البلدان**، ص : 356 .

(5) مؤلف مجهول ، **مفاخر البربر** ، ص : 49 .

ورقلة (ورجلان) ، ويدل على ذلك أن سكانها اباضية (1) وأن الامام يعقوب هرب اليها ، فتلقاه شيخ المدينة أبو صالح جنون بجموع أهلها وعرضوا عليه الولاية (2) لاحياء الامامة الرستمية لكنه رفض لأن الجمل لا يستتر بالغنم على حد تعبيره ، وأنه أيقن أن المسألة قد أفلتت من أيدي الرستميين ، وهذا العرض يدل على أن ورقلة كانت جزءا من الدولة الرستمية ، رغم أن المصادر المعاصرة لها لم تشر لذلك وربما أن استقرار المدينة بسبب ثورتها الناجمة عن النشاط التجاري ، أخفى تلك التبعية ، وأخفى نفوذ الامام الرستمي عليها ، الذي كان يظهر جليا في الولايات الشرقية بسبب ظهور أزمات هناك .

مما تقدم يتضح أن اطار الدولة الرستمية شمل المغرب الأوسط باستثناء مناطق متفرقة ، حيث قامت امارات علوية أو دويلات اباضية خارجة عن الامامة الرستمية ، أما حدود الدولة الشرقية فقد أمتدت حتى شملت منطقة طرابلس - باستثناء المدينة - فقد ظل الاباضيون الذين بايعوا بالأمس أبا الخطاب على ولائهم لامام المذهب عبد الرحمن وخلفائه من بعده - ماعدا بعض المناطق التي كانت خلفية أو نفاثية أو نكارية - ويتضح هذا في تعيين الامام الرستمي العمال على جبل نفوسة وغيره من نواحي المنطقة (3)، ويؤيد اليعقوبي هذا بقوله « لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت » (4) ويبدو أن هذه الحدود الشرقية امتدت الى سرت حيث تنتشر قبيلة مزاته التي ذكر ابن خرداذبة بأن أفرادها « يعيشون على النهب ولا يقبلون الا أوامر امام تاهرت » (5) وكان سلام ابن عمر اللواتي عاملا للامام عبد الوهاب على سرت ويبدو أن هذا الامتداد استمر حتى سقوط الدولة ، فقد ذكر عبد الله النفوسي أن أبا اليقظان « ملكها من تيهرت الى سرت » (6) .

---

(1) الادريسي : صفة المغرب ، ص : 121 .
(2) الدرجيني : **طبقات** 105 ، الشماخي : **السير** ، 365 .
(3) ذكر ابن الصغير « أن أبا اليقظان لما استقام له ملكه أتته وفود نفوسة من الجبل المعروف بجبل نفوسة ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم » انن الصغير : نفس المصدر ، ص 47 .
(4) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 7 .
(5) حاج صدوق محمد : **وصف المغرب وأوروبا** ، ص : 102. وموطن مزاته بين سرت واجدابية وتورغا.
(6) عبد الله بن يحيي الباروني النفوسي : المصدر السابق ، ص : 43.

وفيما يتعلق بمنطقة جنوب المغرب الأدنى ـ بلاد الجريد ـ فان الشماخي يذكر عمالا عليها من قبل الامام عبد الوهاب ، فكان وكيل بن دراج النفوسي على قفصة ومحمد بن اسحق الخزري على نفزاوة وسلمة بن قطيعة على قابس (1)، ويبدو أن عبد الوهاب كان يمارس سلطة فعلية على المنطقة ، فقد ذكر الويسياني أنه أقطع أرضا للخارجين عليه من نفوسة ، تشمل منطقة الساحل ، وكتب اليهم « اغرسوا فيه بأمرنا وأحرثوا فيه باذننا » (2) ، ويذكر الشماخي كذلك عمالا من قبل الامام افلح بن عبد الوهاب كأبي يونس وسيم قنطرارة وميال بن يوسف على نفزاوة ، وهذا يعني أن هذه النواحي كانت تدين بالتبعية لتاهرت ، الا أن ابن الأبار يذكر أن عامر بن معمر بن سنان التميمي كان « على قسطيلية واليا » (3) من قبل القيروان الى أن قدم محمد بن مقاتل العكي أميرا على افريقية ، كما ظهرت تبعية هذه المنطقة للقيروان في عهد زيادة الله الأذل الاغلبي ، فحين ثار عليه منصور الطنبذي سنة 210هـ « لم يبق بيد زيادة الله من افريقية كلها الا قابس والساحل ونفزة وطرابلس فانهم تمسكوا بطاعته » (4) ويؤكد ابن عذارى هذه التبعية فيذكر « أنهم تمسكوا بطاعته ولم ينقصوه شيئا من جبايته » (5) بل أن أهل قسطيلية أرسلوا الى ابن سوادة ـ قائد زيادة الله أن يجيء اليهم « فسار اليهم وملك قسطيلية وضبطها » (6) ويبدو أن هذه التبعية قد استمرت في عهد أبي عقال فذكر ابن خلدون أنه قد « خرج بقسطيلية خوارج زواغة ولواته ومكناسة وقتلوا عاملها بها ، وبعثت اليهم العساكر فقتلهم واستأصلهم » (7) ويستفاد مما ذكره ابن

---

(1) الشماخي : **السير**، ص : 195 ـ 203 . كذلك : يوسف طفيش : **الرد على العقبي** ، ص : 91 ـ 92 .

(2) T. Lewicki, *Un document ibâdite, inédit sur l'émigration des nafûsa de Gabal*, Folia orientalia, 1959, t. 1, p. 178.

(3) ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي : **الحلة السيراء** تحقيق حسين مؤنس ، ط 1 ، 1963 ، القاهرة جـ1 ص : 106 كذلك : حسن حسني عبد الوهاب : **رواة اللغة والادب في العصر العربي الأول**، ص : 5 .

(4) ابن الاثير : **الكامل في التاريخ** ط 2 ، دار الكتاب العربي ـ بيروت 1387هـ/ 1967م ، جـ5 ، ص 186

(5) ابن عذاري : المكان السابق .

(6) ابن الأثير : المكان السابق .

(7) ابن خلدون : **العبر** ، جـ 4 ، ص : 428 .

عذارى أنها استمرت الى سقوط الدولتين ، الاغلبية والرستمية ، فقد ذكر أنه في سنة 294هـ/907م« عزل عبد الله بن محمد بن مفرج المعروف بابن الشاعر عن قضاء قسطيلية » (1) كذلك فإن اليعقوبي يذكر أن « قابس بها عامل من قبل ابن الاغلب وحين حدد ابن خرداذبة دولة الاغالبة وذكر أن الأمير الاغلبي « في يده أيضا قابس وجلولاء ، وسبيطلة ... وزرود وقفصه وقسطيلية » (2) كما ذكر القاضي عياض أن ابراهيم بن أحمد الاغلبي قد استعمل « علي بن أبي حجر على قفصة وقسطيلية » ويذكر أيضا أن البريد قدم « من قبل زيادة الله الى والي قسطيلية بطلبه فأصابه قد خرج عمله » (3) .

من هذا يتضح أن بلاد الجريد كانت تابعة لتاهرت ، كما هي تابعة للقيروان (4) في نفس الوقت ، ويبدو أن تبعيتها لتاهرت كانت مرغوبة ، وبما أن القبائل التي تدين بالولاء لامام تاهرت لا تشكل مجموع سكان المنطقة (5) . فان هذه التبعية محدودة ، بينما كانت تبعيتها للقيروان مفروضة وشاملة .

وهكذا يظهر مما تقدم أن حدود الدولة الرستمية كانت تشمل المناطق المحيطة بتاهرت ومنطقة طرابلس ـ باستثناء المدينة ـ وأجراء متفرقة من منطقة الجريد ، وكان مما ساعد على هذا الامتداد أن الدولة الرستمية لم تضع لنفسها حدودا سياسية مرسومة ، وانما جعلت من طبيعة مذهبها وعلاقتها بالجماعات الاسلامية سبيلا جديدا يبين حدودها .

الحياة السياسية

تعاقب عدد من الأئمة الرستميين على تاهرت الى حين سقوطها كان أولهم عبد الرحمن بن رستم .

---

(1) ابن عذاري : المكان السابق .

(2) ابن خرداذبة : **المسالك والممالك** ، ص : 87 ، ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ص : 79 .

(3) القاضي النعمان : **رسالة افتتاح الدعوة** ـ تحقيق وداد القاضي ـ مطبعة دار الكتب ـ نشر دار الثقافة ط 1 ، بيروت 1970 ، ص : 82 .

(4) TALBI med. *L'émirat aghlabide*, p. 353.

(5) كان قسم من السكان مالكيين ، وكان . الاباضيون ينتمون الى مختلف الفرق الاباضية :
T. LEWICKI, *Les subdivisions de l'ibadiyya*, studia islamica, 1958, p. 72.

عبد الرحمن بن رستم :

أجمع المؤرخون على أن والده رستم من أصل فارسي (1)، واختلفوا في نسبه فاعتبره بعضهم من أبناء رستم القادسية (2)، واعتبره آخرون من أبناء الملوك الساسانيين (3)، فجعلوه عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سابور بن بابك بن سابور ذي الأكتاف الملك الفارسي ، وقد نستبعد النسب الأول اذا علمنا أن معركة القادسية كانت في سنة 16هـ ، كما نستبعد النسب الثاني لأنه ربما كان لاضفاء صبغة ملوكية عليه ، وربما لشهرة هذين الرستميين في تاريخنا الاسلامي .

ولد عبد الرحمن في العراق أواخر ق 1هـ/7م ، ووافاه أجله في 168هـ/784م أو 171هـ/787م (4) ، وقد نشأ وحيد أبويه ، وفي طفولته ذهب والداه الى الحج ، واصطحباه معهما ، وفي مكة فاجأ القدر رستم واختطفه ، وترك عبد الرحمن يتيم الأب ، فتزوجت أمه رجلا من القيروان قدم مكة حاجا ، فارتحلت معه الى القيروان واصطحبت وحيدها عبد الرحمن (5).

عاش عبد الرحمن صباه في القيروان ، في بيت اسلامي ، في ظل رعاية أمه وزوجها ، فنشأ على الأخلاق الفاضلة والعادات السامية ، وكان في تربيته هذه وحياة اليتم ، ومكانة العلماء في عهده ، دافع له على العلم ، فأقبل عليه في

---

(1) السمعاني : **كتاب الأنساب** ، مارجليوث ـ ليدن 1912 ، ص : 252 ، وذكر السمعاني عن الانتساب الى رستم « والمشهور بهذا الانتساب جماعة من أهل اصفهان » انظر نفس المكان .

(2) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 225 ، السلاوي : **الاستقصا** ، ج1 ، ص : 111 .

(3) ابن حزم : **جمهرة انساب العرب** ، ص : 475 .

(4) اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته فجعلها البعض 168 هـ ، انظر : ابن عذاري : **البيان** ج1 ، ص : 196 . كذلك ZAMBOUR, *Manuel de généologie et de chronologie*, p. 64.

(5) وجعلها بعضهم 171 هـ ، انظر : الزركلي : **الاعلام** ج5 مادة عبد الرحمن بن رستم ، سليمان الباروني : **الأزهار** ، ج2 ، ص : 101 .

حول قدومه القيروان انظر : أبوزكريا : **السير** ، ورقة 12 ، الدرجيني : **طبقات** ج1 ، ص : 19 ، 20 ذكرنا أن جماعة من اصفهان سكنوا البصرة ، فاذا كان من بينهم رستميين فربما كان رستم من الموالي الذين اخذوا المذهب الاباضي وبذلك كان عبد الرحمن أباضيا قبل قدومه الى المغرب ، وبذلك من المحتمل أن يكون قدومه مع الجيوش الاسلامية فقد ذكر ابن خلدون أنه « قدم الى افريقية مع طوالع الفتح » انظر : **العبر** ج6 ، ص : 246 . وقد يفيد تصرف أمه هذا في تأكيد عدم انتسابه الى بيت ملكي .

مساجد القيروان ، فتعلم العربية وحفظ القرآن ثم كان أحد حملة العلم الى البصرة وكان تقيا متقشفا متواضعا ، محبا للعدل والمساواة ، عين الشرطة وأقام حدود الله واستطاع بفضل سياسته وسلوكه واعتماده على رجال أكفاء أن يكسب رضى الناس بجميع فئاتهم ، فلم يقم عليه أحد (1) .

كان عبد الرحمن مولى للعرب ، وشيعة لليمنيين (2) ، لم تعترضه مشاكل في دولته ، لكنه زرع بذور مشاكل لمن أتى بعده بديمقراطيته وترشيحه سبعة رجال من بينهم ابنه عبد الوهاب(3)، واذا كان بعض المؤرخين قد أطنبوا في ذكر أخباره فهناك من ذكر نتفا منها أو أهملها استصغارا لشأنه وشأن مملكته ، مع أنه بالامكان مقارنته بعبد الرحمن الداخل وادريس الأول ، وعبد الله الشيعي ، اذ تمتع كل منهم بشخصية دينية وحربية وعلمية ، واتبعوا استراتيجية واحدة ، فنزلوا المغرب بمفردهم واستطاعوا أن يجمعوا الأنصار حولهم فيؤسسوا دولا مشرقية رأس مغربية الجسم .

الامام عبد الوهاب :

نشأ في كنف والده عبد الرحمن ، فأخذ عنه حميد الخصال وجميل الأخلاق وتعلم علوم الدين واللغة على يديه ، فكان عالما ، يستعمل اللغة العربية والفارسية والبربرية (4) ، وقد شهد فتح طرابلس القيروان وحصار طبنة ، فاكتسب خبرة سياسية وعسكرية ، وربط نفسه بقبيلة زناتة برباط النسب ، فكان صهره جارون بن القمرون الزناتي (5)

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 10 ـ 16 .

(2) ابن خلدون : **العبر** : ج6 ، ص : 246 .

(3) ذكرهم الشماخي ثمانية هم : مسعود الاندلسي ، عمران بن مروان الاندلسي ، يزيد ابن فندين ، أبي قدامة اليفرني ، أبو الموفق سعدوس ، شكر بن صالح الكتامي ، مصعب بن سرحان ، عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، أنظر : **السير** ، ورقة 145. كذلك محمد بن الحاج يوسف اطفيش : **الرد على العقبي** ، ص : 100. في حين ذكرهم الدرجيني ستة فاسقط مصعب بن سرحان ، واعتبر أبو قدامة اليفرني هو يزيد بن فندين ، أنظر : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 46 - يبدو أن عبد الرحمن تشبه بعمر بن الخطاب الذي جعل الأمر شوري في سبعة رجال ، وبذلك يمكن اثبات مصعب بن سرحان في قائمة الدرجيني .

(4) T. Lewicki, *Mélanges besbères* ibâdites *R.E.I.*, 1936, p. 268.

(5) محمد بن الحاج يوسف أطفيش : **الرد على العقبي** ، ص : 92 .

كان أحد المترشحين للامامة ، ويبدو أن عبد الرحمن رشحهم بشكل يضمن له نجاح ابنه ، فمسعود وعمران أندلسيان ، لا قبيلة لهما تساندهما ، وابن فندين اليفرني يحتمل تأييده لعبد الوهاب لصلة النسب (1) ، وربما آخر عازف عن الامامة . الا ان أغلبية الناس مالت الى تولية مسعود الاندلسي (2) ، لكنه رغب عنها أمام اصرار واستماته عبد الوهاب للوصول اليها ، فتمكن من ذلك بعد شهور قليلة من وفاة والده .

يبدو ان حرص عبد الوهاب على امامته قد نزع عنه ثوب الورع المثالية ، فكان ميكافيللي النزعة لا يتريث في ضرب الرؤوس ببعضها والاعتماد على سياسة « فرق تسد » وعلى استقطاب القبائل بالهبات والاكرام كقبائل مزاته وسدراته ولما كان لا غنى لأي حاكم في عهده عن كسب تأييد فقهاء المذهب فقد أرسل 12 ألف دينار لامام المذهب الاباضي الربيع بن حبيب (3) ، توطيدا لعلاقته به ، وبذلك لم تكن سياسته من شيم اناس يسودهم الايمان الصحيح .

كانت لهذه السياسة ردةفعل لدى قبائل المغرب الأوسط التي انقادت لأبيه ، فقام يزيد بن فندين عليه (4) ، وأخذ يطالب بتأسيس مجلس من أهل الحل والعقد يعهد اليه اختيار الامام ، فرفض طلبه ، فأنكر وأتباعه امامة عبد الوهاب ، ثم اشتعلت نار الحرب وحين حس عبد الوهاب بشدة خصومه ، لجأ الى تحكيم الربيع بن حبيب (5) . ولجأت بعض القبائل المعارضة الى التكتل عن طريق المصاهرة ، كما فعل ابن مسالة بخطبته لبنت لواتيه ، فخطبها عبد الوهاب لنفسه ، ـ كما سبق ـ فدارت رحى الحرب بين هوارة ومن والاها وبين عبد الوهاب ، خرج منها منتصرا ثم واجه معارضة المعتزلة (6) ، الذين كانوا يعتبرون صنيع عبد الوهاب خروجا

---

(1) كانت أم عبد الوهاب يفرنية ، أنظر : الشماخي : **السير** ، ص : 145 .

(2) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 46 .

(3) الشماخي : المصدر السابق ، ص : 161 .

(4) أبو زكريا : : **السير** ورقة 44 ، سليمان الباروني : **مختصر** تاريخ الاباضية مطبعة الادارة ، مكتبة الاستقامة ، تونس 1357هـ/1938م ، ص : 39 .

(5) الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ،ص : 49؛ الشماخي : المصدر السابق ، ص : 147 .

(6) المصدر السابق نفسه ، ج 1 ، ص : 57 .

صارخا على مبدئهم في الامامة ، فأيدوا النكار من جهة ، واقتتلوا معه من ثانية ، وكادوا يلحقون به الهزيمة ، وقد اضطرته هذه الأوضاع أن يسالم جيرانه ، حتى تمكن من مسك زمام الأمور وأصبح رأس الصفرية والاباضية والواصلية الى حين وفاته (1) سنة 180هـ / 796 م تقريبا .

الامام افلح بن عبد الوهاب

لم يكن افلح بعيدا عن جو الاضطرابات والحروب في تاهرت ، فخاض غمارها مع والده وشاركه محاربته النكارية والواصلية ، فاكتسب خبرة عسكرية الى جانب حنكته السياسية تولى الحكم وسط هذا الوضع من المنازعات والأحقاد فحاولت القبائل المعارضة أن تقوم بمحاربته والقضاء على حكمه ، تعبيرا عن استنكارها لحكم الرستميين ، فخرجت عن طاعته الواصلية وغيرها من القبائل البربرية في الجهات القريبة من تاهرت ، فحاربها وأخضعها ثم مالت الى الهدوء ، ولم تحرك ساكنا بعد ذلك ، ربما أنها شعرت بعجزها أمام قوته وسياسته وربما أنه وافقها في بعض أقوالها(2)

اتبع افلح سياسة أبيه في التأريش بين القبائل ، لئلا تتحالف عليه فتزيل ملكه ، فاعتمد على جماعات من الفرس ومن نفوسه ، ويحتمل أن يكون ثمة دور لثروته الطائلة واشتغاله بالتنجيم في كسب بعض الناس الى صفة . فطالت أيام دولته وانتشر الامن والهدوء ، فازدهرت التجارة واكتست القبائل الأموال واتخذت العبيد

---

(1) ذكر ابن عذاري أن وفاته كانت سنة 188هـ/ 804م ، أنظر : **البيان** ج 1، ص: 197، وجعلها الزركلي 190هـ/806م أنظر : الاعلام ج 5 مادة « عبد الوهاب » في جين جعلها سترتمان Strothmann 208هـ/ 813م أنظر : **Strothmann**, Berber und Ibaditen. Der Islam. XVII, 1928, p. 263.

(2) لم تكن مسألة خلق القران قد استفحل أمرها قبل نهاية ق 2هـ ، لكن بمجي المأمون الى الخلافة بدا بحمل الناس على القول بها ، وفعل مثله المعتصم . فالواثق وامتحن الناس بها انظر : ابوزكريا بن اياس الاسدى : تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيب القاهرة : 1387هـ/ 1967م . حوادث سنة 218هـ219هـ ص 412 ـ 417 ويعاصر هؤلاء من الرستميين الامام افلح فكان عليه ان يحدد موقف مذهبه من مسألة خلق القران فوافق ، ذلك ، وقد ذكر ابويعقوب الورجلاني ان القرآن مخلوق واورد أدله على ذلك ، انظر : الورجلاني : الدليل ج 1 ص 54 ويبدو أن هذا مادعا نالليلنو أن يذكر بأن القرآن مخلوق قول قال به السلطان الرستمي افلح ابن عبد الوهاب انظر : نالليلنو : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ترحمة عبد الرحمن بدوي فصل الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الاباضية في افريقيا الشمالية ص : 210 .

وتنافس الناس في البنيان وانشغل الرستميون بجمع الأموال ، فحال ذلك دون مساهمتهم في محاربة أعداء الاسلام في وقت كان هذا الأمر مقياسا للدول الاسلامية

الامام أبو بكر (230هـ ـ 241 هـ / 844 م ـ 855م) : (1)

شهد أبو بكر تناقضات تاهرت بأنواعها في عهد والده ، ومن المحتمل أن يكون اشتغل بالتجارة ، فجمع ثروة طائلة ، أتاحت له أن يعيش حياة مترفة ، فانغمس في الملاهي والملذات ضاربا عرض الحائط بالمثل الأخلاقية ، وارتبط مع العرب في تاهرت برباط المصاهرة ، فتزوج بأخت محمد بن عرفة ـ أحد زعماء العرب .

تولى الحكم بعد وفاة والده وربما تمكن من ذلك ببذله وسخائه ، وغيبة أبي اليقظان في المشرق (2) ، فحصل على اسناد وتأييد الاتباع التقليديين للرستميين ، يحيط الغموض بحكمه بصفة عامة ، حتى من قبل المؤرخين الاباضيين فيهما البرادي ذكره ، ويجعل أبا اليقظان خليفة والده أفلح ، ولم يزد عبد الله الباروني في ذكره لابي بكر عن قوله « تولى ابنه أبو بكر فلم يستقم له الأمر » (3) . وما كان هؤلاء ليهملوا اماما اباضيا لولا سوء سيرته وفساد حكمه ، لذلك لم يمكث طويلا حتى قامت بعض . القبائل مثل هوارة تعترض على توليه الحكم بطريقة غير شرعية ، وانحرافه عن مبادىء المذهب ، فأعلنت على لسان عبد العزيز بن الاوس ـ كما سبق مطالبتها بجعل الأمر للمسلمين .

تركت حياة النعيم والرفاهية بصماتها على شخصية أبي بكر ، فلم يكن له من الشدة والتجربة السياسية ما كان لأبيه ، فاعتمد على جماعة تنقصهم الكفاءة ، فاستطاع محمد بن عرفة أن يجعل لنفسه نفوذا واسعا ، ثم أقدم أبو بكر على قتله

---

(1) ذكر ابن الصغير عن ابي اليقظان فقال كان عمره امارته نحوا من اربعين عاما وقد لحقت أنا بعض ايامه ، انظر السير ، ص : 44 ، ويضيف مات ابو اليقظان سنة إحدى وثمانين ومائتين انظر : ص ، 49 فيكون عزل ابي بكر عن الحكم سنة 241هـ وذكر أن الحروب التي شهدها ابو بكر قبل عزله استمرت سبع سنوات وذلك من الارجح أن يكون ابتدأ حكمه حوالى سنة 230هـ .

(2) ذكر ابن الصغير أن أبا اليقظان خرج للحج قبل وفاة والده وهناك ألقي عليه القبض وسجن ببغداد ، ولذلك فان أفلح حين وافته منيته وابنه محبوس ببغداد واجتمعت الاباضية فلم يصيبوا في أولاد افلح اذ فقدوا ابا اليقظان أرجح عندهم من ولده أبي بكر ، أنظر نفس المصدر ، ص : 28 ـ 30 .

(3) عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي : رسالة سلم العامة ، مطبعة النجاح ، مصر 1324 هـ ، ص : 14 .

مكرا وخدعة ، فثارت حمية الجاهلية ، وقام محمود بن الوليد مطالبا بثأر ابن عرفة ، فحارب أبا بكر وأتباعه من المسيحيين والرستميين (1) وغيرهم وانتصر عليهم ، ثم وقعت الحرب بين العرب والجند وهوارة من جهة وبين الرستميين وأتباعهم من جهة أخرى ، فاستولى محمد بن مسالة الهواري على تاهرت (2).

قد نستطيع أن نرد الأسباب الحقيقية لهذه الفتن والحروب ، الى اهمال أبي بكر أمر البلاد وسوء ادارته ، ومشايعته أهل المروءات ، وضعف شخصيته ، مما أتاح المجال لاثارة العصبيات واشتعال الحروب ، فكانت لها نتائج سيئة على تاهرت ، اذ أدت الى احياء الجروح القبلية ، وضياع أمر السلطة الحازمة الحقيقية ، وأدت الى تدهور الأحوال الاقتصادية ، اذ كان من الصعب ممارسة أوجه النشاط الاقتصادي في جو مشوب بعدم الامن والاستقرار ، فجف الزرع والضرع ، وذهبت الأموال وانتشر الفسق والفساد وعمت السرقة والغش (3) ، وفي هذا تعبير واضح عما وصلت اليه الأحوال في عهد أبي بكر ، ولم ينقذ تاهرت الا انتقال الامامة الى أبي اليقظان .

ابو اليقظان (241هـ - 281هـ / 855م - 894م) :

يبدو أن أبا اليقظان لم يتأثر بحياة الترف في بيت والده ، فنشأ متواضعا ورعا زاهدا منكبا على علوم الدين وتأليف الكتب ، وقد أثبت البرادى (4) رسالة لأبي اليقظان موجهة للمسلمين ، يحضهم على عمل الخير ويذكرهم باليوم الآخر ، تدل على ورعه وتقواه ، واستعماله اللغة العربية ، وقد قام بأداء فريضة الحج في عهد والده ، وهناك ألقت رسل العباسيين عليه القبض ، فسجنه الواثق مع أخيه المتوكل (5) فلما

(1) « واتصل ذلك بأبي بكر فابتدر اليه خاصته من المسيحيين والرستميين وغيرهم » ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 36 .
(2) نفس المصدر ، ص : 39 .
(3) الشماخي : **السير** ، ص : 221 .
(4) البرادي : **الجواهر** ، ص : 182 .
(5) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 28 ، محمد بن تاويت : **دولة الرستميين** ، ص : 124 . ويؤكد الطبري أن الواثق سجن أخيه المتوكل ، انظر الطبري : **تاريخ الأمم والملوك** ، حوادث سنة 232هـ ، ج11 ، ص : 1370 .

آل أمر الخلافة الى المتوكل أطلق سراحه عاد أبو اليقظان الى تاهرت ، فوجد أخاه أبا بكر على كرسي الامارة ، وقد صرف نظره عنها لينقاد الى رغبات نفسه ، فقام هو بعبء الحكم ، وشارك في الحروب التي شهدتها المدينة ، وأخرج منها مع غيره من الرستميين ، ثم عاد اليها اثر مفاوضات جرت مع ابن مسالة الهواري . ثم فيها التراضي على عزل أبي بكر ونقل الامامة الى أبي اليقظان .

أتاحت التجربة السياسية لأبي اليقظان سواء على عهد والده أو عهد أخيه أبي بكر واقامته في بغداد التي مكنته من الاطلاع عن قرب على الحضارة العباسية (1) وحسن أخلاقه ، وربما لكونه رستميا متحررا ، أن يكسب الى جانبه بعض جماعات تاهرت ، وبذلك ضم مجلسه اشخاصا من مختلف قبائل تاهرت ، كعيسى بن فرناس النفوسي ، وابن الصغير الهواري ، وعبد الله اللمطي ، وكان أخص الناس به رجل من العرب هو محمود بن بكر .

كان على أبي اليقظان أن يواجه الوضع المتدهور ، فعين على القضاء أبا عبد الله بن أبي الشيخ ، وعين القائمين على بيت المال والمحتسبين من نفوسة ، فاستقرت الأمور وسارت القوافل ، فحسنت الأحوال وانتشر الرخاء ، واستمر متربعا على كرسي الامامة حتى وافته منيته سنة 281هـ / 894م .

أبو حاتم يوسف وعمه يعقوب :

كان أبو حاتم قبل ولايته تاجرا (2) ، ويبدو أن تجارته قد درت عليه المال الكثير ، وبهذا كانت نظرته للأمور نظرة مادية ، فولد لديه ضعف النظرة الروحية وبالتالي ضعف التزامه بمبادىء المذهب الاباضي ، ويبدوا أنه كان يعد للاقدام على

(1) ذكر ابن الصغير أن أبا بكر صرف النظر في المدينة وأحوازها الى أخيه أبي اليقظان «مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بني العباس وسيرهم » انظر : ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 32 ، وهكذا فقد سمحت له هذه الاقامة بتوسيع مداركه وتحرر أفكاره والاطلاع على أساليب الحكم والتنظيم .

(2) كانت تركة والده 17 ألف دينارا : انظر : ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 49 ، وكان أبو حاتم يبذل الهبات لكسب الانصار ، هذا يعني أنه كسب ماله بنفسه ، وذكر ابن الصغير أن أبا حاتم» «قد كان أخرجه أبوه في جيش مع وجوه زناتة ليجوروا قوافل قد اقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى» «انظر : ص : 50 . فمن المحتمل أن بعضا منها كان له خاصة وأن جده أفلح كان تاجرا .

الصعود الى كرسي الحكم ، فأثمرت جهوده وتحقق ذلك سنة 281هـ / 894م ، فظهرت عدة قوى منافسة له في تاهرت كعمه يعقوب وأخيه يقظان وجماعات العرب والقبائل غير الاباضية وجمهور المتدينين ، ويبدو أن جهود هؤلاء قد اضطرت أبا حاتم أن يصف تاهرت بأنها ليست بدار قرار (1) ، ويخرج منها رفقة أتباعه من الرستميين والعجم ونفوسة وصنهاجة والمسيحيين (2) ، واستمر على سياسته في كسب الاتباع بالبذل والعطاء «فأعطى الأموال» (3) الا أن المعارضة في تاهرت شعرت بتمسك الرستميين بالحكم فاتفقوا على اسناده الى يعقوب بن افلح ، بصفته رستميا مناوئا لأبي حاتم ، فأرسلوا اليه بمكان اقامته في زواغة (4) وعقدوا الولاية له .

لم ،ييأس أبو حاتم ، فدارت الحرب بينه وبين عمه يعقوب حتى « قطعت السبل وفزع من أيدي الناس الحرث والنسل » (5)فقامت القبائل التي تضررت اقتصاديا من جراء هذه الحروب الى أبي يعقوب المزاتي ، فطلب هذا من المتحاربين تقديم ممثلين عنهما ، فأعاد التاريخ نفسه ، وقدم يعقوب عبد الله بن اللمطي وقدم أبو حاتم منكود وابن أبي عياص اللواتين ، فاتفقوا على ابعاد الطرفين عن الحكم ، فخرج أبو حاتم الى قصره بتسلونت ، الى أن أدخله محمد وأحمد ـ من عائلة دبوز ـ مدينة تاهرت ، فخرج يعقوب الى زواغة بعدما أقام أميرا 4 سنوات .

أقام أبو حاتم اماما ، فأسند مهمة القضاء والى ابن الشيخ وبيت المال الى عبد الرحمن بن صواب النفوسي ، والشرطة الى زكار وابراهيم بن مسكين ، ولاشك أن انتصارات الشيعي قد وصلت مسامع الرستميين ، الا أنهم بدلا من توحيد صفوفهم ، فقد قام بنو اليقظان بقتل عمهم وامامهم أبي حاتم (6) 294هـ/907م ،

(1) ابن الصغير المصدر السابق ، ص : 52 .

(2) ذكرنا أن المسيحيين كانوا من حماة البلد وبطانة الامام ، ويبدو أنهم كانوا كذلك تجارا ، فذكر لويكي Lewicki أنه قدم الى تاهرت جماعة مسيحية تتكلم اللغات الرومية وتعمل بالتجارة ، انظر :
T. Lewicki, *Arabic external sources*, 1969, p. 25.

(3) ابن الصغير ، المكان السابق .

(4) زواغة : احدى قبائل البربر البتر ، انظر : عنها ، ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 264 ، انظر : **خريطة تاهرت وضواحيها** .

(5) ابن الصغير : نفس المصدر ، ص : 55 .

(6) الدرجيني : **طبقات** ج1 ، ص : 94 . ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص : 197 .

ونقلوا الامامة الى والدهم يقظان ، فأقام وأمره في اضطراب حتى أن بعض المؤرخين اعتبروا ابتداء حكمه نهاية الدولة الرستمية (1) . واستمر اماما الى سقوط الدولة على يد أبي عبد الله الشيعي 296هـ/909م .

سقوط الدولة الرستمية :

لم يكن سقوط الدولة الرستمية حدثا عفويا بقدر ما كان نتيجة حتمية لما وصلت اليه الأمور من تدهور وانحطاط ، لعب الرستميون دورا رئيسيا فيه بسياستهم ، فقد لاحظنا أن الحماس للمذهب الذي كان على عهد جدهم عبد الرحمن قد ضعف ، وانحرفوا عن مبادىء المذهب ، ففتقدوا العصبية المذهبية ، وكان اعتمادهم على جماعات الفرس (2) ، وتمسكهم بالامامة يعني أنهم كانوا يقفون ضد كل محاولة لإقامة دولة اسلامية بربرية أوعربية ، فخسروا كثيرا من تأييد المجتمع لهم ، وباتوا تنقصهم العصبية ، التي تعتبر الركيزة الأساسية في قيام الدولة ، كما أن الرستميين عاشوا حيّاة مترفة ـ كما سبق ـ فلم يعودوا يفكرون في الحرب والنضال ، فأهملوا العناية بالجيش وعجزوا عن الدفاع عن مدينتهم .

وقد أدت تلك الحروب التي وقعت بين الرستميين أنفسهم الى انقسامهم وانقسام المجتمع ، والى زيادة تدهور أوضاع تاهرت حتى « فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقا والغلمان أخدانا » (3) فقامت معارضة في وجوههم لكنها فشلت ، ربما لأن القائمين بها لم يتمكنوا من توحيد جهودهم لاختلاف مذاهبهم وأهوائهم .

بهذا ربما أوضحنا دور الرستميين في ضعف تاهرت وسقوطها ، وكان بامكانهم لو التزموا بمذهبهم ودينهم ، واتبعوا سياسة رشيدة أن يحققوا ـ الى

---

(1) ذكر الدرجيني : « فانقطعت الامامة بموت الامام يوسف » انظر : المكان السابق . ويرى بعض المؤرخين أن الامام يعقوب أعيد الى العرش بعد مقتل أبي حاتم سنة 294 هـ ، فكان آخر امام رستمي ، انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : رستم (بنو) ج10 ، ص 93 ، كذلك : T. Lewicki, *Etude ibâdi/e*, p. 98 Strothmann: Berber und Ibaditen, p. 264.

(2) ابن تاويت : **دولة الرستميين** ، ص : 106 .

(3) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 56 .

حد ما ـ ما حققه الاسلام في أيامه الأولى في الجزيرة العربية ، وكان بامكانهم لو عملوا بنجاح على توحيد الاباضيين والخوارج بصفة عامة في المغرب ، أن يغيروا مجرى الأحداث لكنهم بسياستهم تلك أوجدوا فرصة للقوى الخارجية ممثلة في عبد الله الشيعي لأن يضع حدا للدولة الرستمية .

عقد الشيعي العزم على الخروج الى سجلماسة ، لاطلاق عبيد الله المهدي من السجن ، وكان بامكانه أن يسير في الطريق الصحراوي المار بورقلة ، لكنه آثر الطريق المار بتاهرت ، فهو على علم بأنبائها بواسطة أتباعه الشيعة وجواسيسه(1) ، فذكر أن ابن الصغير كان جاسوسا شيعيا (2) ، وربما تحت اغراء ثروتها وموقعها الاقتصادي ورغبته في القضاء على المذهب الاباضي ، وتحقيق رسالته التي أتى من أجلها الى المغرب فخرج من رقادة بجيوشه ، فخوروا بانتصاراته ، وعسكر على مقربة من تاهرت ، فخرج اليه « وجوه أهلها من المخالفين المالكية والواصلية والشيعة ومن بها من الصفرية ولاقوه وشكوا اليه امارة الفرس » (3) ومن المحتمل أن يكون خروجهم لاعلان الولاء والتاييد له ، وربما كان طلبا للأمان على أنفسهم (4) ، وخرجت اليه دوسرا ـ كما سلف ـ مصطحبة أخاها ، فلما وصلته ، أخبرته بقصة أبيها ، فلم يهتم بها ، فوعدته بأنه « اذا أخذ بثأرها ان تزوجه من نفسها »(5) ، وهذا قول يمكن استبعاده مادام الشيعي قد ترفع عن حسان القيروان ومن المحتمل أنها أرادت ـ كما أسلفنا ـ اعلان الولاء له ، وتعيين أخيها واليا من قبله وقد كشفت دوسرا وأخوها بعملهما هذا عن ضعف المدينة ، فقام الشيعي اليها « ودخلها بالامان وقتل

---

(1) ذكر القاضي النعمان : إن الشيعي « اتصل به عنها سوء حال ولابد أن هذا الاتصال كان بواسطة جواسيسه ، انظر : القاضي النعمان : **رسالة افتتاح الدعوة** ، ص : 236 ـ 237 .

(2) يرى ابراهيم فخار أنه كان جاسوسا شيعيا : **رسالة شخصية** ، 1975/5/14 ـ الجزائر .

(3) أبوزكريا : **السيرة** ، ورقة 108 . الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص ـ 94 .

(4) ابن أبي دينار : **المؤنس** ، ص : 54 .

(5) أبوزكريا : المكان السابق .

بها من الرستمية يقظان بن أبي اليقظان وجماعة أهل بيته » (1) ، فانتهبها أتباعه ، وفقد الاعيان مراكزهم ، وقضى على الرستميين وحكمهم في تاهرت سنة 296هـ/909م(2). ولم يستطع أصدقاؤها وجيرانها أن يقدموا أية مساعدة لظروفهم الخاصة ولطبيعة العلاقة التي تربط بينهم وبين تاهرت والتي ستتضح في الفصول القادمـة .

* * *

(1) ابن عذاري : المصدرالسابق ، ج 1 ، ص : 153 ، كذلك : الدرجيني : المصدرالسابق ج 1 ، ص94 ، سليمان الباروني : الازهارالرياضية ج2 ، ص : 295 .

(2) البكري : المصدرالسابق ، ص : 68 ، ابن عذاري : المصدر السابق ج1 ، ص : 197 الدرجيني : المكان السابق كذلك ، أبواليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى الميزابي : **ديوان ابن اليقظان** ـ ط 1 ، المطبعة العربية الجزائر1350 هـ ب A. Negre, *La fin de l'Etat rustamide*, R.H.C.M., 1969, p. 10.

144هـ/761م ـ 296هـ/909م

العلاقة السياسية بين تاهرت والقيروان :

كان نجاح ابن الأشعث في القضاء على الامامة الاباضية في القيروان ، وفرار عبد الرحمن بن رستم يحمل معنى استمرار العلاقة العدائية بين العباسيين والاباضيين (1) ، ويظهر هذا في التفاف هؤلاء حول أبي حاتم وتجهيز العباسيين

(1) كان الخوارج يعارضون حصر الخلافة ، ويعتبرونها حقا لكل عربي حر ، ثم عدلوا عن قولهم هذا بدخول جماعات من غير العرب الاسلام فنادوا بأنها حق لكل مسلم توفرت فيه شروطها ، انظر : حسن ابراهيم حسن : **تاريخ الاسلام** ، ج2 ، ص : 3 ، ويذكر ابن حزم أن «أسلاف الخوارج كانوا أعرابا أنظر : **الفصل في الملل والنحل** ، ج2 ، ص : 156 ، لهذا اعتبر الخوارج العباسيين مغتصبين للخلافة فميز العداء طابع العلاقة بينهم ، لكن الاباضيين فضلوا اللجوء الى القعود والتقية بعدما رأوا قسوة العباسيين ازاء خصومهم ، وكانوا يرون أنه «ليس في أن ظهر فجور هؤلاء في ذات أنفسهم وظهرت المناكر على أيديهم ما يخرجهم من ملة الاسلام» انظر : الورجلاني : **الدليل** ، ج 3 ، ص : 46 ، وذكروا عن الربيع بن حبيب قوله : «صلوا خلف كل بار وفاجر» انظر : الشماخي : **مقدمة التوحيد**، ص : 59 ، ونسبوا للرسول قوله : « اطيعوهم ما أقاموا فيكم الحمس وفي حديث ما لم يمنعوكم الخمس » الورجلاني **الدليل** ، ج 3 ، ص : 65 . كذلك ، فأن الاباضية لا يرون الخروج الا اذا كانوا متأكدين من النصر ، انظر : ابن حزم : المصدر السابق ج4 ، ص : 172 وربما كذلك لاعتدالهم من الامامة فهم يجيزون امامة المفضول مع وجود الافضل انظر : أبوزكريا : **السير** ، ورقة : 46 ، وذلك عن الربيع بن حبيب في جوابة عند خروج ابن فندين وربما لهذا لم تتعرض الخلافة لهم بسوء بالاضافة إلى موقفهم من فوق الخوارج الاخرى فالاباضيون يبراون من الصفرية والازارقة ، انظر : محمد بن الحاج يوسف اطفيش : **الرد على العقبي** ، ص : 24 ، فكان العداء بين العباسيين والاباضيين فاترا ، يدل على ذلك اقامة أبي عبيدة في البصرة ، وزج أبي اليقظان في السجن مع المتوكل ، انظر : ابن الصغير **السيرة** ، ص : 27 ، وعلى العموم فقد كان الاباضيون « مجرد فرقة من الفرق الدينية ليس لها نشاط حيوي ، انظر : LIVI DELLA VIDA. ليفي دلافيدا مقال «خوارج» **دائرة المعارف الاسلامية** ، ج8 ، ص : 274 .

الجيوش الجرارة اليهم ، أما عبد الرحمن فقد اقتضته ظروفه أن يدخل في طور الكتمان ويلوذ الى التقية ، فلم تكن امكانياته تسمح له برد الهزيمة التي لحقت به ، اذ كان يعتمد على اعانات مالية من الشرق ، كذلك فانه حتى وقوع حصار طبنه 154هـ / 770م لم يستطع أن يجند أكثر من خمسة عشر ألف جندي ، فاضطر الى التزام الهدوء ، وربما أوحى له تحالف الخوارج بزعامة أبي قرة أن الفرصة أصبحت سانحة لاستعادة القيروان فعاد الى طور الدفاع ، الا أن هذا أمر مستبعد ، والا لكان الأجدى له أن يتحالف مع أبي حاتم ، الا اذا كان قد فقد ثقته باباضية افريقية ، لانفضاضهم عنه سابقا ، ومهما يكن من أمر ، فان عبد الرحمن قد وضع لنفسه سياسة منذ فراره تقوم على تأسيس دولة ثابتة الأركان ، والعمل على نشر المذهب الاباضي ، وربما أن فشل الخوارج عامة في هزيمة القيروان في ذلك الحصار قد شجعه على انتهاج هذه السياسة ، لذلك « شمر عن ميزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة والضعيف » (1) بمعنى أنه ركز جهوده واهتمامه على أموره الداخلية ، وربما لهذا لم يتحرش بالقيروان ، فمنذ اشتراكه في حصار طبنة ، بل وقبل ذلك ، لم يحاول أن يختلق المشاكل ، ويثير الاضطرابات أمام القيروان .

ما كان عبد الرحمن لينتهج هذه السياسة ، لولا أن ظروف هذه الأخيرة ـ القيروان ـ كانت تفرض ذلك ، فإذا كان محمد بن الأشعث قد دخل القيروان ، الا أن الاضطرابات قد واجهته ، فقد « خرج عليه هاشم بن اشناخنج الفراساني وظافره من بالبلد من الجند وأهل خراسان فأخرجوه عن البلد » . ولم ينج منها الاغلب بن سالم فقد حاربه أبوقرة المغيلي أواليفرني ، وثار عليه الحسن بن حرب بتونس وكان من العرب البلديين ، ولم يخل عهد عمر بن حفص 151 ـ 154هـ من الاضطرابات ، فاستولى الاباضية على القيروان ، ولم ينقذها منهم الا يزيد بن حاتم الذي « بث خيوله في طلب الخوارج فقتلهم في كل سهل وجبل » (2) وكان كثير الشبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وذكر أبو العرب أنه قال « الحمد لله الذي لم أمت حتى جعلت فيما بيني وبين الله تبارك وتعالى من يحكم في عباده بالحق » (3)

(1) ابن الصغير : السير ، ص : 10 .

(2) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 160 .

(3) أبو العرب : **طبقات علماء افريقية وتونس** ـ تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي ـ الدار التونسية للنشر ـ المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1968 ، ص : 218 .

ومع هذه الصفات الا أنه لم يهنأ من الفوضى ، فثار عليه الاباضيون في طرابلس سنة 156هـ / 772م برئاسة أبي يحي بن فانوس الهواري (1) ، وهم اباضيون ، لكن يزيد نجح في اخماد ثوراتهم جميعا ، ومهد البلاد ، ويبدو أن وجود شخصية قوية كيزيد بن خاتم أميرا على افريقية ، قد زاد عبد الرحمن تمسكا بسياسة المسالمة ، ويبدو أن يزيد نفسه ماكان ليفتح مشاكل جديدة لنفسه ، فترك عبد الرحمن وشأنه وربما أنه كان لعبد الرحمن ويزيد ارادة مشتركة في المحافظة على السلم وحسن الجوار .

لقد كشف ابن الصغير عن وجود قرويين مقيمين في تاهرت ـ كما سبق ـ في عهد عبد الرحمن بن رستم ، ومن المحتمل أن يكون بعض هؤلاء من المعارضة السياسية للقيروان ، وربما كان بعضهم من أتباع هاشم بن اشناخنج ، فقد ذكر عبد العزيز سالم أن هاشم فر الى تاهرت « وجمع هناك جموعا كثيفة من البربر بلغ عددهم نحو عشرين ألفا » (2) ، ثم التقى به ابن الاشعث قرب تهودة وهزمه ، ففر « هاشم وفلول جيشه الى اطرابلس »(3) ومن الممكن الاستنتاج من فرارهم الى اطرابلس أن يكون ـ بعضهم على الأقل ـ من اتباعها الذين اتبعوا عبد الرحمن والذين مازالت صدورهم تغلي حقدا على القيروان ، ومن الممكن أن تكون قد انضمت بعض القبائل الناقمة على الحكم العربي الى هاشم » ولكن من المستبعد أن يكون عبد الرحمن قد أمده بمساعدة بصفة رسمية واذا حصل ذلك ، فلن تزيد عن مساعدة رمزية ، اذ تؤكد الحوادث أن عبد الرحمن ظل متمسكا بسياسته ، فهو لم يحاول أن يستغل المعارضة القروية في تاهرت لازعاج القيروان ، ولم يمد يد المساعدة للثائرين الاباضيين على يزيد بن خاتم ، وهو امام المذهب الاباضي بالمغرب .

ومما تجدر ملاحظته أن أبا جعفر المنصور والمهدي من بعده ، قد بذلا جهودا لاسقاط الدولة الأموية في الأندلس (4) ، لكن لم يذكر أحد من المؤرخين أنهما قاما بمثل هذه الجهود للقضاء على الدولة الرستمية في المهد ، مع مراعاة اختلاف

---

(1) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 161 ، ابن خلدون : ج6 ، ص : 286 .

(2) عبد العزيز سالم : **تاريخ المغرب الكبير** ، ج2 ، ص : 346 .

(3) نفس المكان .

(4) عبد العزيز سالم : **سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس** ، المؤرخ العربي 1975 ، ص : 133 .

ظروفها عن ظروف أمويي الأندلس ، وربما كان ذلك لأن الاباضيين في تاهرت مالوا الى المسالمة ، ولأن الدولة الرستمية كانت دولة ناشئة ، ليست ذات شأن معتبر ، ربما لهذا أعاد عبد الرحمن دراسته لمعطيات المنطقة فرأي « أن السكون والمهادنة أولى وأصلح لشأنهم حتى يندمل جرحهم ... فمال الى الدعة وجنح الى السلم » (1) ووقع معاهدة حسن الجوار مع القيروان ، فذكر ابن خلدون أنه قد « رغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في سنة 171هـ / 737م في موادعة صاحب القيروان روح بن خاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعه » (2) وسواء أكان الموقع على هذه المعاهدة من جانب القيروان روح بن حاتم (3) أو أخيه يزيد فان هذا يكشف عن وجود الارادة المشتركة بين العاصمتين لئن يسود بينهما السلم والصفاء .

لم يتغير مسار هذه العلاقة بموت عبد الرحمن ويزيد ، فقد أشرنا سابقا الى اضطراب الوضع في تاهرت في عهد الامام عبد الوهاب ، فشغل باخماد هذه الفتن ومما زاد الأمر صعوبة ، وقوع تاهرت في قلب المغرب الاسلامي ، بعيدة عن أرض الجهاد (4) ، فلم يكن لديه ما يشغل به سكان دولته ويمتص طاقتهم ، ومع هذا الوضع ، كان يخشى كل خطر خارجي ، قد يشغله عن حفظ الأمن ويهدد دولته ، لذلك كان بحاجة الى تجديد المعاهدة التي وقعها والده من قبل مع القيروان فقد ذكر السلاوي أن روح بن خاتم « رغب في موادعته عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه » (5) ويؤكد لسان الدين بن الخطيب هذا بقوله« « ورغب الاباضيون منهم في موادعته » (6) الا أن ابن خلدون يذكر أن « روح رغب في موادعة عبد الوهاب » (7) ولكن بالنظر الى أن بلاد افريقية كانت هادئة

---

(1) سليمان الباروني : **الأزهار الرياضية** ، ج2 ، ص : 93 .

(2) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص 228 . الطاهر الزاوي ، المرجع السابق ، 148 .

(3) اذا كانت وفاة عبد الرحمن 168 هـ فتكون قد عقدت مع يزيد ، واذا كانت وفاته 171 هـ فتكون عقدت مع روح لأن يزيد توفي في رمضان 170 هـ .

(4) كان رأي سعيد بن العاص في أحداث العراق « انما دعا الناس الى الشكية وسوء القول الفراغ فاشغلهم بالغزو» ، انظر : الخربوطلي : **تاريخ العراق** ، ص : 25 .

(5) السلاوي : **الاستقصا** ، ج1 ، ص : 120 .

(6) لسان الدين بن الخطيب : **أعمال الاعلام** ، ص : 10 (الجزء الخاص بالمغرب) .

(7) ابن خلدون ، **العبر** ، ج4 ، ص : 415 .

أيام روح في حين كانت تاهرت مضطربة ـ كما سلف ـ يصبح من الجائز أن يكون روح بن خاتم قد استشار عبد الوهاب بشأن تجديد المعاهدة السابقة ، وعلى كل فإن توقيع هذه المعاهدة في عهد أي كان منهم ، يدل على أن كلا من تاهرت والقيروان كانت ترغب في قرار السلم بين البلدين ، كما أن اضطراب الخبر حول من كان الراغب في موادعة الآخر ، وتوقيع المعاهدة ، يدل على علو شأن تاهرت (1) ، ولاشك أن هذا التوقيع قد سبقه تبادل الوفود بين البلدين ، فاستقبلت تاهرت وفودا قروية ، كما استقبلت القيروان وفودا تاهرتية ، وهذا بطبيعة الحال لا يتعارض والمذهب الاباضي .

كان يزيد « قد أذل الخوارج ومهد البلاد » (2) ، الا أن الفوضى عادت الى القيروان في عهد الفضل بن روح 177 ـ 178 هـ/ 793 ـ 794 م ، اذ تمكن عبد الله بن الجارود من دخول القيروان فقام العلاء بن سعيد المهلبي ـ والي الزاب ـ فاستعادها منه ، وتواصلت ثورة الجند بقيادة ابن الجارود حتى تمكن هرثمة بن أعين من هزيمته ، فيذكر ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة أن هرثمة وصل «في جيش كثيف حتى نزل تاهرت فخرج اليه ابن الجارود واقتتل معه فهزم ابن الجارود» (3) وتكشف هذه العبارة عن طبيعة العلاقة السائدة بين البلدين ، فمن جهة نزل هرثمة تاهرت بجيشه دون أن يتعرض له الامام الرستمي عبد الوهاب أو أفلح ، كما لم يتعرض لابن الجارود من قبله ، ومن جهة ثانية ليس في هذه العبارة ما يدل على أن الأمام عبد الوهاب قد ساعد ابن الجارود ، ويبدو أن موقفه كان حياديا ، وربما كان هذا السلوك من بنود المعاهدة المبرمة سابقا ، وبهذا يمكن تفسير عدم مساعدة الامام عبد الوهاب الثائرين في افريقية ، كصالح بن نصير الاباضي (4) الثائر على داود بن حاتم .

---

(1) ذلك جائز ـ على الأقل ـ قبل افتراق الاباضية ويفهم هذا من قول ابن الصغير « اجتمع له من أمراء الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع للاباضية قبله ودان له ما لم يدن لغيره .... فلم يزل كذلك وعلى ذلك الى أن حدثت الفرقة » : ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 17 .

(2) السلاوي : المكان السابق .

(3) ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص 110 .

(4) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 169 .

لم يستغل عبد الوهاب الوضع المضطرب في القيروان عشية ابتداء الدولة الأغلبية 184هـ / 800م ان كان حيا ، أو خليفته افلح ، كما حافظت المناطق التي تدين بالتبعية المزدوجة لتاهرت والقيروان على هدوئها في هذه الفترة ، وهذه المناطق ، تشكل ـ لاشك ـ عنصرا هاما في مجال العلاقات بينهما .

يبدو أن هذه العلاقة لم تتأثر فيما بعد ، فقد خرج نفاث بن نصر (1) على الامام افلح واتهمه بعدم محاربته المسودة وأنه ليس الطرطور وخرج للصيد ، وهذا يكشف عن السياسة الخارجية التي انتهجتها تاهرت تجاه القيروان ، وهناك حادثة جديرة بالاهتمام ، تؤكد سياسة افلح ، فقد وقف عماله على نواحي الجريد واباضيوها (2) موقفا مؤيد للأمير زيادة الله الأول ، حين ثار عليه منصور الطنبذى ، فهل كان هذا الموقف بتدخل من الأمام افلح ؟ وهذا بدوره يدل على أن هناك توافقا وانسجاما بين تاهرت والقيروان (3) ، ويؤكد هذا موقف ابراهيم بن الأغلب من الأدارسة ، فقد نجح ابن الأغلب في قتل راشد ـ مولى ادريس الأول ـ مسموما وفي استمالة بعض الشخصيات الهامة الموالية للأدارسة مثل البهلول بن عبد الواحد المطغرى ، بل انه كان ينوى أن يسير جيشا اليهم (4) ، لكن ابن الأغلب لم يقم بشيء من هذا القبيل تجاه الرستمين وهم أقرب اليه ، وتنقصهم العصبية التي للأدارسة ـ قرابتهم للرسول ـ .

لقد ذكر ابن الصغير أن « الجند القادمين من أفريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم » (5) في عهد الأمام افلح ، واذا كان بعض هؤلاء ممن أعلنوا التمرد على بني الأغلب فان البعض الآخر « يتألف من جند العباسيين وصنائعهم في تاهرت وعلى رأسهم محمود بن الوليلي وخلف الخادم ، مولى الأغلب بن سالم » (6)

---

(1) الدرجيني : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 77 . أحمد مختار عمر : **النشاط الثقافي في ليبيا** ـ ط 1 مطبعة دار الكتب ، بيروت 1391 هـ / 1971 م ، ص : 182 .

(2) سبقت الاشارة الى ذلك ، ارجع الى « الامتداد الجغرافي » .

(3) T. Lewicki, *Un document ibâdite inédit sus l'émigration du Gabal*, p. 186.

(4) لسان الدين ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص : 14 .

(5) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 26 .

(6) عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ، ج2 ، ص : 561 .

وكان هؤلاء أنصار محمد بن عرفة « وهو عربي وقروي مثلهم وافد من القيروان » (1) وقد بلغ في تاهرت مكانة مرموقة ، حتى قال ابن الصغير أن الامارة كانت « بالاسم لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة » (2) وحتى اعتبره الدرجيني « من أعيان أهل تاهرت » (3) ويبدو أن عدد العرب والجند كان كبيرا في تاهرت ، فقد تمكنوا من النصر واخراج الامام أبي بكر وأنصاره من المدينة (4) وهذا يعني أن نفوذهم كان واسعا وبذلك من المحتمل أن يكون اعتزال أبي بكر الامامة كان بضغط وطلب من العرب والجند وغيرهم وربما كان شرطهم لالتزامهم الهدوء ، وبهذا يمكن القول أن استقبال تاهرت لهم لم يكن نكاية بالقيروان ، بل لوجود الحرية في تاهرت ووجود روح السلم بين العاصمتين .

جرى كل هذا في تاهرت في عهد أبي بكر ، فهل كانت القيروان وراء هذه الأحداث ؟ ليس هناك ما يشير الى ذلك ، فان الأمير محمد بن الأغلب ــ معاصر أبي بكر ــ كان مشغولا بالثورات في بلاده ، ومهتما بجيوشه في صقلية ، في نفس الوقت ، يخشى ثورة الاباضية في بلاده ، وبذلك فإن ما قام به العرب في تاهرت يعتبر مسألة داخلية ، وعدم تدخل الأغالبة فيها يدل على وجود الروح السلمية بينهما خاصة وهناك توافق مذهبي بينهما في هذا الوقت .

تزداد العلاقة السياسية بين تاهرت والقيروان وضوحا في ذلك التحالف الذي وقع بين الأغالبة وعامل الامام الرستمي على جبل نفوسة ، أبي منصور ، فقد ذكر الشماخي نقلا عن ابن الرقيق أن العباس بن أحمد بن طولون ، خرج من مصر لاحتلال المغرب الاسلامي سنة 267هـ / 880م فحاصر طرابلس ، وهناك وقع التحالف بين أبي منصور والأغالبة (5) ، ووقفت الجيوش الاباضية الى جانب القوات الأغلبية ، وتمكنت معا من الحاق الهزيمة بابن طولون ، وبعد انتهاء المعركة افترقت هذه الجيوش دون حادث ما ، ولاشك أن هذا التحالف قد سبقته حالة

(1) المصدر السابق ج 2 ، ص : 560 .
(2) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 31 .
(3) الدرجيني : المصدر السابق ج 1 ، ص : 33 .
(4) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 39 .
(5) الشماخي : السير ، ص : 225 .

من الصفاء والهدوء بين الرستميين والأغالبة ، وما كان أبو منصور ليوافق على هذا التحالف لولا اطمئنانة الى موافقة ورضى الامام الرستمى أبي اليقظان ، وحتى لو قيل ان ابن طولون كان ينوي مهاجمة أبي منصور (1) ، فان اجتماعهم حول فكرة التحالف يؤكد حسن العلاقة السياسية بينهم ، وصفاء روح الأخوة والجوار ، ويتجلى هذا الصفاء بوجود الرغبة المشتركة بين تاهرت والقيروان في بناء الحصون والمحارس بسواحل البحر » ، وفي بناء البريد على ساحل البحر من سبته الى الاسكندرية ، الا أن أبراهيم بن أحمد الأغلبي 261 ـ 289هـ/874 ـ 904م ولم يحافظ على صفو هذه العلاقة ، فقد نجح في هزيمة افلح بن العباس ـ عامل الرستميين على نفوسة وقتل اثنى عشر ألف جندي وأربعمائة عالم في موقعة مانو 283هـ / 396 م (2) فاستنفد الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط دولتي الاغالبة والرستميين .

يتضح ، مما سبق أنه رغم وجود نقط اختلاف بين الدولتين ، الا أن روح السلم وحسن الجوار قد طبعت العلاقة بينهما بطابعها ، فساد الصفاء والهدوء بينهما (3) ـ كما ذكرنا ـ وربما كان من عوامل ذلك بالنسبة للرستميين : انشغالهم بأمورهم الداخلية ، من فوضى واضطراب واهتمام بالعلوم الدينية ، وممارسة الأعمال التجارية ، وربما ضعف الحماس المذهبي ، وبالنسبة للأغالبة : انشغالهم بثورات كبار قادة الجيش وبالبناء والاصلاح وحركة الجهاد في صقلية ، وحرصهم على أمن وهدوء المغرب الاسلامي ، وربما حرصهم على عدم اثارة تاهرت لئلا تصبح قاعدة متقدمة للأمويين كما يمكن أخذ وحدة المغرب الاسلامي البشرية بعين الاعتبار ، وربما وجود عدد كبير من الفرس في جيوش الأغالبة قد يتعصب بعضهم لفرس تاهرت ، واذا كان هذا جوهر العلاقة بين تاهرت والقيروان ، فان ما قيل من وقوع حوادث عسكرية بينهما ، مسألة فيها نظر .

---

(1) كتب العباس بن أحمد بن طولون من لبدة الى أبي منصور : « اقبل بسمعك وطاعتك والا وطئت بلدك بخيلي ورجلي وأبحت رحمك » فرد عليه أبو منصور « أما أنك أقرب الى الكفار مني ، وأحقهم بمجاهدتي ، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك وأنا على اثر رسالتي اليك أحمد مختار عمر . المرجع السابق ، ص : 182 ـ 183 . وحول ابن طولون : لسان الدين بن الخطيب : المصدر السابق ، ص : 28 . عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي : **رسالة سلم العامة** ، ص : 42 .

(2) الدرجيني : المصدر السابق ج1 ، ص : 89 . الشماخي : المصدر السابق ، ص : 268 .

(3) VANDER-HEYDEN. *La Berbérie orientale sous la dynastie des Banu-Aghlab*, Paris, 1927, pp. 267- 268.

العلاقة العسكرية :

من الطبيعي أن يمتد الصراع العسكرى بين الخلافة والاباضيين الى حيث يتواجد هؤلاء في أطراف الدولة الاسلامية . ومن المنتظر أن يكون هناك صراع من هذا النوع بين الدولة الرستمية في تاهرت وبين النظام السياسي في القيروان ، باعتباره يمثل الخلافة العباسية في المغرب الاسلامي ، وهذه محاولة لتسليط الضوء على هذا الصراع قدر الامكان .

قد يكون ممكنا اعتبار احتلال أبي الخطاب مدينة اطرابلس وزحفه الى القيروان بداية فعلية للصراع العسكري بين القيروان وتاهرت ، كما يمكن اعتبار انتصار محمد بن الأشعث على أبي الخطاب وأبي هريرة الزناتي نقطة تحول في هذا الصراع ، اذ بهذه الهزيمة يكون قد قضى على خط الدفاع الأول أمام القيروان الخطابية ، ولم يجد عبد الرحمن بن رستم قوة يتصدى بها لابن الأشعث فنجا بنفسه وأهله وبعض المخلصين من أتباعه .

ولم يعد هناك ما يدفع ابن الأشعث لاقتفاء آثر ابن رستم بعدما نجح في تحطيم القوة الرئيسية للاباضيين ، وأصبح الطريق ممهدا أمامه لدخول القيروان ، التي كانت ظروفها تستدعيه أن يغذ السير اليها ، وربما شعر جنده بالتعب ، أو خشي أن يعصوا أوامره للمسير الى ما وراء المغرب الأدني – افريقية – كما للأغلب بن سالم فيما بعد (1) ومن جهة ثانية فمن المؤكد أنه كان يعلم أن عبد الرحمن بن رستم لم يعد ذا شأن ، وهذا لا يتفق وما ذكره مؤرخو الاباضيين ومن تأثر بهم من أن ابن الأشعث تبعه الى مكان اقامته في جبل سوفجج وحاصره هناك (2) . فوقع في جيشه الجدري « ومات منهم بشركثير» (3) وواضح أنها رواية بعيدة عن الحقيقة ،

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 226 . ابن الأثير : **الكامل** ، ج5 ، ص : 26 . دبوز علي : تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، ص : 36 .

(2) أبوزكريا : **السيرة** ، ورقة : 31 . الدرجيني : المصدر السابق ، ج1 ، ص :36 . بينما لا يذكر هذا الحصار بعض المؤرخين : أنظر : ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 225 – 247 . السلاوي : المصدر السابق ، ج1 ، ص :115 .

(3) أبوزكريا : المكان السابق ، الدرجيني : المكان السابق .

فقد جعلوا القدر يحكم بتفشي الأمراض والأوبئة في جيش ابن الأشعث في فترة الحصار ، وهذا مما يجعل روايتهم موضع شك ، فمن الأرجح أن يكون ابن الأشعث قد واصل سيره الى القيروان فدخلها واقام واليا عليها .

ومهما كان الأمر ، فان هذه الهزيمة قد جعلت من أبن الأشعث قائدا بطلا وصاحب هيبة في أعين الخوارج ، كما كشفت لابن رستم عن مدى حرص الخلافة العباسية على الاحتفاظ بافريقية ، وعن فشل السياسة الاباضية باتخاذهم منطقة اطرابلس مركزا لهم ، كما تركت أثرا نفسيا لديه ، وعلى ثقته بأتباعه ، بل ومن المؤكد أنها أثرت على سياسته في المرحلة المقبلة . وهناك حوادث ذكرها المؤرخون جديرة بالاهتمام ، قد يمكن بها توضيح طبيعة العلاقة العسكرية بين تاهرت والقيروان منها حادثة طبنة .

حادثة طبنة (1) :

بعد انهزام أبي قرة امام الأغلب بن سالم 150 هـ / 787 م في منطقة الزاب ، عاد الى تلمسان وأخذ يتصل بأمراء الجماعات الصفرية والاباضية في المغرب فنجح في تكوين حلف شجعه على مباشرة الهجوم على افريقية 154 هـ / 770م ، وكان هذا الحلف يضم اثنى عشر جيشا منهم (2) : أبو قرة في أربعين ألفا من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألف . والمسور بن هانيء الزناتي في عشر آلاف من الاباضية ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين من صنهاجة الصفرية وجرير بن مسعود المديونى فيمن تبعه من مديونه ، وغير هؤلاء من خوارج هوارة وزناتة (3) .

تقدم أبو قرة على رأس هذه الجيوش باتجاه افريقية ، لما علم بخروج عمر بن حفص ــ والي القيروان ــ الى مدينة طبنة لتحصينها ، فعرج ابو قرة ومن معه اليها

---

(1) حول طبنة انظر : لقبال موسى : **طبنة** بين ماض حافل عريق وحاضر متواضع غريب ، المجاهد الثقافي ــ الجزائر ، ماي 1968 .

(2) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 143 . ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص : 226 ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص : 76 .

(3) ذكر ابن الأثير من أعضاء الحلف أبا حاتم الاباضي وعاصم السدراتي ، الا أن الأول كان في منطقة طرابلس ثم حاصر القيرواني ، انظر : ابن خلدون : المكان السابق ، وقتل الثاني في حصار أبي الخطاب للقيروان : انظر : أبوزكريا : **السيرة** ، ورقة 128 . وذكر ابن خلدون أن جيش ابن رستم ستة آلاف ، وذكره الرقيق 15 ألفا .

وحاصرها وحين رأى ابن حفص عجزه أمام هذه الجيوش لجأ إلى الرشوة فصالح أبا قرة «على أربعين ألفا وأعطى ابنه في إتمام ذلك أربعة آلاف» (1) فانسحبوا ويبدو أن هذه الرشوة لم تكن سببا رئيسيا في الانسحاب الشامل بقدر ما كانت سببا ظاهريا يخفي وراءه خلافا بين قواد الجيوش المحاصرة ، وعلى أية حال فقد انسحبت باقي الجيوش بعد أبي قرة وأخيه ونجا عمرو بن حفص من هذا الحصـار .

ومما يلفت النظر في هذا الحصار ، أن عبد الرحمن بن رستم لم يشارك مشاركة فعالة ، بمعنى أنه لم يكن محاصرا لطبنة مع المحاصرين ، فقد عسكر بجيوشه في تهودة (2) ، بعيدا عن طبنة واستمر هناك إلى أن وصلته أنباء انسحاب جيوش الخوارج المحاصرة ، فعزم على الانسحاب بدوره ، لكن ابن حفص بادره بجيش بقيادة معمر بن عيسى العبدي ، ذكر بعض المؤرخين أنه بلغ ألفا وخمسمائة جندي (3) ولكن مادام ابن حفص قد ضمن انسحاب الخوارج ، فمن المحتمل أن يكون جيش معمر مكافئا لجيش ابن رستم عددا وعدة أو يزيد ، وذلك لضمان صرف ابن رستم إلى تاهرت ، كما يستبعد بناء على ذلك أن يكون قتلى ابن رستم ثلاثة آلاف قتيل ، ويبدو أن ما ذكره الرقيق القيرواني من أن عددهم كان ثلاثمائة هو أقرب إلى الواقع (4) .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الحصار (5) ، انقسام الخوارج ، وعدم قدرتهم على توحيد جهودهم والانضواء تحت قيادة موحدة ، ولم يقتصر انقسامهم على

---

(1) الرقيق القيرواني : المكان السابق ، ابن خلدون : المكان السابق ، وجعلها ابن الأثير 60 ألف درهم ، أنظر : الكامل ، ج 5 ، ص : 32 .

(2) الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص : 143 . وتقع **تهودة** بعد 37 ميلا جنوب طبنة ، ويؤكد ابن خلدون أن ابن رستم لم يكن مع المحاصرين للمدينة بل كان بعيدا ، **العبر** ، ج6 ، ص : 226

(3) الرقيق القيرواني : المكان السابق .

(4) الرقيق القيرواني : المكان السابق ، ابن عذاري : **البيان** ، ج1 ، ص : 76 .

(5) يلاحظ أن الدرجيني لم يتعرض لهذا الحصار من قريب أو بعيد ، أنظر : الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 36 ـ 47 .

صفريين وأباضيين ، بل انقسم كل منهم إلى جيوش متعددة ، وهذا يفيد على الأقل في أنه يكشف عن عدم خضوع الأباضيين في المغرب لسلطة إمام المذهب إذ ذاك وهو عبد الرحمن ، الذي يكون هكذا قد تلقى الهزيمة الثانية على يد نظام القيروان السياسي والتي مردها إلى قوة شخصية عمرو بن حفص ومعمر العبدي ، وإلى ضعف شخصية أبي قرة (1) ، وانقسام الجيوش المحاصرة ، بالإضافة إلى عدم وضوح الرؤيا أمام عبد الرحمن ويأسه خاصة بعد انسحاب أبي قرة ، وكذلك وجود رواسب قديمة في نفسه ، وربما لبعده عن عاصمته تاهرت .

ومما يشد الانتباه ، اشتراك عبد الرحمن بن رستم في هذه المعركة وانضوائه تحت لواء أبي قرة الصفري ، كما أن عدم اشتراكه في الحصار مباشرة ، وإقامته بعيدا عن أرض المعركة ، يخفي وراءه سرا ، ويبدو أن هذا يكشف عن أن عبد الرحمن كان مسيرا إلى أرض المعركة لا مخيرا ، الأمر الذي يعني عدم وجود رغبة صادقة في محاربة القيروان ، وعلى كل حال ، فقد أيقن عبد الرحمن بعد هذه الهزيمة أن لا طاقة له على ولاة القيروان ، وربما أن هذا كان سبب عدم احتجاجه على الانسحاب ، ثم لماذا لم يواصل الحرب بمفرده وقد قطع اليها مسافات طويلة ، يبدو أن هذه الرؤيا كانت وليدة انهزام الأباضيين أمام ابن الأشعث ثم اتضحت أكثر بفشل هذا الحصار ، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السر في عدم تحالفه مع هاشم ــ السابق الذكر ــ أو غيره من الثائرين على القيروان من الأباضيين وغيرهم ، ونخلص من هذا إلى القول بأن عبد الرحمن ربما يكون قد تخلى عن سياسته العدوانية تجاه القيروان في الظروف الراهنة .

حصار اطرابلــس .

يرى المؤرخون الأباضيون أن معركة أخرى وقعت بين الرستميين والأغالبة في سنة 196 هـ/811 م وقع خلاف بين قبيلة هوارة وعامل اطرابلس من قبل الأغالبة ، الذي خرج جنده إلى هوارة فاقتتلوا ، فهزم الجند إلى اطرابلس (2) ، ويبدو أن ثورة هوارة هذه ترجع إلى أن عبد الله بن الأغلب كان قد اجتذب

(1) H. Laoust, *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1965, p. 71.

(2) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 66 . الشماخي : **السير** ، ص : 159 .

الأنصار من البربر بالأموال والعطايا ، فكان يعطي الفارس يوميا أربعة دراهم والراجل درهمين (1) ، حتى كثرت حشوده فزحف بهم إلى اطرابلس وتغلب على جندها ، إلا أن والده عزله واستعمل سفيان بن المضاءة على اطرابلس ، وهكذا انقطعت تلك الأموال والعطايا عن البربر «فثارت قبيلة هوارة وهاجمت عسكر المدينة» (2) فانهزم الجند إلى القيروان ، فأعاد إبراهيم بن الأغلب معهم ابنه عبد الله بجيش يتألف من ثلاثة عشر ألف جندي «فتك بهوارة وأثخن فيهم» (3) فاستنجدت بالإمام عبد الوهاب من مكان إقامته في جبل نفوسة ، فاستجاب لدعوتهم (4) ، وتوجه بمن أطاعه من الناس من أهل حيز اطرابلس وجبل نفوسه وعامة من بحيالهم من البربر وغيرهم .

حاصر عبد الوهاب مدينة اطرابلس ، وأثناء الحصار سد باب زناته وأخذ يحارب من باب هوارة ، ويرى الدرجيني أن الإمام رأى «الصواب في الارتحال عنها فارتحل» (5) ويذكر أبو زكريا أن ارتحاله كان بعدما «أيس» (6) من فتح المدينة بينما يرى آخرون أن أنباء وفاة ابراهيم بن الأغلب وصلت مسامع ابنه عبد الله فصالح البربر ليعود إلى القيروان ، على أن تكون المدينة والبحر للأغالبة (7) وخارجها للبربر ، فارتحل الإمام إلى الجبل .

---

(1) عبد العزيز سالم : **تاريخ المغرب الكبير** ، ج2 ، ص : 377 . وكان هذا المبلغ كبيرا ، فقد كان راتب الجندي الشهري عشرين درهما . أنظر : حسن ابراهيم حسن : **النظم الاسلامية** : ط3 ، القاهرة 1962 ، ص : 182 .

(2) عبد العزيز سالم : المكان السابق ، ويبدو أن ابن المضاءة لم يكن مرغوبا فيه في طرابلس ربما لسوء ادارته «فاتفق أهل البلد على اخراجه واعادته الى القيروان» ابن الاثير : **الكامل** ، ج5 ، ص : 621 .

(3) ابن خلدون : **العبر** ، ج4 ، ص : 421 .

(4) عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي : المصدر السابق ، ص : 13 .

(5) الدرجيني : **طبقات** ، ص : 67 .

(6) ربما كانت «يئس» .

(7) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 287 ويضيف رينيه باست ان عبد الله بن ابراهيم تنازل لعبد الوهاب عن منطقتي جربة وقسطيلية ، أنظر : **دائرة المعارف الاسلامية مادة** : ابراهيم بن الاغلب ، ج1 ، ص : 37 وهذا كله يدل على ان الاغالبة كانوا يركزون اهتمامهم على الثغور الساحلية .

لم يُذكر هؤلاء المؤرخون ظروف هذه المعركة ولا الأسباب الحقيقية التي دفعت بهوارة لإعلان الثورة ، فقد يكون حب الثأر من جيوش العباسيين ضلعا في إثارتهم ، إلا أنه من المستبعد أن يكون هذا كل شيء أو ما ذكرناه آنفا ، فقد ذكر ابن الأثير أن أهل اطرابلس «كانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ابراهيم ابن الأغلب ويولي غيرهم ، وقد كان هؤلاء قد أثاروا شغبا سنة 189 هـ/805 م تمكن ابراهيم من إخماده بالطرق السياسية ، وربما شهدت طرابلس سنة 196 هـ/ 811 ـ 812 م ما شهدته سنة 245 هـ/859 م فإن البربر «امتنعوا على عامل اطرابلس من أداء عشورهم وصدقاتهم وحاربوه فهزموه» (1) وهذا يعني أن عامل اطرابلس لبني الأغلب يكون قد فرض عليهم ضرائب وعشورا ، ظهرت فادحة ، دون مراعاة أحوالهم الاقتصادية التي يبدو أنها كانت سيئة ، وهذا أمر محتمل فإن جبل نفوسة جزيرة جبلية وسط صحراء شاسعة ، وهذه الجزيرة مأوى كثير السكان ، ضئيل الامكانيات ، ولو كانت الأموال المجباة من الأباضيين هناك توزع حسبما جاء به القرآن في نفس المنطقة ، لربما خف الوطأ ، لكنها كانت ترسل كلها أو بعضها إلى تاهرت (2) ، فبدأت عيون أهل الجبل ترنو إلى السهول المنبسطة جنوب اطرابلس وزوارة أو يلجأون إلى الهجرة باتجاه افريقية (3) ، إذ هي أكثر خصوبة وقد نشر لويكي LEWICKI نصا من كتاب السير للويسياني جاء فيه «بأن الإمام عبد الوهاب كتب إلى نفوسة الراحلين من الجبل كتابا وهم الخارجون عنه وكانوا في ألف رجل ... مع عامله عليهم واقطع لهم أرضا كثيرة» (4) ، ونزل هؤلاء بمن معهم من عائلاتهم منطقة الساحل ـ بين قابس وسفاقس ـ كما كان بعض سكان منطقة اطرابلس «كثيرا ما يغيرون على القرى

---

(1) ابن الأثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 121 ، 300 .

(2) ذكر الدرجيني أن أبا حاتم الاباضي كان «يرسل ثقاته بما يجتمع من مال الصدقة الى عبد الرحمن قبل ظهوره ، أنظر : **طبقات** ، ج 1 ، ص ، 36 ، الشماخي : **السير** ، ص : 138 .

Talbi med. *L'çmirat aghlabide*, p. 353 et *suite*.

(3) لمزيد من التفاصيل حول الهجرة الاباضية الى افريقية ، أنظر :

T. Lewicki, *Un document ibâdite...*, p. 155.

(4) *Ibid*, p. 178.

والمدن أو يضايقون التجار» (1) في وقت كان فيه ابن الأغلب حريصا على نشر الاستقرار في البلاد «فقضى على سراق الطرق الذين كانوا يتعرضون للتجار والذين كانوا مصدر فوضى في الريف» (2) ، وعلى أية حال ، يستفاد مما تقدم أن العامل الاقتصادي كان وراء هذه الثورة بالدرجة الأولى .

وإذا كان خلاف هوارة مع عامل اطرابلس أمرا محتملا ، إلا أن التساؤلات تدور حول اشتراك عبد الوهاب في هذا الحصار ، ويستفاد مما ذكره المؤرخون الأباضيون أن عبد الوهاب أراد السير إلى الحج ، وحين وصل جبل نفوسة منعه أهله من أداء فريضة الحج خوفا عليه من المسودة (العباسيين) فأرسل إلى الربيع بن حبيب يستفتيه في أمر الحج مع عدم أمان الطريق فأقام عبد الوهاب سبع سنين في الجبل (3) منتظرا رد الربيع ، قضاها يعلم أهل الجبل مسائل الصلاة ، وذكر ابن خلدون أنه قد «جأجأ هوارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا اليه» (4) ، وقد أكد ابن الصغير حصار عبد الوهاب مدينة طرابلس ، ورد هذا إلى القوة والعظمة التي بلغها وربما كان هذا القول صحيحا قبل ابتداء الثورات عليه ، بمعنى ربما أنه ورث عن أبيه مملكة مترامية الأطراف إلا أن الأمر بدأ يتغير بابتداء الثورات والمشاكل الداخلية ، حتى أنه أصبح من الضعف بحيث استنجد بجبل نفوسة في حربه مع الواصلية ويفهم هذا الأمر من قول ابن الصغير نقلا عن جماعة من الناس ، بأن الإمام عبد الوهاب «بلغت سمته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره ... فلم يزل كذلك وعلى ذلك وأمور الناس مجتمعة وكلمتهم واحدة لا خارج عليه ولا طاعن إلى أن حدثت الفرقة» (5) والمعلوم أن الفرقة دبت بين الأباضية منذ وفاة والده

---

(1) الشابي محمد المسعود : **الاغالبة** : نظامهم الاداري والسياسي : الدار التونسية للنشر ، تونس 1970 ، ص : 11 .

(2) الحبيب الجنحاني : **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية** ـ الدار التونسية للنشر 1968 ، ص : 131 .

(3) الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 65 . الشماخي : **السير** ، ص : 159 .

(4) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 286 .

(5) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 17 .

عبد الرحمن (1) ، وهذا لا يتفق وحصاره طرابلس سنة 196هـ/811م ، وقد سبق القول ، أن عبد الوهاب لم يكن حيا في هذا التاريخ ، وعلى افتراض العكس ، فإن ظروفه ومشاكله ، كانت لا تسمح له بأن يقود جيوشا تلبية لنداء هوارة ، ولا تسمح له بمحاربة الأغالبة في اطرابلس ، وإذا كانت له مثل هذه النية ، فلم لا يقوم بمحاربتهم في الجهات القريبة من تاهرت ؟

إن ما ذكره المؤرخون الأباضيون بخصوص عبد الوهاب في جبل نفوسة ، يثير تساؤلات عدة ، فهل خرج حقا من تاهرت تلبية لنداء هوارة ، أم أخرج منها ؟ وهل حقا خرج للحج ، ثم قطع عليه الطريق في نفوسة ؟ وهل حقا أرسل يستفتي الربيع بن حبيب في أمر الحج مع عدم أمان الطريق ؟ وإذا كان كذلك ، فما سر إقامته في الجبل سبع سنين ؟ ربما يكون عبد الوهاب قد عزم على أداء فريضة الحج ، إلا أنه من الصعب قبول استفتائه الربيع بمسألة تتعلق بالحج وهو إمام المذهب في المغرب ، الذي كانت نفوسة تستفتيه ، فألف لها كتابا بعنوان «مسائل نفوسة» (2) وهذا يعني أنه من غير المعقول أن يكون عالم مثله وعلماء في نفوسة قد عجزوا عن مثل هذه المسألة الفقهية ، ولو سلمنا بذلك جدلا ، فهل يستغرق رد الربيع هذه المدة الطويلة ؟ ثم من كان نائبه على تاهرت طيلة فترة غيابه عنها ؟ ليس هناك من شك في أنه ابنه أفلح ، وبالربط بين هذا وذاك يصبح من المحتمل أحد أمرين : فهو إما أن يكون أقصي عن الحكم ، فرحل إلى نفوسة ثم عاد بعد عفو ، وإما أن يكون أحس بشيخوخته فتنازل عن الحكم لابنه ، ثم قام بزيارة لجبل نفوسة (3) ، وتتجلى مباشرة أفلح للحكم قبل مبايعته

---

(1) حول افتراق الاباضية ، أنظر : ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 17 ـ 23 . الدرجيني : المصدر السابق ، ص : 47 ، 67 ، 77 ، كذلك : T. LEWICKI, *Les subdivisions de l'ibadiyya*, p. 71-82.

(2) «وكان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل ، لأن نفوسة كتبت اليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسئلة» (كذا في الاصل) ، أنظر : ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 16 ، وذكر عمرو خليفة النامي أن «جواباته ما تزال موجودة» ، أنظر : أبو يعقوب يوسف خلفون المزاتي : المصدر السابق ، ص : 109 .

(3) ذكر الشماخي أن أبا سهل الفارسي كان نفوسيا وأمه رستمية ، وأنه كان مترجما للامام افلح كما عرف عبد الوهاب طرابلس من قبل ، فهل ذهب لزيارة الرستميين والاتباع هناك وكان عبد الوهاب عند فرار والده من القيروان شابا وليكن 20 ـ 30 سنة ، وهذا يعني أنه في عام 196 هـ كان عمره 70 ـ 80 سنة .

بالإمامة رسميا ، فيما ذكره ابن الصغير من أن أفلح «انقطع اليه المنقطعون ودارت إليه الحوايج والعطا من تحت يديه ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى اخترمت عبد الوهاب منيته» (1) وعلى كل ، يصبح من المستبعد أن يكون عبد الوهاب قد سار بجيشه من تاهرت لحصار طرابلس ، ويصبح من المحتمل أن تكون إقامته في جبل نفوسة قد سمحت له بالاشتراك في احدى حوادث الشغب التي كانت تثيرها هوارة أو في حصارها لمدينة طرابلس ، وبذلك فان اشتراك عبد الوهاب كان عملا عفويا وقع صدفة (2) ، وهذا يؤكد سياسة عبد الوهاب تجاه القيروان .

إن الصيغة التي انتهت بها هذه الحادثة ، تزيد موقف عبد الوهاب من القيروان وضوحا ، فهو لم يستغل فوضى القيروان بوفاة ابراهيم بن الأغلب ، لتحقيق مزيد من المكاسب . في هذا الحصار ، وقد كانت ظروف ابراهيم لا تسمح له بمنازعة الرستميين في حدودهم الشرقية ، فهو لم يهنأ بعد من ثورة عمران بن مجالد ، ولم يتخلص بعد من خصومه ومنافسيه من كبار القواد (3) ، أضف إلى ذلك أن الرشيد كان يقصد من عهده لابن الأغلب بحكم افريقية تهدئة الوضع ، وإخماد الفتن ، كما لاحظ ابراهيم تدهور الوضع الاقتصادي في افريقية ، ويبدو أنه كان يدرك أن افريقية بإمكانها أن تدر الخير الوفير ، ويفهم هذا من تنازله عن المساعدة المصرية (4) واستعداده لتقديم مبلغ مالي إلى بغداد ، هذا يعني ـ على الأقل ـ أن ابراهيم قد أخذ على عاتقه مسألة النهوض بافريقية ، وهذا كله يثير الشك حول ما ذكره عبد العزيز سالم من أنه «حين قامت دولة بني الأغلب بدأ أمراؤها ينازعون الرستميين في أملاكهم بنفوسة» (5) .

---

(1) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 23 .

(2) TALBI med. *L'émirat aghlabide*, p. 355.

(3) لأن أكثرهم يرى أنه أحق بالامر منه ، أنظر : الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص : 222 .

(4) ذكر ابن الأثير : «وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل الى افريقية معونة فنزل ابراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة 40 ألف دينار» ، أنظر : ابن الاثير : **الكامل** : ج 5 ، ص : 104 .

(5) عبد العزيز سالم : **تاريخ المغرب** ، ج2 ، ص : 7 / 568 .

نخلص إلى القول أن ظروف الدولتين كانت تستوجب المحافظة على المعاهدة السابقة وعدم الدخول في معارك ، وبذلك يمكن اعتبار ما قامت به هوارة مسألة تندرج في إطار السياسة الداخلية للأغالبة (1) .

حادثة العباسية :

ذكر البلاذري أن محمد بن الأغلب «أحدث في سنة 239 هـ/853 م مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي» (2) وأضاف أنه «كتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه فبعث إليه الأموي 100 ألف درهم» (3) ثم نقل عنه بعض المؤرخين هذا الخبر نقلا يكاد يكون حرفيا ، والبلاذرى معروف بأنه مؤرخ مشرقي ، لم يصل أرض المغرب ، فمعلوماته التي يقدمها عن المنطقة غير مباشرة ، وبذلك لا يستطيع المرء الاعتماد عليها قبل مناقشتها .

ورد ذكر أول عباسية عند البلاذري بقوله عن عمر بن حفص أنه «بلغ أقصى بلاد البربر وابتنى هناك مدينة سماها العباسية ... وهدمت تلك المدينة التي ابتناها» (4) ويذكر القلقشندي أن ابراهيم بن الأغلب قدم افريقية منتصف 184 هـ/800 م «وابتنى مدينة العباسية بالقرب من القيروان» (5) ، إلا أن البلاذري ومن تأثر به ، لم يحددوا موقع العباسية التي ابتناها أبو العباس محمد بالضبط ، ولم يتعرضوا للظروف التي سبقت بناءها ، ولا لدوافع أفلح إلى تهديمها ، ولا إلى النتائج التي ترتبت على هذه الحادثة ، كما لم يذكروا عملا قام به محمد بن الأغلب ، يمكن اعتباره رد فعل لعمل أفلح ، وهذا كله يزيدنا حذرا في قبول النص الذي أورده البلاذري على علاته .

---

(1) TALBI Mohammad, *L'émirat aghlabide*, p. 355.

(2) البلاذري : **فتوح البلدان** ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، ط1 المطبعة المصرية بالازهر 1932 ، ص : 236 .

(3) نفس المكان .

(4) المصدرنفسه ، ص : 234 .

(5) القلقشندى : **صبح الأعشى** ، ج5 ، ص : 120 ، وقد حدد تاريخ الحادثة سنة 237 هـ ، أنظر : ص : 121 .

يرى عبد العزيز سالم وابن تاويت (1) أن الهدف من بناء العباسية كان لتأخذ بمخنق تاهرت وتشغل المكانة التي تحتلها ، إلا أنه من الواضح ، أنه لو كان أبو العباس يهدف إلى ما ذهبا إليه ، لكان هذا ينم عن وجود روح عدائية بين الطرفين ، الأمر الذي نلمسه في مجرى العلاقات بينهما ، وان ظروف كل من القيروان وتاهرت تجعل المرء يضع علامة استفهام على حادثة العباسية . وإذا صح أن أبا العباس قد ابتنى مدينة فعلا ، فلن تكون أكثر من حصن في منطقة الزاب باعتبارها «آخر عمل بني الأغلب ولم يتجاوزها المسودة» (2) .

فبالنسبة لظروف الأغالبة ، فإذا كان بناؤها تم في سنة 227 هـ/841 م (3)، فهذا يصادف ابتداء حكم محمد بن الأغلب ، وليس من الممكن أن يبدأ التحرش بجيرانه وهو لم يثبت حكمه بعد ، ويكون الأمر ـ على الاحتمال ـ أن أبا العباس محمد ، قد أدخل بعض الإصلاحات على عاصمة الأغالبة العباسية ، وأما إذا كان بناؤها في سنة 239 هـ/853 م ، فقد ذكر ابن الأثير أن حربا نشبت بين أبي العباس محمد وأخيه أحمد سنة 230 هـ/844 م ، ثم ثار عليه سالم ابن غلبون ـ والي الزاب ـ سنة 233 هـ/847 م ، وبعد ذلك ثار عليه عمرو ابن سليم التجيبي المعروف بالقويبع سنة 234هـ / 848م (4) ، وجاءت سنة 235هـ ولما يتمكن ابن الأغلب منه بعده ، أضف إلى ذلك أن جيوش الأغالبة ، كانت تجاهد في صقلية وغيرها ، فذكر ابن عذارى أن محمد بن الأغلب أغزى العباس بصقلية أرض الروم سنة 237 هـ/851 م ، واستمر ذلك في سنة 238 هـ/852 م ، وفي سنة 239 هـ/853 م ، كان الجهاد بصقلية (5) ، وبذلك لم يشأ أبو العباس محمد أن يفتح لنفسه جبهة جديدة .

لا يختلف الأمر بالنسبة للرستميين عما سبق ، في حالة ما إذا كان بناؤها قد تم سنة 239 هـ/853 م ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الإمام أفلح لم يكن

(1) عبد العزيز سالم : **تاريخ المغرب** ، ج2 ، ص : 568 ، ابن تاويت **دولة الرستميين** ص : 119 .
(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 352 .
(3) ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 429 .
(4) ابن الاثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 282 .
(5) ابن عذارى ، **البيان** ، ج 1 ، ص : 111 .

حيا في ذلك الوقت ، وإذا كان المقصود أبا بكر بدلا من أفلح ، فقد تقدم وصف شخصيته وسيرته التي تبعد أن يكون أبو بكر قد فعل ما نسب لأفلح ، ولو سلمنا جدلا أن الإمام أفلح كان حيا في هذه السنة ، إضافة إلى احتمال بنائها سنة 227 هـ/841 م ، فقد تقدم القول أن الإمام أفلح كان يعيش في رفاهية ورخاء ، وهذا مما يضعف روح الحرب لديه ، وقد ذكر المؤرخ الأباضي الشماخي ، أن نفاث بن نصر كان يطعن على أفلح في «قلة محاربته للمسودة وما هو في خفض العيش» (1) كما تقدم . بمعنى عدم وجود سياسة عدائية لديه تجاه القيروان ، وهذا أمر محتمل مادام ابن الأغلب والإمام أفلح يجتمعان على القول بخلق القرآن ، كما أن المنطق الإسلامي كان لا يقبل أن تتعدى دولة إسلامية على دولة إسلامية أخرى مشغولة بمحاربة أعداء الإسلام ، هي دولة الأغالبة .

ومما تجدر ملاحظته أن حادثة العباسية لم ترد عند أحد من المؤرخين الأباضيين من قريب أو بعيد ، وهم الحريصون على إبراز مفاخر الأباضيين عامة والرستميين خاصة ، وما كان هؤلاء ليتجاهلوا مثل هذه الحادثة الهامة فى مجرى العلاقات الثنائية بين تاهرت والقيروان ، بل ان ابن الصغير نفسه لم يتعرض إلى هذه الحادثة ولو بإشارة .

يبدو مما تقدم أن حادثة العباسية حادثة فرضية (2) ، ليس لها وجود ضمن الحوادث التاريخية ، ويكون البلاذري قد ربط بين زوال إحدى العباسيتين وبين هدية محتملة أرسلت من قرطبة إلى تاهرت (3) في إطار سياستها في الشمال الافريقي ، ومن هذا يتجلى عدم وجود صراع عسكري بين القيروان وتاهرت ، وأن معاهدة الموادعة ظلت سارية المفعول إلى قبيل سقوط الدولتين .

---

(1) الشماخي : **السير** ، ص : 193 ، هويدي يحيى : **تاريخ الفلسفة الاسلامية في القارة الافريقية** ، ج 1، ص : 194 .

TALBI Mohammad, *l'émirat*, p. 359.

(2) CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjisme Berbèrie*, p. 101. *op. cit.*, 102.

(3) ذكر صاحب كتاب «**شذور الذهب**» أنه في سنة 240هـ / 854 خسفت ثلاثة عشر قرية من قرى القيروان فهل كان لهذا علاقة بهدم العباسية ؟ أنظر : **شذور الذهب** ، حوادث سنة 240 هـ .

حادثة ابن طولون :

يزداد صفو العلاقات بين تاهرت والقيروان وضوحا في ذلك التحالف الذي وقع بين الأغالبة وعامل الإمام الرستمي على جبل نفوسة أبي منصور الياس النفوسي . ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون خرج من مصر «يريد افريقية والتغلب عليها واخراج بني الأغلب منها» (1) ، ففرابن قرهب ـ عامل برقة ـ أمامه إلى طرابلس فجمع ما أمكنه «من جند اطرابلس وبربرها» (2) وتقدم إلى حصن لبدة (3) ، لكنه انهزم عنه إلى اطرابلس فدخله العباس وعامل أهله «أسوأ معاملة ونهبهم فمضى أهل الحصن إلى الياس بن منصور النفوسي ، رئيس الأباضية فاستعانوا به» (4) ثم تقدم العباس فحاصر اطرابلس ثلاثة وأربعين يوما «فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الستر» (5) فاستغاث هؤلاء بأبي منصور ـ كما سلف ـ وفي هذه الأثناء كان ابراهيم بن أحمد الأغلبي قد أرسل إلى عامل اطرابلس جيشا وأمره بقتال العباس ، ثم قدم أبو منصور في إثني عشر ألفا من الأباضية «فاجتمع هو وعامل اطرابلس على قتال العباس» (6) .

يلاحظ في هذه الحادثة ، استغاثة أهل اطرابلس بأبي منصور واشتراك بربر منطقة اطرابلس ـ وهم أباضية ـ ثم تحالف أبي منصور عامل مع اطرابلس من قبل ابن الأغلب ، وهذه الأمور تكشف عن حقيقة العلاقة بين الأغالبة والأباضيين عامة ، وحتى لو كان العباس ينوي مهاجمة أبي منصور ، فإن عامل المصلحة يكون قد ساعد على هذا التحالف وليس من الممكن أن يكون هذا التحالف حدثا عفويا ، إذ لا شك أنه قد سبقته حالة من الصفاء والهدوء في

---

(1) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 118 .
(2) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 118 .
(3) قصر من قصور الاولين على ساحل البحر بين قابس وطرابلس : أنظر : عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي ، المصدر السابق ، ص : 19 .
(4) ابن الأثير ، **الكامل** ، ج 6 ، ص : 21 .
(5) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 119 . ابن أبي الضياف : **اتحاف أهل الزمان** ، ج 1 ، ص : 111 .
(6) ابن الاثير : المكان السابق .

جرى أول اتصال بين الاباضيين والأحناف من قبل أبي حنيفة نفسه ، فقد روي عنه قوله «كنت قد نازعت طبقات الخوارج من الاباضية والصفرية وغيرهم» (1) وهذا يعني أن حلقات الجدل والمناظرة كانت تعقد بين أتباع المذهبين ، ويبدو أن التقارب المذهبي ـ الى حد ما ـ بينهم قد ساعد على هذه العلاقة ، فان المذهب الاباضي والمذهب الحنفي يتفقان في الاعتماد على الكتاب والسنة والقياس والاجماع (2) . وربما ساعد وجودهما في العراق على هذا التقارب ، ومع ذلك فهما يختلفان في الأخذ بآثار الصالحين ، فبينما يرى الاباضيون الأخذ بفتاوي الصحابة والتابعين ، فان الأحناف لا يأخذون الا بفتاوي الصحابة فقط وينكرون اجتهادات التابعين ، كما يقول هؤلاء بالاستحسان واحترام ما جرى عليه عرف الناس (3) ، وهذا ما لم يقل به الاباضيون .

وما دام الأمر كذلك ، فقد ظهرت نقط اختلاف واتفاق بين المذهبين منها : مسألة خلق القرآن ، فقد أوصى أبو حنيفة «لا تكلموا فيها ولا تسألوا عنها أبدا ، انتهوا الى أنه كلام الله عز وجل بلا زيادة حرف واحد» (4) ويرون أن الايمان تصديق بالقلب واقرار باللسان وأن العمل ليس جزءا منه ، وانطلاقا من هذا فانهم لا يكفرون مسلما بذنب وان كان كبيرة ، كما لا يكفرونه «وان أصاب الفواحش .... أو قتل رجلا متعمدا» (5) وهم في هذا يخالفون الاباضية الذين يعتبرون القرآن مخلوقا ، والايمان تصديق بالقلب واقرار باللسان والجوارح أي أن العمل جزء من الايمان ، لهذا فهم يكفرون مرتكب الكبيرة ويحللون دماء مرتكب القتل عمدا ،

(1) محمد أبوزهرة : أبوحنيفة ، ص : 21 .

(2) قال أبو حنيفة : «نحن لا نقيس الا عند الضرورة الشديدة وذلك أننا ناظر في دليل المسألة من الكتاب، والسنة أو أقضية الصحابة فان لم نجد دليلا قسنا حينئذ» أنظر : محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص : 269 . وحول الاجماع ، أنظر : المصدر نفسه ، ص : 309 ـ 324 .

(3) الاستحسان : «أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأول» والعرف : هو ما عليه تعامل الناس ويؤخذ به ما لم يكن ثمة نص من كتاب أوسنة ولا اجماع ولا قياس أواستحسان ، أنظر : المصدر نفسه ، ص : 342 ـ 357 .

(4) المصدر نفسه ، ص : 181 .

(5) المصدر نفسه ، ص : 175 .

كان وصول المذهب الاباضي المغرب سابقا لوصول المذهب الحنفي ، وبذلك فان انتشار المذهب الثاني سيكون على حساب الأول أو على الأقل منافسا له ، وهذا يعني احتمال وقوع صراع بين المذهبين ، خاصة مع وجود مسائل اختلاف ، الا أن سياسة أمراء الأغالبة قامت على تبني كل المذاهب الفكرية وتشجيعها ونشرها (1) ، هذا يعني أن القضاة الأحناف لم يتعرضوا لمذاهب غيرهم ، ـ باستثناء المالكي ـ الأمر الذي سمح للاباضيين أن يعقدوا حلقاتهم في المسجد الجامع في القيروان ، واستمروا على ذلك الى أن ولي سحنون القضاء ففرقهم (2) ـ كما سيأتي ـ وهذا يعني أنهم تمكنوا من القاء دروسهم في القيروان في عهد ابن أبي الجواد ، الأمر الذي يدل على صفاء العلاقة بين المذهبين ، الا أن تساهل الأحناف وتعاونهم مع أمراء الأغالبة الخصوم التقليديين للمذهب طبع هذه العلاقة بنوع من الفتور.

وفي تاهرت ، فان علماء الأحناف اشتركوا في المناظرات التي اشتهرت بها تاهرت ، ويمكن أن يستقرأ هذا من عبارة أوردها ابن الصغير «ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الاباضية الى حلق غيرهم» (3) وتؤكد هذه العبارة أيضا تسامح العلماء بصفة عامة في تاهرت . وهذا ما جعل أمر المناظرات ممكن الوقوع ، ولكن يبدو أنها كانت مع علماء غير متعصبين للأئمة الرستميين ، وقد يفهم هذا من المناظرة التي جرت بين ابن الصغير وأبي الربيع سليمان ، فقد استفسر هذا من مناظره «من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراق أن الرجل اذا زوج ابنته البكر وهي صغيرة ...» (4) هذا يعني أنه لم يثر هذه المسألة مع عالم حنفي «وهذا أمر ممكن قبوله ، متى علمنا أن العلماء الأحناف قد طمعوا في «أن يبيتوا خبر الاباضية ويطفوهم» (5) ، قد يمكن تفسير موقفهم هذا بدافع التعصب

(1) عبد العزيز المجدوب : المرجع السابق ، ص : 65 .
(2) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 184 .
(3) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 57 .
(4) نفس المكان .
(5) المصدر نفسه ، ص : 51 .

المذهبي ، الا أن تحالفهم مع شيوخ المدينة ممن ليس له فقه كعلوان بن علوان (1) يزيل الغموض ويكشف عن وجود دوافع أخرى لموقفهم العدائي من الاباضية ، اقتصادية أو سياسية وقد تكون عصبية .

يبدو أنه كان علماء من الطرفين غير هؤلاء ، يأتي كل منهم حلقات الآخر للمناظرة ، الا أن هذا ـ على ما يبدو ـ كان قليلا ، فلا ابن الصغير ولا غيره من المؤرخين نص صراحة على هذه المناظرات والمسائل التي جرى الحديث بها ، كما هو الشأن مع الواصلية أو ابن الصغير نفسه ، ربما لأن الكوفيين اشتهروا بالتجارة فشغلوا بها .

مما يلفت النظر أن هذه الجماعة المعارضة ـ الأحناف ـ لا يشير أي مؤرخ الى خروجهم مع الجماعات المعارضة للرستميين ، عند وصول الشيعي تاهرت ، فهل تمكن الرستميون من ارضائهم ببعض المناصب ؟ أو تمكنوا من كسبهم بفضل حلقات الجدل والمناظرة ؟ أم أنهم كانوا قلة ليسوا بذي اعتبار ؟ ومهما كان من أمر ، فان وجود أتباع المذهبين في كل من القيروان وتاهرت وانتشار الجدل والمناظرة بهما ، قد ساعد على ربطهما برباط مذهبي ساده الصفاء والمسالمة .

المذهب المالكي :

انتقل المذهب المالكي الى تاهرت (2) ، بطريق الحج والتجارة ، وعلماء

(1) «ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رئاسة في البلد ومحبة عند العوام» ، ابن الصغير ، المكان السابق .

(2) كان المذهب المالكي قد انتقل من المشرق الاسلامي الى المغرب الأدنى خاصة على يد علي بن زياد (ت 183 هـ) اذ كان «أول من أدخل المغرب جامع سفيان الثوري وموطأ مالك وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه» ، أنظر : القاضي عياض : **تدريب المدارك وتقريب المسالك** ج 1 ، ص : 321 . ويتفق المذهب المالكي مع الاباضي في كثير من الأمور الفقهية لاعتمادهما على الكتاب والسنة بالدرجة الأولى ، وبلغ التقارب ، حتى أن السنيين شكوا أن يكون جابر بن زيد اباضيا واعتبروه سنيا ، أنظر : ابن كثير : **البداية والنهاية** ، ج 9 ، ص : 95 ، حوادث سنة 93 هـ . ومن أهم أوجه الخلاف بين المذهبين : الامامة ، والخروج على الامام الجائر ، وقد نشر سموجورزوسكي : قصيدة حول بعض هذه الوجوه ، أنظر : SMOGORZEWSKI, *Un poème abâdite sur: certain divergences entre les malikites et les abâdites*, *R.O.*, (1919-1925), p. 260.
أحمد توفيق المدني : «مدخل لدراسة الدولة الرستمية واسهامها في التطور الفكري والحضاري» : الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، ورقلة 1977 ، ص : 6 ، 7 .

مالكيين قدموا اليها للاقامة أو مرورا ، وقد وجد فيها العرب والجند القرويين منذ عهد الامام عبد الرحمن بن رستم ، ويبدومن الحروب التي خاضوها في تاهرت ، أنهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من السكان ، ولا شك أن أغلبهم كانوا ينتحلون المذهب المالكي ، وقد أشار ابن الصغير الى هذا الوفرة فقال «حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم» (1) ، ومن المحتمل أن تكون تاهرت قد استقبلت بعض القرويين وهم في طريقهم الى مدينة فاس بالمغرب الأقصى .

لم يكن العلماء المالكيون بمعزل عن العلماء الاباضيين ، فقد درج الأخيرون على دعوة علماء أهل السنة للمناظرة في مسائل العقيدة والشريعة ، وربما راودهم الأمل في أن يقنعوهم باعتناق المذهب الاباضي (2) ، ويبدو أن الجدل بينهم كان حادا بسبب تقارب المذهبين ، ومع ذلك ظل المالكيون يحافظون على وجودهم في تاهرت حتى سقوطها ، فذكر أبو زكريا أنه حين وصلها الشيعي «خرج اليه وجوه أهلها من المخالفين المالكية والواصلية والشيعة ومن بها من الصفرية ولا قوه وشكوا اليه امارة الفرس» (3) ـ كما تقدم ـ ويفهم من هذا النص أن معارضة المالكية كانت موجهة ضد الرستميين كجماعة فارسية استأثرت بالحكم ، وليست ضد الاباضيين بصفتهم يتبنون المذهب الاباضي . وربما كان هذا سبب وقوع حروب بين أتباع المذهبين ، ويبدو أن معارضتهم بدأت تظهر بعد عبد الرحمن ، خاصة في عهد الامام افلح ، ويظهر هذا من حرمانه لهم من أموال الصدقات والزكاة وقصرها على أبناء مذهبه مخالفا بذلك أسلافه (4) .

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 13 . يستفاد أن عبد الرحمن عزل كل فرقة على حدة فساعد بذلك على احتفاظهم بالتعصب .

(2) الفرد بل A. Bell : **الفرق الاسلامية** ، ص : 149 ، ذكر ابن الصغير «الا أن الفقهاء تناصبت المسائل فيما بينهم وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خالفتها فيه عاقبتها» ابن الصغير : نفس المصدر ، ص : 57 .

(3) أبوزكريا : **السير** ، ورقة . 108 .

(4) ذكر ابن خلفون المزاتي «ان الزكاة كلها لأهل الاسلام مسلمين كانوا أو من قومنا تؤخذ منهم وتوضع فيهم» أنظر : **أجوبة ابن خلفون**، ص : 64 ، ويؤيد هذا ما ذكره ابن الصغير عن الإمام عبد الرحمن» ثم دفع في أهل كل بيت بقدر ذلك من أموال الصدقة ، أنظر : ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 15 ، وذكر المزاتي «ووجدت في (الاجوبة) عن الامام افلح بن عبد الوهاب أن الزكاة لا توضع الا في أهل الولاية من المسلمين» أنظر : المزاتي : المكان السابق .

لقد كان من بين المناظرين المالكيين ابن الصغير - المؤرخ - فقد روي نفسه أن أبا الربيع سليمان ناظره - كما سبق - وقد جلس الى أبي عبيدة الأعرج ودرس عليه اللغة في كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة في جلسات عديدة ، ومن المحتمل أنه لم يكن يشعر بالحاجز المذهبي بينه وبين الاباضيين في دراسة الفقه ، فأخذ عن بعضهم كتاب مسائل نفوسة فدرسه ووقف عليه ، كما كان يجلس اليهم ، فاعتمد في بعض تاريخه عليهم فقال : « أخبرني غير واحد من الاباضية .... » (1) .

عرفت افريقية المذهب الاباضي - كما سبق - واعتنقته قبائل متعددة خاصة منطقة الجريد ، وأقام هؤلاء في افريقية يمارسون حياتهم الخاصة دون تدخل من أمراء القيروان ، وأقام بين ظهرانيهم علماء مالكيون كأحمد بن يلول (ت 262 هـ /875 م) وأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكناني (ت 280 هـ) من أهل توزر وعبد الرحمن القسطلاني (2) وغيرهم .

كما كان هناك علماء اباضيون في افريقية ، ذكر الشماخي منهم : أبا عبد الله فضل ، وكان مسكنه غربي القيروان ، وسعيد الحدائي وحارث الغدير الهواري ، وسليمان بن ياسر وأبا الفتاح وأبا حبيب وحفصون النفوسي (3) ، وكان بعض هؤلاء العلماء يلقون دروسهم في المسجد الجامع كما كانوا أئمة للناس ومعلمين لصبيانهم ومؤدنين الى أن ولي سحنون قضاء افريقية 234 - 240 هـ/ 848 - 854 م ، فقد ذكر أبو العرب أن سحنون «كان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا فيه حلقا للصفرية والاباضية » (4) ، ويبدو أنه كان شديدا حازما معهم فقد « أدب جماعة منهم بعد هذا خالفوا أمره وأطافهم وتوب

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 9 .

(2) حول الاباضية في افريقية أنظر :

T. Lewicki, *Les Ibâdites en Tunisie au Moyen Age*. Conferenze pubblicate a cura dell-Accademia polacca di scienze e lettre. Fasc. 6, Rome, 1958, p. 10-13.

وعن هؤلاء العلماء ، أنظر : القاضي عياض : **تراجم أغلبية** ، ص : 86 - 202 ، أبو العرب : **طبقات** ، ص : 207 .

(3) الشماخي : **السير**، ص : 260 - 262 .

(4) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 184 . المالكي ، المصدر السابق ، ص : 276 . القاضي عياض : **ترتيب المدارك** ، ج 2 ، ص : 600 ، نفسه : **تراجم** ، ص : 104

جماعة منهم » (1) وربما عادوا الى حلقاتهم بعد وفاته ، فقد كان سعيد الحدائي يصلي في المسجد الجامع بحضرة الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبي .

يرى المالكيون أن كل من كان على غير رأي الامام مالك فهو صاحب هوى ، ونسب الى مالك قوله «أهل الأهواء كلهم كفار» (2) فكان من الطبيعي أن يكون صراع بين المالكية وغيرهم ، ذكر المؤرخون بعض مظاهره ، كمجانبة أهل الأهواء ، وعدم القاء التحية (3) ، ولكن بما أن الامام مالك نفسه قد استقبل معتزليا وناظره فهذا يعني أن تشدد علماء المالكية مع غيرهم هو تعصب ، ومن المظاهر أيضا : أنهم كانوا يرفضون الصلاة على ميت من غيرهم (4) ، ويؤلفون الكتب في الرد على مخالفيهم (5) ، في حين لجأ بعضهم الى البكاء على الاسلام حين أعوزته وسيلة التعبير كأبي زكريا الهرقلي ، ويلاحظ أن خلافهم مع غيرهم لا يتعدى الخلاف السلمي ، ربما لأن الامام مالك نفسه كان يخشى الفتن أيا كان داعيها ويرى في الاستقرار سبيل التغيير والتبديل ، واذا كان هناك من رمي بهوى الصفرية والاعتزال وبالارجاء ، فلم نجد في كتب التراجم من رموه بهوى الاباضية (6) .

كان أمراء الأغالبة حريصين على استمالة وكسب تأييد جميع فئات الشعب ، لكي يسود الأمن ، وكان صراع المالكية معهم دافعا لهم لتقريب أصحاب المذاهب الأخرى ، وربما كان السر في تعيينهم قضاة مالكيين ومعتزلة وأحناف أو اثنين معا ، كأسد بن الفرات ومعه أبو محرز ، وهذا يجعل من المحتمل أن يكون الأغالبة قد قربوا الاباضيين الى جانبهم ، خاصة بعد ما مال هؤلاء للسلم ، فظهر العنبري وهو «افريقي اباضي وليس عراقيا حنفيا» (7) يناظر الجعفري

(1) المالكي : **رياض النفوس** ، ص : 276 ، الدباغ : **معالم الايمان** ، ج 2 ، ص : 87 .
(2) القاضي عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 177 .
(3) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 107 ، 108 ، 167 ، 209 ، عياض : **المدارك** ج 2 ، ص : 331 .
(4) كما فعل البهلول وابن غانم وابن فروخ حين رفضوا الصلاة على جنازة ابن صخر المعتزلي ، أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 108 .
(5) كابن فروخ وأبي عثمان سعيد المعروف بالحداد ، أنظر : نفس المصدر ، ص : 110 ، 248 .
(6) ممن رمي بالصفرية : معاوية بن الصادحي وأبو الخطاب الكندي ، ورمي بالاعتزال ابن فروخ ، وبالارجاء يحيى بن سلام .
(7) عبد العزيز المجدوب : المرجع السابق ، ص : 142 .

السني في حضرة الأمير الأغلبي زيادة الله الأول ، كما قام أبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري بخطبة بين يدي زيادة الله بن محمد بن الأغلب ، وطلب منه ابن الأغلب حين ولي صقلية الخروج معه (1) .

لقد كان بعض علماء افريقية الاباضيون قد تلقوا علومهم في تاهرت كأبي الفتاح « وهو رجل بصير بالفقه تعلم بتاهرت » (2) وليس من شك في أن هؤلاء قد ظلوا على اتصال بأساتذتهم في تاهرت ، يستشيرونهم كلما اقتضتهم الضرورة ، كما ومن المؤكد أن يكون العلماء المالكيون في تاهرت قد ظلوا على اتصال بعلماء المذهب المالكي في القيروان (3) .

هكذا رغم ما يظهر على السطح من مظاهر خلاف ، الا أن جوا من الوئام والتعاون كان يسود علاقات الاباضية والمالكية ، وربطوا تاهرت والقيروان برباط ينسجم وحسن الجوار.

مذهب الاعتزال :

ظهر مذهب الاعتزال في المغرب الأدنى ، ويفهم مما ذكره القاضي عياض « قال المهدي : أخبرني بعض نقاد المعتزلة من القرويين ، قال : أتيت مالك بن أنس .... » (4) ان جهود الدعاة أثمرت ، لكن ظهوره في القيروان ظل محدودا حتى عهد البهلول بن راشد (ت 183 هـ /799 م) (5) وقد قال بعض أمراء الأغالبة بعد ذلك بالاعتزال مثل زيادة الله الأول ومحمد بن الأغلب .

---

(1) الزبيدي : **طبقات النحويين واللغويين**، ص : 250 ، وقد كان أبو الوليد اباضيا بدليل أن أخاه ابراهيم كان اباضيا ، أنظر عنه : الزبيدي ، نفس المصدر ، ص : 249 .

(2) الشماخي : **السير** ، ص : 261 .

(3) كان سحنون يرسل كتبه الى « محمد بن زياد قاضي قرطبة يأمره بالتشدد والمعاقبة لمن تغالس » أنظر : عياض : **تراجم** ، ص : 111 ، فهل وصلت كتبه الى تاهرت ؟

(4) القاضي عياض : **ترتيب المدارك** ، ج 1 ، ص : 90 . كان الرشيد يعارض الاعتزال فقد حبس بشر بن المعتمر لقوله به أنظر : الملطي : **التنبه والرد على أهل الأهواء والبدع** ، ص : 30 ، لكن من أتى بعده : المأمون ، المعتصم ، الواثق ، قالوا به ، أنظر : اليعقوبي : **تاريخ** ، ج 3 ، ص : 170 ـ 171 .

(5) أبو العرب : **طبقات** ، ص : 129 .

اذا كان هذا حال الاعتزال في المغرب الأدنى ، فان الوضع كان يختلف عنه في المغرب الأوسط ، فقد انتشر المذهب في قبائل زناتة ، ويبدو أن انتشاره بينها كان واسعا ، فقد ذكر البكري أن مجمع الواصلية في عهد الرستميين كان « قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها » (1) فكان أول ظهور لهم على مسرح الأحداث في تاهرت في عهد الامام عبد الوهاب ، مما يؤكد أن وجودهم في المنطقة سابق لذلك ، وتكون تلك الجماعات قد خضعت لتأثير دعاة الاعتزال الذين نجحوا في حملها على اعتناق مذهبهم ، كدعاة الاباضية ، بما قدموا لها من وعود وآمال ، اذ من الواضح أنهم أعراب ، بمعنى أنهم ليسوا بمستوى نظريات الاعتزال ، ويبدو أنهم تحالفوا مع عبد الرحمن ، لكن هذا التحالف انتهى بانتقال الامامة الى عبد الوهاب ، فدخلوا في حروب مع الامام ، وشارك ابنه افلح فيها ، وحين ولي هذا الامامة خرجت الواصلية عن طاعته فأخضعها ، وسواء وقعت تلك الحروب بالفعل أم لا ، فان هذا يؤكد وفرة عددهم في تاهرت ، اذ أن المعتزلة تقول « اذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنا نكفي مخالفينا عقدنا للامام ونهضنا فقتلنا السلطان » (2) وهذا يدل على أن نجاحهم في المغرب الأوسط كان أوسع منه في المغرب الأدنى ، ربما لأن مباديء الخوارج كانت أرضية للاعتزال ، وربما لبعدها عن القيروان ، فهل فشل دعاة المعتزلة الأوائل في القيروان فانتقلوا الى تاهرت ووليلي ؟ أم بدأوا دعوتهم في تاهرت ومن هناك مدوا نشاطهم الدعائي الى المغرب الأدنى والأقصى ؟ يبدو من ضخامة عددهم في تاهرت أن الاحتمال الثاني أمر مقبول .

---

(1) البكري : **المغرب** ، ص : 67 ، الحموي : **معجم البلدان** : مادة « تاهرت » ج 2 ، ص : 815 ، وقد ذكر البلخي أن هناك « مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية » في البيضاء في المغرب الاسلامي . ولم يذكر تاهرت بين مناطق الاعتزال ، وذكر الحموى ان البيضاء كورة بالمغرب ، أنظر : **معجم** ، ج 2 ، ص : 335 ، فهل يقصد بالبيضاء تاهرت ؟ أنظر : أبو القاسم البلخي : **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة** ، ص : 109 .

(2) أبو الحسن الأشعري : **مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين** ـ استانبول ـ مطبعة الدولة 1929 - ص : 466 .

لم يذكر ابن الصغير حروب الواصلية في تاهرت ، في حين أشار اليها المؤرخون الاباضيون (1) ، وبذلك فمن المحتمل أن يكون الواصلية قد أحدثوا شغبا وتمردا ، يعتبر احتجاجا على موقف الرستميين من الامامة ، وصراعا بين طبقة فقيرة محرومة (الاعراب) وطبقة غنية ممثلة بالرستميين ، وربما عبروا عن سخطهم بتقديم المساعدة والتحالف مع جماعة النكار (2) ، على أن هذا السخط لم يدم طويلا فقد ذكر البكري أن ميمون بن عبد الوهاب كان « رأس الاباضية وامامهم وامام الصفرية والواصلية » (3) ويفهم من هذا أن الواصلية قد انقادت للامام افلح ، فمن المرجح أن يكون قد وافقهم على بعض آرائهم الاعتزالية ، فقد أشرنا سابقا الى قوله بأن القرآن مخلوق ، فكسب هدوءها العسكري ، وربما يفسر هذا بقاء اباضية الجريد على ولائها للأمير زيادة الله عندما ثار عليه الطنبذى ، وربما كان هذا من العوامل التي ساعدت على أن يسود السلم بين الدولتين ، واستمر هدوء المعتزلة الى سقوط تاهرت على يد الشيعي ، مع احتفاظهم بمعارضتهم السلمية للرستميين التي عبروا عنها بمناظراتهم مع الاباضية ، وبخروجهم مع المعارضة لاستقبال الشيعي كما سلف .

لقد تعرض الدرجيني الى المناظرات التي دارت بين الاباضية والمعتزلة في عهد الامام عبد الوهاب ، لكنه لم يذكر الأمور التي دار الجدل حولها ، واكتفي بقوله « دخلا في مناظرات لم يفقهها أحد غير الامام ثم دخلا في وجوه لم يفقهها أحد ولا الامام » (4) ، الا أن ابن الصغير أورد مناظرة في عهد أبي اليقظان فقال « اجتمعت المعتزلة والاباضية بنهر مينه لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة » (5) ، ويبدو أن هذا الجدل كان شديدا ، فقد استنجد عبد الوهاب

---

(1) أبوزكريا : **السير** ، ص : 56 . الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 57 ـ 64 .

(2) ابن تاويت : **دولة الرّستميين** ، ص : 114 . الحبيب الجنحاني : **تاهرت** ،ص : 44 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 67 . ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 248 .

(4) الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 61 ـ 62 . كذلك : أبوزكريا : **السير** ، ورقة 63 .

(5) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 44 ، وقد أورد مناظرة منها : سأل أحد علماء المعتزلة عبد الله بن اللمطي الاباضي فقال له « هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان لست فيه فقلت لا ، فقال : هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ، فقلت : اذا شئت » : نفسه ، ص : 45 .

بنفوسة الجبل لترسل اليه قوة عسكرية تستطيع الوقوف في وجه أية فتنة قد تنشب من جرائه ، ومن المحتمل أن تكون قد جرت مناظرات بين الاباضية والمعتزلة في القيروان أيضا ، خاصة وأن حلقاتهم كانت تعقد في مسجد واحد ، وليس من المستبعد أن يكون قد نجح هؤلاء وأولئك في كسب واستمالة بعض أبناء الجانب الآخر كنتيجة لهذه المناظرات وللتقارب الشديد بين المذهبين .

يختلف المذهبان الاباضي والاعتزال في عدد من المسائل (1) : مسألة المنزلة بين المنزلتين ، ومسألة القدر ، وحرية العبد في أفعاله ، فترى المعتزلة أن ارتكاب الكبيرة «لا يسمى بالايمان ولا بالكفر بل يسمى بالفسق» وأن «أعمال العباد لا يخلقها الله بل هم يفعلون ما أمروا به» (2) في حين ترى الاباضية أن مرتكب الكبيرة كافر ـ كفر نعمة (3) ـ وأن للعبد حرية محدودة ، كما أن «الاباضية تخالف المعتزلة في التوحيد في الارادة» (4) فترى أن الله لم يزل مريدا لمعلوماته التي تكون أن تكون ، ولمعلوماته التي لا تكون أن لا تكون ، والمعتزلة ينكرون ذلك ، واختلف المذهبان في مسألة التحكيم ، فبينما ينكر الاباضيون على الامام علي قبوله التحكيم ، فان المعتزلة ترى أنه «كان على صواب وأن من حاربه فهو ضال» (5) واختلفا في الصفات ، فترى الاباضية أن صفات الله ليست زائدة على ذاته ، أي أنهم يوحدون بين الصفات والذات الالهية (6) ، أما المعتزلة فكلهم «مجمعون على نفي صفات الله» وبينما يقول الورجلاني «نحن نثبت عذاب القبر» فان المعتزلة ينكرونه ، كما يختلفون في رؤية الله في الآخرة .

---

(1) حول هذا الموضوع : أنظر : يحيى هويدى : المرجع السابق ، ج 1 ، ص : 56 ـ 57 .

(2) أبو القاسم البلخي : المصدر السابق ، ص : 54 ـ 115 ، كذلك : فخر الدين الرازي : **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** ، مراجعة علي سامي النشار ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1356 هـ / 1938 م ، ص : 40 ، 63 .

(3) أبو يعقوب الورجلاني : **الدليل** ، ج 2 ، ص : 32 .

(4) أبو الحسن الاشعري : المصدر السابق ، ص : 124 .

(5) أبو القاسم البلخي : **فضل الاعتزال** ، ص : 13 .

(6) الورجلاني : **الدليل** ، ج 1 ، ص : 37 ـ 54 ، الحاج سعيد عيسى : «**المذهب الأباضي وعلاقته بالمذاهب الأخرى** ، **محاضرات** الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي ، الجزائر 1391 هـ / 1971 م ، ص : 272 .

اذا كانت هذه أوجه خلاف ، فهناك أوجه اتفاق كثيرة ، كمسألة الامامة ، فيرى المعتزلة بأنها حق لكل مسلم ، ويعترضون على حصرها في قريش ، ويجيزون امامة المفضول ، كما يرون الخروج على السلطان الجائر ، ويقولون بالعدل والوعيد والخلود ، وعدم نفع الشفاعة لأهل النار ، وأن المغفرة تكون لمن تاب قبل الموت ، ويتفقون في جواز الصلاة خلف البار والجائر ، وفي التوحيد ، واعتمادهم على الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، وفي مسألة خلق القرآن (1) . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغيرها .

كان المعتزلة من أصحاب علي ، وعندما وقعت حادثة التحكيم لم يحاربوا معه ولا ضده ، وهذا يعني أن التبعية لعلي كانت تجمع المعتزلة والاباضية ، ومما يوضح التقارب ، أن الاباضية أخذوا عن محمد بن سيرين الذي كان معتزليا (2) ، فقد ذكر ابن خلفون أن الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن روي عن الصلت بن دينار عن محمد بن سيرين ، وربما يفسر هذا التقارب كيف أن بعض شراة اصطخر قد « ترك مذهبه وقال بالاعتزال » (3) .

كما أن المناظرات التي جرت بين امامي المذهبين أبي عبيدة وواصل بن عطاء ، قد تواصلت في تاهرت والقيروان (4) ، ورغم أنها كانت تعبيرا عن وجود خلاف ، الا أنها كانت محاولات جادة ساعدت على تقاربهم الى حد ما ، ومما زادهم تقاربا ، ذلك التوافق في كثير من مبادئهم ، وربما وقع تحالف آخر بينهم حين شردهم الامام سحنون من المسجد الجامع ، ويبدو أن هذا التوافق ، قد ترك طابعه على العلاقة بين البلدين ، كما عمل وجودهم في كلا البلدين ،

---

(1) عن آراء المعتزلة ، أنظر : الرازي : المصدر السابق ، ص : 38 ، أبو الحسن الأشعري : المصدر السابق ، مواضع متفرقة ، البلخي : المصدر السابق ، ص : 202 ، 214 ، 139 . ابن حزم : **الفصل** ، ج 4 ، ص : 66 ـ 79 .

(2) البلخي : المصدر السابق ، ص : 87 .

(3) الملطي : المصدر السابق ، ص : 43 .

(4) الحبيب الجنحاني : **تاهرت** ، ص : 41 . وقيل أن عبد الله بن اباض « لم يمت حتى ترك قوله اجمع ورجع الى الاعتزال » انظر : الزركلي : **الاعلام** ، مادة عد الله بن اباض ، ج 5 ، ص : 184. ومهما قيل عن صحة هذا القول فهويدل على مدى التقارب بين المذهبين .

واحتدام المناظرات بينهم على اثراء الحركة الفكرية فيهما ، ومساهمتهم في تقوية العلاقة العلمية بينهما .

التبادل الثقافي بين تاهرت والقيروان

انتشر التعليم في تاهرت في العهد الرستمي ، فكان الرستميون يدرسون في مساجدهم مجانا علوم الدين واللغة ، وكانت هذه العلوم تطغى على الحياة الفكرية ، فقد ذكرنا أن مختلف المذاهب كانت موجودة في تاهرت ، وأن المجادلات كانت تجرى بينهما ، وهذا يعني أنه كان على الرستميين أن يواجهوا المعارضة السياسية التي لبست ثوبا مذهبيا ، وهذا يتطلب منهم التعمق في التفقه في شؤون الدين ومسائل الفرق والبراعة في الجدل .

يلاحظ أن الحركة الفكرية في تاهرت كانت مرتبطة بالمشرق خاصة في بداية الأمر ، فقد وقعت مراسلات مع علماء المذهب في المشرق ، وأرسل الرستميون أموالا لشراء الكتب ، ومما يزيد الأمر وضوحا ، أن مجادلات أبي عبيدة وواصل شغلت علماء تاهرت عدة أسابيع (1) ، ويلاحظ أيضا أن تسامح الأئمة وحرية الفكر ، جعلت منها مركزا للدراسات الاسلامية ، وقد ساهم الرستميون في هذه الحركة ، فقد كان الامام عبد الرحمان عالما محبا للعلم ، يلقي دروس العلم والوعظ في المسجد الجامع ، وكان ابنه عبد الوهاب عالما في شؤون الدين ، فألف كتاب « مسائل نفوسة » وأرسل الى أخوانه في البصرة ألف دينار لشراء كتب ، فأرسلوا له حمل أربعين جملا (2) ، قال انه يستفد منها الا مسألتين ، ولم يكن ابنه افلح يقل عنه محبة للعلم ، فقد ألف كتابا في الفقه ، وكان أبو بكر عالما له اهتمام خاص بعلوم اللغة والأدب ، ذكر ابن الصغير بشأنه أنه كان سمحا جوادا يحب الأدب والأشعار (3) ، فيحتمل بذلك أنه استجلب الأدباء والشعراء الى تاهرت فقربهم وأجزل لهم العطاء ،

---

(1) الحبيب الجنحاني : المكان السابق .
(2) الشماخي : **السير**، ص : 162 . ابن تاويت : **دولة** ، ص : 118 .
(3) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 41 .

وكان أبو اليقظان عالما ، ألف كتابا من أربعين جزءا في الاستطاعة (1) ، واذا استثنينا أبا بكر ، فان الرستميين لم يكونوا ممن يدفع الصلات للشعراء ، وبذلك اقتصر اهتمامهم على علوم الدين واللغة وعلوم الرياضيات والنجوم .

لا يعني هذا الاهتمام أن للرستميين اليد الطولى في نشر العلم ، اذ يبدو أن عملهم لم يزد عن العمل التقليدي للامام ، فقد ذكر سليمان بن داود أنهم لم يعملوا على نشر المذهب (2) ، ربما بسبب اضطراب الوضع ، واهتمامهم وأعوانهم الفرس بالتجارة ، فلم يفعل هؤلاء الفرس شيئا يتحدث عنه التاريخ في الحقل الثقافي (3) ، بدليل عدم وجود أي عالم فارسي بين علماء تاهرت ، وهذا يعني أن العرب والبربر قد تحملوا الدور الرئيسي ، اذ التقت رغبة العرب في نشر رسالتهم ، برغبة البربر في تلقي علوم الدين واللغة لكي يتسنى لهم فهم كتاب الله وسنة رسوله (4) .

كانت تاهرت مركزا تجاريا هاما ، فتوافد اليها التجار بما فيهم تجار افريقية ، وأفرغوا علومهم فيها الى جانب سلعهم ، كما أن العلماء والحجاج ، الخارجين من تاهرت والقادمين اليها ، مقيمون أو عابرون شرقا أو غربا ، قد أسهموا أيضا في نقل مختلف العلوم والفنون الى تاهرت ، والى جانب هؤلاء ، فقد ساهمت جماعة القرويين في تاهرت في الحركة العلمية حتى أصبحت تاهرت بلخ أو عراق المغرب (5) ، فظهر فيها عدد من العلماء العرب والبربر منهم : محكم الهواري وابنه هود الذي وضع كتابا في تفسير القرآن من جزأين (6) ، وعبد الله بن اللمطي ، وهو الذي كان يتولى مناظرة المعتزلة ، وكان حسن الرد والتأليف ، وأبا عبيدة الأعرج الذي قال عنه ابن الصغير ، أنه كان « عالما بالفقه والكلام والوثائق

(1) الدرجيني : **طبقات** ، مخطوط ، ورقة 94 .
(2) سليمان بن داود : مقابلة 1975/5/30 .
(3) ابن تاويت : بزوغ الثقافة العربية بالمغرب : تمودا Tamuda تطوان 1956 ، ص : 184 .
(4) ذكر ألفرد بل A. Bell إن البربر « كانوا يدرسون الدين الجديد بحماسة شديدة » **الفرق** ، ص : 447 .
(5) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 353 ، المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 228 .
(6) البرادي : **الجواهر** ، ص : 219 ، السالمي : **اللمعة المرضية** ، ص : 68 .

والنحو واللغة » (1) ، وكان منهم عبد العزيز بن الأوز (الأوس) وهو صاحب فقه ورحلة نحو المشرق (2) ، ومحمود بن بكر قال ابن الصغير ، أنه كان « يرد على الفرق في مقالاتهم ، ويؤلف الكتب في الرد على مخالفهم » (3) .

يبدو أن عدد العلماء في تاهرت كان كبيرا ، فقد ذكر ابن الصغير أنه حين ضرب أبو اليقظان سرادقه خرج اليه العلماء والقراء (4) ، وذكر الشماخي أن مهدي النفوسي قد أفحم تسعين عالما من المخالفين (5) ، كما خرج رفقة يعقوب بن افلح بعض الأوفياء من العلماء والأعيان ، والى جانب هؤلاء ظهر عدد من الخطباء كابن أبي ادريس ، وأحمد التيه وأبي العباس بن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد ابن منصور ، وكان من شعراء تاهرت المعروفين أبو عبد الرحمن بكر بن حماد وابن الخراز أحمد بن فتح التاهرتي .

كان من نتائج حرية الفكر ، وتعدد المذاهب ، تعدد حلقات المناظرة والجدل ، مما أسفر عن نشاط في حركة التأليف ، فكثر وضع الكتب للرد على المخالفين ، ومما زادها نشاطا كثرة العلماء ، ويبدو أن الرستميين قد حافظوا على تلك المؤلفات فأودعوها في مكتبة ، فقد ذكر الدرجيني أن الشيعي « وجد صومعة مملوءة كتبا » (6) من بينها ديوان تاهرت ووصفت هذه المكتبة بأنها كانت « تزخر بالكتب المتعددة في مختلف العلوم والفنون » .

ـــ في نفس الوقت شهدت القيروان حركة علمية نشيطة ، اذ ما كاد العرب يستقرون في افريقية ، حتى شعروا بحاجتهم لتعليم أبنائهم ، وأبناء مسلمة البربر ، فانتشرت الكتاتيب واتسعت حلقات الدراسة في المساجد ، وقد ساعد على هذا

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 46 .

(2) المصدر نفسه ، ص : 47 . وكان في ذلك الوقت « لا يتم تمام العالم منهم عند الرؤساء وعند العامة الا أن يكون علمه مشرقيا » ابن عبد ربه : **العقد الفريد** ج 1 ، ص : 15 .

(3) ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص : 44 .

(4) المصدر نفسه ، ص : 45 .

(5) عالم من جبل نفوسة قدم تاهرت لنصرة الإمام الرستمي ضد المعتزلة . الشماخي : **السير**، ص : 156 .

(6) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 94 ـ 95 . لمزيد من التفاصيل انظر : لقبال موسى : **من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى** ، ص : 51 .

النشاط اهتمام الخلافة بافريقية ، وانتقال العرب اليها بأعداد هائلة ، وانتشار الأمن والرخاء ، واعتناء أمراء وأغنياء العرب بها ، تجلى بتشجيع الأساتذة والتلاميذ ، ومن هؤلاء الأمراء يزيد بن حاتم الذي قدم معه علماء في اللغة والأدب كالمعمر بن سنان التميمي ، وربيعة بن ثابت الرقي ، والشاعر مسهد التميمي وابن المولى ، ويونس النحوى ، وقتيبة الجعفي النحوى ، (1) ومنهم زيادة الله الأول الذي كان في بلاطه من الشعراء عبد الرحمن وعلي ابنا أبي سلمة وأبي العزاف ، والشاعر يعقوب بن يحيى (2) ، ومنهم ابراهيم بن أحمد الاغلبي الذي أنشأ بيت الحكمة سنة 265 هـ / 878 م وجلب اليها الكتب اليونانية واللاتينية (3) ، وعبد الله الثاني الاغلبي الذي استقدم الطبيبين اسحق بن عمران واسحق بن سليمان وغيرهما ، وشهد عصره عددا من الأدباء كأبي جعفر أحمد بن داود الصواف وأبي اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني ، والى جانب هؤلاء كان عدد من الخطباء كأبي عبد الله بن زرقون (ت 278 هـ /891 م) وأبي عمر هاشم بن مسرور التجيبي (ت 307 هـ /919 م) وأبي جعفر أحمد بن خليل (ت 308 هـ /920 م) (4) .

ظهر في القيروان عدد من العلماء ، واشتهر بعضهم اضافة الى علوم الدين بالنحو مثل ذبيح ـ أحد أصحاب بهلول ـ وبالفرائض والحساب كأبي زكريا يحيى بن سليمان الخراز الحفري ، وبالوثائق كأحمد بن زياد الفارسي ، وبتفسير الرؤيا كأبي الشيخ المفسر ، وكان أبو عبد الله محمد بن زرزر (5) بصيرا بالعربية وله شعر كثير معظمه في التوحيد والتدين ، ولا شك أن هؤلاء أكثروا من التأليف ، حتى أن أبا العرب كان يميز بين هذا وذاك فيقول : انه كان صحيح الكتب

---

(1) ابن الابار : **الحلة السيراء** ، ج 1 ، ص : 107 ، حسن حسني عبد الوهاب ، **رواة اللغة والأدب** ، ص : 2 ـ 11 .

(2) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 105 .

(3) الحبيب الجنحاني : **القيروان عبر عصور وازدهارها** ، ص : 58 .

(4) محمود الباجي : **الشيخ محمد شويسة** ، مجلة الفكر ، جانفي 1968 ، ص : 59 .

(5) ذكر ابن عذارى أنه توفي سنة 291 هـ /904 م وأنه «كان على مذهب أبي حنيفة» : **البيان** ، ج 1 ، ص : 136 .

حسن التقييد ، أو أنه لم يكن صاحب كتب ، فقد وضع محمد بن سحنون كتب الحجة على القدرية ، والحجة على النصارى ، والرد على الفكرية ، والرد على أهل البدع ، ورسالة في أدب المتناظرين ، وكان من علماء المعتزلة الذين وضعوا الكتب الفراء الذي كان بارعا في التأليف ، جيد المناظرة ، وبشر المريسي الذي ألف كتاب التوحيد .

لم تكن هاتان العاصمتان ـ تاهرت والقيروان ـ بمعزل عن بعضهما ، بل كان هناك تأثر وتأثير متبادل ، فتم التزاوج الحضاري بينهما ، بطريق شعبي ونعني به التجار والحجاج والعلماء ، كما ساهمت الطائفة القروية في تاهرت والجند الى جانب هؤلاء ، فقد نشر هؤلاء الثقافة الاسلامية العربية في الأوساط الشعبية في ليالي سمرهم وحلقات اجتماعاتهم ، ولا يخلو الأمر من أن يكون في هذه الطائفة عدد من العلماء ، فقد ذكر ابن الصغير أن محمود بن بكر كان رجلا عربيا ، ومن خاصة أبي اليقظان وكان يرد على الفرق ويؤلف الكتب على نحو ما ذكر ابن الصغير (1) ، ومن المحتمل أن هؤلاء ظلوا على اتصال مع اخوانهم وأصدقائهم في القيروان فأسهموا بذلك في عملية التبادل الفكري .

وقد رحل آخرون من القيروان وسائر المغرب الأدنى الى تاهرت ، كان منهم عدد من العلماء الاباضيين ممن سبق ذكره كأبي الفتاح ، الذي عاد الى القيروان وأخذ يعلم الناس ، ومن المؤكد أنه لم يكن أول من ينتقل الى تاهرت طلبا للعلم ولا آخرهم ، اذ لابد أن يكون قد سبقه ولحقه آخرون ، كما لا يمكن أن يكون سافر بمفرده ، اذ لابد من وجود زملاء له ، وفي هذا دليل على أن الانتقال بين العاصمتين كان عادة متبعة ، وقد رحل اليها من الاباضيين أبو عبد الله فضل الساكن في سوق الأحد ـ حارة أبي محرز ـ غربي القيروان ، وسعيد الحدائي وأبو الغدير الهواري وغيرهم ، وهؤلاء عملوا بالفتيا في القيروان (2) ، ويبدو أن نشاط حركتهم الى تاهرت باعتبارها مركز امامة المذهب .

(1) ليس هناك من أوائل المؤرخين من تعرّض لهؤلاء بشكل مستقل .

(2) الشماخي : المصدر السابق ، ص : 261 .

وممن يمثل الروابط الحسنة بين تاهرت والقيروان ، ذلك الفقيه الذي صلى على بكر بن حماد عند وفاته في تاهرت سنة 296 هـ /909 م ، وقد ورد اسمه عند أبي العرب على صورة أبي موسى بن البادسي (1) ، في حين أورده ابن عذارى على صورة موسى بن الفارسي (2) ، ويميل بي القول ، الى أن تسميته الأول أقرب الى الحقيقة ، ذلك لأن أبا العرب كان معاصرا له ، ولئن الفرس في تاهرت لم يشتغلوا بالعلم ـ كما سبق ـ وبذلك فهو من سكان بادس (3) ، ومهما يكن فقد أسهم هذا في التبادل العلمي بين البلدين من خلال وجوده في تاهرت ، وقد ذكر أبو العرب أنه قد بلغه دخول أبي موسى على ابن حماد ، وأغلب الظن أن مبلغه كان عالما ، وسواء أكان هذا التبليغ شفويا أوكتابيا فهذا يكشف عن اتصال المدينتين بشكل مستمر .

الى جانب هذا ، فقد ذكر الدباغ أن أبا بكر بن اللباد قال « دخلت على بكر بن حماد فقال لي : أكتب ، فأملي علي لنفسه» (4) كان هذا في تاهرت حين كان ابن حماد على فراش الموت ، ويفهم من أبي العرب أن أبا بكر ابن اللباد كان في القيروان (5) ، هذا يؤكد على وجود الاتصال المستمر بين البلدين ، كما أن أبا يزيد مخلد بن كيداد ـ المعروف بصاحب الحمار ـ قد « درس في تاهرت على شيوخ الخوارج » (6) .

وممن يمثل الروابط الوثيقة هذه الشاعر التاهرتي أبو عبد الرحمن بكر بن حماد (7) ـ السابق الذكر ـ الذي ولد ونشأ في تاهرت ثم رحل الى المشرق

---

(1) ابو العرب : **طبقات** ، ص : 246 ، كذلك : الدباغ : **معالم الايمان** : تحقيق ابراهيم شبوح مكتبة الخانجي ـ مصر ـ 1968 ، ج 1 ، ص : 82 .

(2) ابن عذاري : **البيان** ، ج 1 ص ، : 211 ، يبدو أنه اعتقد أن « البا » كانت « أنف » . التي طرأ عليها تغيير

(3) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 175 . ياقوت الحموى : **معجم البلدان مادة** « بادس » ج 1 ، ص : 459 .)

(4) الدباغ : **معالم الايمان** ، ج 2 ، ص : 282 .

(5) أبو العرب : **طبقات** ، ص : 117 .

(6) ألفرد بل : **الفرق** ، ص : 162 .

(7) هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن اسماعيل الزناتي التاهرتي . أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 246 . ذكره صاحب الاستبصار أبو بكر بن حماد انظر : ص : 178 وذكره البرادي=

سنة 217 هـ /832 م ، وقد ذكر الدباغ أن ابن حماد «سمع من سحنون بن سعيد وعون بن يوسف ثم رحل الى البصرة» (1) هذا يعني أن انطلاقه الى الشرق كان من القيروان ، فما هي الظروف التي غادر بها تاهرت الى القيروان وهو لم يبلغ رشده بعد ؟ وهل عرج عليها في طريق رحلته الى الشرق أم رحل مع أسرته اليها ؟ وقد روي أبو العرب عن بكر بن حماد أنه «سأل بالمدينة عن أبي محمد عبد العزيز ابن يحيى المدني الهاشمي» (2) ويفهم من هذا أن رحلته كانت الى المدينة أولا ، فأخذ العلم بها حتى غدا ثقة مأمونا حافظا للحديث ، ثم توجه الى العراق ، فأقبل على مجالسها الأدبية والعلمية فاجتمع بحبيب وصريع الغواني ودعبل وعلي بن الجهم (3) وغيرهم وسمع من ابن مسدد وعمرو بن مرزوق بن حجر ، واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه ، ونال منه صلات وحرضه على دعبل بقصيدة مطلعها :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل (4)

ثم ظهر بعد ذلك في القيروان في عهد سحنون ، فقد روي أبو العرب عنه أنه قال : «قلت لسحنون انهم يقولون ....» (5) ثم ظهر في القيروان في عهد ابراهيم الثاني الأغلبي سنة 261 هـ ـ 289 هـ /374 م ـ 902 م ، فكان كثير المدح له ، فوصله منه مال وفير ، فنال ذات مرة صرة فيها مائة دينار على أبيات منها :

= بكر بن حماد الشعبي انظر : **الجواهر** ، ص : 173 ، 206 . انظر عنه : ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 210 .

(1) الدباغ : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 281 .

(2) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 158 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 66 . سليمان الباروني : **الازهار** ، ج 2 ، ص : 71 .

(4) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 211 . سليمان الباروني : **الازهار** ، ج 2 ، ص : 71 . وكان دعبل شيعيا أماميا . أنظر عنه : ياقوت : **معجم** الادباء وطبقات الادباء القاهرة 1927 م ، ج 4 ، ص : 1193 ـ 197 .

(5) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 164 .

خلقن الغواني للرجال بلية فهن موالينا ونحن عبيدها
اذا ما أردنا الورد في غير حينه أتتنا به في كل حين خدودها (1)

هذا يعني أنه اتخذ القيروان مقاما له بعد عودته من الشرق ، فذكر الدباغ أنه « رحل الى القيروان فأقام بها الى أن سافر الى تاهرت سنة خمس وتسعين ومائتين » (2) بينما يذكر البكري أن بكر بن حماد سكن تاهرت وتوفي (3) بها وهذا يعني على الأقل أنه كان دائم التنقل بين العاصمتين ، ومن المؤكد أن ظروف تاهرت استدعته القدوم اليها ، فقد ظهر في تاهرت ، يطلب العفو من أبي حاتم ، في قصيدة منها :

ومؤنسة لي بالعراق تركتها وغض شبابي في الغصون نضير

ومنها :

آخذ البلاد بسيفه فاستسلمت وبعد له وبفضله وسخائه (4)

ترى عم اعتذر ابن حماد لأبي حاتم ؟ هل شارك في المؤامرات التي دبرت ضده ، وحين فشلت لجأ الى التملق والاعتذار ؟ ومع ذلك اضطر الى مغادرتها الى القيروان ، وهناك سعي به الى ابراهيم بن أحمد الأمير ، فخرج هاربا يريد تاهرت سنة 295 هـ /908 م (5) ، وفي الطريق اعترضه قطاع الطرق عند سباطة ، ربما من زناتة ـ فانتهبوا متاعه وقتلوا ابنه عبد الرحمن ، وأصيب بجراح ظل متأثرا منها الى حين وفاته سنة 296 هـ /909 م ، ومن الواضح أن هذه السعاية كانت بعد رجوعه من تاهرت ، حينما لم تجده اعتذاراته لأبي حاتم ، ومهما كان موضعها ، ومهما كان مذهب ابن حماد ، فقد مثل الترابط الثقافي

---

(1) ابن الآبار : **الحلة السيراء** ، ج 1 ، ص : 174 ، كذلك : محمود علي مكي : « **التاهرتي بكر بن حماد** » مجلة العربي ، عدد 53 أفريل 1963 ، ص : 78

(2) الدباغ : **الحلة** ، ج 2 ، ص : 282 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 66 . ياقوت : **معجم البلدان** ، مادة تاهرت ، ج 1 ، ص : 813 .

(4) البرادى : **الجواهر** ، ص : 206 .

(5) ابن الابار : **الحلة** ، ص : 173 ، الدباغ : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 282 . ربما كانت عودته بسبب وفاة أبي حاتم وليس بسعي الى ابراهيم .

بين تاهرت والقيروان وأسهم في عملية التأثر والتأثير ، مما يدل على أن الانتاج الفكري في كل منها كان يأخذ طريقه الى الأخرى متخطيا كل الظروف .

العلاقة التجارية :

كان من نتائج الاضطرابات التي شهدتها افريقية في عهد الولاة ، أن سيطر البيزنطيون على غرب البحر المتوسط ، وساءت الأحوال الاقتصادية (1) ، وهذا يعني أن الحركة التجارية لافريقية قد ضعفت واتجهت بعيدا عن الساحل ، ثم شهدت البلاد ازدهارا في عهد الأغالبة (2) ، بما توفر لها من أمن واستقرار ، وبما أنجزه أمراء الأغالبة من مشاريع ، الأمر الذي أدى الى حسن استغلال الأراضي ، فعمرت منطقة قمودة بأشجار الزيتون والتين واللوز ، وأصبح شمال هذه المنطقة من أهم مراكز انتاج القمح (3) ، وعمرت المنطقة الممتدة بينها وبين الساحل بأشجار الزيتون والنخيل والبساتين ، واشتهرت قابس بالخضر والفواكه ولا سيما الموز . ومنطقة قفصة بالفستق ، كما تم استخراج المعادن مثل الفضة والكحل والحديد والرصاص من منطقة مجانة . وشمل هذا الازدهار الميدان الصناعي ، فتقدمت صناعة الآلات الحديدية ، والتحف الذهبية والفضة والزجاج والنسيج كالثياب السوسية وغيرها . ان توفر المنتجات الزراعية والصناعية مع وجود الظروف الملائمة للتجارة ، قد سمح للقيروان أن تلعب دورا كبيرا في الحركة التجارية المغربية . فسارت قوافلها الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي والسودان (4) وجابت مراكبها شواطيء المتوسط والاطلسي . خاصة فترة سيطرة الاغالبة على الحوض الغربي للمتوسط .

في نفس الوقت كانت تاهرت تتمتع بموقع تجاري هام ـ كما سلف ـ فكانت حلقة وصل تجارية ، وكان هذا مشجعا لممارسة التجارة التي شارك

---

(1) أرشيبالد : **القوى البحرية** ، ص : 193 .

(2) حسن محمود : **العالم الإسلامي في العصر العباسي** ، ط 1 دار الفكر العربي ، مطبعة المدني 1966 ، ص : 418 كذلك بدوي عبده : **مع حركة الإسلام في افريقية**، ص : 34 .

(3) المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 227 .

(4) الاستبصار، ص : 224 ، كذلك

Brett, *Ifriqiya as a market for caharan trade, J.A.H.*, 1969, vol. 10, n° 3, p. 356.

الرستميون فيها بأنفسهم كما سبق ، وقد شارك فيها البربر بمزروعاتهم ومصنوعاتهم المحلية ، كما شارك عدد من أفراد الجماعات التي سكنت تاهرت ، كالنفوسيين والعرب والفرس ، ربما لأن معظم الأراضي ظلت بأيدي أصحابها ، وربما لاستثمار ثروة يمتلكونها ، فكان أبو محمد الصيرفي وابن الواسطي من وجوه التجار وذوي الأموال (1) وكان يعيش في تاهرت الى جانب هؤلاء اليهود ، ونظرا لاهتمام هؤلاء بالتجارة فمن المؤكد أنهم ساهموا في هذه الحركة التجارية (2) ، وقد ظل اباضيو افريقية على اتصال بعاصمة امامهم ، فسارت قوافلهم قاصدة تاهرت أو مرورا بها نحو سجلماسة وأودغست ، وليس من شك أن العلماء أيضا ساهموا بالتجارةفقد اعتاد هؤلاء أن يصطحبوا معهم سلعة للتجارة في رحلتهم (3) ، ويبدو أن شهرة تاهرت التجارية قد جذبت اليها التجار من البصرة والكوفة ومن بلاد الفرس ومصر وغيرها ، فمنهم من أقام بها ومنهم من أخذ يتنقل بين مراكز المغرب التجارية الأخرى كسجلماسة ، وقد قام هؤلاء جميعا بتجارة داخلية تدل عليها أسواق تاهرت وحوانيتها ، وبتجارة خارجية تدل عليها القوافل المنتشرة ، وكما مارست المدينتان تجارة برية ، كانت هناك تجارة بحرية ، فكان للقيروان أسطولها التجاري ، ولتاهرت مراكب ترسو بمرسى فروخ (4) ، وكان التجار يسلكون ثلاث طرق مختلفة : الطريق الأول هو الطريق البحري ، فكانت القوافل تنقل السلع من تاهرت الى تنس والمسافة بينهما مسير أربعة أيام ومن هناك الى ميناء طبرقة وبينهما 16 مرحلة ومنها الى ميناء تونس وبينهما 10 مراحل ، ثم تقوم القوافل البرية بنقلها الى داخل

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 39 .

(2) كان يطلق عليهم « الرهدانية » عنهم . أنظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص : 65 كذلك :
HIRSCHBERG, *The problem of the Judaized besbers, J.A.H.*, 1963, vol IV, n° IV, n° 3, p. 321

(3) يؤكد ذلك : حين قدم أبو محمد عبد العزيز الهاشمي ـ السابق الذكر ـ الى القيروان كان « معه مسك يبيعه » وكان العالم أبويحيى بن حماد السجلماسي تاجرا في القيروان . أنظر : أبو العرب : **طبقات**، 159 ـ 207 .

(4) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 353 .

افريقية ، كالقيروان وبينهما 3 مراحل (1) ، وكانت هذه المراكب تسير « مسحلة غير موغلة » (2) وتعرج أثناء رحلتها على موانيء جيجل وقلعة خطاب وسكيكدة ودلهاجة ، ولا يسلك هذا الطريق الا الأقوياء ممن لا يخشى ركوب البحر ، وكانوا عرضة لأخطار القرصنة (3) ، ورحلاتهم صيفية ، أما الطريق الثاني ، فهو يخترق منطقة الهضاب العليا الى الزاب ، ثم الى القيروان عبر جبال الأوراس ، فكان الخارج من تاهرت يسير الى مدينة سطيف وبينهما عشرون مرحلة ثم الى القيروان وبينهما 16 مرحلة ، وتستغرق هذه الرحلة مسير شهر على الابل (4) ، وكان يفضل هذا الطريق عامة الناس من التجار والعلماء والراحلون بعائلاتهم فهو في مأمن من الغارات البيزنطية ، وعامر بالقبائل ، الامر الذي يتيح لهم سهولة التزود بالمؤونة والقيام بعمليات مبادلات تجارية ، الا أنه يكلف التجار ضرائب كثيرة ، ويعرضهم لأخطار قطاع الطرق ، وهو طريق بطيء ، وهناك فرع آخر يتجه من سطيف الى بسكرة ومنها الى القيروان عبر بلاد الجريد (5) أما الطريق الآخر ، فيخرج من تاهرت الى ورقلة عبر جبال عمور ، وهو الطريق الذي سلكه الامام يعقوب عند مغادرته تاهرت ، ومن ثم الى القيروان ، وهذا الطريق صحراوي حافل بالمتاعب والمشقات ، ومع هذا كان عامرا بالحركة لخصائصه فهو طريق سريع لقلة التوقف فيه ، وبعيد عن امارات المغرب ودوله ، التي ترهق القوافل بالضرائب ، وعليه قبائل حريصة على كسب ثقة القوافل لأنها همزة وصل بين القبائل والعالم الخارجي كما يمتاز بالجفاف في فصل الشتاء مما يسمح بقيام رحلات تجارية على مدار السنة (6) .

---

(1) الاصطخري : **المسالك والممالك** ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، دار القلم ، القاهرة 1381 هـ 1961 م .

(2) اليعقوبي : المكان السابق .

(3) حدث أن أغار الروم على قصر الطوب أثناء وجود محمد بن سحنون هناك : أنظر : المالكي ، المصدر السابق ، ص : 348 .

(4) ابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** ، ص : 79 .

(5) كان هذا الطريق الذي سلكه المهدي الى سجلماسة : القاضي النعمان : **افتتاح الدعوة** ، ص : 152 ـ 129 . عن هذه الطرق جميعا أنظر : ابن حوقل : **المسالك والممالك** ، ص : 82 ـ 84 .

(6) حسين مؤنس : «**فزان ودورها في انتشار الاسلام في افريقية**» : مجلة كلية الآداب ـ ليبيا ، 1969 ، ص : 76 ـ 80 .

ان ذكر هذه الطرق من قبل الرحالة والجغرافيين لدليل على أنها كانت متبعة ، أي أن تاهرت كانت ترتبط بالقيروان بعلاقة تجارية مباشرة كما وجدت علاقة تجارية غير مباشرة ، تتم في مراكز تجارية أخرى مثل زويلة وورقلة وسجلماسة وغيرها . وقد يكون هذا التبادل بسلع محلية أو بسلع مستوردة ، بمعنى قيام كل منها بدور الوسيط التجاري (1) . ويبدو أن المنتجات الزراعية كانت عصب الحياة التجارية ، فقد كانت ترتفع الأسعار حين يكون القحط ، كما حدث سنة 260 هـ وسنة 266 هـ حيث «كان القحط والغلاء» (2) ، ولما كانت تاهرت تشتهر بزراعتها ، فقد صدرت بعض منتجاتها الزراعية كالسمسم والزعفران والكتان والفواكه المجففة والحبوب والعسل ، كما صدرت الحيوانات كالأغنام (3) ومنتجاتها ، والمرجان والمواد المصنعة من الصوف والجلود ، وبعض المصنوعات التقليدية ، ومن المحتمل أن يكون الموز قد وصل تاهرت من قابس ، والفستق من قفصة ونظرا لاشتهار افريقية بأشجار الزيتون فربما صدر الزيت والصابون ، كما صدرت افريقية المواد المصنعة كالآلات الحديدية للسفن ـ لوجود الحديد ـ والسيوف وسروج الخيل والتحف والمنسوجات الحريرية كالثياب السوسية الشهيرة ، والكساء الدرجيني (4) .

يبدو أن هذه التجارة الخارجية كان لا يقوى على القيام بها الا كبار التجار ، لما تتطلبه من تجهيزات واستعدادات (5) ، وربما كلف هؤلاء من يقوم بالتجارة لهم ، أي أن كان لبعضهم وكلاء في المراكز التجارية (6) .

لقد أورد ابن الصغير نصا يؤكد انتشار التجاربين العاصمتين «.... وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار ، فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين أظهارهم .... واستعملت السبل الى

(1) ارشيبالد : المرجع السابق ، ص : 188 .
(2) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 116 ـ 117 .
(3) عن الحياة الاقتصادية بصفة عامة أنظر : الحبيب الجنحاني : تاهرت ، ص : 35 ـ 40 .
(4) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 119 ، 159 . حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص : 418.
(5) R. Lopez, *Medieval trade in the mediterranean world, New-York*, 1955, p. 26.
(6) كان هذا أمرا معتادا فقد قال عبد الرحمن بن المقري أنه قدم الى افريقية سنة 156 هـ وكيلا لرجل من التجار، أنظر : أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 163 .

بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة» (1) وكان هؤلاء التجار يستعملون اللغة العربية (2) ، والدينار الذهبي (3) في معاملاتهم ، ويبدو أن عدد التجار كان كبيرا ، الا أن اهمال المؤرخين في تلك الفترة للناحية الاقتصادية بصفة عامة ، وغلبة الانتساب للقبيلة قد أخفى ذلك عن الباحثين الى حد ما .

ومما لا شك فيه أن النشاط التجاري هذا كان ثمرة لطيب العلاقة بين البلدين ، كما سبق ، بقدر ما كان سببا له .

العلاقة الاجتماعية :

لم تكن القيروان غريبة على عبد الرحمن بن رستم ، فقد نشأ بها ، وأقام عاملا لأبي الخطاب عليها ، فكان عالما بطبيعة المجتمع القروي وعاداته وتقاليده ، ومن المؤكد أنه أقام علاقات شخصية مع بعض القرويين ، كما كان يقيم في القيروان جماعات اباضية ، سواء ممن أخذ بالمذهب الاباضي من سكانها ، أو دخل اليها ، وربما كان بعضهم ممن اعتمد عليهم عبد الرحمن في تسيير القيروان الخطابية وتخلفوا عنه عند فراره ، ويؤكد لويكي Lewicki على وجود هذه الجماعات (4) ، كما يذكر غويتين Goitein أن ابا وعمي سعد التستاري (5) أقاموا علاقات صداقة في ق 11 م مع كل من التاهرتيين والمجانيين في القيروان (6) ، ومع أن هذا متأخر . الا أنه يكشف عن وجود أصول لهؤلاء في القيروان قبل ذلك ، وليس هناك ما يمنع هؤلاء من الارتباط بغيرهم بعلاقات اجتماعية من صداقة ، ومصاهرة وغير ذلك ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد

---

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 13 .

(2) كانت اللغة اللاتينية لغة التعامل التجاري بعد الفتح ، أنظر : الجنحاني : **القيروان** ، ص : 141 ، ثم حلت محلها اللغة العربيّة أنظر : برنارد لويس **«العرب المسلمون في افريقيا»** ضمن كتاب : فجر التاريخ الافريقي ، ص : 22 .

(3) أرشيبالد : المرجع السابق ، ص : 194 ، يساوي الدينار 4,5 غرام ذهب والدرهم عشر دينار ، انظر : R. Lopez, *Medieval trade*, p. 53.

(4) T. Lewicki, *The Ibadites in Arabia and Africa*, p. 97.

(5) من مشاهير القاهرة في العهد الفاطمي : Goitein, *Studies in islamic history*, p. 317.

(6) نفس المكان .

ظلوا على اتصال بتاهرت وارتبطوا بها ، فكانوا حلقة وصل ، أضف اليهم جماعة العلماء ، فليس من شك أن هؤلاء أقاموا علاقات طيبة مع زملائهم القرويين ، وليس من الممكن أن يكون بكر بن حماد ـ السابق الذكر ـ هو التاهرتي الوحيد اذ من المحتمل أن تكون هناك جماعات أخرى ، آنس بهما ابن حماد في ديار غربته (1) ، كما أتاحت قوافل الحجاج والقوافل التجارية ، المنتشرة في أنحاء المغرب الى التقاء التاهرتيين بغيرهم من القرويين ، فقامت بينهم علاقات اجتماعية ، ويبدو أنهم كانوا يتبادلون الزيارات العائلية فقد ذكر عويتين Goitein أن التجار المسلمين واليهود كانوا يزورون زملاءهم في منازلهم في القيروان يهنئونهم بعطلهم (2) .

اضافة الى ما تقدم ، فقد لحقت بعض القبائل الاباضية في افريقية بعبد الرحمن كقبيلة لماية عند فراره الى المغرب الأوسط (3) ، ثم رحلت جماعات قروية من العرب والجند ، فسكنت تاهرت ، وأقامت فيها كذلك جماعات أخرى كالعجم والعراقيين من الكوفة والبصرة وغيرهم ، وقد ارتبط هؤلاء جميعا بعلاقات اجتماعية مع غيرهم من التاهرتيين ، حتى أن محمد بن عرفة ـ السابق الذكر ، قد ارتبط بالامام الرستمي أبي بكر برباط النسب ، ومن المستبعد أن تكون هذه حادثة فريدة ، أو أن القرويين قد تقوقعوا في تاهرت على أنفسهم ، فمن المؤكد أنهم اختلطوا وأنشأوا علاقات مختلفة مع غيرهم ، ومن المحتمل أن هؤلاء قد ظلوا على اتصال بالقيروان ، فقد تركوا فيها اخوانهم وأصدقائهم .

لم يذكر أحد من المؤرخين أن عبد الرحمن قد أدخل أي تعديل على أسواق القيروان ، فقد ذكر الرقيق القيرواني ، أن يزيد بن حاتم أزال الفساد منها

(1) يمكن أن تكون هذه الجماعات أصول التاهرتيين السابق ذكرهم .

(2) المرجع السابق ، ص : 319 .

(3) يؤكد حبيب الجنحاني على أن قبائل تاهرت وضواحيها قد هاجرت الى المنطقة مع عبد الرحمن ، انظر : الجنحاني : **تاهرت** ، ص : 19 ، لكن لويكي يحتمل أن تكون تلك مواطنها الاصلية أو أنها قادمة من افريقية ، انظر : LEWICKI, *op. cit.*, p. 100.

وأصلحا ورتب أسواقها وجعل كل صناعة في مكانها (1) . فكان سوق خاص بالزجاجين وآخر خاص بالبزازين وغير ذلك (2) ، وكان سوق بني هاشم ، وسوق دار الامارة وسوق اليهود وغيرهم (3) ، ويبدو أن هذا التنظيم قد تأثرت به مدن المغرب الاسلامي الأخرى (4) ، فظهرت في تاهرت الأسواق المتعددة ، ذكر منها ابن الصغير سوق ابن وردة (5) ـ السابق الذكر ـ .

على أن تأثر تاهرت بالقيروان لم يكن عشوائيا ، فان نظام بناء تاهرت لم يكن مشابها تماما لنظام بناء القيروان ، كما يبدو أنهم كانوا يخالفونهم في أوزانهم ومكاييلهم فقد ذكر البكري بخصوص التاهرتيين أن «مدهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة ونصف قرطبية» (6) فهل تأثروا بأمويي الأندلس ؟ . كما يبدو أنهم لم يتأثروا بالنواحي الفنية يدل على ذلك بساطة الأئمة والمكتشفات الأثرية التي تخلو من مظاهر الزخرفة ، لكن هذا لا يمنع أن يتأثر بعض أثرياء تاهرت بمظاهر الترف والأبهة ، فأدخلوها قصورهم ، متأثرين بالقيروان التي كانت تمثل الحضارة العباسية في المغرب الاسلامي .

تلقى الاباضية هزائم على يد ابن الأشعث ويزيد بن حاتم ـ كما سبق ـ فمن المحتمل أنهم حاولوا أن يوجدوا لأنفسهم نظاما خاصا يحفظ وجودهم ، وربما عدلوا عنه بعد ذلك الى حدوث موقعة مانو ، حيث اضطرتهم تلك الهزيمة الى الدخول في الكتمان لفقدهم أغلب علمائهم ، وبدأ تفكيرهم بقيادة أبي القاسم البغطوري وأبي محمد عبد الله بن الخير ، في العودة الى ذلك النظام الذي يحفظ كيانهم ، دون أن يعرضهم لخطر القيروان (7) ، وهو يتفق في جوهره

---

(1) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص : 149 .

(2) انظر : لقبال موسى : **الحسبة المذهبية** ، ص : 40 ،

(3) أبو العرب : المصدر السابق ، ص : 130 ، 135 ، 180 .

(4) لقبال موسى : المرجع السابق ، ص ، 39 .

(5) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 27 . وأضاف بأن نفوسة كانت تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر في الأسواق .

(6) البكري : **وصف افريقية** ، ص : 68 ، حول المكاييل والموازين : لقبال موسى : المرجع السابق ، ص : 73 ـ 78 .

(7) فرحات الجعبيرى : **نظام العزابة عند الأباضية الوهبية** ، ص : 24 .

بنظام العزابة وان كان لا يحمل هذا الاسم ، ويبدو أن هذا النظام قد انتقل الى تاهرت ، فلجأ بعض الاباضية إليه بعد دخول الشيعي ، فكان النظام بذرة أثمرت نظام العزابة (1) بشكل متبلور على يد أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي في القرن الخامس الهجري .

تمخض هذا الجو السائد بين تاهرت والقيروان عن نتائج شملت مختلف الميادين ، فلم تستنفذ العاصمتان جهودهما في أمور جانبية ، بل استغلت البناء الداخلي ، وهكذا وجد أمراء القيروان فرصة لنشر الأمن والاستقرار في البلاد ، مما أتاح لهم فرصة القيام بعمليات اصلاحية ، فأحسنوا استغلال ثروات البلاد ، ونشطت الحركة التجارية ، وأصبح بامكان القوافل ، أن تسير من القيروان واليها ، كذلك وفر هذا الاستقرار الفرصة من أجل نهضة ثقافية ، توجت بانشاء بيت الحكمة ، ولم يجد العلماء حرجا في شد الرحال طلبا للعلم .

في نفس الوقت ، وجد أمراء القيروان جوا مناسبا لمواصلة الفتح الاسلامي في صقلية وايطالية ، وما كان بوسعهم أن يباشروا مثل هذا العمل لولا اطمئنانهم الى سلامة حدودهم الغربية .

من جهة ثانية ، ما دام لم يكن هناك ما يستنفذ طاقات التاهرتيين ويشغلهم خارج حدود دولتهم ، فقد انصب اهتمامهم على أمورهم الداخلية ، فظهرت نهضة عامة ، كان من أبرزها تطور تاهرت الاقتصادي ، فازدهرت الزراعة ، وانتشرت قوافل تاهرت ـ كما سبق ـ وتطورت ثقافيا ، فكثر العلماء والمتعلمون ، وتم المزج الحضاري بين العاصمتين ، وكان من الممكن أن تكون نهضتها أوسع لولا سوء سياسة الرستميين الداخلية .

العوامل المؤثرة :

كان ارتباط تاهرت والقيروان بهذه العلاقات نتيجة حتمية لدوافع عدة ، أدت مجتمعة الى ما سبق ذكره ، وكان منها ما يتضح في ازدهار تاهرت الاقتصادي

(1) حول نظام العزابة ، انظر ، نفس المرجع ، ص : 61 وما يليها . الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 171 ـ 183 .

كما سبق ، مما أدى الى فائض في الانتاج كان عليهم تسويقه ، فكثرت الثروة في أيديهم ، فظهرت طبقة ثرية ابتنت القصور ، ولم تبق على بساطة عبد الرحمن ، فكان عليها أن تدخل مظاهر الترف الى تلك القصور ، فاستجلبت بعضه من القيروان .

وقد أشرنا الى اقبال البربر على الاسلام ، وان توزعهم على مذاهبه المختلفة وانتشار حلقات الجدل لدليل على اهتمامهم به ، فتولدت لديهم رغبة في تعميق مفاهيمهم الدينية ، فكانت الرحلة بين القيروان وتاهرت للاتصال بالعلماء ، وهكذا كان دافع ديني وآخر علمي اضافة الى العامل الاقتصادي . وما كانت هذه العوامل لتؤتي نتائجها لولا وحدة المغرب البشرية (1) ، فان قبائل المغرب ترى أن المغرب كله وطنها ، فتشعر بحرية الحركة في أرجائه الفسيحة ، ولذلك نجد فروعا عدة لقبيلة واحدة يتوزعون في أكثر من مكان ، فان أصل قبيلة لواته مثلا من برقة (2) ، ومع ذلك هناك فروع لواتية في افريقية والمغرب الأوسط ، حتى وصف ارتباط الفرد بأنه ارتباط قبلي ، لا ارتباط وطني (3) ، بالأرض كما ساعدت على ذلك وحدة المغرب الجغرافية ، كذلك ، فان منطقة النجود العليا تشكل ممرا طبيعيا يربط بين العاصمتين ، ولم يقف الأوراس حاجزا لوجود ممرات ، مما سهل عملية الاتصال .

أمام هذه الدوافع لم يستطع لا نظام القيروان ولا نظام تاهرت أن يقف في وجه اقامة مثل هذه العلاقات .

* * *

(1) عبد العزيز بنعبد الله : « وحدة المغرب العربي » تطوان ، عدد 1 ، 1956 ، ص : 51 .

(2) عبد العزيز بنعبد الله : المرجع السابق ، ص : 54 .

(3) نفس المرجع ، ص : 53 ، ولم يكن الأمر كذلك ، لأن المغربي كان يشعر بأن أرض المغرب كله وطنه ، أي أن المغاربة يشكلون وحدة اسلامية واحدة ، ولم يكن الانتماء لجزء من الأرض المغربية لكي نجعل لكل جماعة وطنها تدافع عنه . يظهر ذلك في وفد المغاربة الى هشام بن عبد الملك ، انظر : ابراهيم فخار : **دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب** ، ص : 4 .

144 هـ / 761 م ـ 296 هـ / 909 م

السياسة بين تاهرت وقرطبة :

اضطر عبد الرحمن الداخل أن يفر بنفسه باتجاه المغرب الاسلامي ، أمام نجاح العباسيين في القضاء ، على مروان بن محمد ، ولم يرجع اختياره المغرب لتلك النبوءة التي يأثرونها عن مسلمة بن عبد الملك (1) والتي تشير الى أن عبد الرحمن سيقيم ملكا في المغرب ، بل يبدو أن ذاك كان نتيجة ادراك للأمور واطلاع على أحوال المغرب ، ونتيجة دراسة واعية ، فان شدة العباسيين ازاء خصومهم الأمويين ومطاردتهم لهم ، اضطرته أن يلجأ الى أطراف الدولة بعيدا عن أيدي العباسيين ، لذلك « هرب من الشام الى افريقية قاصدا الأندلس » (2) .

لم تكن ظروف المغرب الاسلامي تسمح باحتضان عبد الرحمن ، ففي القيروان ، كان يقيم عبد الرحمن بن حبيب ، وقد بدأت تراوده نفسه للنزوع الى الاستقلال ـ كما سلف ـ لذلك لم يكن على استعداد لاستقبال الأمويين ، فطرد كثيرا ممن وفدوا عليه ، وقتل ابنين للوليد بن يزيد ، « وطلب عبد الرحمن فاستخفى » (3) .

---

(1) المقري : **نفح الطيب** ، ج 1 ، ص : 307 .

(2) المصدر السابق ، ج 1 ص : 333 .

(3) المصدر نفسه ، ج 4 ص : 28 .

أما المغربين الأوسط والأقصى ، فكان دعاة الخوارج قد نجحوا في نشر مذاهبهم وتأليب البربر على الأمويين ، وشهدت المنطقة ثورات كتلك التي ترأسها ميسرة (1) ، كانت في الغالب نتيجة فشل السياسة الأموية في المغرب . أما الأندلس ، فكانت فيها بيوت أموية وأخرى موالية لها (2) ، وكان الاضطراب يعم البلاد على اثر سقوط دولة الأمويين ، ويبدو أن هذا شجع عبد الرحمن بن معاوية ، أن يرى احتمالات النجاح في الأندلس أكثر من غيرها . لذلك لما هرب من القيروان « نجا يريد الأندلس » (3) وقد كان يخشى جواسيس العباسيين ، وكان يخشى فتك قبائل البربرية ، خاصة الخارجية منها . ولم يكن متأكدا من نجاحه في الأندلس ، الا أن كل أمر عظيم يحتاج الى مغامرة . لذلك قصد المغرب .

في ظل هذا الوضع ، اختلف المؤرخون في ذكر القبيلة التي نـزل عليها عبد الرحمن ، فبينما يذكر المقري أنه « نزل بمغيله فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة فاستقر عنده » (4) ، وهو يتفق في هذا مع ابن الخطيب الذي ذكر أنه « استقر بمغيلة » (5) الا أن ابن عذاري أتى برواية أخرى مخالفة فذكر أن عبد الرحمن « أتى تادلا من قبائل المغرب .... ثم هرب من عندهم حتى أتى نفزة وهم أخواله » (6) ويبدو أنه لا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول القبيلة التي نزل عليها عبد الرحمن ، فان صاحب كتاب أخبار مجموعة يذكر أن عبد الرحمن نزل في قبيلة يقال لها مكناسة ، ثم خرج من عندهم حتى بلغ البحر فنزل بسبرة فكان في نفزة وهم أخواله (7) ، لكنه يعود فيذكر ،

---

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 240 .

(2) مؤلف مجهول : **أخبار مجموعة** ، ص : 91 . المقرى : المكان السابق .

(3) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 41 .

(4) المقرى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 333 .

(5) لسان الدين ابن الخطيب : **تاريخ اسبانيا الإسلامية** ، ص : 8

(6) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 41 .

(7) مؤلف مجهول : **أخبار مجموعة** ، ص : 55 ، 74 ، ومدينة سبرة قريبة من طرابلس ، أنظر : الحموى : **معجم** ، ج 3 ، ص : 32 . الا أن لويكي حين يعدد قبائل البربر في تلك المناطق لا يورد ذكر نفزة .

أن ابن معاوية كان «في مغيلة في طاعة ابن قرة المغيلي» (1) اما ابن خلدون فيذكر أن عبد الرحمن الداخل «نزل على أخواله نفزة من برابرة طرابلس» ويضيف أنه لحق «بمغيلة ويقال بمكناسة ويقال نزل على قوم من زناته .... ثم لحق بمليلة» (2).

يفهم من الروايات التي تشير الى نزوله على مكناسة أو زناتة أنه أقام في منطقة تاهرت، فقد ذكر ابن خلدون أن مكناسة وزناتة جميعا في ناحية الجوف والشرق بالنسبة لتاهرت، ويضيف صاحب أخبار مجموعة أنه حين نزل عبد الرحمن على مكناسة، كان له عنده مضيق يطول ذكره الا أن هذا الضيق قد لحقه حين نزل تادلا، فقال ابن عذاري: «أتى تادلا من قبائل المغرب فناله عندهم تضييق وأخبار يطول ذكرها (3) ويبدو أن عبد الرحمن قد نال ترحابا عند قبائل تاهرت، فقد ذكر ابن خلدون أنه «نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم» (4). وبذلك فان الخمس سنوات التي اختفاها عبد الرحمن قبل دخوله الأندلس، لم تكن في برقة على حد قول المقري، بل كانت ـ على الأرجح ـ بين قبائل تاهرت.

ومما يلفت الانتباه، استقبال قبائل تاهرت له وترحيبها به وهي اباضية المذهب، ويبدو أن ذلك لا يخرج عن طبيعتها البدوية وعاداتها، وربما حاول أن يستغل وجوده في تحقيق هدفه، الا أنه لم يكن من السهل انضوائها تحت لواء أموي، فهي قبائل اباضية، بدوية، كما أن عبد الرحمن نفسه لم تكن لديه فكرة تستهويهم وتستقطبهم حولها، فعاد يفكر في أمر الأندلس، وفي هذا يقول بأن «مطامعه السياسية لم تجد في المغرب أرضا صالحة فاتجه نظره بالطبع الى الأندلس» (5) ورحل الى مغيلة.

---

(1) الا أن اليعقوبي يورد ذكرها بقوله، ان الخارج من تاهرت «يخرج الى بلد نفزة ثم يسير الى البحر المالح»: **صفة**، ص: 19.

(2) ابن خلدون: **العبر**، ج 4، ص: 262.

(3) ابن عذاري: **البيان**، ج 2، ص: 41.

(4) ابن خلدون: **العبر** ج 4، ص، 262 (المكان السابق).

(5) ليفي بروفنسال: **مقال أمية**: بنو أمية: دائرة المعارف الإسلامية ج 2، ص: 682.

كانت قبيلة مغيلةعلى مذهب الصفرية ، فكيف استقبل هؤلاء الأموى عبد الرحمن ؟ ليس من المستبعد أن تكون قبائل تاهرت قد تدخلت لدى مغيلة لصالحه ، فاستجابت لها ، خاصة وأن ابن خلدون بذكر أن مغيلة هم أخوة مطماطة ولماية وغيرها (1) ، ويبدو أن عبد الرحمن نفسه قد منّى هؤلاء جميعا برد الجميل في حالة نجاحه ، وهذا يفسر وجود بيوت من هذه القبائل في الأندلس ووجود بيت أبي نور بن أبي قرة (2) ، كما يبدوكذلك أن المذهب الصفرى لم يكن قد رسخ فيهم بعد ، فان أول عمل عدائي قامت به مغيلة تجاه الخلافة كان سنة 148هـ / 765م ـ كما سبق ـ .

هكذا فان قبائل المغرب الأوسط قد مدت يد المساعدة لعبد الرحمن الداخل في أحلك ظروفه ، والتي عبر عنها المقري نقلا عن ابن عبد الحكم بقوله « وآل أمره في سفره الى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الاوسط » (3) وقد أشرنا سابقا الى أن الدولة الرستمية لم تكن قد ظهرت بعد للوجود ، وبذلك فان صحت نسبتها الى ابن عبد الحكم ، فان ميله للاختصار ، وتبعية قبائل تاهرت المذهبية لبني رستم ، قد أملى عليه هذه العبارة ، والتي يقصد بها ابراز مساعدة تلك القبائل ـ التي أصبحت تشكل جمهور الدولة الرستمية فيما بعد ـ لعبد الرحمن بن معاوية ، وهي وان كانت تنسب المساعدة لبني رستم الا أنها تنص صراحة على أن نزول عبد الرحمن على تيهرت كان استجارة .

لم يذكر أحد من المؤرخين أن عبد الرحمن الداخل قد أمد الخوارج بالمساعدة في حصارهم طبنه ـ كما سلف ـ ويبدو أن ظروفه الداخلية لم تكن تسمح له بتقديم مثل هذه المساعدة ، فالأمر لم يستتب له بعد في الأندلس ، فقد كان مشغولا في ذلك الوقت في منازلة أحد الثوار بشرق الأندلس ويدعى شقنا بن عبد الواحد ، وقد مرت سنة 154 هـ / 770 م ، ولم يهنأ منه بعد ، ويذكر ابن الأثير أنه في سنة 163 هـ / 779 م « أظهر عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 254 .

(2) ابن الخطيب : **تاريخ اسبانيا الإسلامية** ، ص : 238 ، ويؤكد السلاوي أن أبا نور هو ابن أبي قرة . انظر : **الاستقصار** ، ج 1 ، ص : 11 .

(3) المقري : **نفح** ، ج 4 ، ص : 28 . وقد استعان بهذه العبارة محمود مكي في بحثه « **الخوارج بالأندلس** » أنظر : مجلة تطوان عدد 1 ، 1956 ، ص : 169 . وقد نبه الميلي الى أن هذا سابق لتأسيس تاهرت . أنظر : **تاريخ الجزائر العام** ، ج 1 ، ص : 58 .

التجهيز للخروج الى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منهم » (1) ويرى عبد العزيز سالم أن عبد الرحمن لم تكن لديه الامكانيات العسكرية ما يسمح له بالقيام بأي مغامرة في الشام أو حتى في افريقية ، ويضيف ، أنه ربما كان ينوي مساعدة الدولة الرستمية (2) ، الا أنه من الواضح أن هذا أمر مستبعد لأن علاقة تاهرت العسكرية بالقيروان ، كانت هادئة في تلك الفترة ـ كما سبق ـ على أن هذا لا يقلل من متانة العلاقة التي نشأت بين الرستميين وأمويي الأندلس .

وفي تاهرت يطالعنا مؤرخو الاباضية بذكر شخصيتين أندلسيتين كانتا في تاهرت ، عند وفاة عبد الرحمن بن رستم ، هما مسعود الأندلسي وعمران بن مروان الأندلسي ، وقد سبقت الاشارة الى أنهما كانا من بين الشخصيات المرشحة للامامة بعد عبد الرحمن ، وقد ذكر أبو زكريا أن عامة المسلمين مالت أنفسهم الى اثنين منهم أحدهما مسعود الأندلسي الا أن الدرجيني يرى « أن الجمهور رجحوا مسعود أو مالت نفوسهم الى توليته فتبادروا ليبايعوه » (3) ، ويوافقه الشماخي على ذلك بقوله « مال الأكثرون والعامة الى تولية مسعود فبادروا الى مبايعته » (4) ، وهذا يعني أنه كان على وشك أن يكون على رأس تاهرت شخصية أندلسية ، ولم يحل دون ذلك الا شخصية عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي واجه الأمور بحنكة سياسية وقوة فولاذية ـ كما سبق ـ التي تغلبت على التأييد الواسع الذي كان يحظى به مسعود الأندلسي في تاهرت ، ويبدو أن شخصية عبد الوهاب ومطامعه لم تكن خافية على مسعود ، ولما كان صالحا تقيا ، كره أن يراق دم المسلمين ، فعزفت نفسه عن الامامة ، لذلك حين أراد الناس مبايعته « هرب منهم واستخفى » (5) ثم وقف موقفا مؤيدا لعبد الوهاب ، فعارض ابن فندين وأصحابه ، وكان هؤلاء قد اشترطوا أن لا يقضي عبد الوهاب

---

(1) ابن الأثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 63 .

(2) عبد العزيز سالم : « **سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس** » المؤرخ العربي ص 1978 ، ص : 148 .

(3) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 46 .

(4) الشماخي : **السير** ، ص : 145 .

(5) الدرجيني : المصدر السابق ، مخطوط ورقة 14 ، الشماخي : المكان السابق .

أمرا دون جماعة معلومة ، فقال لهم مسعود : «لا نعلم في الامامة شرطا غير أن يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه» (1) ومما يزيد مكانة مسعود الأندلسي وضوحا ، عبارة أوردها الدرجيني تنص على أنه تقدم فبايع عبد الوهاب وبايعه الناس بعد ذلك .

أما بخصوص عمران بن مروان ، فلا يوجد له ذكر غير ما سلف ، ولربما كان من بين المعارضين لعبد الوهاب فأهمل مؤرخو الاباضية ذكره ، وربما كان رفيقا لمسعود الأندلسي ، وعلى كل فان هؤلاء المؤرخين ومعهم ابن الصغير قد أهملوا ذكرهما نهائيا بعدما آل الأمر في تاهرت الى عبد الوهاب ، كما أنهم لم يذكروا شيئا عنهما قبل ترشيحهما للامامة .

ان عملية الترشيح هذه تدل على أنهما كانا من كبار أعلام المذهب الاباضي ، ولما لم يرد لهما ذكر ، بين زعماء الاباضية قبل فرار عبد الرحمن الى المغرب الأوسط ، وفي نفس الوقت ، من المستبعد أن يكونا قدما تاهرت من الأندلس أواخر أيام عبد الرحمن ، لأن هذا لا يؤهلهما لتولي الامامة ولا لنيل ذلك التأييد الشعبي ، بات من المرجح أن يكونا من سكان وأوائل معتنقي المذهب الاباضي في منطقة تاهرت ، ولما كانا كذلك ، وكان وجودهما في فترة اشتداد الحماس الرستمي للمذهب ، يصبح من المستبعد أن يكون وجودهما بتدخل من الأمير الأموي في قرطبة ، ومهما كان الأمر ، فقد قامت علاقات سياسية بين تاهرت وقرطبة ، وهناك عدة حوادث تدل عليها ، ابتدأت تظهر منذ عهد الامام عبد الوهاب .

ذكر ليفي بروفنسال **Lèvi-Provençal** ، أن عبد الله بن عبد الرحمن ابن معاوية المعروف بالبلنسي ، قد حل بتاهرت في عهد الامام عبد الوهاب (2) ، وتشير الأحداث في قرطبة التي سبقت خروجه من الأندلس أن قدومه تاهرت كان

---

(1) الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 47 .

(2) LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire d'Espagne musulmane*, t. 1, p. 108.
CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjisme*, p. 99.

هادفا ، فقد توفي عبد الرحمن الداخل وابنه هشام بماردة وسليمان بطليطلة فأوصى ابنه عبد الله بأن يلق بالخاتم والامر لمن يسبق من أخويه « فان سبق اليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه وان سبق اليك سليمان فله فضل سنة ونجدته وحب الناس اليه » (1) وقد سبق هشام أخاه ففاز بالامارة .

يرى حسين مؤنس أن تقى هشام ، لم يكن عن ورع بقدر ما كان خدمة لمصالحه الدنيوية ، فقال « ولو كان هشام تقيا خالص التقى كما تصوره المراجع لسلم بأن أخاه الأكبر أحق بالعرش » (2) والمقصود بذلك سليمان ، الذي ثار يطالب بأحقيته في الامارة لعامل السن ، ويبدو أن عبد الله ، قد اعترف لأخيه سليمان بهذه الأحقية ، فآزره وثار معه ، وربما أنه حاول أن يحتفظ بالامارة لنفسه ، وفي هذا يقول ابن سعيد نقلا عن صاحب السقط « سمت نفسه بعد أبيه لطلب الأمر فناقض أخاه هشام بن عبد الرحمن سلطان الأندلس ، وشايع أخاه الخارج عليه سليمان » (3) .

حارب هشام أخويه عبد الله وسليمان ، وقد مرت سنة 172 هـ / 788 م والحروب متواصلة (4) ، ويبدو أنها استمرت الى ما بعد سنة 175 هـ / 791 م ، ورجحت كفة هشام ، فان ابن عذاري يذكر أن سليمان حصل في بعض ثغور تدمير ، فطلب الامان « فاشترط عليه الأمير هشام الخروج من الأندلس ويعطيه ستين ألف دينار» (5) ، فركب سليمان البحر بأهله وولده الى ساحل المغرب (6) ، ويضيف ابن خلدون أن سليمان سار معه أخوه عبدالله (7) .

---

(1) ابن الخطيب ، **تاريخ اسبانيا الإسلامية** ، ص : 11 ،

(2) حسين مؤنس : **شيوخ العصر**، ص : 9 .

(3) ابن سعيد : **المغرب في حلى المغرب** ، ج 2 ، ص : 246 .

(4) ابن الاثير : **الكامل** ، حوادث سنة 172 هـ ، ج 5 ، ص : 86 .

(5) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 63 .

(6) ابن الخطيب : **تاريخ اسبانيا الإسلامية** ، ص : 11 . ابن خلدون : **العبر** : ج 4 ، ص : 270 . ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 63 .

(7) ابن خلدون : المكان السابق .

نزل الأخوان بلاد المغرب ، فأقام سليمان بطنجة ، بينما خرج عبد الله متجولا بين دول المغرب الاسلامي ، ومن المستبعد أن يكون الاخوان قد تخليا عن مطامعهما السياسية ، مقابل مبلغ مالي ، وبهذا فان خروجهما الى بلاد المغرب ، يختفي وراءه هدفا يفسره ما ذكره عبد الله عنان من أن عبد الله اتصل «بابن الأغلب صاحب افريقية وخاطبه في مشروعهما» (1) ويبدو أنه لم يجد استجابة ، فحل بتاهرت على الامام عبد الوهاب (2) ، واستمرت اقامته الى حين وفاة الأمير هشام ، ولما بلغه الخبر تقدم عبد الله فجاز البحر الى ريف الأندلس .

كان عبد الله يسعى للحصول على مساعدة رستمية ، وليس هناك ما يدل على أن عبد الوهاب قد استجاب لمطالبه ، ربما لأنه اعتبر نزاع الأخوة الأمويين مسألة داخلية ، وربما حفاظا على العلاقة بالسلطة الرستمية القائمة ، ومن المحتمل ، لأنه نفسه يعاني من مشاكل داخلية ـ كما سبق ـ وهذا لا يتعارض مع استقباله له بسبب مبدأ الحرية في تاهرت، واحتراما للبيت الأموي في قرطبة ، ومع هذا الموقف الرستمي ، ظل عبد الله مقيما في تاهرت ، ربما كان ينتظر مفاجآت المستقبل ، أو أملا في كسب تأييد الجالية الأندلسية في تاهرت ، وربما للحصول على مكاسب مادية سمحت له أن يواصل ثورته ضد ابن أخيه الحكم بن هشام .

لقد حافظ عبد الوهاب بموقفه هذا من الثائرين على الامارة الأموية في قرطبة على طيب العلاقة بين الرستميين والأمويين ، ومن بين الدلائل التي تشير الى ذلك ، عبارة وردت ابن سعيد تتعلق بعبد الرحمن بن الحكم تنص : «وعليه قدم بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تيهرت» ، (3) وهي عبارة واضحة محددة ولما كان ابن سعيد يعتمد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» على قدماء مؤرخي الأندلس كالرازي وابن حيان والحجاري وابن حزم وابن بسام وغيرهم (4) . فهي عبارة جديرة بالاهتمام ، ويذكر بروفنسال ، أن

(1) محمد عنان : **دولة الإسلام** ، ص : 228 . عبد العزيز سالم : **تاريخ المسلمين في الأندلس** ، ص : 220 .

(2) عبد العزيز سالم : المكان السابق .

(3) ابن سعيد المغرب ج 1 ، ص : 448 .

(4) حول هؤلاء المؤرخين ، انظر : حسين مؤنس : **الجغرافية** والجغرافيون في الأندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية 1959 ـ 1960 ، ص : 199 ـ 359 .

أبناء هؤلاء هم : دحيون وعبد الغني وبهرام (1) ، ولا يوجد في المصادر التي اطلعت عليها ما يشير الى الهدف من ارسال هذا الوفد ، ويرى ابن تاويت أنه ذو صبغة سياسية ، فيذكر أن عبد الوهاب قد احتاط لنفسه من القيروان رغم مصالحتها له ، فمد يده كذلك الى الأمويين بالأندلس ، ويوافقه على هذا المغزى محمود مكي بقوله ان عبد الوهاب ارسل أبناءه الثلاثة «في سفارة رسمية» (2) .

لقد استقبل هذا الوفد في قرطبة في غاية الاحتفال والاكرام ، فيذكر ابن سعيد أن عبد الرحمن قد «أنفق ألف ألف دينار» (3) وهذا يدل على متانة الروابط بينهم وعلى أهمية الوفد ، ومع ذلك فان عبارة ابن سعيد لا تحدد التاريخ الذي تمت به هذه الزيارة ولا الهدف منها ، ويرى البعض أنها كانت عند اعتلاء عبد الرحمن بن الحكم عرش قرطبة (4) ، ويذكر بروفنسال أن الوفد في طريق عودته الى المغرب غرقت المراكب الحاملة للشابين دحيون وبهرام وعاد عبد الغني وحده الى تاهرت ، فوجد والده قد توفي (5) وهذا يفيد في ربط تاريخ الزيارة بوفاة عبد الوهاب . وبذلك فان كانت هذه في حوالي سنة 180 هـ /796 م ـ على نحو ما سبق ـ فان زيارة الوفد تمت الى الأمير هشام أو ابنه الحكم . واذا كانت الوفاة على نحو ما ذكره ابن عذارى سنة 188 هـ /803 م ـ فهذا يعني أنها كانت للأمير الحكم ، وفي حالة ما اذا كانت في سنة 208 هـ /823 م فواضح أنها للأمير عبد الرحمن ابن الحكم .

---

(1) LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire d'Espagne musulmane*, t. 1, p. 171.
CHEIKH BEKRI, *Le Kharidji*, p. 99. ماريا خيسوس : **محمد وعبد الرّحمن** ، ص : 15

(2) محمود مكي : «**الخوارج في الاندلس**» ، ص : 172 . ابن تاويت : **دولة الرستميين** ، ص : 116 .

(3) ابن سعيد : **المغرب** ، ج 2 ، ص : 246 .

(4) يحدد محمود مكي تاريخ الزيارة بسنة 207 هـ /822 م ، انظر : المكان السابق . وجورج مارسيه : مقال «بنو رستم» دائرة المعارف الاسلامية بينما تحددها ماريا بسنة 206 هـ /822 م ، انظر : المرجع السابق ، المكان السابق .

(5) ماريا : المرجع السابق ، ص : 16 .

لم يذكر مؤرخو الاباضية هؤلاء الثلاثة ، وقد ذكر ابن الصغير من أبناء عبد الوهاب : افلح وأبي العباس . انظر : **السير**، ص : 24 .

لا يهمنا الى أي أمير كانت الزيارة . بقدر ما تهمنا معرفة الهدف من ورائها .
فهل كانت للتهنئة باعتلاء عبد الرحمن العرش ؟ من المستبعد ذلك لأن عادة التهنئة هذه لم تكن جارية بين قرطبة وتاهرت ، وبذلك من الأرجح أن تحمل هذه الزيارة تفسيرات سياسية واقتصادية . فربما كانت لتوثيق هذه العلاقات . وربما كانت للتأكيد على موقف تاهرت المؤيد لقرطبة ضد الثائرين عليها .
ويبدو أن وراء هذه الزيارة هدف عملي آخر ، تفسره الأوضاع الداخلية في الامارة الاندلسية . والثورات المتعددة التي واجهت أمراء قرطبة ، فقد ذكر ابن سعيد نقلا عن الحجاري . أن عبد الرحمن أشار عليه بشر بن عبد الملك بن بشر ابن مروان « باصطناع البربر واتخاذ العبيد ليستعين بهم على العرب » (1) . وقد أشار حسين مؤنس أن عبد الرحمن استكثر الجند المرتزق والحرس الخاص يأتي بهم من أي طريق ، الا أن احسان عباس قد حدد هذا الطريق ، فذكر أنه « استعان بالبربر واستجلبهم من بر العدوة واستكثر منهم ومن العبيد حتى كون جيشا كبيرا » (2) ولا يبدو هذا الأمر غريبا ، لأن المؤرخين كشفوا عن استجلاب البربر من المغرب الاسلامي الى قرطبة في عهد متأخر ، فقد ذكر صاحب كتاب « مفاخر البربر» ، نقلا عن أبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق ، أن بني برزال وصفوا «لأمير المؤمنين الحكم رحمه الله بالشدة والشجاعة في الحروب فأمر بمكاتبتهم فكانوا جنده يخدمون في عسكره » (3) ، ومن المحتمل أن هذا الحادث كان واحدا من سلسلة حوادث مثله وقعت مع الأمراء قبله ، وترى ماريا ، أنه ربما ساهم الرستميون في تنفيذ مثل هذه الأمور (4) ، ومن هنا يظهر أن مهمة أبناء عبد الوهاب في قرطبة ، كانت مرافقة قوة من البربر والزنوج ، قدمت من المغرب الأوسط عامة ومن منطقة تاهرت بشكل خاص ، وقد يفسر هذا دخول سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم الى الأندلس ، فربما رافق قوة عسكرية الى

---

(1) ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 60 . المقري : **نفح الطيب** ، ج 1 ، ص : 333 . ابن الأثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 40 .
(2) احسان عباس : **تاريخ** الأدب الاندلسي ، ص : 19 .
(3) مؤلف مجهول : **مفاخر** البربر ، ص : 44 . ابن الخطيب : **تاريخ** اسبانيا الاسلامية ، ص : 237 .
(4) ماريا خيسوس : رسالة شخصية جوان 1977 .

الأندلس ، مساعدة لعبد الرحمن الداخل ، والا لكان الأجدى له أن يقيم في تاهرت بدلا من الجزيرة بالأندلس ، الا أن يكون هناك ، في منصب هام من قبل أمير قرطبة ، وبالتالي فان هذا يفسر اتصال محمد بن سعيد بن محمد ـ السابق الذكر ـ بالأمير عبد الرحمن بن الحكم ـ كما سيأتي ـ

لقد كشفت بعض المصادر عن وجود شخصيات رستمية في الأندلس . الأمر الذي يكشف عن آفاق جديدة لمجرى العلاقات بين تاهرت وقرطبة . سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ، وقد عرفنا أسماء أربعة من هذه الشخصيات ، هم سعيد ابن محمد بن عبد الرحمن بن رستم . وابنه محمد وعبد الرحمن بن رستم . ورابع يدعى القاسم ، فقد ذكر ابن الابار في كتابه « الحلة السيراء » نسب محمد كاملا فهو محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغمر بن يزيد بن عبد الملك (1) . ولما كان ابن الابار من مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، فهو قد تأثر بسابقيه من مؤرخي الأندلس كالرازي وابن فرج الجياني وغيرهما ، أما الشخصية الثالثة فقد ورد ذكرها عند ابن القوطية وابن حيان وابن سعيد وغيرهم ، الا أن أحدا منهم لم يذكر اسم والده ، ويرى بروفنسال أن عبد الرحمن هذا هو الأخ أو الابن البكر لمحمد بن سعيد (2) . وقد ورد اسم الشخصية الرابعة عند ابن حيان في حديثه عن وفاة محمد بن سعيد فقال « وأخوه القاسم قبله » (3) .

يسود الغموض دوافع دخول هذه الشخصيات الى الأندلس ، وتاريخ ذلك . فقد ذكر ابن الابار أن محمد بن سعيد قد « دخل أبوه الى الأندلس » (4) ويمكن أن يفهم من هذه العبارة أن محمد لم يدخل ، وبالتالي فان محمدا من مواليد الأندلس . اذ لم يذكر المؤرخون دخوله مع والده . كما هو الشأن مع أبي الفضل

(1) ابن الابار : **الحلة** ، ج 2 ، ص : 372 .

(2) ابن تاويت : **دولة** ، ص : 116 .

LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire d'Espagne musulmane*. t, 1 p. 172.

CH. BEKRI, *Le Kharidjisme*, p. 100.

(3) ابن حيان : **المقتبس** : طبعة القاهرة ، ص : 219 .

(4) ابن الابار : **الحلة** ، ج 2 ، ص : 372 .

احمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز ، فقد ذكر الحميدي بخصوص دخوله أنه «أتى مع أبيه صغيرا الى الأندلس» (1) واذا صح هذا القول ، كان خروج سعيد من تاهرت في عهد عبد الرحمن بن رستم ودخوله الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل ، ويبدو أن اقامته كانت في مدينة شدونة - شرق الجزيرة .

يذكر ابن الابار نقلا عن الرازي أن محمد بن رستم كان أديبا لاعبا بالشطرنج شاعرا . له «شعر في (الحدائق) لابن فرج قد كتبت منه في الكتاب المحمدي من تاليفي فنقل من هنا اسمه الى باب نظرائه» (2) وقد ورث هذه العلوم عن بيته الرستمي . واعتمادا على هذا فقد كان مبرزا في علم التنجيم الذي اشتهر به بيتهم . في نفس الوقت ، كان عبد الرحمن الثاني ملتزما باكرام اهل العلم وأهل الأدب والشعر في دولته واسعافهم في مطالبهم كلها مهتما بالتنجيم ، فقد استشار منجمه مروان بن غزوان في بعض سفراته ، فبشره بالسلامة وافتتاح ثلاثة معاقل ، فكان ذلك ، فأعطاه ألف دينار (3) ، وبذلك ربما كانت ميول محمد بن رستم الثقافية من بين الأسباب التي جعلت عبد الرحمن يصطنعه «في امارته على شذونة من قبل أبيه الحكم ، فكان يأنس به هذا بعض الأحيان (4)» وربما كانت عوامل أخرى وراء هذا الاصطناع ، سيظهر بعضها فيما بعد .

تطورت تلك العلاقة بين محمد بن رستم وعبد الرحمن بن الحكم . واطمأن هذا الأخير لمحمد ووثق به ، لذلك لما أفضت اليه الامارة استقدمه الى قرطبة واستعان به . وقد ظهر محمد بن رستم في موقع المسؤولية لأول مرة كعامل على ثغر طليطلة . وفي تلك الأثناء كقائد عسكري . في نص لابن عذارى عند حديثه عن ثورة هاشم الضراب سنة 214 هـ /829 - 830 م ، فذكر أنه قد «تدافت الجنود لمحمد بن رستم عامل الثغر (5) . وكان الضراب قد ثار

(1) الحميدي : **جذوة المقتبس** ، ص : 132 .
(2) ابن الابار : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ، 373 . ماريا خيسوس : «**محمد** وعبد الرحمن» ، ص : 91 .
(3) ابن سعيد : **المغرب** ، ج 2 ، ص : 22 .
(4) ابن الابار : **الحلة** ، ج 2 ، ص : 372 . ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 268 الحاشية .
(5) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 83 .

بطليطلة . واوقع بالبربر بشنت برية ودارت له عليهم دوائر فاخرج الأمير عبد الرحمن اليه محمد بن رستم وامره بحربه فحاربه (1) ويبدو أن ثورة الضراب قد لاقت تأييدا حتى اجتمع له منهم جمع عظيم وخلق كثير فعلا ذكره وانتشر صيته حتى عجز ابن رستم عن قهره فعنفه عبد الرحمن واستقصره في حقه وارسل له سنة 216 هـ الامدادات . فتقدم ابن رستم والتقى بها شم الضراب ، فقتله ابن رستم ومن معه . وكانوا آلافا في نواحي دورقة (2).

اشتهرت طليطلة بثوراتها المتعددة على أمراء قرطبة . فكان أهلها على ماوصفهم ابن القوطية من الاسر والطغيان والاستخفاف بالعمال . ما لم تبلغه قط رعية من ولاتها . ومما زاد أمر طليطلة تعقيدا . موقعها الجغرافي وكثرة المولدين والمسيحيين . وكان قساوسة هؤلاء يؤلبونهم على المسلمين وخلع طاعة قرطبة . ويبدو أن ملك اشتوريش كان يقدم لهم المساعدات على نحو ما فعل حين ثاروا على الأمير محمد بن عبد الرحمن . ان هذه الخطورة لثغر طليطلة يدل على اهمية محمد بن رستم في البلاط القرطبي . وعلى ثقة الامير به .

تعدد مقدرة محمد بن رستم العسكرية الى الظهور ثانية في عام 230 هـ / 844م عندما هاجم المجوس (النور مانديون) اشبيلية ، وقد تعرض ابن القوطية لهذه الحادثة ، وقدم تفاصيل هامة عنها ، ومع ذلك لم يورد ذكر ابن رستم من بين القادة المشاركين ، شأنه في ذلك شان عدد من المؤرخين غيره (3) ، تجاهلوا شخصية ابن رسم ودوره في هزيمة المجوس ، أما ابن عذارى فهو يشير الى مشاركة ابن رستم ، فذكر أن المجوس دخلوا اشبيلية في نحو ثمانين مركبا . فاتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن بن الحكم . فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب .

---

(1) نفس المكان . ابن حيان : **المتقبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 268 الحاشية .

(2) ابن عذارى : المكان السابق . عبد العزيز سالم : **تاريخ** المسلمين في الأندلس ، ص : 230 .

(3) انظر : ابن القرطبة : المصدر السابق ، ص : 84 - 88 . ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 49 . المقرى : **نفح** : ج 1 ، ص : 323 - 324 . ابن الخطيب : **تاريخ** اسبانيا ، ص : 20 . عن هجوم المجوس ، أنظر : حسين مؤنس : غارات النور مانديين على الاندلس ، المجلة التاريخية المصرية ، 1949 ، ص : 30 - 40 على وجه الخصوص .

«وتوجه بالخيل عبد الله بن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد» (1) ويؤكد ابن الابار مشاركته بقوله «وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس على أيديهم باشبيلية الى فتوحات تعلم له» (2) وتدل هذه العبارة على أن ابن رستم مازال يحتفظ بمنصبه العسكري حتى هذا الوقت ، وعلى أن ابن رستم أبرز قواد عبد الرحمن اذ كان ممن وقع عليهم اختيار الأمير بعد الحاجب عيسى بن شهيد .

يبدو أن هذه الجيوش قد فشلت في محاربة المجوس ، مما اضطر عبد الرحمن الأوسط أن يستنفر الناس بقرطبة وما والاها من الكور ، فخرج الوزراء بهؤلاء (3) وحلوا بقرمونة ، ثم تبعهم أهل الثغر ، واجتمعت قوات ابن الحكم هذه ، وهزمت المجوس ، وقتل منهم نحو خمسمائة علج وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها ، «فأمر ابن رستم باحراقها وبيع ما فيها من الفيء» (4) ثم هزموا بعد ذلك بقرية طلياطة ، وقتل منهم خلق كثير وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا ، وتفرق بعضهم جنوب شرق اشبيلية «فأمر الأمير عبد الرحمن قائده ابن رستم بتعقبهم واعتقالهم ، ونجح ابن رستم في أسرهم» (5) وقد تم تبادل الأسرى واعتنق بعضهم الاسلام .

لقد اشترك في هذه المعركة وزراء وقواد عبد الرحمن وغيرهم ، وجلي أن ابن عذارى قد خص ابن رستم بالذكر من بين تفاصيل كثيرة تمس جوانب المعركة ، وهذا يدل على بروز دوره ومكانته في المعركة التي لم تختف وراء أدوار الشخصيات الأخرى ، ويبدو أن توجيهه الأمر باحراق المراكب وبيع ما فيها كان من موقع علو المكانة ، الا أن ابن سعيد حاول أن يقلل من أهمية الدور الذي لعبه ابن رستم فأسند البطولة الى نصر الخصي ، فقد ذكر أن المجوس دخلوا اشبيلية «واستباحوا سبعة أيام الى أن جاء نصر الخصي وهزم عنها النصارى

---

(1) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 88 .
(2) ابن الابار : الحله ، ج 2 ، ص : 372 .
(3) ذكرى ابن عذارى ونفر بهم نصر الفتى انظر : البيان ، ج 2 ص : 88 .
(4) نفس المكان .
(5) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص : 237 . وحول تبادل الأسرى بينهم ، أنظر : ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 86 .

المعروفين بالمجوس وعاث في مراكبهم (1) » ولئن كان عذر من اسقط ذكر ابن رستم ، أنهم لم يتعرضوا لأسماء الشخصيات المحاربة ، فان ابن سعيد يكون قد تأثر بالمكانة التي يحتلها نصر في قصور قرطبة ، فقد ذكر ابن حيان أن نصر الخصي « قد غلب على قلب مولاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم واستظهر على حراسة مكانه لديه ، بانقطاعه الى حظيته طروب » (2) فكان من الطبيعي أن يسند اليه النصر باعتباره كذلك .

هناك مؤرخ آخر يبرز تلك الصورة التي رسمها ابن عذارى لابن رستم ، والتي تحمل صفة البطولة والدور القيادى ، ذلك هو العذرى ، من مؤرخي ق 5 هـ /11 م ترى ماريا خيسوس أنه استعان بمؤلفات الرازي ـ فقد ذكر أن عبد الرحمن بن الحكم أرسل قواده عبد الله بن المنذر وعيسى بن شهيد والاسكندراني وعبد الرحمن بن كليب (3) ، ويبدو أن هؤلاء قد فشلوا في صد الهجوم ، واتصل ذلك بالأمير عبد الرحمن « فأخرج محمد بن سعيد بن رستم فمضى من فوره الى ذلك فيمن ضم اليه من الاجناد والجيش حتى نزل حاضرة اشبيلية ، فخرج المجوس اليه وقاتلوه في المدينة فدافعهم فيه يومهم ذلك حتى حل الظلام فتنحى الى كورنيش ـ على أربعة أميال جنوب اشبيلية ـ ثم غاداهم بالقتال فلم يقدم المجوس على الخروج اليه وانقبضوا عنه ، حتى نزلوا طلياطة فاتبعهم ابن رستم ونزل عليهم يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة 230 هـ 844 م ونصب عليهم المجانيق » (4) في هذه الأثناء قدم نصر الخصي بالامدادات من قرطبة ، ومع ذلك كادت الهزيمة أن تلحق بالمسلمين ، « فترجل محمد بن رستم وترجل الناس معه وأدخل الرجال بين العدو والنهر الأعظم ، فحالوا بينهم وبين المراكب فانهزم المجوس » (5) ومن هذا يتضح بجلاء دور ابن رستم في الحاق الهزيمة بالمجوس ، بفضل اقدامه وخططه مما يمنحه شرف النصر .

(1) ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 49 .

(2) ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 149 . وأضاف أنه « اشتمل على قصر الامير عبد الرحمن ومن فيه وشرك في تدبير سلطانه » أنظر : نفس المصدر ، ص : 166 .

(3) ماريا خيسوس : **محمد** وعبد الرحمن ، ص : 63 ، نقلا عن العذرى .

(4) ماريا خيسوس : **محمد** وعبد الرحمن ، ص : 63 . نقلا عن العذرى ، ص : 99 ـ 100 .

(5) نفس المكان .

كانت الغاية من هذا العرض إبراز المكانة التي يحتلها الرستميون عامة ، ومحمد بن رستم خاصة في البلاط القرطبي ، ويفهم من عبارة ابن حيان التي نصها «محمد بن سعيد بن رستم الوزير الحاجب» (1) ومن عبارة ابن الأبار التي تنص على أن عهد عبد الرحمن حين أفضت إليه الخلافة استقدمه «وصرفه في الحجابة والوزارة» (2) ان محمد بن رستم ربما كان قد تولى مناصب أخرى إلى جانب المهام العسكرية ، إذ من المستبعد أن يكون تولى الوزارة أو الحجابة ، فإن ابن حيان نفسه ، لا يذكره ضمن قائمة وزراء عبد الرحمن بن الحكم (3) وربما وقعا في خلط بينه وبين الرستمي عبد الرحمن ، ولا نعرف عن محمد شيئا بعد ذلك إلى أن توفي في شهر صفر سنة 235 هـ/849م .

أما بالنسبة لشخصية عبد الرحمن بن رستم ، فقد ورد أول ذكر له عند ابن القوطية الذي قال أن عبد الرحمن بن الحكم كان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده ، مثلهم بعد عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب ، وأضاف أن منهم «عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن يزيد وعبد الرحمن بن رستم» (4) كما ذكره ابن حيان في قائمة وزراء عبد الرحمن ، ولقد كان هؤلاء الوزراء من «أولي الحلوم والنهي والمعرفة والذكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» (5) .

ويبدو أنه شارك في المنافسة على الحجابة ، فقد أضاف ابن القوطية أنه لما توفي عبد الكريم بن مغيث تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة ، واضطره كل واحد إلى ألا يولي غيره فأخذته ضجرة فأقسم ألا يولي واحدا منهم ، وأضاف - ابن القوطية - أنه بعد موت عبد الرحمن بن غانم صارت الحجابة بين عيسى

---

(1) ابن حيان : **المقتبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 219 .

(2) ابن الابار : **الحلة** : ج 2 ، ص : 372 .

(3) ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 168 .

(4) ابن القوطية : **تاريخ** افتتاح الأندلس ، ص : 83 .

(5) ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 169 .

بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم (1) ، ولما توفي هذا الأخير اتصلت الحجابة لعيسى ابن شهيد .

يبدو أن شخصية عيسى قد طغت على شخصية عبد الرحمن بن رستم عند الأمير الأموي عبد الرحمن ، فقد ذكر ابن القوطية أنه لم يختلف مختلف عن شيوخ الأندلس أنه لم يخدم بني أمية بالأندلس أكرم منه عناية وأكثر اطاعة ، وبذلك فإن وصول عبد الرحمن بن رستم الحجابة تم بطريق آخر ، ذلك أن نصر الخصي كان يحقد على عيسى بن شهيد ، ويعمل على إقصائه ، وعندما اعتل الأمير عبد الرحمن « أخرج الأمر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة وإقراره على خطة الوزارة وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانه» (2) لكن الأمر لم يطل لابن رستم ، إذ حين جلس الأمير لأهل خططه ، دخلوا يتقدمهم الحاجب ابن رستم للتسليم عليه ، ثم جلس فوق ابن شهيد ، فاستنكر الأمير ذلك ، لكنه كظم غيظه ثم «أعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة وعزل عنها عبد الرحمن بن رستم وتركه على الوزارة» (3)

قد لاحظنا عند الحديث عن محمد بن رستم أن الوزراء خرجوا إلى أشبيلية عند دخول المجوس ، وهذا يعني أن الوزير ، هو قائد في نفس الوقت ، ويبدو أن ابن رستم أصبح قائدا أثناء وجوده في قرطبة قبل توليه الوزارة ، فإن ابن حيان يذكر أن قواد الأمير عبد الرحمن بن الحكم هم : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعبد الواحد بن يزيد الاسكندراني ، وعباس بن الوليد (4) ، ويبدو كذلك أنه تنقل في المناصب في خدمة أمير قرطبة ، قبل أن تسند إليه خطة الوزارة والحجابة ، إذ ربما كان من خزان الأمير

---

(1) ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الاندلس** ، ص : 84 . وذكر ابن حيان « فصارت الحجابة الى عيسى بن شهيد ثم الى عبد الرحمن بن رستم يداول الأمر بينهما الى أن مات أبن رستم . أنظر : المصدر السابق ، ص : 167 ، 165 نقلا عن الرازي . ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 50 .

(2) ابن حيان : **المقتبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 166 ، والتفاصيل ، ص : 165 ـ 167 .

(3) ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 167 . وترى ماريا خيسوس أن هذا جرى بين سنتي 232 ـ 235 هـ /846 ـ 849 م ، انظر : المصدر السابق ، ص : 67 .

(4) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص : 117 .

الذين رفضوا صرف صك لزرياب حصل عليه من الامير عبد الرحمن ، فقال زرياب للأمير : ما هذه طاعة ، فقال الأمير : هذه الطاعة ولاولينهم الوزارة على هذا الأمر» (1) . وقد يكون الدليل أيضا ، قياسا على الوزير محمد بن عبد السلام بن بسيل (2) ، وما كان الأمويون ليسندوا تلك المسؤولية لابن رستم قبل أن يكون قد قدم لهم خدمات جليلة اعترفوا له بها بتوليته الوزارة .

هناك حادثة وقعت لابن رستم تكشف شيئا عن شخصيته ، فقد جاء رجل إلى القاضي معاذ بن عثمان متظلما من الحاجب عبد الرحمن بن رستم بتهمة اغتصابه ماله ، فقال له القاضي : خذ الطابع وامض به نحو الحاجب فتصد له وقل له : هذا طابع القاضي ، ولا تفارقه حتى يصير الينا ، وإياك أن تتذلل له فإنه أهيب لك ، ففعل الرجل ذلك وأتى الحاجب ، فطلب منه أن يرافقه إلى القاضي ، لكنه اعتذر ، غير أنه أمر بإرسال وكيله معه ، ووعد بإنفاذ كل ما يحكم به القاضي معاذ ، وأشهد الناس على ذلك فأتوا القاضي ، فأخذ للرجل حقه (3) .

على كل حال ، يتضح مما تقدم أن عبد الرحمن بن رستم كان شخصية مرموقة في قرطبة ، فقد تولى مناصب هامة في الدولة الأموية ، ولما كان وزيرا ، فقد كان يشارك في المجلس الشورى للأمير ، فيقدم نصائحه وآراءه له ، ويبدو أن الأمير من جانبه كان بحاجة إلى مثل تلك الآراء ، فقد ذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن بن الحكم كان «أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي» (4) .

لقد ذكر ابن الأبار ـ نقلا عن الرازي ـ أن الوزير محمد بن عبد السلام بن بسيل كان رزقه على الخطط التي وليها في كل شهر ثلاثمائة دينار ، ويبدو أن هذا المبلغ كان راتبا شهريا لكل وزير فقد أشار ابن عذارى أن وزراء عبد الرحمن بن الحكم تسعة «رزق كل واحد ثلاثمائة دينار» (5) .

(1) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 90 .

(2) ابن الابار : الحلة ، ج 2 ، ص : 371 ـ 372 .

(3) ابن حيان : **المقتبس** : طبعة القاهرة ، ص : 205 ـ 206 . وردت الحادثة عند الخشني دون ذكر اسم الحاجب ، وعن القاضي معاذا انظر : النباهي : **المرقبة العليا** ، ص : 55 .

(4) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 83 .

(5) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 80 .

أما بخصوص القاسم بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم ، فلم تكشف المصادر عن دوره بالأندلس ، ومن المحتمل أن يكون قد تولى مناصب هامة في قرطبة ، شأن الرستميين فيها ، إلا أن تجاهل المؤرخين له يدل على أنه كان أقل شأنا من محمد وعبد الرحمن ، فإن عبارة ابن الأبار السابقة الذكر بشأنه ، هي العبارة الوحيدة التي تتعلق به ، ومع ذلك ، فهي تعني ـ على الأقل ـ أنه كان شخصية بارزة إلى حد ما .

مما تجدر ملاحظته ، أن المؤرخين لم يذكروا غير هؤلاء من الرستميين في الأندلس ، فهل كان لهؤلاء آخوة او أبناء وأحفاد ؟ واذا كان كذلك فما هي الخطط التي تولوها ؟ لقد أشار ابن حزم الى وجود البيت الرستمي في الأندلس على عهده (1) ، وقد يكون هذا كافيا للتأكيد على وجود رستميين آخرين في بلاط قرطبة

يبدو أن عبد الرحمن بن الحكم قد اعترف بدور الرستميين في هزيمة المجوس وبجميلهم ، فبادر بإبلاغ نبأ ذلك النصر إلى حليفه الرستمي أفلح بن عبد الوهاب صاحب تاهرت (2) ، لهذا هنأ أفلح الأمير الأندلسي ، بانتصاره على النورمانديين سنة 230 هـ/844 م (3) ، وهذا كله يدخل ضمن الإطار العام للعلاقة الودية القائمة بين الرستميين والأمويين في الأندلس ، كما ذكر ابن سعيد أن عبد الرحمن بن الحكم «لم يشغله النعيم عن وصل البعوث إلى دار المغرب» (4) ، إلا أنه لم يذكر الأهداف من وراء هذه البعوث ، وقد تفسر عبارته هذه نظرة على الوضع الداخلي في الأندلس على عهده ، وإلى علاقة قرطبة بالعباسيين والأغالبة ، فقد عم القحط أرجاء البلاد وانتشرت المجاعة سنة 207 هـ/822 م ، وفي نفس الوقت واجهته ثورة بتدمير بين المضريين واليمنيين ، دامت سبع سنين ، وثورة ابن الشماخ سنة 213هـ / 828م ، وأهل ماردة وثورة محمود بن عبد الجبار البربري سنة 225 هـ/839 م ، وغزا عبد الرحمن جليقية

(1) ابن حزم : **جمهرة** ، ص : 475 .
(2) محمود مكي : الخوارج بالأندلس ، ص : 72 .
(3) LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire d'Espagne musulmane*, t. 1, p. 156.
CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjime*, p. 99.
(4) ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 46 .

فافتتح حصونها سنة 227 هـ/841 م ، وعصى موسى بن موسى ـ صاحب تطيلة ـ في نفس العام ، وفي سنة 232 هـ/846 م ، قحطت البلاد ، وخرج محمد بن عيسى بنواحي تدمير ، وفي السنة التي تليها ثار حبيب البرنسي ، ثم ادعى رجل النبوءة في شرق الأندلس سنة 237 هـ/851 م. وهكذا لم تكن أيام عبد الرحمن أيام هدوء وسكون لكنها كانت هادئة إذا قيست بأيام سابقيه أو من أتى بعده من أمراء قرطبة .

ولقد سبقت الإشارة إلى موقف العباسيين من أوائل أمراء قرطبة الأمويين ، ويبدو أنهم بعد فشل محاولاتهم للقضاء على إمارة الأمويين بالأندلس «انصرفوا عن الاهتمام بضم إسبانيا إلى ممتلكاتهم (1) ، كما كانت علاقة الأغالبة بقرطبة سيئة في ظاهرها ، لكنها لم تسفر عن تصادم مباشر ذلك لأن المسافات شاسعة ، وكان لكل ما يشغله داخل حدوده (2) ، ويبدو أن هذا السوء لم يؤثر على العلاقة الرسمية بين أمراء القيروان وقرطبة ، ومجاملة القيروان لبغداد ، أما جوهر العلاقة فيكشف عنه ذاك التحالف بين الأسطولين الأغلبي والأندلسي . فقد ذكر ابن عذارى أن أسد بن الفرات «جاءته الأمداد من أفريقية والأندلس وغيرهما» (3) . كما رفض عبد الرحمن التحالف مع بيزنطة ، فأشار ابن حيان إلى رده الجاف للسفراء البيزنطيين فقال : «بالنسبة لبني الأغلب في أفريقية ونشاطهم البحري ، تجنب الأمير القرطبي الإجابة واضعا كلماته في صورة غامضة» (4) فقد كان من الصعب عليه أن يذم حملات الأغالبة لأنها كانت موجهة ضد البيزنطيين بقصد إعلاء مجد الإسلام (5) .

من كل ما تقدم ، نخلص الى القول أن أهداف بعوث عبد الرحمن الى بلاد المغرب لم تكن تحمل صبغة عسكرية ، موجهة ضد القيروان ، والأرجح

(1) ليفي بروفنسال : **حضارة** العرب في الأندلس ، ص : 42 .

(2) محمد طالبي : « **العلاقات** بين افريقية والاندلس في القرن الثالث الهجري »
Cahiers de Tunisie, 1970, t. X 111. nº 69-70, p. 35.

(3) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 103 ـ 104 . ابن الاثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 188 .

(4) ابن حيان : **المقتبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 162 .

(5) ابن حيان : المكان السابق .

أنها كانت بقصد تمتين العلاقات بالامارات الموالية لقرطبة ، وجلب حاجيات الأندلس منها ، وقد كان عبد الرحمن بحاجة الى هذا ، لأنه كان عليه أن يواجه أوضاعه الداخلية ، وشارل الأصلع ـ ملك الفرنجة ـ .

اضافة الى ما تقدم ، فقد ذكر بعض المؤرخين ممن تعرضوا لحادثة العباسية ـ السابقة الذكر ـ أن الامام افلح بعدما هدم تلك المدينة التي بناها محمد بن الأغلب والتي تدعى العباسية «كتبت الى الأموى صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا اليه » (1) والتقارب الشديد بين عبارات هؤلاء المؤرخين بشأن هذه الحادثة ، يدل على أنهم تأثروا بعبارة البلاذري ، وقد ربط هو ومن تأثر به هذا الأمر بتلك الحادثة ، التي سبق القول بأنها حادثة فرضية ليس لها وجود ضمن الحوادث التاريخية ، وبذلك يمكن القول أن هناك أسباب أخرى للكتابة وارسال تلك الهدية ، ولا يهمنا هنا : ان كانت حادثة العباسية وقعت فعلا بقدر ما يهمنا ما تكشف عنه عبارة البلاذرى ، والتي تظهر على الأقل العلاقة القائمة بين تاهرت وقرطبة ، فمهما كانت الأسباب التي دعت الامام الرستمي الى الكتابة ، ومهما كانت دوافع الأمير القرطبي لارسال ذلك المبلغ المالي (2) ، فان هذا يدل على أن الطرفين قد حافظا على استمرار تلك العلاقة الطيبة بين بلديهما .

لقد كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بحاجة الى تأييد خارجي ، لأن الهدوء النسبي الذي ساد البلاد في عهد والده ، بدأ يتحول الى فوضى واضطراب ، فقد ثار أهل طليطلة ابتداء من السنة الأولى لحكمه ، فأخرج اليهم ابنه سنة 239 هـ /853 م ، ثم خرج اليهم بنفسه سنة 240 هـ /854 م فأرسلوا الى اردن بن اذفونش صاحب جليقية يعلمونه بحركته ويستمدون به فبعث اليهم أخاه

---

(1) البلاذرى : **فتوح** البلدان ، ص : 256 . ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 429 . ابن الاثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 263 .

(2) ذكرت ماريا خيسوس أن محمد بن عبد الرحمن ارسل هدية عظيمة عندما تولى الحكم سنة 238 هـ/ 852 م ، أنظر : « **محمد** وعبد الرحمن» ، ص : 71 . ويذكر شيخ بكرى أن هذه الهدية كانت بمناسبة جلوسه على العرش ، انظر : CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjisme*, p. 99
وبذلك يبدو أن البلاذرى ربط بين هذه الهدية وبناء العباسية

غثون ، وتواصلت الثورات والحروب في مختلف أنحاء البلاد (1) ، فكان على الأمير محمد أن يواجه تلك الثورات ، في نفس الوقت ، ليس هناك أمام قرطبة من مصدر للحصول على امدادات سوى امارات المغرب الاسلامي المستقلة ، فكان عليه بذلك أن يستمدها العون ، ويبدو أن هذه الامارات لم تتخل عنه ، فيذكر ابن الخطيب ، أن الأمير محمد قد « خدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة » (2) ورغم أنه لم يشر الى نوع تلك الخدمات ، الا أنه من المؤكد أنها كانت ضرورية لقرطبة ، الا أن ما يثير الانتباه هو اعتراف تاهرت بطاعته ـ حسب عبارة ابن الخطيب ـ ومع هذا لا يمكن أن تحمل هذه العبارة أكثر مما تحتمل ، فان أوضاع تاهرت في أيام أبي اليقظان كانت هادئة ، سواء على الصعيد الداخلي أو على الصعيد الخارجي ، كما ان القيروان لم تكن تمارس أعمالا عدائية ضد قرطبة (3) ، أضف الى ذلك أن أمراء هذه لم يقوموا بما يدل على فرضهم الطاعة على الرستميين ، والمداريين من حروب أو نحو ذلك ، وهكذا فليس هناك ما يضطر أبا اليقظان للدخول في طاعة قرطبة فبات من المرجح أن طيب العلاقة بين البلدين ، واستجابة تاهرت لمد قرطبة بالمساعدات والتأييد السياسي ، قد اوحى لابن الخطيب بتلك العبارة المبالغ في صياغتها ، وأوحي لابن عذارى بعبارة أوردها تنص على أن محمد بن افلح كان « لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » (4) ويبدو ان شخصية الأمير محمد ابن عبد الرحمن قد أسهمت بتوثيق تلك العلاقة ، ذلك أنه كان أحسن الناس تمييزا ، وأبصرهم بوجه الرأي ، فكان محبوبا في جميع البلدان (5) حتى أن علاقته كانت تمتد الى الدول المسيحية « فعقد أواصر الصداقة مع قارلة ملك افرنجة » (6) .

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول تلك الثورات ، انظر : ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 94 ـ 106 .

(2) ابن الخطيب : **تاريخ** اسبانيا الاسلامية ، ص ، 22 .

(3) ان روما حاصرتها « قوات من الاندلس وافريقية في عام 257 هـ : محمود السمرة : « **المسلمون في** أوروبا » مجلة العربي ، عدد . 150 مايو 1971 ، ص : 149 .

(4) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 108 .

(5) المصدر السابق : نفس المكان .

(6) عبد العزيز سالم : **تاريخ** المسلمين في الأندلس ، ص : 250 .

يلاحظ المرء بالنظر إلى عبارة ابن عذارى وابن الخطيب الجمع بين تاهرت وسجلماسة ، وربطهما بقرطبة ، وهذا يجعل من المحتمل أنتكون هناك مساعدات بشرية واقتصادية لها علاقة بالسودان ، وربما بفضل هذه المساعدات نجح الأمير محمد بن عبد الرحمن في هزيمة المجوس عندما حاصروا اشبيلية سنة 244 هـ/ 858م ، إلا أن ابن‌حيان يكشف عن جوانب أخرى من اهتمام قرطبة بتاهرت وسجلماسة يتعلق بالعباسيين ، إذ يبدو أن أمراء قرطبة لم يطمئنوا إلى بغداد ولم يثقوا بموقف العباسيين ـ السابق الذكر ـ فقد ذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن كان « شديد التهمم بخير الساحل والعدوة مراعيا لما هنالك من أخبار أعدائهم المسودة» (1) ويضيف أنه من أجل ذلك كان يلجأ «لكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البرابر الملقين اليه بالولاية كبني مدرار ملوك سجلماسة ، ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم» (2) ويبدو أن فارق الشهرة والمكانة بين أمير قرطبة باعتباره أميرا ، يجاهد النصارى في البر والبحر لإعلاء كلمة الإسلام ، وبين أمير تاهرت وأمير سجلماسة باعتبارهما أميرين لبلدين إسلاميين ، داخليين ، لا يجاهدان في سبيل دين الله مما جعلهما أقل مكانة من أمير قرطبة ، في أعين المسلمين فظهرت صداقتهما مع أمير قرطبة بمظهر التبعية ، ويكشف ابن حيان عن سبب هذا اللجوء فيذكر بخصوص أمير قرطبة ، أن رسله وكتبه لا تزال «تتردد إلى هذه الطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر وافريقية» (3) وهكذا كشف ابن حيان عن بعض الغموض الذي يكتنف عبارة ابن عذارى وابن الخطيب .

تزداد العلاقة الطيبة بين تاهرت وقرطبة وضوحا بموقف تاهرت من ثورة عمر بن حفصون فقد ذكر ابن الأثير أنه في سنة 267 هـ/880 م كان «ابتداء ابن حفصون بالأندلس بالخلاف على محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس بناحية رية» (4) ، وذكر ابن القوطية أن ابن حفصون خرج من تيهرت فأتى

(1) ابن حيان : **المقتبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 265 ـ 266 .
(2) المصدر السابق ، نفس المكان .
(3) ابن حيان : **المقتبس** ، طبعة القاهرة ، ص : 265 ـ 266 .
(4) ابن الأثير : **الكامل** ، ج 6 ، ص : 36 .

الأندلس واتصل بعمه ، فجمع له من أحداثه نحو الأربعين رجلا ودخل الجبل فضبطه ، وهذا يفيد في أن دخول ابن حفصون تاهرت كان قبل ابتداء ثورته ، واعتمادا على ابن القوطية فإن خروج ابن حفصون من تاهرت وقيامه بثورة ، يرجع إلى أن شيخا قال له وهو في تاهرت «يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة ارجع إلى بلدك فأنت صاحب بني أمية وسيلقون منك غيا وستملك ملكا عظيما» (1) فقام ابن حفصون من فوره ، ولكن ما سبب مجيئه تاهرت ؟ فقد أضاف ـ ابن القوطية ـ بخصوص ذلك فقال «كان سبب ثورته أنه ظفر به أحد من بني خالد المعروف بدونكير وكان عامل رية في فساد أخذه فيه فضربه بالسياط» (2) لكنه لم يشر إلى هذا الفساد الذي أتاه ابن حفصون ، ولعله لأنه «كان من الخوارج القايمين بالأندلس بأعمال رية» (3) ويؤكد صاحب كتاب «مرآة الجنان» انتماء ابن حفصون إلى مذهب الخوارج فقال «وكان ابن حفصون من الخوارج» (4).

على كل حال ، فإن ابن حفصون «جاوز البحر إلى تيهرت» (5) فأقام بها ما يزيد على أربعين يوما ، ويبدو أن إقامته كانت خفية عن الرستميين ، فقد أضاف ابن القوطية أن ابن حفصون خرج من تاهرت «خوفا أن ينبش الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبي اليقظان وكانوا مالكي تيهرت وولاؤهم لبني أمية» (6) وهي عبارة تكشف بوضوح عن موقف الرستمين من ابن حفصون ومن قرطبة على الأقل ، فإن تاهرت لم تكن تؤيد الثائرين على قرطبة ، كما وقفت من قبل من عبد الله البلنسي ـ السابق الذكر ـ .

إن موقف الرستميين من ابن حفصون جدير بأن يثير تساؤلا عن سبب اختياره تاهرت ملجأ له ، فهل كانت تخفى عليه علاقة الرستميين بأمراء قرطبة ؟ أم أنه كان يأمل الحصول على مساعدة من أئمة تاهرت باعتباره خارجيا ؟ وربما

(1) ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الأندلس** ، ص : 110 .
(2) نفس المصدر ، ص : 109 .
(3) الضبي : **بغية الملتمس** ، ص : 393 .
(4) أبو محمد عبد الله اليافعي : **مرآة الجنان** ، حوادث سنة 300 هـ ، ج 2 ، ص : 236 .
(5) ابن القوطية : المكان السابق .
(6) نفس المصدر ، ص : 110 .

كان يسعى للحصول على مكاسب مادية وبشرية من تاهرت ، سواء لشهرتها الاقتصادية أو لوجود جالية أندلسية شأنه في ذلك شأن عبد الله البلنسي .

قد يدل نزول ابن حفصون تاهرت على أن علاقة أمويي الأندلس بأئمة تاهرت ، كانت خافية عليه ، الأمر الذي يعني أنها لم تكن تملأ الآفاق شهرة وانتشارا ، والتي يبدو أنها لم تزد عن كونها علاقة رسمية بين البلدين تربطهما المصالح المتبادلة ، ولو كانت علاقة تبعية لما خفي هذا على ابن حفصون ، سواء أثناء وجوده بالأندلس أو إقامته بتاهرت ، وبالتالي لكان اتجاهه إلى القيروان مباشرة (1) .

لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عن العلاقة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن ، حيث ولي الأمر بعده إبنه المنذر 273 ـ 275 هـ/886 ـ 888 م ، ولم تطل أيامه ، فانتقل أمر الأندلس إلى أخيه عبد الله بن محمد 275 ـ 300 هـ/888 ـ 913 م «وقد تحيف النكث أطرافها واقتسمها الثوار وكلب عليها الأشرار ولم يبق منها إلا الإسم» (2) وقد تكالب الثوار عليه ، وكانوا من المولدين ، كابن حفصون وديسم بن اسحق الذي غلب على مدينتي لورقة ومرسية ، ومنهم من البربر كبني موسى بن ذي النون وغيره ، ومنهم من العرب كإبراهيم بن حجاج الذي استقل باشبيلية وقرمونة وغيرهم (3) ، هذا يعني أن أمير قرطبة كان بحاجة إلى تأييد تاهرت ومساعدتها ، ورغم أنه لا يوجد ما يدل على اتصال بين الأمير عبد الله وأمراء تاهرت ، إلا أنه من المحتمل أن العلاقة الطيبة استمرت بين العاصمتين ، لكن الأوضاع الداخلية في الأندلس ، استحوذت على اهتمام المؤرخين ، فبدت تلك العلاقات وكأنها أصيبت بالتقلص ، خاصة وأن هناك حادث يشير إلى هذا الأمر ، وهو عدم تقديم بني أمية أية مساعدة للرستميين عندما داهمهم جيش الشيعي ـ كما سلف ـ ومن الممكن

---

(1) ذكر ابن خلدون أن ابن حفصون «كاتب ابن الأغلب صاحب افريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسيين بالأندلس فيما اليه وتثاقل ابن الأغلب عن اجابته لاضطراب افريقية » انظر : **العبر** : ج 4 ، ص : 293.

(2) ابن القوطية : **تاريخ** افتتاح الأندلس ، ص : 27 . ابن الابار : **الحلة** ، ج 1 ، ص : 120 .

(3) حول هؤلاء الثوار ، انظر : ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 124 ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 122 .

تفسير ذلك بتدهور الأوضاع الداخلية في تاهرت بسبب الحروب الأهلية ـ كما مر ـ والسرعة التي تمكن بها الشيعي من انهاء أمر تاهرت ، والقضاء على الإمامة الرستمية فيها ، فقد خرج من افريقية 15 ـ 16 رمضان 296 هـ الموافق 7 ـ 8 يونية 909 م ووصل تاهرت 6 شوال من نفس العام الموافق 28 يونية (1) .

لم يحدث بين الطرفين ما يدعو إلى تقلص العلاقة الطيبة التي ربطت بينهما ، ويبدو أن كل ما في الأمر هو انشغال كل منهما بأموره الداخلية ، التي اهتم بها المؤرخون على سواها ، فبدا الغموض وكأنه يغطي العلاقات بينهما ، ومن المحتمل لو قدر الفشل للشيعي في احتلال تاهرت لعادت بين العاصمتين للظهور ثانية ، على ما كانت عليه ، فإن عبد الرحمن الناصر ، قد استقبل وفدا سنة 334 هـ/ 954 م برئاسة أحمد بن أبي العرب بن تميم مرسلا من قبل الثائر الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد (2) ، كما أنه حين فشل بنو خزر في استرداد تاهرت من الشيعة توجهوا إلى الأندلس (3) .

قامت هذه العلاقة بين الدولة الرستمية والدولة الأموية في الأندلس ، رغم الاختلاف المذهبي بينهما ، ترى ما تأثير هذا الاختلاف على العلاقة الاقتصادية بينهما ؟

العلاقة الاقتصادية :

كان طيب هذه العلاقة السياسية سببا لوجود علاقة اقتصادية بين البلدين ، بقدر ما كان نتيجة لها ، فقد أشرنا إلى أن الرستميين قد ساهموا في مد أمويي الأندلس بما يحتاجونه ، ومن بين ذلك الرجال ، وبطبيعة الحال ، فقد كان هؤلاء ينالون رواتب مقابل عملهم في الجيش الأموي ، أما الرستميون فكانوا ينالون مكافآت وهبات مقابل إرسالهم لأولئك الرجال ، ويمكن وضع هذا العمل في الإطار الاقتصادي ، فقد ذكر ابن سعيد أن عبد الرحمن بن الحكم حين قدم عليه بنو عبد الوهاب ـ كما سبق ـ «أنفق عليهم ألف ألف دينار» ،

(1) ماريا خيسوس : **محمد** وعبد الرحمن ، ص : 73 .

(2) ابن الابار : **التكملة** لكتاب الصلة ج 1 ص 127 . محمود مكي : **الخوارج** . بالأندلس ، ص : 173 . وحول المصادر التي تتعرض لثورة أبي يزيد ، أنظر : أحسان عباس : «**مصادر** ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد» مجلة الأصالة محرم 1397 هـ / جانفي 1977 م ، ص : 20 ـ 42 .

(3) سليمان بن داود : **مقابلة شخصية** ، الجزائر 1975/6/14 .

وقد رأينا أن خزان بيت المال قد رفضوا صرف صك لزرياب ، قدمه إليه الأمير عبد الرحمن ، بمعنى أن يد أمير قرطبة ، لم تكن مطلقة في بيت المال ، وبذلك يستبعد أن يكون عبد الرحمن قد أنفق هذا المبلغ الضخم على بني عبد الوهاب انفاقا ، والأرجح أن يكون هؤلاء رافقوا جماعة من الرجال ، سندا لأموي الأندلس . وأن يكون ذلك المبلغ ثمنا ، أو جزاء لهم على عملهم ، ورغم أن المؤرخين لم يشيروا الى مثل هذا ، الا أنه أمر ممكن الوقوع ، بناء على ما تقدم .

يحتمل تكرار هذا الأمر فيما بعد ، فقد أورد البلاذرى حين ذكر حادثة العباسية ، أن الأمير الأموي في قرطبة بعث الى افلح مبلغا ماليا ، وقد نص عليه بوضوح في قوله عن افلح أنه «كتب الى الأموي صاحب الأندلس يعلمه بذلك تقربا اليه فبعث اليه الأموي 100 ألف درهم» (1) وقد نقل ابن الاثير عبارته هذه كما فعل ابن خلدون (2) ، وقد أشرنا سابقا الى احتمال اختفاء حادثة العباسية من «بين الحوادث التاريخية ، ولئن اختلف المؤرخون حول سبب دفع هذا المبلغ فقد اتفقوا على دفعه . ومن المرجح أن يكون هذا الأمر قد ارتبط بارسال جماعة أخرى من الرجال ، كان أمير قرطبة بحاجة اليهم ، يفسر هذا دخول المجوس اشبيلية ، مما فتح أعين امراء قرطبة على تحصين الموانيء الأندلسية ضد غاراتهم ، وتمكنوا بفضل هذه المساعدات أن يصدوا هجوم النورمان (المجوس) سنة 245 هـ/859 م (3) .

لم يكشف المؤرخون النقاب عن إرسال عطايا أخرى لأمراء تاهرت. ومن المستبعد أن يتوقف الأمر على ما ذكر ، لأن وضع الأندلس في عهد أمراء قرطبة المعاصرين للدولة الرستمية كان مضطربا ـ كما ذكرنا سالفا ـ ويمكن أن يرتبط بهذا

---

(1) البلاذرى : المصدر السابق ، ص : 236 . كانت الدراهم المضروبة في الأندلس في الفترة المدروسة فضية ، في حين كانت ذهبية ما بين 98 ـ 101 هـ وابتداء من سنة 317 هـ وما بعدها ، مما يدل على ضعف الاقتصاد الاندلسي في عهد الامارة الاموية بالاندلس . انظر :

G.C. Miles, *The Coinage of the Umayyads of Spain*, New-York, 1950, pp. 130-226.

أو انظر الجدول في نهاية الكتاب

(2) ابن الأثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 263 . ابن خلدون : العبر ، ج 4 ، ص : 429 .

(3) حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس : ص : 66 ـ 72 .

الأمر علاقة تاهرت بالسودان ـ كما سيأتي ـ فقد تجهز أفلح بن عبد الوهاب في عهد أبيه إلى بلاد جو Goo أو جوجو (1) ، إلا أن رحلته لم يكتب لها التنفيذ لكن بانتقال إمامة تاهرت إليه ، أرسل محمد بن عرفة سفيرا إلى ملك السودان ـ ربما ملك جو Goo وقد ذكر أبو حامد الغرناطي في كتابه «تحفة الألباب» أن «سائر السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو فلا خير فيهم إلى في الحرب» (2) ، وربما تفسر هذه العبارة اهتمام أفلح بالرحلة إلى جوجو ، من المؤكد أنه من بين أهدافه ، عقد اتفاقية مع ملك جوجو لتزويده بالرجال ـ العبيد ـ ويبدو أن سعي أفلح هذا ، له علاقة وطيدة ، بموضوع العلاقة مع الأندلس ، وإرسال الإمدادات البشرية إليها ، فلم تكن ظروف أفلح مع جيرانه تضطره لحشد هؤلاء السودان الأقوياء في تاهرت ، إلا ليرسل بهم إلى أمراء قرطبة ، وهكذا كان على الأمويين أن يدفعوا المبالغ الطائلة للرستميين من أجل المحافظة على استمرار تدفق الرجال اليهم سواء من البربر أو من السودان .

ليس بالإمكان ربط ابتداء هذه العلاقة بابتداء الدولة الرستمية ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان مشغولا بتأسيس الدولة ، وكان زاهدا عفيفا متواضعا ـ كما سبق ـ ويبدو أنها ابتدأت بعبد الوهاب ، فقد كان أبناؤه أول وفد رستمي يصل الاندلس ، وعلى كل فإن العلاقة الاقتصادية لم تتوقف على هذا النوع ، بل كان هناك نوع آخر يتمثل في حرية التنقل بين البلدين للإقامة والعمل ، وإن كان المؤرخون لم يذكروا ما فيه الكفاية لتوضيح هذه المسألة ، إلا أن مؤلفات بعضهم لا تخلو من إشارات لذلك ، فقد ذكر ابن القوطية عند ذكره ثورة عمر بن حفصون ، أن هذا الأخير اجتاز البحر إلى تاهرت «فصار فيها عند رجل من الخياطين كان أصله من رية وكان يخيط عنده» (3) ولما كانت رية مدينة أندلسية ، فهذا يعني أنه كان في تاهرت خياط أندلسي ، ولا يعنينا كيف ومتى قدم هذا الخياط تاهرت ، المهم في الأمر أنه كان في عهد الأئمة الرستميين ، ولم يكن فريدا في تاهرت ، ولابد أن يكون رافقه جماعة من الأندلسيين ، ربما كانوا

(1) وردت على صورة كوكو Kawkaw انظر : الادريسي : **صفة** ، ص : 11 .

(2) أبوحامد الغرناطي : **تحفة الالباب** ، ص : 43 .

(3) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 109 .

من أهل الربض (1) ، الذين هاجروا إلى المغرب الإسلامي ، وربما فروا من تدهور الأوضاع في الأندلس بسبب كثرة الثورات ، أو أنهم ممن استهوتهم تاهرت بتقدمها الاقتصادي .

شكلت التجارة عصب الحياة الاقتصادية بين تاهرت وقرطبة ، فقد ذكر ابن الصغير أنه منذ عهد عبد الرحمن قد استعملت السبل « الى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة» (2) كما أكدت ذلك المصادر الأباضية ، فذكر سليمان الباروني أنه كانت ترد إلى تيهرت «وتصدر منها أنواع البضائع إلى السودان وأقصى المغرب وبلاد الأندلس» (3) وغيرها ، ويبدو أن عملية الانتقال للتجارة بين الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي ، كان أمرا معتادا قبل الفتح الإسلامي ، فذكر ابن القوطية ، أن سبب دخول طارق بن زياد أن تاجرا من تجار العجم يسمى يليار «كان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر» (4) ويؤيد ذلك ابن عذارى حيث ذكر أن يليار كان «يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، لا يشعر أهل الأندلس بذلك ، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار» (5) ويبدو أن العامل الاقتصادي كان من عوامل ارتباطهم بعلاقة تجارية قبل الفتح ، فقد ذكر المقري أنك لا تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا وبالعكس «إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر» (6) وبذلك فإن عمليات التبادل التجاري في عهد الدولة الرستمية بين تاهرت وقرطبة ، هي استمرار لما سبق .

---

(1) قياسا على ما ذكره البكري من « أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأندلس فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة » انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 149 . وحول وقعة الربض انظر : ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 274 . ابن الابار : **الحلة** ج 1 ، ص : 45 .

(2) ابن الصغير : **السيرة** ، ص : 13 .

(3) سليمان الباروني : **الأزهار** الرياضية ، ج 2 ، ص : 9 ـ 10 .

(4) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص : 33 .

(5) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 6 . المقرى : **نفح** الطيب ، ج 1 ، ص : 254 .

(6) المقرى : **نفح** ، ج 1 ، ص : 244 .

ساهم أهل الأندلس أنفسهم بهذا النشاط ، فقد وصفهم المقدسي بانهم « يكثرون التجارات والتغرب » (1) ومن البديهي ، أن تلك العلاقة لم تقتصر على طنجة ، بل شملت كامل المغرب الاسلامي وغيره ، ويبدو أنهم كانوا يستعملون الطريق البحري قبل قيام الدولة الرستمية ، فذكر صاحب كتاب « بغية الملتمس » أن عياش بن شراحيل الحميرى « دخل الأندلس وقدم بالسفن منها الى افريقية سنة 100 هـ /718 م » (2) وهذا يعني أن ركوب البحر بين تاهرت وقرطبة كان معروفا قبل ظهور الدولة الرستمية .

استمرت العلاقات التجارية بين بلاد المغرب الإسلامي والأندلس ، وشكلت هذه العلاقة جزءا كبيرا من النشاط الاقتصادي . منذ ابتداء الدولة الرستمية ، فإن عبارة ابن الصغير السابقة تتعلق بنشاط تاهرت في عهد عبد الرحمن بن رستم ، ومن المهم أن نشير في بداية الأمر إلى الطريق الذي كان يسلكه التجار بين تاهرت والأندلس ، فيلاحظ وجود طريقين : طريق بري إلى طنجة وسبتة ومن ثم إلى الأندلس عبر مضيق جبل طارق . والثاني بحري يربط بين موانيء المغرب الأوسط وموانيء الأندلس . وفيما يتعلق بالطريق الأول ، فقد ذكر قدامة بن جعفر أن «وراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوما بلد المعتزلة ... ودارهم طنجة» (3) وهي لا شك عبارة هامة من حيث أنها كشفت عن وجود طريق يربط تاهرت بطنجة ، وعن الزمن الذي تستغرقه ، وكان ابن قدامة قد أشار إلى أنه وراء افريقية بلاد تاهرت ، وهذا يعني أن تاهرت تقع على الطريق الرابط بين افريقية وطنجة . اعتمادا على اليعقوبي فإن هذا الطريق يمر بمدينة تلمسان ، عبر بلد ابن مسالة الهواري ، ومنها إلى مدينة يقال لها يلل ـ تقرب من البحر المالح مسيرة نصف يوم ومنها إلى مدكرة ثم إلى إيزرج ومنها إلى مدينة تلمسان (4) . وقد بين ابن الفقيه الزمن اللازم لقطع هذا الطريق بقوله «ومن تاهرت اليها مسيرة خمس وعشرين يوما» ويشك في صحة هذا التوقيت لأنه يضيف

---

(1) المقدسي : أحسن التقاسيم .

(2) الضبي : **بغية** الملتمس ، ص : 419 . الحميدي : **جذوة** المقتبس ، ص : 322 رقم 742 .

(3) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، ص : 265 .

(4) اليعقوبي : **صفة** المغرب ، ص : 17 . الادريسي : **صفة** ، ص : 87 .

بأن «طنجة خلف تاهرت بأربع وعشرين ليلة» (1) ، إلا أن ابن حوقل يذكر تلك الطريق بشكل آخر ، فمن تلمسان إلى تاتانلوت ومنها إلى وادي الصفاصف ثم افكان ومنها إلى تاهرت» (2) .

يمتد الطريق من تلمسان إلى مدينة فاس ، ويذكر الاصطخري أن الطريق من تاهرت إلى فاس خمسون مرحلة ، إلا أن البكري يرى أن «الطريق من مدينة فاس إلى مدينة القيروان وهي أربعون مرحلة» ثم يمتد الطريق من فاس إلى سبتة مسير ستة أيام ، أو من فاس إلى طنجة ، ومن هناك تعبر المراكب إلى الأندلس ، ومما لا ريب فيه أن هذا الطريق كان مستعملا ، يؤكد ابن خرداذبة هذا فيذكر أن الخارج من الأندلس أو من فرنجة ، يقطع المضيق «فيصير إلى طنجة ثم إلى افريقية» (3) ، كما يفهم هذا من عبارة للقاضي عياض وردت بخصوص الغازي بن قيس – من أهل قرطبة – فذكر عنه أنه رحل فسمع من مالك الموطأ «ومات بطنجة في انصرافه» (4) .

كانت الحركة التجارية نشيطة في هذا الطريق ، فهو طريق داخلي ، بعيد عن أخطار البحر ، آهل بالسكان ، يمر في قرى ومدن كثيرة ، مما يتيح للمسافر إجراء عمليات تجارية ، والتزود بالمؤونة والاستراحة ، وهو لا يجد حرجا في الانتقال من مكان لآخر ، ما دام الطريق في بلاد إسلامية ، فحيثما نزل إلا ووجد ماء للوضوء ومسجدا للصلاة ، وتستعمل في هذا الطريق الحيوانات ، سواء باستعمالها للحمل أو لجر العربات التي كانت معروفة في ذلك الوقت ، فقد ذكر ابن عذارى أن موسى بن نصير «أجاز الأموال من الذهب والفضة والجوهر في المراكب إلى طنجة ثم حملها على العجلات» (5) .

---

(1) ابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** ، ص : 80 ، 81 .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 88 .

(3) حول هذا الطريق : الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص : 37 . البكري : **جغرافية** المغرب ، ص : 141 ، 109 _ 111 . الادريسي : **صفة** ، ص : 170 . ابن خرداذبة : **المسالك** والممالك ، ص : 153 .

(4) القاضي عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 347 .

(5) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 43 .

أما الطريق الثاني ، ـ الطريق البحري ـ فقد ظهرت عدة موانيء على ساحل شمال افريقيا مثل ميناء جزيرة بني مزغنة ، فذكر المقدسي أنها «على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس» (1) وكذلك وهران التي «يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة» (2) ، ومرسى الدجاج ، ومرسى فروخ الذي ذكر اليعقوبي بشأنه أنه «ترسي به مراكب تاهرت» (3) كذلك مرسى تنس (4) ، ومرسى الخرز ، ذكره صاحب كتاب الاستبصار ، ويبدو كذلك أن تجار تاهرت كانوا يستعملون ميناء نكور ، فقد ذكر الاصطخري أن الطريق بين تاهرت ونكور عشرون مرحلة ، هكذا فإن السلع كانت تنقل من تاهرت إلى هذه الموانيء برا ومنها إلى الأندلس بحرا ، ويبدو أن الحركة كانت أنشط في ميناء تنس ومرسى فروخ ، فقد ذكرنا سابقا ما أورده اليعقوبي من أن المسافر من افريقية إلى جزيرة الأندلس ، كان يركب البحر مسحلا غير موغل إلى تنس «أو صار إلى تاهرت يوافي جزيرة الأندلس فيقطع اللج في يوم وليلة حتى يصير إلى بلد تدمير» (5) وهذا يدل دلالة واضحة على الاتصال بين تاهرت وتدمير عبر تنس ، أما مرسى فروخ فواضح من عبارة اليعقوبي بشأنه أنه كان مرسى لمراكب تاهرت ، وتوضح هذه العبارة ، أن موقع تاهرت الداخلي لم يحل دون اشتغالها بالتجارة البحرية ، فقد وجد من التاهرتيين من امتلك المراكب وأن ذكر مراكب تاهرت من قبل اليعقوبي لدليل على ضخامة عددها ، حتى بات مرسى فروخ وكأنه خاص بمراكب تاهرت ، وبالتالي لدليل على نشاط وحيوية الحركة التجارية البحرية لتاهرت ، ومن الطبيعي ما دام الأمر كذلك أن تكون هذه المراكب ، قد خدمت تجارة تاهرت وجابت موانيء مختلفة .

---

(1) المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 228 .

(2) المصدر نفسه ، ص : 229 . يبدو أن هذه الموانيء كانت قليلة الشهرة لأن اليعقوبي يذكر تنس كأول معبر الى الأندلس .

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 353 . فقد ذكر أن « الحصن الذي على ساحل البحر الاعظم ترسي به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ » في حين ورد عند الادريسي بصورة فروج : انظر : **صفة**، ص : 100 .

(4) اليعقوبي : المكان السابق ، ابن حوقل : **صورة الارض** ، ص : 78 . الاصطخرى : **المسالك والممالك** ، ص : 34 .

(5) اليعقوبي : المكان السابق . وحول تدمير انظر : الحموى : **معجم** ، ج 2 ، ص : 371 .

في نفس الوقت ، كانت هناك موانيء أندلسية عديدة ، فقد ذكر منها ابن غالب ، اشبيلية ووصفها بأنها «حازت البر بما استقبلته من جهاته والبحر بما اشتملت عليه خواص منافعه» (1) والجزيرة الخضراء التي قال في مدينتها ، بأنها من أشرف المدن وأطيبها أرضا «وأجمعها لخير البر والبحر .... ومرساها أيسر المراسي للحيوان وأقربها من العدوة» وكذلك شذونة ، التي وصفها ابن الشباط بأنها «جامعة لخير البر وبركة البحر» وبلنسية التي «جمعت البر والبحر .... ومرساها من أعجب المراسي» وطرطوشة التي هي «باب من أبواب البحر يسلكه التجار في كل جهة» (2) .

كانت عمليات الذهاب والاياب بين مرسى فروخ وغيره من موانيء المغرب الأوسط ، وموانيء الأندلس يبدو أنها لا تتوقف (3) ، وكما ساهمت مراكب تاهرت في هذه العمليات فمن المؤكد أن مراكب الأندلس قد ساهمت هي الأخرى ، فقد ذكر ابن حوقل عن تنس أن الأندلسيين كانوا يعبرون البحر بمراكبهم اليها «ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها» (4) ويبدو أن حركة الاتصال هذه استمرت نشيطة دون أن تتأثر بفترة سيادة بيزنطة على البحر المتوسط ، لأن العلاقة بين بيزنطة وقرطبة لم تكن سيئة على الأقل ، بل أن ارشيبالد يشير إلى هذه العلاقة ، فيصف الأندلس بأنه «كان حليفا هاما لبيزنطة» (5) وهذا بدوره ينعكس على حرية مراكب الدول ذات المصلحة المتبادلة مع قرطبة كتاهرت ، واستمر ذاك النشاط في فترة السيادة الإسلامية على البحر ، فإن هذه المراكب ظلت تتمتع بحرية الإبحار ، فلم يحدث أن تعرضت دولة إسلامية لمراكب دولة إسلامية أخرى في تلك الفترة ، مهما تدهورت العلاقة بينهما .

كان لهذا الطريق البحري حسنات منها ، أنه يقصر المسافة والزمن بين تاهرت والأندلس فقد سبقت الإشارة إلى أن المراكب تقطع المسافة بين تنس

---

(1) ابن غالب : **فرحة الانفس** ، ص : 292 . حول اشبيلية انظر الحموى : **معجم** البلدان ، ج 1 ، ص : 254 . بروفنسال : مقال « اشبيلية » دائرة المعارف الاسلامية ، ج 2 ، ص : 203 .

(2) حول هذه المدن : انظر : ابن غالب : المصدر السابق ، ص : 294 ، 285 ، 286 ابن الشباط : **وصف** الاندلس ، ص : 107 .

(3) عبد العزيز سالم وآخرون : **تاريخ** المغرب الكبير ، ج 2 ، ص : 577 .

(4) ابن حوقل : **صورة** الأرض ، ص : 78 .

(5) ارشيبالد : **القوى** البحرية ، ص : 176 .

وتدمير في يوم وليلة ، لكنه ككل طريق بحري حافل بالمساوىء والأخطار ، فلا يركبه إلا المغامرون الأقوياء ، إذ أن المراكب عرضة للغرق ، كما حدث للمراكب التي كانت تقل أبناء الإمام عبد الوهاب ـ كما سبق ـ كما ذكر أبو العرب أن اسماعيل بن رباح الجزري «خرج في البحر حاجا وأن مراكبهم غرقت فتقلد اسماعيل مصحفه ثم غرق» (1) ويبدو أنه كان يستعمل في فصول معينة من السنة ، خاصة فصل الصيف ، حيث تسكن أمواجه التي تشكل عائقا في فصل الشتاء ، مما كان يضطر البحريين الأندلسيين أن يشتوا في تنس إذا سافروا إليها من الأندلس (2) ، وقد ذكر الحميدي أن يحيى ابن حكم المعروف بالغزال (ت 250 هـ/864 م) أرسله بعض ملوك بني أمية بالأندلس رسولا إلى ملك الروم فكان مما قاله عند ركوبه البحر يصف أهواله :

وصرنا بين موج كالجبال ، وتولتنا عصوف من جنوب وشمال ، شقت القلعين وأنبتت عري تلك الحبال وتمطى ملك الموت الينا عن حيال ، لم يكن فينا يا رفيقي رأس مـال (3) .

مع هذه الأخطار ، يبدو أن مشاركة الأندلسيين كانت واسعة حتى شكلوا جماعات هامة من سكان موانيء المغرب الإسلامي بصفة عامة ، فقد كان أكثر تجار مدينة بونة (عنابة) من الأندلسيين (4) وكان من هؤلاء من يسكن مرسى الدجاج ، ومدينة تنس ، ويبدو أنهم كانوا من الكثرة بحيث أقدموا على بناء مدينة تنس الحديثة ، فذكر البكري أنها أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس سنة 262 هـ/875 م وكان منهم الكركرني وأبو عايشة وصهيب وغيرهم ، وكانوا «من أهل البيرة وأهل تدمير» (5) وأن إقامة هؤلاء في تنس ، لدليل على أنهم لعبوا دورا رئيسيا في عملية التبادل التجاري بين تاهرت وبلديهم ، ومن المحتمل

---

(1) أبوالعرب : **طبقات** ، ص : 145 .

(2) البكري : **جغرافية** المغرب ، ص : 61 .

(3) الحميدى : **جذوة** المقتبس ، ص : 374 رقم 888 .

(4) البكرى : **جغرافية** المغرب ، ص : 55 .

(5) المصدر نفسه ، ص : 61 .

أن يكون بعضهم قد سكن تاهرت نفسها ما دامت تنس تتصل بها ، كما ذكر البكري أن مدينة وهران بناها «محمد بن أبي عون ومحمد بن عون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران» (1) ، وأن مجيء البكري في فترة متأخرة لا يقلل من أهمية معلوماته التاريخية ذلك لاعتماده على سابقيه من المؤرخين ، وأن بناء الأندلسيين مدينة في ذلك التاريخ يدل على أنهم سكنوا تلك المنطقة بزمن طويل سابق لذلك .

ساهم إلى جانب التجار الأندلسيين ، تجار تاهرت ، ويبدو أن مساهمتهم كانت واسعة حتى أطلق اسم الأندلس على أحد أبواب مدينة تاهرت ـ كما سبق ـ في وقت كانت أسماء الأبواب في الغالب تدل على الجهة التي يقصد اليها ، ولا شك أن إطلاق ذاك الإسم ، لا يكون إلا إذا كانت عمليات الدخول والخروج منه متواصلة ، ومن الواضح أنه يدل على أن الأندلس كانت وجهتهم ومقصدهم ، ولم تكن رحلاتهم تنتهي إلى موانيء البحر عند تنس ومرسى فروخ وغيرهما ، والا لأطلق أحد هذه الأسماء على ذاك الباب ، وهو الباب الذي ربما كان ابن الصغير يقصده ، حين قال عن أبي اليقظان أنه كان يجلس وهو «مستقبل الباب البحري» (2) .

لم يذكر المؤرخون المعاصرون للرستميين ، كابن الصغير واليعقوبي ، أسماء محددة لبعض تجار تاهرت الذين شاركوا في الحركة التجارية بينها وبين قرطبة ، إلا أن الحميدي يذكر أن أبا الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز ولد بتاهرت وأتى مع أبيه صغيرا إلى الأندلس (3) ، ويضيف ابن بشكوال قول أبي الفضل «دخلت الأندلس سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنا ابن ثمانية أعوام» (4) وربما كانت رحلة والده علمية ، لكنها في نفس الوقت تجارية ، فقد كان أبو الفضل بزازا يتاجر بالبز ، وإذا كانت هذه الرحلة هي أول دخول أبي الفضل الأندلس ، فلا شك أنها لم تكن كذلك بالنسبة لوالده ، والأرجح أنه اعتاد ذلك من قبل ، كما أنه من المستبعد أن يكون وحيدا في سفره ، فمن

---

(1) المصدر نفسه ، ص : 70 . ابن الخطيب : **أعمال الاعلام** ، ج 3 ، ص : 171 .

(2) ابن الصغير : **السيرة** ، ص : 44 .

(3) الحميدي : **جذوة** المقتبس ، ص 141 رقم 241 .

(4) ابن بشكوال : **الصلة** ، ج 1 ، ص : 66 .

المؤكد أنه كان مرافقا لقافلة خرجت من تاهرت إلى الأندلس ، سواء أكان ذلك بالطريق البري أو البحري ، كما أن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن أبي بردة الشافعي البغدادي ، حين أمر خليفةقرطبة بإخراجه من الأندلس سنة 373 هـ/ 983 م خرج إلى تيهرت ، وهو كسابقه لا تخلو رحلته من هدف تجاري ، وهي وإن كانت متأخرة إلا أنها كانت استمرارا لسلسلة رحلات تمت بين تاهرت وقرطبة ، ويذكر الشماخي أن أبا سهل الفارسي ـ السابق الذكر ـ كان «بمرسا (كذا في الأصل) الخرز وقيل بمرسا الدجاج بجزائر بني مزغنة» (1) وهو نفسه ترجمان الإمام أفلح والإمام يوسف ، وإذا كانت هذه علاقته بأئمة تاهرت ، فإن وجوده في هذا المرسى أو ذاك له علاقة بنشاط تجاري في الأندلس ، سواء له أو للأئمة الرستميين ، خاصة وأن هؤلاء اشتهروا بالتجارة ، ويضيف البكري شخصية أخرى تاهرتية في تنس هي شخصية سعيد بن واشكل الذي قال عنه في علته التي مات منها بتنس :

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر وأصبحت عن دار الأحبة في أسر (2)

ربما كان سعيد هذا متأخرا ، فإن البكري لم يحدد تاريخ وجوده في تنس ، إلا أنه على كل حال يمثل حلقة في سلسلة تجار كانت تنتقل بين تاهرت وتنس فالأندلس ، وربما لم يقم جميع هؤلاء التجار بالمتجارة لأنفسهم ، فقد وجدت عادة التوكيل ـ كما سبق ـ وكما أكده أبو حامد الغرناطي ، فقد ذكر أن رجلا من كبار التجار جاء إلى عفان ـ رجل مصري ـ في مصر ، وقال له : «ان لي بضاعة تصلح للهند ، وقد اخترت أن تذهب بها فما ربحت فلك كذا وكذا واتفقا وجهزه ذلك التاجر وخرج عفان ومعه أموال كثيرة لذلك الرجل» (3) .

شارك إلى جانب هؤلاء ، التجار المشارقة ، خاصة منهم أهل البصرة وحمير الذين اشتهروا بالتجارة ، وقد نقل ابن الفقيه قول الناس فيهم أن أبعد هؤلاء

---

(1) الشماخي : **السير**، ص : 286 .

(2) ورد اسمه على صورة «سعد بن أشكل التيهرتي» انظر : الحموى : **معجم** البلدان ، مادة تنس ، ج 2 ، ص : 415 .

(3) أبوحامد الغرناطي : **تحفة** الألباب ، ص : 149 .

«نجعة في الكسب بصري وحميري ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيها بصريا أو حميريا» (1) ومع أنه لم ينص صراحة على دخول هؤلاء الأندلس ، فمن المؤكد أنهم مروا بتاهرت اليها ، وربما أن نشاط هؤلاء التجاري في المغرب ، قد جعلت أرشيبالد يرى أن «تجارة اسبانيا الخارجية كتجارة باقي الأقاليم المغربية قد وقعت هي الأخرى في قبضة التجار المشارقة» (2) ، وهذا ليس بغريب مادام عدد كبير منهم قد اتخذوا من تاهرت موطنا لهم ـ كما سبق ـ ، وقد كان من هؤلاء التجار المشارقة وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي أبو يزيد أصله من فارس «وخرج منها إلى البصرة ثم سافر إلى مصر وخرج منها إلى الأندلس تاجرا . وكان يتجر في الوشى ... وعاد من الأندلس إلى مصر» (3) ومات فيها سنة 237 هـ/851 م .

شارك اليهود في هذه الحركة التجارية إلى جانب ما سبق ، وقد كانت أعدادهم هائلة في قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية ، حتى أن أحد أبواب قرطبة كان يطلق عليه باب اليهود (4) ، فقد كان هؤلاء اليهود الذين يقال لهم الراهدانية أو الرادانية ، يسافرون من المغرب إلى المشرق ، برا وبحرا ، وقد ساعدهم على ذلك حذقهم بفنون التجارة ، كما أنهم كانوا «يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبيه» (5) ، وهذا مما يسر لهم سهولة التعامل ، ولما كانت تاهرت على الطريق بين الأندلس وافريقية ، سواء برا أو بحرا ، وكانت توجد جماعات يهودية فيها ، فقد أسهموا بذلك في النشاط التجاري ، وقد يسر لهم المسلمون بحسن معاملتهم ، القائمة على الانصاف والعدل ، فرصة لتحقيق مزيد من المساهمة في الحركة التجارية ، فقد ذكر ابن سعيد حادثة وقعت ليهودي مع محمد بن الأمير عبد الرحمن الثاني ، ذلك

(1) ابن الفقيه : **المسالك** والممالك ، ص : 51 .
(2) أرشيبالد : **القوى** البحرية ، ص : 70 .
(3) الضبي : **بغية** الملتمس ، ص : 469 .
(4) الخشني : **قضاة قرطبة** ، ص : 97 ، 112 ، المقرى : نفح ، ج 2 ، ص : 148 .
(5) ابن غرداذبة : **المسالك** والممالك ، ص : 153 . ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص : 270 .

أنه كان مع تاجر يهودي رقيق من جليقية ، وكان فيهن جارية رائعة الجمال اشتط اليهودي في ثمنها على الأمير محمد فأمسكها عنه ، فرفع ذلك اليهودي القضية إلى القاضي سليمان ، فآل الأمر إلى أن أنكر القاضي هذا العمل ، وركب إلى الأمير عبد الرحمن في قرطبة بخصوص الجارية ، فردها الأمير إلى اليهودي (1) . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يتمتعون بحرية الحركة في جميع الاتجاهات ، فقد كانوا محايدين بين الكارولنجيين المتنازعين مع أمويي اسبانيا وعرب المغرب الإسلامي وبين العرب في الشرق المتنازعين مع بيزنطة ، ومن الواضح أن الأسطول البيزنطي لم يتعرض لهم ، وربما كان ذلك لأنهم اتخذوا من الغرب في الأندلس قاعدتهم (2) .

عملت قوافل هؤلاء التجار جميعا ، البحرية والبرية على تبادل السلع بين تاهرت وقرطبة ، ومن المحتمل أن الأندلس صدرت بعض السلع التي توجد بها إلى تاهرت ، فقد اشتهرت منطقة الجزيرة بخير البر والبحر ، واشتهرت البيرة بالحديد والكتان والرصاص والنحاس ، وفيها الذهب والفضة وشجر الجوز وقصب السكر ، وفي طليطلة الصبغ السماوي والزعفران «الذي يتجهز به إلى الآفاق» وفي المرية الحرير الذي «كان يسفن إلى جميع الآفاق» ، أما شدونه فقد جمعت هي الأخرى خير البر والبحر وفيها كهربا الأرض ، وفي قرية بمغام ـ قرب طليطلة ـ كان يوجد «الطين المأكول» الذي كان «يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك ، وهو نهاية في لذاذة الأكل وفي تنظيف غسل الشعر» ومادام الطين هذا ، قد وصل إلى درعة ، فليس الاما يمنع وصوله تيهرت من قبل. كذلك ، يوجد في الأندلس ، الحديد المغناطيسي واللازورد والياقوت الأحمر ، ويوجد الزئبق في فحص البلوط «ومنه ينتشر في كل أفق» ، كما يوجد الكبريت والتوتيا ، خاصة في منطقة تدمير ونوحيها حيث «يحمل إلى الآفاق» ، ويوجد الزعفران في نواحي جيان وطليطلة ، وهو يعم البلاد ويتجهز به إلى الآفاق والقرمز بنواحي اشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية

---

(1) ابن سعيد : **المغرب** ، ص : 151 .
(2) ارشيبالد : **القوى البحرية** ، ص : 203 .

«ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق» ، كما اشتهرت اشبيلية بالقطن الذي «يعم آفاق الدنيا منها ويجهز إلى القيروان» ومن الطبيعي أن يصل هذا القطن إلى تيهرت كما وصل القيروان ، وبالأندلس الزيت الذي يتجهز به إلى أقاصي المشارق والمغارب برا وبحرا (1) ، ويذكر ابن الشباط من معادن الاندلس النحاس والحديد والرصاص والزنجفور والشب والتوتيا والزاج والمها والكهربا وغيرها . وهناك القسطل وشجر الغراسيا والجلوز والجوز ، وتشتهر الأندلس بالحرير الذي «كان يسفن إلى جميع الآفاق» من منطقة البيرة ، ويكثر العنبر الذي يستخرج خاصة من المحيط الأطلسي عند اشبونة وشنترين ، وفيها السفن بنواحي مالقة ، والبزاة ، وقد ذكر ابن غالب أن بزاتها أحسن البزاة ، وفيها الوشي والسقلاطوني والبغدادي وسائر أجناس الديباج (2) ، كما ظهر فيها الخدم الصقالبة ، والغلمان (3) ، ومن المرجح أنه لم يتم استغلال هذه الثروات في عهد الإمارة ، بسبب اضطراب البلاد في ذلك الوقت ، إلا أن هذا لا يمنع استغلالها بدرجة ما .

قد سبقت الإشارة الى أنه كان يتم استيراد بعض السلع رغم وجودها ، لفارق السعر فإن البكري ـ على سبيل المثال ـ يذكر أن « أطيب كهربا الأرض بشذونة ، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة « وبذلك فإن كثيرا من السلع السابقة الذكر كانت ترد الى تاهرت ، وربما تصدر منها الى بلاد أخرى ، باعتبار أنها كانت مركزا للتبادل التجاري بين الجنوب ، وما وراء البحر (4) ، وقد ذكر ابن خرداذبة أن الذي يجيء من البحر الغربي الخدم الصقالبة والروم والإفرنجيون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخز والوبر ومن الطيب الميعة ومن الصيدلة المصطكي ،

(1) حول هذه المدن والسلع أنظر : ابن غالب : **فرحة الأنفس** ، ص : 283 . 284 . 289 292 : البكري : **جغرافية** المغرب ، ص : 85 ، 88 128 ـ 129 . الإدريسي : **صفة** المغرب ، ص : 88 ، 178 . الاصطخري : **المسالك** والممالك ، ص : 36 .

(2) أنظر ابن الشباط : **وصف** الأندلس ، ص : 102 . ابن غالب : **فرحة** الأنفس ، ، ص : 283 . 284 ، 291.

(3) الجاحظ : التبصير بالتجارة ، ص : 33 ، ابن خرداذبة : **المسالك** والممالك ، ص : 92 ـ 153 . ابن الفقيه : **المسالك** والممالك ، ص : 84 . كان تجار اليهود يأتون بهم ويقومون بخصيهم عند اقترابهم من الأندلس ، وكان لهؤلاء التجار عملاء وصيادون في جنوب فرنسا وحتى في فردان أنظر : ليفي بروفنسال : **حضارة** العرب ، ص : 77 وعن الصقالبة : المسعودي : مروج ، ج 2 ،ص : 3 .

(4) G. MARÇAIS, *l'Afrique du Nosd française dans l'histoire*, p. 146.

ويضيف الديباج والفراء والسمور والسيوف (1) . ويبدو أن تصدير هذه السلع استمر في عهد ابن الفقيه ، واذا كانت هذه السلع تصدر الى الشرق ، فهذا يعني أنها كانت تصل الى تاهرت سواء لتباع في أسواقها أو عند مرور التجار بها ، ويبدو أن أشهر السلع المصدرة الى تاهرت هم الخدم الصقالبة ـ كما سبق ـ وقد ذكر المقدسي أنه يصنع في مرسية من الأسر المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والمقاس المذهبة «ومنها تجهز هذه الأصناف الى بلاد افريقية وغيرها» (2) ويعدد أمام الدين **Imammuddin** صادرات الأندلس الى المغرب الإسلامي ، فكان مما ذكره الورق والسجاد والسلاح وكل أنواع الأدوات المصنوعة من الحديد والنحاس كالمقصات الى غير ذلك (3) .

من المحتمل أن تكون صادرات الأندلس الى تاهرت ، قد خلت من السلع النباتية كالحبوب والفواكه ، ويعود ذلك الى تدهور الإقتصاد الزراعي في الأندلس في معظم سنوات تلك الفترة ، وهذا نتيجة تعدد الثورات في البلاد على نحو ما سبق ، اذ من المعلوم أن النشاط الإقتصادي لا يتوفر الا عند استتباب الأمن والهدوء ، وهذا يجعل من المحتمل أن تكون الأندلس قد اعتمدت على تاهرت في امدادها بكميات هائلة من المواد الغذائية ، فقد ذكر الحميري في كتابه «روض المعطار» أن مدينة بجاية «كانت الميزة تجلب اليها من العدوة وضروب المرافق والتجارات» (4) ، كما يذكر ابن حوقل أن مدينة وهران «فرضة الأندلس اليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال» ويؤكد هذا صاحب كتاب الاستبصار فيصف تنس بأنها «رخيصة الأسعار منها يحمل الطعام الى الأندلس» (5) وليس من الضروري أن يقتصر هذا الوصف على عصره ، فهو ربما نقل هذا ضمن ما نقل عن سابقيه من المؤرخين ، كما ذكر ابن غالب نقلا عن ابن النظام أنه كان يدخل قرطبة من

---

(1) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص : 92 ، 193 . كان التجار اليهود يحملون هذه السلع الى الهند والصين ، أنظر : نفس المكان :

(2) المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 232 ـ 233.

(3) IMAMMUDDIN, *Some aspects of the socio-economic and cultural history of muslim*, Spain, 1965, p. 127.

(4) عبد العزيز سالم : **تاريخ** المسلمين ، ص : 274 .

(5) ابن حوقل : **صورة** الأرض ، ص : 79 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 127 .

« جلائب الغنم في كل يوم من أيام درور الجلائب بها ـ وهي معلومة ـ ما بين سبعين ألف رأس الى مائة ألف رأس حاشا البقر» (1) وذكر في مكان آخر أن مرسى مدينة الجزيرة الخضراء من أيسر المراسي للحيوان وأقربها من العدوة ـ كما سبق ـ ثم يذكر صاحب كتاب الإستبصار أنه كانت من تاهرت « تجلب الأغنام الى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها» (2) ويتضح من هذه العبارات أن تاهرت كانت تصدر اعدادا هائلة من الحيوانات ، وهذا يؤكد تدهور النشاط الزراعي في الأندلس ، مما يؤكد فكرة استيراد الأندلسيين مواد زراعية من تاهرت خاصة الحبوب ، فقد ذكر الحبيب الجنحاني أن تاهرت كانت تصدر للأندلس « عن طريق مرفأي تنس ووهران أنواع الحبوب ولاسيما الحنطة » (3) .

يبدو ،أن اعتماد الأندلس على تاهرت في هذا المجال كان كبيرا ، الى درجة جعلت ليفي بروفنسال يرى أن الأمير عبد الرّحمن الثاني دعم علاقات الصداقة بينه وبين أئمة تاهرت «لضمان تموين رعاياه» (4) وما دامت تاهرت قد احتلت شهرة اقتصادية ـ كما سبق ـ فقد صدرت الى الأندلس كذلك الخيول والمنسوجات الصوفية والتمور وبعض سلع بلاد السودان كالعبيد والعاج (5) .

لقد سبقت الإشارة الى أن تاهرت تقع على الطريق الرابط بين الأندلس وبلاد الشرق ، واتضح بذلك أنها كانت معبرا من والي الأندلس ، وهذا مما زاد في مساهمتها في الحركة التجارية ، وزاد في أهميتها الإقتصادية بالنسبة للأندلس ، فقد ذكر اليعقوبي أن العنبر المغربي كان « يؤتي به من بحر الأندلس فتحمله التجار الى تاهرت ، كما كان فستق قفصة يحمل الى الأندلس ، ويبدو أن ما قام به عبد الرحمن الناصر ، من جلب الرخام لبناء مدينة الزهراء من افريقية سنة 325 هـ / 936 م (7) ، لم يكن حدث لأول مرّة ، اذ من المحتمل أن يكون سبقه الى ذلك

---

(1) ابن غالب : **فرحة** الأنفس ، ص : 296 .
(2) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 178 .
(3) الحبيب الجنحاني : « **تاهرت** عاصمة الدولة الرستمية » ص : 38 .
(4) الحبيب الجنحاني : **تاهرت** ، ص : 38 . نقلا عن ليفي بروفنسال .
(5) عبد العزيز سالم : **تاريخ** المغرب : ج 2 ، ص : 577.
(6) اليعقوبي : **البلدان** ، **ص** : 367 .
(7) ابن غالب : **فرحة** ، ص : 300 .

من جاء قبله من أمراء قرطبة ، ويؤكد ابن حوقل انتقال السلع الأندلسية الى الشرق ، فيذكر ،أنه كان «بالأندلس غير طراز يرد الى مصر متاعه وربما حمل منه الى أقاصي خراسان وغيرها «وأضاف أن» أرديتهم المعمولة ببجاية فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها» (1) ، هذا بالإضافة الى ما ذكره من سبقه من الجغرافين كابن خرداذبة ، وربما قام بهذا رجال اقتصرت أعمالهم على التجارة ، وربما كان منهم علماء اشتغلوا بها ، مثل وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي ، الذي خرج من فارس الى الأندلس ، يتاجر بالوشي ـ كما سبق ـ وذكر ابن الفوضي أن محمد بن معاوية بن عبد الرّحمن المعروف بابن الأحمر ـ من أهل قرطبة ـ رحل الى المشرق سنة 295 هـ / 908 م ودخل أرض الهند تاجرا ، (2) وكان من العلماء التجار كذلك محمد بن موسى الرازي (ت سنة 273هـ / 886م) الذي قال عنه حسين مؤنس أنه كان «تاجرا سفارا يتردد بتجارته بين المشرق والأندلس» وقد يكون ظاهر هذا القول يتعلق بالتجارة بين الأندلس والشرق ، الا أن وقوع تاهرت على الطريق التجاري بينهما يعطي لذاك القول أهمية في زيادة ابراز التبادل التجاري بين تاهرت والأندلس .

يبدو أن هذه الحركة التجارية بين الشرق والأندلس قد نشطت في عهد الأمير عبد الرّحمن الثاني الذي نتج عن الهدوء النسبي في عهده ، ازدياد الثروة في يديه ، فحاول أن يرقي بقرطبة الى مكانة بغداد ، فأدخل الأندلس «نفيس الوطاء وغرائب الأشياء وسيق ذلك اليه من بغداد وغيرها» (3) تتمثل في الجواهر والأقمشة الثمينة والكتب النادرة مهما كان الثمن . وقد أغرى هذا بعض التجار في تحمل أعباء السفر الى الأندلس ، كان من بينهم محمد بن موسى الرازي ـ السابق الذكر ـ الذي كان يفد من المشرق على ملوك بني أمية تاجرا» (4) ومن المحتمل أن يكون بصريو تاهرت وغيرهم من تجارها قد شاركوا في هذه الحركة التجارية.

(1) ابن حوقل : **صورة** الأرض ، ص : 104 ، 109 .

(2) ابن الفرضي : **تاريخ** علماء ، ج 2 ، ص : 70 . ويبدو أن سفر أهل المغرب الإسلامي عامة الى بلاد الهند استمر الى عهود متأخرة فقد ذكر الغرناطي أنه «وصل الى المغرب ـ رجل من التجار ممن سافر الى الصين في البحر وأقام بها مدة ووصل الى بلده بالمغرب بأموال عظيمة» أنظر : **تحفة** الألباب ، ص : 108.

(3) ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 91 . بروفنسال : **حضارة**العرب ، ص : 47 .

(4) حسين مؤنس : **الجغرافية** ، ص : 225 نقلا عن ابن الأبار.

لم تكن تاهرت حلقة وصل بين الأندلس والشرق فحسب ، بل كانت كذلك بين الأندلس والسودان ، فقد ذكر ابن الأثير أن عبد الرحمن الداخل مال « الى اقتناء العبيد» (1) وقد نقم الناس على الحكم بن هشام اتخاذه حرسا ملكيا من الزنوج والمرتزقة والأعاجم . ويبدو أن عددهم في الأندلس قبل عهد الإمارة كان قليلا ، فان ابن الشباط يذكر نقلا عن ابن أبي الفياض أن طارق بن زياد بعث ، الى الساقية رجلا أسود يأتيه بخبرها «ولم يكن دخل الأندلس من السودان غيره» (2) وهذا يجعل من المحتمل أن تلك الأعداد الهائلة من السودان في الأندلس قد دخلت في عهد الإمارة . ويبدو أن الأندلسيين شاركوا في هذه التجارة ، فوصلوا الى تلك البلاد ، فقد ذكر ابراهيم فخار من حديث له مع روبير سرج R. Serge في مدينة نواكشوط عن عثور هذا الأخير على «قبور رجع تاريخها الى القرن الثاني الهجرى وتضم هذه القبور الكثير من أنواع العملات والأواني التي هي رستمية أو أندلسية» (3) وقد يدل هذا على أن تلك الجثث هي لتجار أندلسيين ورستميين خرجوا في قافلة واحدة ، سواء أكان انطلاقهم معا من تاهرت أو من سجلماسة ، وهذا الإنطلاق أمر محتمل ، فقد ذكر حسين مؤنس نقلا عن العذرى في ذكره مدينة شاطبة بأنها «فيها يتجهز التجار بالأمتعة الى غانة وبلاد السودان والى جميع بلاد المغرب» (4) وقد وصف هذه العبارة بأنها فريدة في باب علاقة الأندلس التجارية بالسودان ، ولما كانت مدينة شاطبة تقع في شرق الأندلس ، فمن المحتمل أن تكون تجارتها الرئيسية مع المغرب الإسلامي وما وراءه عن طريق ميناء تنس .

وهذا يعني أن اتصالها بتلك البلاد ـ السودان ـ كان عن طريق تاهرت جلماسة ، وتاهرت فورقلة فبلاد كوكو Kawkaw أو جوجو Gaogao التي ارتبطت بعلاقات مع الأندلس (5) ، ومن الطبيعي أن العبيد كانوا بعض

(1) ابن الأثير : **الكامل** ، ج 5 ، ص : 40 .
(2) ابن الشباط : المصدر السابق ، ص : 116.
(3) ابراهيم فخار : **الجماعات** الاباضية في شمال افريقية ، مجلة الثقافة عدد : 3 ، 1971 ، ص : 116 .
(4) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص : 282.
(5) TRIMINGHAM, *A history of islam in West Africa*, p. 88.

سلعهم (1) ، وربما كان لهذا علاقة بحاجة الأمويين اليهم ، وبهذا يمكن القول أن تعاونا وثيقا قد نشأ بين تجار الأندلس وتاهرت في تجارتهم مع السودان .

مهما كان الأمر ، فإن التجارة بين تاهرت والأندلس لم تسر في مستوى واحد من الإزدهار ، بل يحتمل أنها كانت تخضع لظروف منها الحالة السياسية والإقتصادية للبلاد ، ولما كانت المنتوجات الزراعية تشكل بعض صادرات تاهرت الى الأندلس ، فقد كان لسنوات القحط (2) التي عاشتها الأندلس أثر على النشاط التجاري بينهما ، ومن المحتمل أن يكون لهذا القحط علاقة بقدوم أبناء الإمام عبد الوهاب الى قرطبة ، فهل كانوا يحملون مساعدات اقتصادية ؟ خاصة وأن زيادة الوفد وافقت حدوث القحط في الأندلس سنة 207 هـ / 822 م ، كما أنه من المحتمل أن يكون القحط في سنة 232 هـ / 846 م هو محور الاتصالات التي جرت بين الأمير عبد الرّحمن وامام تاهرت ، فقد ذكر ابن ابي زرع أن الأندلسيين في تلك السنة «كانوا يمترون من بلاد العدوة» (3) .

على كل حال ، فإن الوضع السياسي بين تاهرت وقرطبة ، والاتصال الاقتصادي بينهما ، قد كان لهما تأثير على التبادل الثقافي بين البلدين ، الى درجة تتضح فيما يلي :

التبادل الثقافي :

اشتهر أمراء بني أمية في الأندلس بحبهم للعلم . فكان عبد الرّحمن الداخل نفسه شاعرا وكان ابنه هشام يعقد المجالس للعلماء ويحضرها ، وكان الأمير الحكم أيضا أديبا خطيبا شاعرا ، كما كان عبد الرحمن ـ ابنه ـ شغوفا بالعلم حتى أطلق على جواريه أسماء مثل : علم ، قلم ، ودفع به هذا الشغف الى أن وجه عباس بن ناصح الى العراق في التماس الكتب القديمة ، فأتاه بالسند هند وغيره .

---

(1) ذكر البكري أنه في منطقة أودغست «أشجار الصمغ الذي يجلب الى الأندلس يصمغ بها الديباج» أنظر : **المغرب** ، ص : 157 .

(2) ذكر ابن الأثير أنه في سنة 207هـ «كانت بالأندلس مجاعة شديدة ، وذهب فيها خلق كثير وبلغ المد في بعض البلاد ثلاثين دينارا» **الكامل** ، ج 5 ، ص : 205 . ابن عذارى : **البيان** ، ج 2 ، ص : 81 . ووقع كذلك سنة 232 هـ ، 253 هـ ، 260 هـ ، 266 هـ ، 285 هـ . أنظر : ابن عذارى : نفس المصدر ، ج 2 ، ص : 89 ، 102 ، 116 ـ 117 ـ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص : 106

(3) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 59 .

في نفس الوقت ، برزت من الشعب طبقة من العلماء ، اهتمت بالعلوم الدينية واللغوية ، وكان عليها أن تشد الرحال الى الشرق (1) ، وهكذا سارت جماعات العلماء الى الشرق الاسلامي ، فحملوا علوم اللغة مثل كتاب العين للخليل ابن أحمد وكتاب الكسائي في النحووكتب التاريخ والدواوين الشعرية ، وعادوا الى الأندلس ، ليضيفوا علومهم الى تلك زرعها التي أوائل المسلمين .

سبقت الاشارة الى أهمية موقع تاهرت على الطريق من الأندلس والمغرب الأقصى الى الشرق ، وقد أكد صاحب كتاب بغية الملتمس مرور العلماء على تاهرت في طريقهم الى ومن الأندلس ، فذكر أن ابن هرمة سمع بيتا من الشعر لأبي المخشي من جملة ما أنشد له ، فرده هذا البيت «عن الأندلس وقد وصل الى تيهرت» (2) ويضيف الزبيدي أن محمد بن عبد الله الغازي «خرج عن الأندلس يريد الحج فتوفي بطنجة» كما ذكر القاضي عياض أن الغازي بن قيس» رحل ولقي الرياشي ومات بطنجة في انصرافه» وذكر الخشني أن أبا العباس أحمد بن عيسى ابن محمد المقرى حدث أحمد بن فرج بن منتيل - من أهل الأندلس - بمدينة تنس ، كما ذكر ابن الفرضي أن سعيد بن حسان بن العلاء - من أهل قرطبة - سمع بتنس من أبي عمروعثمان بن محمد السمرقندي وأبي حفص بن الحداد ، وأضاف أن زكريا بن بكر بن أحمد الغساني الذي يعرف بابن الاشج - تاهرتي - سمع بتنس من أبي الخصيب (3) . ومن المحتمل أن هؤلاء العلماء مروا بتاهرت ، سواء أكان ظهورهم بتنس مرورا الى الشرق أو للتجارة ، ولما كانت تاهرت تتمتع بحركة علمية مزدهرة ، كان من المرجح أن هؤلاء العلماء قد أثروا وتأثروا بعلماء تاهرت ممن سبق ذكره وغيرهم .

كان من العلماء الأندلسيين الراحلين ، الغازي بن قيس - السابق الذكر - فقد ذكر ابن القوطية أنه «في أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازي بن

(1) هاشم ياغي : **ملامح** ، ص : 31 - 44 ، محسن جمال : **أوائل الأندلسيين** ، ص : 167 .

(2) الضبي : **بغية الملتمس** ، ص : 513 .

(3) حول هؤلاء العلماء أنظر : الزبيدي : **طبقات** ، ص : 289 . عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 347 . الخشني : **تاريخ قضاة قرطبة** ، ص : 19 .

قيس الأندلسي بالموطأ من مالك بن أنس» ، ومنهم زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، قال عنه الضبي أنه «أول من أدخل الاندلس الموطأ وقراءة نافع» ، ومنهم عباس بن ناصح ـ السابق الذكر ـ الذي عاد الى الأندلس بشعر أبي نواس ، ومنهم محمد بن عبد الله المطماطي البزاز ، ومحمد بن بشير ، ومحمد ابن ابراهيم بن حيون الحجاري (ت سنة 305 هـ / 917 م) ، ويوسف بن يحيى أبو عمر من طليطلة ، رحل الى المشرق فسمع بمصر ، وكانت له رحلة الى مكة واليمن ، هذا بالاضافة الى مشاهير الرواة عن مالك وغيرهم (1) ، ومن المرجح أن هؤلاء جالسوا علماء المالكية في تاهرت ، خاصة وأن هؤلاء كانوا بحاجة الى الاستزادة من علم مالك ، نظرا لمجادلاتهم مع الاباضية ـ كما سبق ـ كما أنه من المرجح أن يكون رافقهم في رحلتهم عدد من علماء تاهرت ، فقد سبق القول أن عبد العزيز بن الاوز ـ على سبيل المثال ـ كانت له رحلة الى الشرق .

عرفت الأندلس مذاهب الخوارج ، وقد كشف ابن القوطية وصاحب كتاب «أخبار مجموعة» عن وجودهم (2) ، وقد ظل مذهب الاباضية ـ الذي يهمنا أمره هنا ـ موجودا في الأندلس ، فقد ذكره محمد بن الحاج يوسف اطفيش أن الاباضية «في عرفهم أهل الأندلس من تلك العدوة» (3) ويظهر أن جزيرة اليابسة التي هي من الأندلس كانت كلها اباضية الى القرن السادس الهجري . وقد أشار حزم الى وجودهم في عهده ، فقد تحادث مع أبي محمد بويكنى البرزالي الاباضي ، وكان ناسكا عالما بأنساب الاباضية . وأضاف بعد ذكر فروع زانا ـ أب زناتة ـ أن «كل من ذكرنا معتزلة حاشى

(1) ارجع الى ابن القوطية : **تاريخ افتتاح الأندلس** ، ص : 65 . عياض : المصدر السابق ج 1 ص : 349 . محسن جمال : **أوائل الأندلسيين** ، ص : 171 . ابن الفرضي : **تاريخ العلماء** ، ج 2 ، ص : 5 .

(2) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص 71 ، وذكر أنه ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية فكتب عباس بن ناصح الى الحكم شعرا يغزي بهم ويخص على انكار ما أحدثوه ، فخرج الحكم حتى أتى الجزيرة «ونزل على بابها وحمل السيف على أكثر أهلها «أنظر : ص : 71 ـ 72 . وأنظر : مؤلف مجهول : **أخبار مجموعة**، ص : 31 ـ 33 .

(3) محمد بن الحاج يوسف اطفيش : **الرد على العقبي** ، ص : 8 . ابراهيم محمد عبد الباقي : **الدين** ، ص : 262 .

بني برزال وبني واسين فهم أباضية » (1) ، ولئن قاوم الأمويون وعلماء المالكية مذاهب الخوارج باعتبارها بدعا (2) ، فان موقفهم من المذهب الاباضي كانت اليه نظرة أخرى ، بسبب اعتدال الاباضية واقتراب مذهبهم من المذهب المالكي ـ سبق ـ وقد ذكر محمود مكي نقلا عن الرازي أن جابر بن غيث اللبلي ـ أحد المعلمين بقرطبة ـ كان يعلم أبناء الوزير هاشم ابن عبد العزيز ، وكان كثير التشدد في الدين حتى أنه كان في صرامته يقارب الاباضية (3) .

ان وجود الاباضيين في الأندلس يعني أن الفكر الاباضي قد أخذ طريقه الى الأندلس مع أفكار غيره من المذاهب ، سواء بطريق العلماء أو العامة ، ولما كانت تاهرت تعتبر قاعدة المذهب الاباضي في المغرب الاسلامي ، فهذا يفصح ـ بطبيعة الحال ـ عن وجود علاقة بين اباضية تاهرت واباضية الأندلس ، ومن المحتمل أن هؤلاء ـ الأندلسيين ـ قد ظلوا على اتصال بعاصمة مذهبهم يستشيرونها فيما يجد لهم من قضايا ، ويستمدونها ما جد من مؤلفات ، فنقلوا ما وضع اباضية تاهرت للرد على المخالفين وغير ذلك ، وليس شرطا أن يكون لأئمة تاهرت ضلع في هذا التبادل الفكري ، فقد يكون ذلك بجهود فردية وعمل منظم من قبل بعض العلماء .

من المرجح أنه كان من بين العلماء الراحلين الى الأندلس من يحمل مذهب أبي حنيفة فقد ذكر عياض أنه دخل الأندلس بواسطة قوم من الرحالين والغرباء شيء من مذهب أبي حنيفة وغيره (4) . وأكد المقدسي ذلك ، فذكر مناظرة بين الأحناف والمالكية أمام أمير قرطبة (5) ، ويفهم من وجود أتباع

---

(1) ابن حزم : **جمهرة أنساب العرب** ، ص : 463 .

(2) حول البدع أنظر : محمد بن وضاح : البدع والنهي عنها

Med Talbi, *Les Bidaa*, Studia Islamica, 1960, pp. 43-77.

(3) لم يذكر أحد المؤرخين أن الأندلسيين عذبوا **اباضيا** ، بل أن وجود الرستميين في البلاط **القرطبي** لدليل على الانسجام بينهم .

(4) عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 55 . السلاوي : **الاستقصا** : ج 1 ، ص : 124 .

(5) ذكر المقدسي : «تناظر الفريقان بين يدى السلطان ، فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، فقال : مالك ؟ قالوا : من المدينة ، قال : عالم دار الهجرة يكفينا ، فأمر بإخراج اصحاب أبي حنيفة »أنظر : **أحسن التقاسيم** ، ص : 272 .

المذهب الحنفي في الأندلس ، أن الراحلين من علمائه ـ شأنهم شأن علماء الاباضية ـ قد التقوا بعلماء المذهب في تاهرت وغيرهم فتجادلوا في أمور مذهبهم ، فأخذوا وقدموا .

اضافة الى ما تقدم ، فقد عرفت الأندلس الاعتزال ، الا أن نجاح المذهب المالكي والتيار المحافظ بصفة عامة قد حد من انتشاره ، فقد ذكر المقدسي أن أهل الأندلس «ان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه» (1) ـ كما كانت سياسة أمراء قرطبة تقوم على «مجانبة الأهواء المضلة والبدع المردية» (2) ، ومما أضعف انتشار الاعتزال فيها ، سيطرة علماء المالكية على زمام الأمور في قرطبة ، فكان يحيى بن يحيى يحتل مكانة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فلا يلي القضاء أحد الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، وتعود هذه المكانة لعلماء المالكية الى تأثيرهم الواسع في طبقة العامة ، وشعور الأمراء بحاجتهم اليهم ، حتى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن قال لابراهيم ابن محمد بن بازحين رفض ولاية قضاء الجماعة «اذا لم تقبل القضاء فكن أحد الداخلين علينا الذين نشاورهم في أمورهم» (3) .

كان لهذا الموقف ولهذا الوضع تأثير على علاقة علماء المعتزلة في الاندلس بتاهرت ، فان استمرار وجودهم هناك ـ رغم الموقف المعارض ـ الى فترة متأخرة ، يعني أن انتقال الاعتزال الى الأندلس كان بالدرجة الأولى من تاهرت ، وأن هؤلاء الداخلين به ظلوا على صلة بمجمع الواصلية في تاهرت ، فكانت هذه قاعدة لهم ، فقد ذكر ابن الفرضي أن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن أبي بردة

---

(1) نفس المكان.

(2) النباهي : **المراقبة العليا** ، ص : 55 . عن موقف المالكية من الاعتزال في الأندلس ، ذكر ابن وضاح قول يحيى بن عبيد «لقيني رجل من المعتزلة فقمت فقام ، قلت اما أن تمضي وأما أن أمضي فإني ان أمشي مع نصراني أحب الي من أن أمشي معك» ، أنظر : **البدع والنهي عنها** ، ص : 52 .

(3) الخشني : **تاريخ قضاة قرطبة** ، ص : 14 «كان الأمير لا يستقضي قاضياً ولا يعقد عقدا ولا يمضي في الديانة امرا الا عن رأيه وبعد مشورته ويحيى بن يحيى في طيء ذلك يعترف للأمير عبد الرحمن بجميل ذلك فلا يأتلي في ذكر احماد سيرته ووصف معدلته وتزيين آثاره لدى رعيته وتحضيضهم على طاعته واستنهاضهم لتكاليفه ... ويرى السلطان منفعته فيزداد في اعظام قدر الشيوخ» انظر : ابن حيان : المصدر السابق ، ص : 180 .

الشافعي البغدادي ـ السابق الذكر ـ «كان ينسب الى الاعتزال ورفع ذلك الى السلطان فأمر باخراجه من البلد وذلك سنة 373 هـ / 983 م فصار بتيهرت عند بنت له» (1) وهذه العبارة وان كانت تتعلق بفترة متأخرة نسبيا ، الا أن هذا لا يمنع أن يكون وقع مثل هذا من قبل ، وأغفل المؤرخون ذكره ، وهكذا يصبح من المحتمل أن كتب الواصلية في تاهرت ومناظراتهم مع الاباضية قد انتقلت الى قرطبة بطريق العلماء أو بأخرى (2) . فقد كان يحيى بن يحيى المعروف بأبن السمينة ـ من أهل قرطبة ـ «معتزلي المذهب ، ورحل الى المشرق ثم انصرف وتوفي سنة خمسة عشر وثلثمائة» (3) واذا كان هذا تاريخ وفاته ، فيحتمل أن تكون رحلته الى الشرق قبل سقوط تاهرت ، وبالتالي يمكن احتمال أن ابن السمينة قد حمل الى تاهرت ، وحمل منها الى الأندلس مؤلفات المعتزلة .

لم يقتصر التبادل الثقافي على ما مضى ، بل ساهم الى جانبهم علماء مذاهب أخرى كالأوزاعي والشافعي والظاهري (4) ، فإن ظهور هذه المذاهب في الأندلس ، مع ذاك الاتصال المستمر بين العاصمتين يعني أن علماء هذه المذاهب قد أثروا وتأثروا بتاهرت ، وليس هناك ما يحول ـ في تاهرت ـ دون نشرهم كتبهم وعقد جلسات مناظرة مع علمائها ، سواء مع ابناء مذهبهم أو مع المخالفين .

يبدو أن هناك سلسلة من العلماء كانت تنتقل بين تاهرت والأندلس ، للعلم أو التجارة منها زكريا بن بكر بن أحمد الغساني ـ ابن الاشج السابق الذكر ـ من أهل تيهرت ، دخل الأندلس مع أبيه وأخيه سنة 326 هـ / 937 م وسمع بتنس من أبي الخصيب ، وكان الغالب عليه التجارة ، وانصرف الى الأندلس

(1) ابن الفرضي : **تاريخ العلماء والرواة** ، ج2 ، ص : 116 .

(2) ساهم التجار بعملية التبادل الثقافي ، فقد حملوا الكتب مع سلعهم ، وعلى سبيل المثال ، فقد ذكر الزبيدي أنه «جلب بعض التجار كتاب المثال من العروض للخليل فصار الى الأمير عبد الرحمن» **طبقات النحويين واللغويين** ، ص : 291 .

(3) ابن ابي اصيبعة : **عيون الأنباء** ، ص : 482 .

(4) كان من الشافعيين في الأندلس بقي بن مخلد ، والقاسم بن محمد بن قاسم بن محمد سيار ، أنظر : السبكي : **طبقات الشافعية** ، ج 2 ، ص : 80 ـ 81 ـ 344 ، ولم يشر أحد من المؤرخين الى دخول المذهب الشافعي تاهرت ، الا أن الضبي ذكر أن أبا الفضل أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن التاهرتي روي عن أحمد بن محمد بن قاسم وكان هذا «يميل الى مذهب أبي عبد الله الشافعي» فهل كان ابو الفضل شافعيا ؟ أنظر : الضبي : **بغية الملتمس** ، ص : 142 .

واذا كان زكريا يمثل العلاقة في فترة متأخرة قليلا ، فهو قد ورث ذلك عن والده الذي يحتمل أنه كان كثير التنقل بين البلدين ، واضافة الى ذلك فقد دخل العالم أبو جعفر بكر بن أحمد الغساني ـ والد ابن الاشج ـ الاندلس ، ويذكر يوسف اطفيش أن الشيخ هود الهواري تلقى علومه في الأندلس ، فان كان هذا هو هود بن محكم الهواري ، فيكون بذلك قد نقل تفسيره القرآن الى الأندلس .

ذكر ابن الصغير أن أحمد بن بشير حدثه عن أبي اليقظان وعن اجتماع المعتزلة بالاباضية في تيهرت ، ونقل له قول أبي سابق ـ خادم أبي اليقظان ـ عن خروج الامام الى تسلونت (1) ، هذا يعني أن أحمد بن بشير ظهر في تيهرت في عهد أبي اليقظان ، واتصل بعلمائها كابن الصغير ، ثم يذكر الخشني أنه كان يجاور جده شيخان «كان أحدهما جد أحمد بن بشير المعروف بابن الاغبس (2). هذا يعني أن أحمد بن بشير من أهل قرطبة وأنه يعاصر الخشني ، الذي يعاصر بدوره ابن الصغيز ، وبذلك يمكن القول أن أحمد بن بشير قد تنقل بين تاهرت وقرطبة . واذا كان هو ابن الاغبس أحمد بن بشير ، فقد كان متقدما في معرفة لسان العرب والبصر بلغاتها ويذهب في فتياه الى مذهب الشافعي (3) توفي سنة 327 هـ / 938 م وكان ممن ساهم في عملية التبادل الثقافي بين البلدين .

لم يكن أحمد بن بشير هو الوحيد في هذا المجال ، فقد كان من بين هؤلاء أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز ـ السابق الذكر ـ وذكر ابن بشكوال قوله «دخلت الأندلس سنة سبع عشرة وثلاث مائة وأنا ابن ثمانية أعوام» (4) هذا يكشف عن تاريخ دخول والده الى الأندلس ، وكان محدثا ، ومن جلساء بكر بن حماد ، ومن المحتمل أن هذه لم تكن أول رحلة له الى الأندلس ، وحتى لو كان الأمر كذلك ، فان رحلته هذه تكشف عن

---

(1) ابن الصغير : **السير** ، ص : 44 ، 45 ، 48 .

(2) الخشني : **تاريخ قضاة قرطبة** ، ص : 59 ـ 60 .

(3) ذكر الزبيدي أحمد بن بشر بن الأغبس : أنظر : **طبقات** ، ص : 306 . البرادي : **الجواهر** ، ص : 180 .

(4) ابن بشكوال : **الصلة** ، ج 1 ، ص : 86 .

سلسلة من العلماء ، سارت على الدرب قبله الى الأندلس ، بل ورافقته جماعة منهم ، ويبدو أنه أورث ابنه ثروة علمية ، فقدقرأ بعض العلماء على ابنه أبي الفضل في الاندلس ، «كتاب القناعة» لأبي بكر بن الدنيا ، وكتاب صريح السنة للطبري ، وكتاب فضائل الجهاد ، واذا كان المؤرخون لم يذكروا من تلقى العلم عن والده من الأندلسيين ، فقد ذكروا ممن نقلوا عنه موسى بن عيسى بن أبي جاج ، وأحمد بن محمد بن عيسى البلوى المعروف بابن الميراثي ، وأبا محمد بن عبد البر.

ذكر ابن الفرضي أن قاسم بن اصبغ الى المشرق مع محمد بن عبد الملك ابن أيمن ومحمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى سنة 274هـ / 887م ، وأضاف أنه «سمع بالقيروان من احمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي» كما ذكر - ابن الفرضي - أن محمد بن عبد الملك بن ايمن «شارك قاسم بن أصبغ في رجاله كلهم» (1) هذا يعني أن الزملاء الثلاثة - على الأقل - قد أخذوا العلم عن بكر بن حماد التاهرتي مباشرة ، وهذا يجعل من المحتمل أن يكون عبد الملك بن أيمن (ت سنة 287 هـ / 900 م) وغيره ممن رحل الى القيروان والتقى بسحنون. قد التقوا بابن حماد ، وقد كان مما نقله قاسم بن اصبغ عن بكر مسند مسدد بن مسرهد في عشرة أجزاء (2) ، وقد ذكر المقرئ مجادلة بين بكر وقاسم بن اصبغ ، دارت حول عبارة (مجتابي الثمار) وهي قول قاسم في حين كان ابن حماد يراها «مجتابي النّمار» الا أن قاسم أصر على قوله ، ثم قاما الى شيخ في المسجد وسألاه ، فأجابهما بقول قاسم «فقال بكر بن حماد وأخذ أنفه : رغم أنفي للحق» (3).

على كل ، فان طلاب العلم الأندلسيين في القيروان ، قد أتيحت لهم فرصة سماع دروس بكر بن حماد ، وربما أن لقاء عزيز بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي به كان في القيروان (4) ، وربما في غيرها ، وقد ذكر سليمان الباروني

(1) ابن الفرضي ؛ **تاريخ العلماء والرواة** ، ج 1 ، ص : 407 ، ج 2 ، ص : 52 .
(2) الحميدي : **جذوة** ، ص : 330 رقم 769 . الضبي : **بغية الملتمس** ، ص : 433 - 434 .
(3) أنظر تفصيل المجادلة : المقري : **نفح** ، ج 2 ، ص : 255 .
(4) ابن الفرضي : **تاريخ العلماء والرواة** ، ج 1 ، ص : 385 .

أن بكر بن حماد مدح أبا العيش عيسى بن ادريس ـ حاكم مدينة جراوة ـ وأحمد بن القاسم بن ادريس ـ حاكم مدينة كرت ـ بالمغرب الأقصى . في نفس الوقت ، ذكر الخشني أن محمد بن عبد الملك بن أيمن قال : أخبرني بكر بن حماد القسام بأنه خرج مع سليمان بن اسود الى الجامع في آخر جمعة عاشها في قرطبة ، وذلك في عهد الأمير عبد الله (1) ، فاذا كان بكر هذا هو الشاعر التاهرتي ، فهذا يعني أن بكر بن حماد ، قد واصل طريقه من المغرب الاقصى الى قرطبة ، ولا شك أنه أثر وتأثر ، أثناء اقامته هناك ، ومهما كان من أمر ابن حماد ، فيبدو أن شهرته قد وصلت الأندلس بطرق ما وعمت هناك ، فقد ذكر ابن الفرضي عن أحمد بن الفتح الميلي أنه «عظيم القدر جليلا وكان نظير بكر بن حماد في الرواية والشعر وحفظ الأخبار» (2) ، وتكشف هذه العبارة عن أن ابن حماد كان يلقي دروسا في علوم الدين واللغة والتاريخ وغير ذلك ، وأن هذه الشهرة ، ربما كانت بمعرفة الأندلسيين له في قرطبة .

كما انتقلت علوم بكر بن حماد الى الأندلس مباشرة ، فقد انتقلت بطريق غير مباشر ، فان أبا بكر بن اللباد ـ وكان جليسا لبكر بن حماد ـ ، قد ألقى دروسا على عدد من طلاب العلم كان منهم الأندلسيين ، مثل محمد بن عبد الله بن أبي عيسى (3) ، وقد كان عدد من هؤلاء الطلاب ، قدموا الى القيروان لتلقي العلم عن سحنون ، فذكر المالكي أن سليمان بن سالم رأى «يوم مات سحنون مشايخ من أهل الأندلس يبكون ويضربون خدودهم كالنساء» (4) ، ولما كان ابن حماد من جلساء سحنون في القيروان ، يصبح من المحتمل أن يكون هؤلاء العلماء قد أخذوا العلم عنه ، ونقلوا كتبه .

---

(1) الخشني : **تاريخ قضاة قرطبة** ، ص : 152 .

(2) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 75 .

(3) الخشني : المصدر السابق ، ص : 204 ، وعن مجالسة ابن اللباد لابن حماد ، أنظر : أبو العرب ، **طبقات** ، ص : 175 .

(4) المالكي : **رياض النفوس** ، ص : 288 . وأضاف «أتى قوم من الأندلسيين قد كتبوا المدونة وأرادوا أن يسمعوها من سحنون «أنظر : ص : 267 . وذكر الضبي بعض من رحلوا الى القيروان وأخذوا عن سحنون . أنظر : **بغية الملتمس** ، ص : 212 ، 287 ، 450 ، 465 .

لم يقتصر تأثير هؤلاء العلماء على الناحية المذهبية ، بل تعداه الى مختلف نواحي الحياة العلمية والفنية ، فقد نقل بقي بن مخلد من الشرق ، كتاب التاريخ لخليفة بن خياط ، وكتابه الطبقات وحمل معه كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي ، ونقل آخرون علوم اللغة ، كأبي عثمان سعيد بن الفرج المعروف بالرشاش ، والذي قال عنه ابن سعيد أنه «آدب الناس في زمانه وأقومهم على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر (1) ، وكان قد رحل الى المشرق ، ومنهم أبو عبد الملك عثمان بن المثني القيسي القرطبي ، وأبو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي ، وكان عالما باللسان مبرزا في الشعر أديبا بليغا ، ومنهم جابر بن مغيث ، وكان عالما بالعربية والشعر وضروب الآداب ومشهورا بالفضل ، استجلبه قاسم ابن عبد العزيز لتأديب ولده ، وتوفي سنة 299 هـ / 901 م ، وغير هؤلاء كثير (2) ، ومن الطبيعي أن تاهرت قد استفادت مما حمله هؤلاء العلماء أثناء مرورهم ـ وربما اقامتهم ـ بها ، كما لا يخلو الأمر أن هؤلاء استفادوا من مؤلفات علماء تاهرت ، كأبي عبيدة الأعرج ، الذي كان عالما بالفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة ـ كما سبق ـ والذي كان يقرىء كتاب اصلاح الغلط لعبد الله بن مسلم ابن قتيبة .

هكذا يمكن القول أن تاهرت قد اتجهت بعلاقاتها الثقافية نحو الأندلس أيضا ، مما يعزز وجود تبادل ثقافي بين البلدين ، سمح لكثير من رجال الأندلس أن يدرسوا بها علوم الدين والآداب والفلك وغيرها (3) .

تم التبادل الثقافي بين تاهرت وقرطبة بطريق شعبي ، وأعني به جماعة الراحلين من الأندلسيين والتاهرتيين بين البلدين ، لقد وجدت جالية أندلسية كبيرة في القيروان (4) ، ومن المحتمل أن عددهم ازداد في القيروان ، اثر وقعة الربض ، كما وجد الأندلسيون في مدينة فاس ، فقد وصل اليها عدد كبير من مهاجرى الربض . وذكر البكري أن مدرارا ـ جد أمراء سجلماسة «كان

---

(1) ابن سعيد : **المغرب** ص : 114 .

(2) عن علماء اللغة والنحو ، أنظر : الزبيدي : **طبقات** ، ض : 275 ـ 340 .

(3) محمد بن تاويت : **بزوغ الثقافة** ، ص : 190.

(4) طالبي محمد : «**العلاقات بين افريقية والأندلس**» ، ص : 37 .

حدادا من ربضية الأندلس ، فخرج عند وقعة الربض ، فنزل منزلا بقرب سجلماسة ـ كما سبق ـ وقياسا على ما تقدم ، يصبح من المرجح أن الأندلسيين شكلوا جالية كبيرة في تاهرت ، وما دام الأمر كذلك ، فقد نقل هؤلاء بعض ثقافة الأندلس حتى غدت تاهرت ذات طابع أندلسي واضح ، فقد أثار انتباه البكري ، أن مدهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة ونصف قرطبية .

في نفس الوقت عرف بربر زناتة المغرب الأوسط الأندلس ، منذ بداية الفتح (1) ، فقد ذكر الاصطخرى أربعة قبائل زناتية من القبائل الداخلة ، هي نفزة ومكناسة وهوارة ومديونة (2) ، ومن المرجح أن عددا من أبناء تاهرت ، قد رحلوا الى الأندلس ، سواء بسبب طيب العلاقة السياسية والاقتصادية بين البلدين أو تحت ضغط ظروف معيشية سيئة . وهذا يجعل من المحتمل أن كهلان ابن أبي لوابن يصلاصن ـ من قبيلة مطماطة ـ الذي نزل على الناصر ، لم يكن أول مطماطي يدخل الأندلس ، خاصة وأن « الدولة الأموية الأندلسية كانت منذ قيامها أميل الى البربر الزناتية (3) ، من غيرهم ، كما أنه لا معنى لوجود محمد ابن سعيد الرستمي ـ السابق الذكر ـ في أرض الجزيرة بالأندلس مع والده ، الا أن يكون هذا الوجود مرتبطا بمصلحة اقتصادية ، دفعت بوالده سعيد وآخرين من التاهرتيين للاقامة في نواحي الأندلس . بل أن وجود الرستميين في بلاط الأمير القرطبي ، هو جزء من الوجود التاهرتي في الأندلس ، وعلى كل ، فان هؤلاء التاهرتيين قد كانوا عامل مزج للثقافتين .

---

(1) ذكر ابن عذارى أنه كان ممن دخل الأندلس مع طارق بن زياد «الذين أخذهم حسان من المغرب الأوسط» أنظر : **البيان** ، ج 1 ، ص : 43 . وقد حصل هؤلاء على غنائم وفيرة مما دفع بالكثير الى اللحاق بهم.

(2) الاصطخرى : **المسالك والممالك** ، ص : 36 . وحول قبائل البربر بالأندلس . أنظر : ابن حزم . جمرة ، ص : 463 . سليمان بن داود : « **دور الجزائريين في نشر الحضارة الإسلامية بالأندلس** ، ص : 75

(3) ابن دراج القسطلي : **ديوان ابن دراج القسطلي** ، ص : 23 . وذكر ابن تاويت أنه «كانت لزناتة ولاية لبني أمية وتشيع لهم منذ أن ولى عثمان جدهم صولات بن وزمار المغراوي على قومه فكانت زناتة من أخلص الناس الى بني أمية » أنظر : « **بين أموبي الأندلس والأذارسة** » تطوان 1963 .

العوامل المؤثرة :

لقد خضعت هذه العلاقة لعوامل أملتها ظروف معينة ، فقد سبقت الاشارة الى المحاولات العباسية للقضاء على دولة الأمويين بالأندلس ، والى محاولات ابراهيم بن الأغلب للقضاء على دولة الأدارسة ، ومن الطبيعي أن تثير هذه المحاولات مخاوف قرطبة ، فلجأ أمراؤها الى تكوين حلف من الامارات الخارجة على العباسيين (1) ، لتكون سدا أمام الأغالبة ، ونقطة تهديد لهم ، من أجل هذا قام الحكم بن هشام بارسال وفد الى ادريس الثاني لتهنئته باعتلائه العرش « ويفاتحه في أن يكونا يدا واحدة على خصومهم الأغالبة » (2) الا أن الربضيين الراحلين الى فاس قد أثروا على هذا الاتصال ، ففشل ، فكان على الأمويين والحالة هذه ، أن يعملوا على توطيد علاقتهم بالامارات الأخرى مثل تاهرت وسجلماسة ونكور.

لم تستمر مخاوف قرطبة من بغداد والقيروان ، لأن هاتين العاصمتين اقتنعتا بعدم جدوى محاولاتهما ، ضد الأدارسة وأموبي الأندلس ، وكان هذا يعني تجمد وتقلص علاقة قرطبة بتاهرت ، لكن أمر الوضع الداخلي للأندلس ، قد حافظ وفرض استمرار طيب العلاقة بينهما ، وهذا كله يعني أن هناك عاملا سياسيا وراء هذه الصداقة.

تقدمت الاشارة الى تدهور الوضع الاقتصادي الأندلسي ، بصفة عامة ، وهذا يعني أن الأمويين كانوا بحاجة الى مورد يستمدون منه حاجاتهم الاقتصادية وقد كان هذا المورد في المغرب الاسلامي ممثلا بتاهرت بالدرجة الأولى ، لاشتهارها بالتجارة والانتاج الفائض ، بمعنى أن تاهرت نفسها كانت بحاجة الى أسواق ، فالتقت مصلحة تاهرت الاقتصادية بمصلحة قرطبة مما عمل على توثيق العلاقة بينهما.

هكذا قامت علاقة مختلفة طيبة في وقت كان المتوقع أن تكون القطيعة هي طابع العلاقة بينهما ، بسبب ما عرف من نزاع بين الاباضية ، وأموبي

---

(1) محمد طالبي : **العلاقات** ، ص : 33.

(2) ابن تاويت : **دولة الرستميين** ، ص : 120.

الشرق ، وقد قامت هذه العلاقة بالرغم من الاختلاف المذهبي (1) ، الا أنه مما تجدر ملاحظة أن أمراء قرطبة لم يكونوا متعصبين لمذهب معين ـ على ما يبدو ـ لقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل عنيفا مع خصومه ، لكنه كان حليما مع الفقهاء ، فحدث أن رضخ لتحدي القاضي عبد الرحمن بن طريف (2) ، ويقول الأمير هشام لمصعب ابن عمران : « لووضعت المنشار على رأسي لم اعترضك » ومع أن هشام أمر باتباع مذهب مالك ، الا أن مصعب هذا ـ وكان راوية عن الاوزاعي ـ لا يتقلد مذهبا ويقضي بما يراه صوابا ، وقد أقره الحكم بعد أبيه ، ومع تقريب هشام للفقهاء ، الا أنه لم يقلد أحدا من كبار المالكية منصبا كبيرا . ويبدو أن الاحترام يعود الى شعور الأمراء بحاجتهم الى تأييد الفقهاء ليكتسبوا سندا شرعيا ، وتتضح تلك الحاجة في قول الأمير محمد لابراهيم بن محمد بن باز ، اذا لم تقبل القضاء فكن أحد الداخلين علينا الذين نشاورهم في أمورنا ـ كما سبق ـ كما كان الامير عبد الرحمن ابن الحكم منصاعا للقضاة ، ويبدو أن توقير أمراء قرطبة لقضاتها ، كان خدمة لحكمهم وتدعيما له ، وليس خضوع ضعف ، فان الامير الحكم ، حين كان الأمر يمس حكمه ، لم يتردد في تقتيل وتشريد الفقهاء في وقعة الربض ، وهذا ينفي تعصب الحكم للمذهب المالكي ، ويتضح هذا ـ التسامح المذهبي ـ في موقف الأمير محمد من بقي بن خلد ـ وكان بقي شافعيا (3) ـ بقوله له « أنشر علمك وأروما عندك من الحديث » (4) ، وان موقف أمراء قرطبة هذا من الناحية المذهبية ، ومكانة الفقهاء في ظل هؤلاء الأمراء ، قد سمح بقيام علاقات مختلفة بين العاصمتين من جهة ، وأثر على المذهب الاباضي في الاندلس ، فحال دون بلوغ رجاله مناصب عالية كخطة

(1) كانت الأندلس على رأي أهل السنة منذ الفتح الى أن انتشر بها مذهب الاوزاعي ، الى عهد الأمير هشام حيث أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للبلاد .
(2) حسين مؤنس : **شيوخ العصر** ، ص : 17 ـ 18 .
(3) السبكي : **طبقات الشافعية** ، ج 2 ، ص : 344 .
(4) الحميدى : **جذوة** ، ص : 11.

القضاء من جهة ثانية ، كما حد من نشاط علمائه في نشره (1) ، وقد ساعد ذاك الموقف ، أن الرستميين أنفسهم لم يشتغلوا بنشر المذهب ـ كما مر ـ وهذا كله يعني أن الاختلاف المذهبي لم يترك أثرا على سير العلاقة بينهما .

تجدر الاشارة الى العامل الجغرافي ، فان الأندلس أشبه ما تكون بجزيرة يحدها البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، من ثلاث جهات ، وفي الشمال نصارى ، أعداء للمسلمين ، وبذلك كان منفذها الوحيد يطل على المغرب الاسلامي وقد كان هذا الوضع ملفتا للنظر حتى عده القزويني أحد عجائب الدنيا (2) ، وقد كانت تاهرت على طريق الأندلس الى الشرق ، كما كانت الدولة الرستمية تهيمن على مساحات شاسعة من بلاد المغرب الاسلامي ـ كما مر ـ فهي عمليا تسيطر على طريق شرق ـ غرب ، وعلى مداخل ممرات الصحراء الى السودان (3) ، وقد فرض هذا الموقع الهام لتاهرت ازدياد العلاقة متانة .

مما تقدم يتضح أن المصلحة المتبادلة السياسية والاقتصادية قد طغت على الخلاف السياسي والمذهبي بين الاباضيين وأمويي الأندلس ، فارتبطت العاصمتان بعلاقات متينة من الود وحسن الجوار .

* * *

(1) جاء في كتاب سحنون الى محمد بن زياد ـ قاضي قرطبة ـ يأمره بالشدة والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدي أو يموت «عياض : **تراجم** ، ص : 111 .

(2) القزويني : **آثار البلاد وأخبار البلاد** ، ص : 503 .

(3) Maurice Lombard, *L'or musulmane du VII^e-XI^e siècle, A.E.S.C.*, 1942, avril-juin, n° 2, p. 150.

144هـ / 761م ـ 296هـ / 909م

أ ـ الأدارسة :

1 ـ تاهرت وفاس في الميدان السياسي :

يمكن القول أن علاقة الرستميين بالأدارسة ابتدأت بدخول ادريس بن عبد الله أرض المغرب ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه سار من مكة الى افريقية ، ومنها الى تلمسان ، ثم ارتحل الى المغرب الأقصى (1) ، وقد سبقت الاشارة الى أن تاهرت تقع على الطريق الرابط بين افريقية وفاس ، وهذا يعني أنَ ادريس قد مر بتاهرت ، ويؤكد ابن تاويت هذا بقوله « وكان أصحاب تاهرت قد سبقت **لهم معرفة به حيث أنه نزل بين ظهرانيهم سنة 169هـ / 785م** (2) « ومع هذا فان الاباضيين في تاهرت لم يتعرضوا بسوء ، بل على العكس من ذلك يذكر الطبري أن ادريس لحق » بتاهرت من بلاد المغرب فلجأ اليهم فأعظموه » (3) رغم نسبه العلوي ، ربما كان ذلك لأن مروره صادف انتشار الفوضى في تاهرت ، ولأنه ثائر على الخلافة ، والمهم في الأمر ، أنه اجتاز بسلام ، فحفظ لهم ذلك وانعكس على موقفه منهم .

---

(1) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 6 . محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار** العاطرة الأنفاس ، ص : 34 ، بينما يرى محمد بن علي السنوسي الإدريسي أن ادريس سار الى بلاد النوبة ، ثم السودان ومنها الى تلمسان ، أنظر : **الدرر السنية** ، ص : 45.

(2) ابن تاويت : **دولة** الرستميين ، ص : 117

(3) الطبري : **تاريخ** ، ج 6 ، ص : 417 حوادث سنة 169 . دبوز : **تاريخ المغرب** ، ج 3 ص : 106 .

يبدو أن ادريس كان على علم مسبق بأحوال المغرب الاسلامي ، ربما كان ذلك بواسطة دعاة سبقوه الى المغرب منذ ثورة النفس الزكية سنة 145 هـ / 762 م (1) ، التي من المرجح أن يكون فر على اثرها بعض العلويين الى أطراف الدولة الاسلامية ، بما في ذلك المغرب الاسلامي ، وبذلك فمن المحتمل أن تاهرت استقبلت الزيديين والدعوة الزيدية ، فمال اليهم بعض سكانها ، وتدل السرعة والسهولة التي نجح بهما ادريس في تأسيس دولته في المغرب الأقصى ، على أن الأمر كان ممهدا له من قبل ، الا أن سيطرة الخلافة على المغرب الأدنى ، والاباضية على معظم أجزاء المغرب الأوسط ، قد قلل من فرص نجاح الدعوة الزيدية فيهما ، فتوجهوا الى المغرب الأقصى .

كان مرور ادريس (2) في تاهرت فرصة ذات أهمية ، سمحت له أن يطلع على التجربة الرستمية في تأسيس دولة على أرض المغرب ، فقد لاحظ أنه في وحدانيته يشبه عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، ورأى تشابههما في الهدف ، فكلاهما كان يسعى لاقامة على أكتاف قبائل بربرية ثائرة على الخلافة ، فاستفاد ادريس من الأساليب السياسية التي اعتمدها الرستميون ولذا ، فكما ارتبط عبد الرحمن بن رستم برباط النسب بقبيلة يفرن ، فقد ربط ادريس نفسه بنفس الرباط بقبيلة أوربة ، فقد ذكر صاحب كتاب « الأزهار العاطرة الأنفاس » أن زوجة أدريس هي « بنت عبد المجيد الاوربي الصنهاجي أمير أوربه زوجه اياها بعد قدومه للمغرب ونزوله عنده » (3) ، واذا كان عبد الرحمن قد اعتمد على العصبية المذهبية ، فقد رأى أدريس أن يعتمد على عصبية قرابته للرسول (4) ، بل أضف الى ذلك أن نجاح عبد الرحمن قد فتح أبواب الأمل بنجاح ادريس ، ويبدو أنه حفظ هذا لتاهرت فانعكس ذلك على سياسته تجاهها .

---

(1) المصنف لشنوفي : تقديم الكتب «الخلافات في الإسلام» حولية الجامعة التونسية 1967 ، ع 4 ، ص : 201 .

(2) عن ادريس أنظر : كنون عبد الله : «**ادريس الأكبر وادريس الأصغر**» دعوة الحق ، عدد 4 ، 1969 ، ص : 41 – 47 .

(3) محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار العاطرة** ، ص : 116 .

(4) يبدو أن الأدارسة ركزوا على هذه الفكرة حتى كان يسلم عليهم «السلام عليك يا ابن رسول الله» ابن خرداذبة : **المسالك والممالك** ، ص : 89 .

نزل ادريس على اسحق الأوربي المعتزلي في وليلي ، فبايعته قبائل المغرب الأقصى مثل أوربة وزواغة وزوارة ولماية ولواته وسدراته وغياثه ونفزة ومكناسة وغمارة ، وحين توطد أمره ، خرج غازيا الى بلاد تامسنا وتادلا ومن كان على النصرانية واليهودية والمجوسية ، وحارب الصفرية ، فذكر حركات ابراهيم أن ادريس خرج «يحارب صفرية البربر ويقضي على دعوتهم» (1) ، واعتمادا على صاحب أخبار مجموعة فان الاباضية كان لهم وجود في المغرب الأقصى (2) ، ولم يذكر أحد أنه تعرض لهم بسوء ، الأمر الذي يكشف الى حد ما عن موقفه تجاه اباضية تاهرت .

كان الزيديون يعتبرون العباسيين مغتصبين للخلافة ، فثار محمد النفس الزكية ، الا أن العباسيين قضوا على ثورته ، ويبدو أن هزيمتهم ـ الزيديين ـ في معركة فخ ، قد عمقت الجراح ، وبذلك فان صدر ادريس كان يمتلىء حقدا على العباسيين بالدرجة الأولى ، ويرى فيهم عدوه الأول ، فآلام ضرباتهم لم تهدأ بعد ، ومن أجل ذلك توجه الى المغرب ، ليجعل منه قاعدة لمهاجمة الشرق (3) ، وهو يطمح الى تحقيق ما نجح الشيعة العبيديون في تحقيقه فيما بعد ـ الى درجة ما ـ ويبدو أن هذه الفكرة كانت تسيطر على ادريس ، فقد أكد ابن الخطيب أن الأدارسة «كانوا لا يريدون فصل المغرب عن بقية العالم الاسلامي ، بل كانوا يعملون على توحيد المغرب العربي والمشرق العربي تحت قيادتهم» (4) .

يستفاد مما تقدم أن أنظار الأدارسة كانت مشدودة نحو الشرق وبالتحديد نحو بغداد ، وبذلك لم تكن امارات المغرب تشغل بالهم الا بقدر ما يمكن أن تقدم لهم من مساعدات أو تقف حجر عثرة في طريقهم ، وكانت مصلحة الأدارسة ـ تقتضيهم أن يتحالفوا مع الخارجين على العباسيين أو مسالمتهم مرحليا

---

(1) حركات ابراهيم : **المغرب عبر العصور**، ص : 114 . محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار العاطرة** ، ص 55 .

(2) مؤلف مجهول : **أخبار مجموعة** ، ص : 28 .

(3) J.K. Cooley, *Baâl, christ and Mohammed*, p. 88.

(4) ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، ص : 17 . كانت هذه السياسة تعبر عن طموح الفارين من الخوارج وأموبي الأندلس

على الأقل (1) ، وهذا يعني أنه كان عليهم أن يتجنبوا اثارة اباضية تاهرت ، خاصة وأن المساس بهؤلاء يعني اثارة قبائل متعددة ، اباضية ، في المغرب الاسلامي ، هذا في وقت هم فيه ـ الأدارسة ـ أحوج الى هدوء مخالفيهم لئلا يشغلوهم عن هدفهم الرئيسي .

قبل أن يتم ادريس الأول اخضاع المغرب الأقصى بكامله (2) ، زحف الى تلمسان وبها من قبائل بني يفرن ومغراوة سنة 173 هـ /789 م ، ولقيه أميرها محمد بن خزر بن جزلان فأعطاه الطاعة وبذل له ادريس الأمان ولسائر زناتة ، ويدل استقبال يفرن ومغراوة لادريس ، وهما قبيلتان اباضيتان ، على طبيعة العلاقة بين الأدارسة والاباضية بصفة عامة (3) ، كما يدل احتلاله تلمسان على سياسته التوسعية ، ويدل بالنسبة لبغداد ، على خطر الأدارسة الذي بات يهدد القيروان .

يظهر أن ادريس الثاني اتبع سياسة والده التوسعية ، فبعد أن غزا واد نفيس وبلاد المصامدة ، خرج سنة 199 هـ /814 م الى تلمسان « برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على دين الخارجية من البربر فسار حتى غلب عليهم » (4) ووصلت جنوده الى شلف ، ومع ذلك ، فهو كسابقيه لم يتعرض للرستميين بما يعكر العلاقة بينهم .

قد تزداد العلاقة بين تاهرت وفاس وضوحا ، بالقاء نظرة على علاقة القيروان بفاس ، ذلك أنه حين علم هرون الرشيد بنجاح الأدارسة ، ولم يمكنه اللجوء الى العمل العسكري ، مال الى استعمال الحيل والخديعة ، وبها تمكن

---

(1) حاول عبد الله بن الحسن ـ والد ادريس ـ أن يتحالف مع أبي عبيدة ـ أمام الأباضية . أنظر : دبوز : **تاريخ المغرب** ، ج 3 ، ص : 168 .

(2) بقيت بعض الإمارات خارجة عن نفوذهم مثل برغواطة ونكور ، وبني عصام ، أنظر : حركات ابراهيم : **المغرب** ، ص : 119 .

(3) سليمان بن داود : مقابلة شخصية 1975/5/30 ، الجزائر.

(4) السلاوي : **الاستقصا** ، ج 2 ، ص : 154 ، أبو العباس الفاسي : **الدر النفيس** ، ص : 287 ، ذكر هويدي أن قبيلة نفزة صفرية أنظر : **تاريخ فلسفة الإسلام** ، ج 1 ، ص : 188 ، ذكر البكري عن داود بن القاسم أنه حضر مع ادريس الثاني حرب الخوارج الذين يصفهم ابن أبي زرع بأنهم صفرية أنظر : البكري : **المغرب** ، ص : 123 ، ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 11 .

من قتل ادريس الأول ، والى اسناد مهمة مواجهتهم للأغالبة ، وفعلا فقد حاول ابراهيم بن الأغلب ارسال جيش الى المغرب الأقصى ، لكن الأمر لم يتم فلجأت القيروان الى نفس أسلوب بغداد ، ونجحت في قتل راشد ، كما لجأ ابراهيم بن الأغلب الى استمالة بعض قبائل البربر وكسب الأنصار بالمال وغيره ، فتمكن من استمالة بهلول بن عبد الواحد ـ أحد أعوان الأدارسة ـ فقد ذكر *السلاوى أن ابن الأغلب كاتبه «واستهواه بالمال حتى بايع الرشيد وانحرف* عن ادريس واعتزله في قومه» (1) ويبدوكذلك أنه نجح في استمالة اسحق الأوربي وافساد علاقته بالأدارسة (2) .

لم تكن هذه المحاولات من جهة واحدة ، فان الأدارسة من جانبهم حاولوا ذلك ، فقد ذكر السلاوي أن هرون الرشيد اتصل بخبر فتح ادريس مدينة تلمسان «وأنه عازم على غزو افريقية» (3) الا أنه قتل قبل أن يتمكن من ذلك ، ويظهر أن سياسة وليلي الخارجية لم تتغير بانتقال امرها الى المولى راشد ، فقد ذكر ابن الابار أن راشداً هذا «قد هم بغزو افريقية لما كان فيه من القوة وكثرة الجنود» ، وأضاف أن زيادة الله الأغلبي قد دفع بكيس فيه ألف دينار الى الخليفة المأمون «وكانت الدنانير مضروبة باسم ادريس» ، وكأنه يعني بذلك ، أن يكشف للعباسيين عن جسامة المسؤولية التي يتحملها في مواجهة الأدارسة ومؤامراتهم ، اذ لا شك أن ذلك الكيس كان مبلغا أرسلته فاس لاستمالة بعض القرويين ، بل يبدو أن الأدارسة قد حاولوا استمالة الأغالبة أنفسهم ، فان ادريس «كتب الى ابراهيم بن الأغلب يدعوه الى طاعته والكف عن ناحيته ويذكره من قرابته من رسول الله» (4) ، وهذا يوحي بأن الأدارسة لم يكونوا ممن يضطر الى استعطاف الأغالبة ، بل ان ابن خلدون يرى أن الأغالبة كانوا «عن برابرة المغرب الأقصى أعجز» (5) .

---

(1) السلاوي : **الاستقصا** ، ج 2 ، ص : 148.

(2) ذكر ابن خلدون أن ادريس الثاني قتله «لما أحس منه بموالاة ابراهيم بن الأغلب» أنظر : **العبر** ، ج 4 ، ص : 26 . محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار العاطرة** ، ص : 134 .

(3) السلاوي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 142.

(4) عن علاقة الأغالبة بالأدارسة ، انظر : ابن الابار : **الحلة** ، ج 1 ، ص : 55 ، 100 ، 115 .

(5) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص : 24 :

يدل ظاهر ما سبق على علاقة الأدارسة بالأغالبة ، لكنه يؤكد في نفس الوقت على سياسة الأدارسة الخارجية ، ويكشف عن انشغال هؤلاء بمواجهة الخلافة العباسية ممثلة بالقيروان ، والمهم في الأمر ، أنه لم يذكر أحد من المؤرخين أن الأدارسة مارسوا ضد الرستميين مثلما فعلوا ازاء الأغالبة من صراع سياسي ، ونحو ذلك ، كاستعمال الحيل والدسائس ، أو أن الرستميين واجهوا الأدارسة بمثل ما واجههم الأغالبة ، وهذا من الممكن أن يكون مؤشرا الى جو السلم والهدوء الذي ساد العلاقة بين الجارين .

قد يكون لذلك أسباب داخلية تتعلق بالطرفين ، فمن جهة الأدارسة ، فقد باشروا صراعهم مع الأغالبة قبل أن يدعموا أركان دولتهم الفتية ، ولم يكن هذا يسمح لهم أن يوزعوا جهودهم بين القيروان وتاهرت ، أضف الى ذلك ظهور شخصيات مغربية ذات نزعة وطنية ، مثل اسحق الأوربي وبهلول ، ويظهر هذا في ميلهما للأغالبة ، ومن جهة الرستميين ، فقد أشرنا سابقا الى الفوضى التي عمت تاهرت في عهد الامام عبد الوهاب . كذلك فهم ليسوا على رأس الخلافة الاسلامية هدف الأدارسة ، ويتفق هذا في مجمله مع موقف الأدارسة من جيرانهم الآخرين ، فليس هناك ما يدل على أن هؤلاء قد تعرضوا لصفرية سجلماسة ، كما أنهم لم يركزوا جهودهم لاحتواء الامارات الخارجة عنهم في المغرب الأقصى ، أضف الى ذلك موقفهم من أمراء قرطبة (1) .

من جهة ثانية ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن سليمان بن عبد الله ـ أخ ادريس الأول ـ أو ابنه محمد بن سليمان قدم المغرب فلحق بجهات تاهرت ، (2) وسواء أكان القادم هذا أم ذاك ، فقد ذكر السلاوي أن ادريس الثاني عقد على تلمسان لبني عمه سليمان واستمرت بأيديهم الى انتهاء الدولة الادريسية (3) ، ويبدو أن بني سليمان هؤلاء قد مدوا نفوذهم الى مناطق مختلفة من المغرب الأوسط ،

---

(1) ابن تاويت : «بين **أموي الأندلس والأدارسة**» ، ص : 185 .

(2) هناك من يذكر سليمان أنظر : ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 34 . ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص 210 . وهناك من ذكر أنه محمد بن سليمان ، أنظر : ابن عماد الحنبلي : **شذور الذهب** ، حوادث سنة 193 هـ .

(3) السلاوي : **الاستقصا** ، ج 1 ، ص : 157 .

الا أنه تجب ملاحظة أن هؤلاء لم يتعدوا المنطقة التلية نحو الجنوب . أي أن نفوذهم كان في ممر بين تاهرت والبحر ، باتجاه الشرق ـ ويبدو أنه شمل امارة هاز فذكر اليعقوبي بخصوص أحد العلويين أن « أول المدن التي في يده مدينة يقال لها هاز» وأضاف أن متيجة « تغلب فيه رجل من ولد الحسن ابن علي بن أبي طالب يقال لهم بنو محمد بن جعفر» (1) ثم أشار الى أن بني محمد بن سليمان يتقلبون على مدينتي مذكرة والخضراء ثم يتابع اليعقوبي ذكر الامارات العلوية ، فيشير الى أن سوق ابراهيم فيها رجل يقال له عيسى بن ابراهيم بن محمد بن سليمان ويفهم منه أنها قريبة من تاهرت ، وبالاضافة الى مدينة تلمسان ، فقد كانت بأيديهم » مدينة يقال لها نمالته فيها محمد بن علي ابن محمد بن سليمان ، «وآخر مملكة بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مدينة فالوش » ، ثم تأتي وراء ذلك مملكة نكور (ناكور) « ثم يصير منها الى مملكة بني ادريس بن ادريس » (2) .

كان كل أمير من هؤلاء مقيما في مدينة وناحية ، وأن هذا الوضع يوحي بتغيير في سياسة العلويين تجاه خصومهم التقليديين ، فان وضعا كهذا لا ينذر بانتهاج سياسة عدائية ، بل على العكس من ذلك ، يبدو أنهم مالوا الى الركود والقناعة بما هم فيه ، وهذا الوضع يضطرنا الى الوقوف عند العبارة التي أوردها صاحب كتاب الدر النفيس ، فقد ذكر أن محمد بن سليمان كان « يستعين بابن عمه ادريس بن ادريس في بعض النوازل فيغيثه بالجيوش ويقاتل معه عدوه ثم يرجع الى بلده ويترك ابن عمه في تلمسان» (3) ، وقد كان نفوذ محمد هذا يقرب من تاهرت (4) فهل حارب جيرانه الرستمين ؟ ذلك أمر مستبعد ، لأن غير هذا يخرجه عن الخط العام لسياستهم ، ومن المحتمل أن المقصود بكلمة عدوه في العبارة السابقة ، بعض القبائل ـ ربما كانت صفرية ـ المعارضة لحكمة .

(1) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 13 .
(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 352 ، 353 .
(3) أبو العباس أحمد الفاسي : **الدر النفيس** ، ص : 127 .
(4) ابن عماد الحنبلي : **شذور الذهب** ، حوادث سنة 193 هـ .

يكاد ابن خلدون أن ينفرد في الاشارة الى وقوع حوادث عسكرية بين الرستميين والقبائل الخاضعة للأدارسة ، فقد ذكر أن الرستميين « حاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان » (1) فهل تشير هذه العبارة الى حروب محمد بن سليمان السابقة الذكر ؟ ان الشيخ سليمان بن داود يعتبر هاتين القبيلتين اباضيتين ، وبهذا يستبعد أن تكون حروبهما لأمر يتعلق بالأدارسة ، ويظهر أنه من الأرجح ، أن حروب يفرن بقيادة ابن فندين مع عبد الوهاب ، قد خفي أمرها على ابن خلدون ، فاعتبرها من أجل اخضاع تاهرت للأدراسة ، قد يكون هؤلاء شجعوا ابن فندين من وراء ستار ، الا أنه سبقت الاشارة الى أن حروب يفرن كانت تحمل صبغة وطنية اسلامية ، وأنها صراع ضد انفراد أقلية أجنبية بحكم البلاد .

يشير شيخ بكري CHEIKH BEKRI في مجال تدهور العلاقة بين الرستميين والأدارسة الى وقوع حادثة عسكرية بين الرستميين وقبائل زناتة الخاضعة للأدارسة سنة 173 هـ /789 م ، ويضيف أن الاباضيين لم يسمحوا لهم بتحقيق هدفهم (2) ، وقد أكد ابن تاويت أنه كانت لتلك الحروب علاقة بالانضمام الى الأدارسة ، فذكر أن زناتة « قد سئمت تلك الحروب العديدة التي يخوضها بهم عبد الوهاب لهذا عرضت عليه أن ينضم بامارته الى الأدارسة ولكنه أبى من ذلك » (3) ويفهم من هذه العبارة ، أن قبائل زناتة هذه ، كانت خاضعة للامام عبد الوهاب ثم خرجت عليه ، وقد أشرنا سابقا الى القبائل التي وقفت موقفا معارضا من الامام عبد الوهاب ، فكانت قبيلة يفرن وهوارة ومجمع الواصلية ، فمن المحتمل أن تكون هي القبائل المعنية بالعبارة السابقة ، الا أنه ما علاقة هذه القبائل بالأدارسة لكي تطالب الرستميين بالانضمام اليهم ؟ ربما أنها تشير الى الواصلية بحكم علاقة هؤلاء المذهبية بالأدارسة ، وهذا أمر ممكن الحدوث ، لكننا نعلم من جهة ثانية ، أن الأدارسة لم يحركوا ساكنا عند نشوب الحرب بين الرستميين والواصلية ، ثم ان هؤلاء الواصلية قد انقادوا للامام الرستمي بعد حروبهم ، فأصبح امام

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 248 .

(2) CHEIKH BEKRI, *Le Kharidjisme* p. 103.

(3) ابن تاويت : **دولة الرّستميين** ، ص ؛ 117 .

الاباضية والصفوية والواصلية ، ومن الممكن أن يكون لادريس دور في انقيادهم هذا ولو بشكل ايحائي .

ذكر ابن الصغير أن الامام عبد الوهاب «ملأ المغرب بأسره الى مدينة يقال لها تلمسان» (1) هذا يعني أن مدينة ايزرج كانت خاضعة للرستميين في فترة ، على الأقل في عهد الامام الرستمي الأول ، الا أن ايزرج تظهر بعد ذلك خارجة عن النطاق الرستمي ، فذكر اليعقوبي أنها في يد العلويين (2) مما يدل أنها انفصلت عن تاهرت ، الا أن المؤرخين لم يذكروا أن بني مطماطة ـ أغلب سكان ايزرج ـ خاضوا حروبا مع الرستميين . فلم يكن هؤلاء من الخارجين على تاهرت ، فكيف وقع هذا التحول والانتقال الى يد العلويين ، ومتى كان ذلك ؟ ، يبدو أن تلك الجهات كانت خاضعة للرستميين في اوائل عهد الدولة الرستمية ، ثم تقلص النفوذ الرستمي تلقائيا ، اثر انشغالهم بالأوضاع الداخلية ، فمن المستبعد وقوع حرب بين الاباضية والعلويين ، خاصة وأن سليمان كانت له سابق معرفة بتاهرت ، وهو لم ينس استقبالها وعدم تعرضها له بسوء .

قد تزيد أمر العلاقة بين الرستميين والأدارسة وضوحا نظرة على الوضع الداخلي في المغرب الأقصى بعد وفاة الامام ادريس الثاني . ذلك أن ابن الابار يذكر أن محمد بن ادريس الثاني بايع له أخوته جميعا فاتخذ فاس عاصمة له ، ثم «فرق بلاد المغرب عليهم» (3) وأن هذا التقسيم يعني غلبة النزعة القبلية في المغرب الأقصى على محاولات الوحدة الوطنية التي قام بها الأدارسة ، وهذا بدوره يشير لهؤلاء على خيبة أملهم في خلق قوة قادرة على تحقيق هدفهم الرئيسي ، ولم يقف وضعهم عند هذا الحد ، بل أن الأدارسة أنفسهم أخذوا يحاربون بعضهم بعضا ، فقد ذكر ابن خلدون أن عيسى بن ادريس الثاني خرج «بأزمور على أخيه محمد طالبا الأمر لنفسه ، فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع» (4) ، ثم أمره بالنهوض الى القاسم لقعوده عن اجابته ففعل ،

(1) ابن الصغير : المصدر السابق ، ص : 17 . تفيد هذه العبارة أن تلمسان لم تكن داخلة في نفوذه .

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 356 .

(3) ابن الابار : **الحلة** ، ج 1 ، ص : 131 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 196 .

(4) ابن الابار : **الحلة** ، ج1 ، ص : 131 . ابن خلدون ، **العبر** ، ج 4 ، ص : 48 .

وبعد ذلك ، يذكر اليعقوبي أن الامام داود بن ادريس كان يحكم الجزء الأندلسي من مدينة فاس ، في حين كان يحيى بن يحيى - الادريسي - يحكم القسم القروي منها ، واستطرد اليعقوبي أن «كل واحد من يحيى بن يحيى وداود بن ادريس يخالف على صاحبه يدافعه ويحاربه» (1) ، أضف الى هؤلاء من كان من الأدارسة سيء السيرة ، فقد ذكر ابن عذاري بخصوص يحيى أنه كان «منهمكا في الشراب معجبا بالنساء ، ذكر أنه دخل يوما الحمام على امرأة فتغير عليه أهل فاس» (2) ومن الأدارسة من شهد عهده اضطرابات كتلك التي قام بها عبد الرحمن بن أبي سهل ، كما قام على الامام علي بن عمر بن ادريس الثائر عبد الرزاق الخارجي الصفرى ، ونجح في دخول فاس (3) ، كما كان على الأدارسة أن يواجهوا ذوي النزعات الانفصالية والتي عبر عنها البعض بادعائه النبوة ، كما حدث بناحية تلمسان سنة 237 هـ /851 م .

أمام هذه الأوضاع المتدهورة ، كان على الأدارسة أن يتخلوا عن سياستهم التوسعية التي شهدناها في بداية عهدهم ، خاصة وأنهم كانوا لا يمتلكون جيشا منظما (4) ، وبذلك لم يكن أمامهم الا أن يسلكوا سياسة المرونة ، وهذا بالتالي يضعف من احتمالات تدخل الأدارسة في شؤون تاهرت أو محاولتهم تعكير صفو العلاقات بينهما ، كما أنه يبعد احتمال حضهم الامارات العلوية على التعرض للدولة الرستمية .

كان العلويون على خلاف مع الخوارج عامة ، وكانوا في نفس الوقت على خلاف مع الأمويين - في الشرق - ومعنى هذا أن الأدارسة كان من المفروض أن

---

(1) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 358 . التازي : «**الإمام داود بن ادريس**» ص : 61 .

(2) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 211 .

(3) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص : 212 ، ابن الخطيب : **أعمال الإعلام** ، ص : 208 ، 209 . وقد انفرد التازي بأن علي فر امام الخوارج الأباضية ، أنظر التازي : «**الامام داود**» ، ص : 61 ، بينما ينص ابن خلدون صراحة على أن عبد الرزاق كان صفريا ، أنظر : **العبر** ، ج 4 ، ص : 30 .

(4) أحمد أحمد البسيري : «**التاريخ الحربي للمغرب**» دعوة الحق ، مايو 1960 ، ص : 29 .

يكونوا معارضين لأمراء قرطبة (1) ، ومع هذا الموقف القريب الشبه من موقفهم من اباضية تاهرت ، الا أن جو الهدوء والسلم ساد العلاقة بين فاس وقرطبة ، فلم يمارسوا ضدهم مثلما فعلوا تجاه الأغالبة ، وحتى مراسلات عمر بن حفصون لابراهيم بن القاسم ـ صاحب البصرة ـ لا تقوم دليلا على توتر الوضع ، اذ لم يذكر المؤرخون أن ابراهيم استجاب لابن حفصون ، ربما حاول أندلسيو الربض في فاس تعكير الجو ، الا أنهم لم يفلحوا ، فان حركات ابراهيم يذكر أن الأدارسة كانوا يأخذون الخلع والأموال من الأمويين (2) ، كان ذلك من أجل أن يكونوا يدا واحدة أمام خصمهم المشترك في بغداد والقيروان .

ما تقدم يكشف عن الخطوط العريضة للسياسة الادريسية الخارجية ، والتي يمكن أن يستفاد منها في ابراز العلاقة بين الأدارسة والرستميين ، وفي هذه الحالة ، يمكن ملاحظة أن الخلاف المبدئي بين اباضية تاهرت والأدارسة لم يقف أمام سيادة روح السلم والهدوء في المنطقة ، ربما بسبب ضعف الحماس للمذهب ، وربما لخوفهما المشترك من بغداد ، والوضع الداخلي لكلا الطرفين ، مما قرب بينهما ، أو على الأقل أتاح لذاك السلم أن يسود ، وربما كانت هناك عوامل أخرى أثرت في ذلك كالناحية الثقافية والاقتصادية .

كانت هذه السياسة نابعة من حرص كل منهما على مصلحته ، لذا ، فقد كانت لها نتائج تتعلق بمختلف النواحي ، فقد وفرت الأمن والهدوء للأدارسة ، فأتيحت لهم الفرصة لتثبيت دعائم دولتهم وتشييد عاصمتهم ، وتوسيع حدود بلادهم في بلاد المغرب الأقصى ، ثم الدخول في صراع سياسي مع القيروان ، وحتى بعد تقسيم دولتهم ، فقد سمح ذاك الهدوء لأمراء الأدارسة ، أن يمارس كل سياسته الداخلية في ناحيته ، بل ـ وربما لو تعكر جو العلاقات

---

(1) يبالغ صاحب **الأزهار العاطرة** « فيذكر أن **ادريس** » سمت همته الى مضايقة بني أمية الكائنين بالأندلس ، وعول على الاقتحام عليهم في جزيرتهم » أنظر : ص : 156 . وهذا أمر مستبعد لأن العباسيين كان هدفهم الأول ، ولأنهم لا يملكون أسطولا بحريا ، لكن الموقف تطور فنجح الأمويون في احتلال أجزاء من المغرب الأقصى .

(2) حركات ابراهيم : **المغرب عبر العصور** ، ص : 122 .

بين تاهرت وفاس ، لأمكن أن يثير هذا قرطبة ضد الأدارسة ، تأييدا لأصدقائهم الرستميين .

كما ظهرت آثار هذه السياسة على الناحية العلمية والاقتصادية . فقد ضمنت فاس أن يظل بابها الى الشرق مفتوحا . ولم يجد علماؤها مضايقة في الرحيل الى الحجاز أو القيروان . وكان من الممكن أن تقف تاهرت سدا في وجه فاس ، لو طبعت العلاقة بطابع عدائي ، كما لم تقابل قوافلها خطرا في مسيرها من فاس الى تاهرت وما وراءها ، وأتيح لسكان المغرب الأقصى أن يستغلوا ثروات بلادهم في ظل جو آمن ، فازدهرت الزراعة في فاس وغيرها .

في نفس الوقت ، عادت هذه السياسة على الرستميين بنتائج متعددة ، فقد كانت تاهرت مضطربة عليهم في كثير من الأحيان ، فلو كانت حدود البلاد الغربية مهددة ، لكان من المستبعد أن يتمكنوا من مواجهة الوضعين الداخلي والخارجي . لكنهم سياسة المسالمة نجحوا في قبض زمام تاهرت ، ووفروا عوامل نشاط العلماء والتجار ، فظهرت مدينة مزدهرة ، من جهة أخرى ، فقد حافظ الرستميون بدورهم على سلامة طريقهم الى أصدقائهم في قرطبة .

2 ـ الثقافة بين تاهرت وفاس :

يجدر بنا أن نشير الى انتماء الأدارسة المذهبي لأن هذا يكشف عن المسافة المذهبية التي تفصل بينهم وبين الرستميين . دلك أن الأدارسة يرجعون في نسبهم الى زيد بن علي من آل البيت ، بمعنى أنهم علويون ، ولم يتخلوا عن علويتهم ، فقد أشار التازي الى درهم ادريسي موجود بالمكتبة الوطنية بباريس ، وقد ظهر عليه اسم علي (1) ، ويذكر ابن خلدون أن « الشيعة بالمغرب قد ظهرت دولتهم وبادريس بن ادريس قد تجددت » (2) وقد حدد الزيديون هؤلاء موقفهم من عدة قضايا ، فقالوا في الامامة انها لعلي بن أبي طالب ثم للحسن والحسين ،

---

(1) عبد الهادي التازي : « **الامام داود بن ادريس** » ، ص : 58 . أبو العباس أحمد بن عبد الحي الفاسي : **الدر النفيس** . ص : 281 .

(2) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص : 24 .

دون تمييز ، ينالها من توفرت فيه شروط الامامة منهما (1) ، وأجازوا امامة المفضول مع وجود الأفضل ، وهذا يعني أنهما يعترفان بامامة الخليفتين ، فذكر الطبري أنه قيل لزيد بن علي « ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما الا خيرا » (2) ، كما يجيزون ظهور امامين مختلفين في قطرين مختلفين ، ويرون وجوب الخروج على الامام الجائر بالسيف ، أي أنهم ينهضون في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه لا ايمان بلا عمل ، وأنه اذا انهزم أهل البغي ـ في نظرهم ـ فلا تحل أموالهم ولا سلاحهم ، بل وعليهم مساعدتهم ضد أهل الكفر ، ويقولون بالتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ، فان مرتكب الكبيرة يعتبرونه فاسقا ، وهم لا يرون التقية ولا عصمة الامام (3) .

ان من يلقي نظرة على مباديء الزيدية السابقة ، يرى أنها قريبة من مباديء الاباضية ، فلا يكادون يختلفون الا في القليل منها ، كحصر الزيدية الامامة في قريش ، واعتبار مرتكب الكبيرة فاسقا ، بل أن أبا يعقوب الورجلاني يرى أن الزيدية «وافقوا جميع المسلمين فما يقولونه الا في التحكيم» (4) ، وقد كان مذهب الاباضية من أوائل المذاهب الداخلة الى المغرب الأقصى ، فقد أشار صاحب كتاب أخبار مجموعة الى وجودهم على عهد ثورة ميسرة فذكر أنه قد «ثارت (هكذا) البربر على فرق الاباضية والصفرية ورأسوا عليهم ميسرة» (5) ، فهذا يعني أنهم كانوا أرضية هيأت للأدارسة نشر مذهبهم ، وهذا يجعل من المحتمل أن هؤلاء لم يتعرضوا لاباضية المغرب ، بما يعكر هذا التقارب بينهم ، ويدل على ذلك أن جل المؤرخين الذين تعرضوا لحروب ادريس ، ذكروا حروبه مع الصفرية وغيرهم دون أن يشيروا الى حروبه مع الخوارج الاباضية (6) ، وقد

(1) عن شروط الامامة عندهم ، انظر : زهدي يكن : **مذهب الزيدية** ، مجلة العربي ، ع 53 ، أفريل 1963 ، ص : 33 .

(2) الطبري **تاريخ** ، ج 9 ، ص : 1699 ، ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 58 .

(3) عن مبادىء الزيدية ، أنظر : ابن حزم : **الفصل** ، ج 4 ، ص : 163 ـ 172 . ناجي حسن : **ثورة زيد** ، ص : 168 ـ 183 . وقد اعترهم المقدسي «اسماعيلية» ، أنظر : **أحسن التقاسيم** ، ص : 238

(4) الورجلاني : **الدليل** ، ج 1 ، ص : 31 .

(5) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، ص : 28 .

(6) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 7 . محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار العاطرة** ، ص : 127 .

بامكان هؤلاء أن يثيروا شغبا ضد الأدارسة ، وربما كان بامكان الإمام الرستمي أن يستغلهم في ازعاج الأدارسة .

من جهة أخرى ، فقد سبقت الإشارة الى خروج الشيعة من تاهرت لاستقبال أبي عبد الله الشيعي عندما عسكر بالقرب من تاهرت ، ولما كان خروجهم مع غيرهم من الجماعات ، لا كجماعة تشكل جزءا من الدعوة العبيدية ، أمكن احتمال أنهم شيعة زيدية لا اسماعيلية ، ولم يكشف المؤرخون عن وجودهم في تاهرت الا عند سقوطها ، وظهروا فيها مخالفين للرستميين ، وان مجرد ذكرهم كجماعة مميزة يدل على أن عددهم كان لا بأس به ، ومع ذلك فان ابن الصغير لا يشير اليهم من قريب أو بعيد ، وهو يستعرض الأوضاع الداخلية لتاهرت (1) ، فذكر الحروب التي دارت بها وعدد الجماعات المشاركة دون ذكر لجماعة الشيعة ، ولربما ورد ذكرهم في الإطار القبلي أو الجنسي ، فيلاحظ أن ابن الصغير يذكر العرب والعجم ويذكر لواته وزواغة ونفوسة (2) ، ولا يشير الى اطار الصراع المذهبي الا من زاويتين : اباضية وغير اباضية ، فربما كانت مشاركتهم ضمن هذه الأطر .

ان تجاهل ابن الصغير لهم ، لا يقلل من أهمية دورهم في أحداث تاهرت ، ما داموا كان لهم وجود ملموس فيها ، وربما أن جماعتهم لم تشارك في صراعات تاهرت ، فكانت مسالمة للاباضية ، مخالفة للأسرة الرستمية ، وهذا أمر غير مستبعد ، فان التقارب المذهبي بصفة عامة بين الاباضية والشيعة الزيدية ، يجعل أمر المسالمة ممكنا ، ثم أن سياسة الأسرة الرستمية ، القائمة على حصر ولاية البلد فيها ، واسناد المسؤوليات الإدارية الى جماعة الفرس ونفوسة اضافة الى أنها كانت أسرة ثرية (3) ، يجعل أمر الخلاف معها مقبولا .

يزداد الشعور بالتقارب بين الاباضية والزيدية ، اذا لاحظنا أن مسألة تعصب الاباضية في تاهرت ضد الإمام علي قد خفت حدته ، فقد ذكر ابن الصغير

(1) ابن الصغير : السيرة ، ص : 37 ـ 39 .
(2) ابن الصغير : **السيرة** ، مواضع متفرقة مثل ، ص : 27 ، 37 .
(3) انظر احسان عباس : «**المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين**» الأصالة 1975 ، ص : 20 ـ 34 .

أن خطب الاباضية على منابرهم هي «خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما خلا خطبة التحكيم» (1) بل وحتى هذه الخطبة، فقد ألقاها أحمد بن منصور الاباضي، وحين عاتبه ابن الصغير بأنها ليست من خطب أسلافه، أجابه: أنه فعل ذلك بناء على طلب أحد زعماء الاباضية عثمان بن أحمد ابن يحياج.

اذا صح ما ذكرناه من أن هذه الفرقة الشيعية كانت زيدية، فهذا يثير تساؤلا عن كيفية صلتهم بتاهرت، فهل هم أحفاد أوائل من فر من الزيدية الى المغرب؟ ربما كانوا كذلك، ثم انضمت اليهم فئات بربرية، خاصة وقد عرف البربر بحبهم لعلي، وهل اقتصر الأمر على هؤلاء، أم رحل الى تاهرت عدد من الزيديين من المغرب الأقصى فيما بعد؟ ليس من المستبعد أن يكون أوائل الأدارسة قد بعثوا بدعاتهم الى انحاء متفرقة من المغرب الإسلامي في اطار نشاطهم السياسي، تحت ستار التجارة، ثم هل كانت علاقة هؤلاء بتاهرت علاقة استيطان أم كانت مؤقتة بحكم الهدف؟

مهما كان الأمر، فانه بحكم علاقة التجاور بين فاس وتاهرت، والعلاقة بين المذهبين الاباضي والزيدي، ووجود حرية الجدل في تاهرت، يحتمل وجود اتصال بين ابناء المذهبين، ووقوع مناظرات بين العلماء، واذا كانت ميول ابن الصغير العلوية نابعة عن تشيع لزيد بن علي، فيكون خير دليل على وجود مثل تلك المناظرات، وبالتالي يكون قد حدث تأثر وتأثير، واحتمال أن يكون وقع كسب متبادل لبعض أتباع المذهب الآخر.

لن نحمل مسألة علوية الأدارسة أكثر مما تحتمل، لأن هناك مذاهب أخرى كانت في المنطقة، لعبت دورا هي الأخرى في مجال العلاقات، كمذهب الاعتزال (2)، فقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن «اسحق بن محمد الأروبي معتزلي المذهب، فوافقه ادريس على مذهبه» (3)، هذا يدل على أن

---

(1) ابن الصغير: **السيرة**، ص: 42، 59.

(2) عرف المغرب الأقصى مذهب الاوزاعي قبل دخول مذهب مالك، ويبدو أن دوره في العلاقة كان ضئيلا، أنظر: محمد الادريسي: **الدرر السنية**، ص: 67. محمد الكتاني: **الأزهار العاطرة**، ص: 129.

(3) مؤلف مجهول: **كتاب الاستبصار**، ص: 195.

مذهب الاعتزال كان موجودا في قبيلة أوربة في سنة 172 هـ / 788 م . ولم يشر المؤرخون الى وجوده في غيرها من قبائل المغرب الأقصى .

في نفس الوقت ، سبق القول أن المعتزلة في تاهرت ، كانوا يشكلون قوة تتصدى للاباضية في عهد الإمام عبد الوهاب ، وكادوا أن يحققوا الانتصار عليه . وهذا يعني أن انتشاره في المغرب الأوسط كان أوسع منه في المغرب الأقصى في تلك الفترة . كذلك ، فقد ذكر قدامة بن جعفر أن « وراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوما بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة ودارهم طنجة » (1) ، ويؤكد صاحب كتاب فضل الاعتزال هذا فيرى أن « أنصار ولد ادريس بن ادريس ... بطنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة » (2) . ويبدو أن هذين القولين مبالغ فيهما ، ويستفاد من عبارة «الاستبصار» أن ادريس قد أصبح معتزليا . الا أن صاحب الدرر السنية يرى أن اسحق الأوربي وافق ادريس على مذهبه (3) . ومما تجدر ملاحظته أن ابن عذارى لم يتعرض الى قضية تمعزل ادريس الى موافقة أحدهما الآخر .

ربما كان اسحق معتزليا حقا . لكن من الصعب قبول أن يكون ادريس قد تخلى عن مذهبه ــ وهو المعتزل بانتسابه للرسول ــ ليعتنق مذهب الاعتزال الذي يعتبر بدعة عند أهل السنة . وبذلك فمن باب أولى أن يكون اسحق نفسه قد انقاد لحفيد فاطمة بنت الرسول ، فترك اعتزاله ، وهذا أمر ممكن ، لأنه من المستبعد أن تكون أوربة قد أخذت بالاعتزال عن فهم عميق لمبادئه ، بقدر ما كان نكاية بالخلافة (4) ، أضف الى هذا ، التشابه الكبير بين الاعتزال ومذهب الزيدية ، وربما سمح هذا التقارب لمذهب الاعتزال أن ينساح في مذهب الزيدية (5). وسمح للعباسيين أن يقدحوا في مذهب الأدارسة ــ كما قدحوا في نسبهم ــ فينسبونهم للاعتزال .

(1) قدامة بن جعفر : **كتاب الخراج وصنعة الكتابة** ، ص ، 265 .

(2) أبو القاسم البلخي : **فضل الاعتزال** . ص : 119 .

(3) محمد الإدريسي : **الدرر** . ص : 47 ــ 48 . ويرى أن ادريس « **فرق** أهل المبتدعة كالمعتزلة والرافضة والجبرية » ص : 70 . محمد الكتاني : الازهار ، ص : 38 .

(4) قبيلة أوربة هي قبيلة كسيلة . قاتل عقبة بن نافع . هاجرت الى المغرب الأقصى . أنظر :
J.K. Cooley, *Baâl, Christ and Mohammed*, p. 73.

(5) ابن تاويت : « **بزوغ الثقافة العربية بالمغرب** » . ص : 193 ــ 195 .

هكذا يصعب قبول الصورة التي رسمتها عبارة قدامة بن جعفر السابقة لمذهب الأدارسة ، والتي جعلت من المغرب الأقصى بلدا معتزليا ، ويتضح أن الاعتزال لم يكن واسع الانتشار هناك على الصورة التي ظهر بها في المغرب الأوسط ، وهذا يجعل من المحتمل أن تاهرت كانت القاعدة التي ينطلق منها دعاة الاعتزال ، ويمكن أن يرد ذلك الى محاربة القيروان وقرطبة له ، وبذلك كان ميدانه ينحصر في المغربين الأوسط والأقصى ، فهل اتخذ عبد الله بن الحارث ـ رسول واصل بن عطاء الى المغرب ـ من منطقة تاهرت مركزا ؟ على كل فان وجود المعتزلة في كلا المغربين ، قد جعل منهم حلقة وصل بين تاهرت وفاس .

انتشر المذهب المالكي في المغرب الأقصى بتأثير قرطبة والقيروان والراحلين الى الحجاز ولما لم يستطع الأدارسة حمل رعيتهم على اعتناق مذهب الزيدية ، وجدوا أن عليهم مسايرتها ، فحكموا البلاد حكما مالكيا ، واعتمدوا على العمل «بالكتاب والسنة من غير تبديل ولا تغيير ولا اعتزال» (1) ، فقد ذكر محمد بن جعفر الكتاني ، قول ادريس عند بنائه فاس : اللّهم اني «أردت أن تعبد فيها ويتلى بها كتابك وتقام فيها حدودك وشرائع دينك» (2) ، ويستدل على ما ذكر ، أن ادريس الثاني استقضى عامر بن سعيد بن محمد القيسي ، وهو ممن سمع مالكا وسفيان الثوري (3) ، واذا كان هذا هو أمر المذهب المالكي هناك ، فهذا يعني وجود علماء مالكيين شدوا الرحال الى الحجاز والقيروان للأخذ عن مالك وسحنون وغيرهما ، مرورا بتاهرت ، مما يتيح فرصة لهم أن يؤثروا ويتأثروا ، سواء أكان هذا بشكل تلقائي عفوي ، وضمن سياسة عامة يتبعها علماء المذهب المالكي .

من المعلوم أن انتشار المذهب المالكي في الأندلس والمغرب الأقصى كان أوسع منه في تاهرت ، ولما كانت هذه تقع بين منطقتين مالكيتين عظيمتين هما القيروان والحجاز من جهة ، وفاس وقرطبة من جهة ثانية ، فقد كان علماء المالكية يواصلون طريقهم شرقا وغربا ، وليس لتاهرت من نصيب الا مرورهم بها ـ الا

---

(1) محمد بن جعفر : **الأزهار العاطرة** ، ص : 71 .

(2) نفس المصدر ، ص : 137 . أبو العباس الفاسي : **الدر النفيس** ، ص : 194 .

(3) محمد بن علي الإدريسي : **الدرر** ، ص : 66 . عن غلبة المذهب المالكي في المغرب الأقصى انظر : عياض **ترتيب** المدارك ، ج 1 ، ص : 79 ، السلاوي : الاستقصا ، ج 2 ، ص : 123 ـ 124 .

القليل ممن ينتسب اليها ـ هذا يسمح باحتمال أن تاهرت تأثرت بجيرانها بصفة عامة في هذا الميدان ، أكثر مما أثرت .

عرف المغرب الأقصى مذهب الكوفيين ، فقد ذكر القاضي عياض أنه ظهر بافريقية ، «ودخل منه شيء الى ما وراءها من الغرب قديما بجزيرة الأندلس وبمدينة فاس» (1) ، ويبدو أن انتشاره كان محدودا ، لقلة اعتماده على الحديث ، في وقت عرف فيه المغاربة بتمسكهم بالكتاب والسنة (2) ، كما أنه كان مذهب الخلافة العباسية ، فكان تجنبهم لهذا المذهب ، بمثابة تأكيد على استقلالهم عن الخلافة ، ولذا من المحتمل أن يكون بعض الأحناف قد غادروا فاس الى القيروان ، بدورها الى العاصمة نظيرتها سواء بواسطة التجار أو العلماء .

على كل ، فان وجود أتباع مذاهب معينة في كلا العاصمتين ، مع موقع تاهرت كبوابة الشرق ، بالنسبة لفاس ، وسيطرة روح السلم على الدولتين ، يحتم وجود صلات مذهبية بينهما ، وبذلك من المحتمل أن مناظرات المعتزلة مع الاباضية أو مناظرات هؤلاء وأولئك مع الأحناف والمالكية وغيرهم قد وصلت بدورها الى العاصمة نظريتها سواء بواسطة التجار أو العلماء .

ذكرنا سابقا أن ادريس وأخاه سليمان مرا بتاهرت ، وأن ادريس تأثر بالتجربة الرستمية في تأسيس دولته ، ويبدو أنه استفاد من مشاهدته بناء تاهرت ، فسار على نمطها في بناء مدينة فاس ، فاختار لها موقعا داخليا ، وعلى نهر ، وفي منطقة زراعية «كانت أجمة شعراء» (3) ، وابتدأ ببناء المسجد ، وقد قدم الى فاس وفود العرب من افريقية وبلاد الأندلس في نحو الخمسمائة فارس» (4) سنة 189 هـ /804 م ، كما وفد اليها من القيروان «نحو ثلاث مائة بيت اختصوا بعدوة القرويين (5) ، وقدم جماعة من الفرس ، حتى سمي أحد أبوابها باسم

---

(1) عياض : **ترتيب المدارك** ، ج 1 ، ص : 80 .

(2) حسن أحمد محمود : **الاسلام والثقافة العربيّة** ، ص : 169 .

(3) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 13 . أبو العباس أحمد الفاسي : **الدر النفيس** ، ص . 245 .

(4) ابن تاويت : **بزوغ الثقافة** ، ص : 199 .

(5)

« باب الفرس » وليس من المستبعد أن يكون بعض هذه الجماعات قد انتقل من تاهرت ، مصاحبين للقادمين من القيروان ، فقد عرفنا سابقا وجود القرويين والفرس في تاهرت ، ولما كان هؤلاء القرويون التاهرتيون من الفارين من ولاة القيروان ، فمن المحتمل أنهم كانوا علويين ، الأمر الذي دفع بهم الى المسيرة باتجاه فاس ، حين بلغ مسامعهم نجاح ادريس ـ العلوي ـ في تأسيس دولة علوية ، وربما زادهم دفعا لذلك ، اضطراب أحوال تاهرت في تلك الفترة بسبب سياسة عبد الوهاب وأفلح ، وربما بدوافع مذهبية واقتصادية أضف الى ذلك ما ذكرناه سابقا ، من أن بعض قبائل المغرب الأقصى التي بايعت ادريس كانت في معظمها اخوات قبائل تاهرت مثل لماية ولواته وزواغة ومكناسة وغيرها ، ولا شك أن لهذا تأثير في أمر العلاقة ، فربما كانت هناك اتصالات وصلات اجتماعية بينها ، وعلى كل فقد كانت هذه الجماعات المختلفة حلقة وصل بين تاهرت وفاس .

يظهر أن فاس شهدت حركة علمية وأدبية نشيطة ، فان ادريس نفسه «كان شاعرا مجيدا فصيحا بليغا أديبا عالما بكتاب الله قائما بحدوده راويا للحديث » (1) ، كما كان مولاه راشد عالما بالعلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث وتفسير وبلاغة ، وبالعلوم السياسية والأيام والأخبار ، ولم يكن ادريس الثاني يقل عنهما علما ، فقد أورد ابن الابار نماذج من شعره (2) ، ويشير الى بلاغة القاسم وقدرته على قول الشعر ، ويضيف البكري شهرة ابنه أحمد بالعلم ، وازدادت هذه الحركة نشاطا بفضل من وفد الى فاس من القرويين والأندلسيين (3) ، وبالدور الذي لعبه جامع القرويين في فاس (4) .

هذا يعني أنهم شجعوا العلم والعلماء ، لكنهم لم يكونوا ممن يدفع الصلات ، وبذلك فليس هناك ما يمنع أن يكون هؤلاء قد مروا بتاهرت ـ الراحلون منهم ـ فأخذوا العلم منها بحكم شهرتها وموقعها ، ولما كان الأدارسة يحرصون على ربط

---

(1) ابن القاضي : **جذوة** ، ص : 100 .

(2) ابن الأبار : **الحلة** ، ج 1 ص : 55 . محمد بن جعفر الكتاني : **الأزهار** ، ص : 101 .

(3) ح . س : **الثقافة والتعليم في العصر الإدريسي** ، ص :34 .

(4) عبد الهادي التازي : **جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف** ، ج 1 ، ص : 37 .

بلدهم بموطنهم الأصلي ـ الحجاز ـ فهذا يفيد أن مسير العلماء وقدومهم كان أمرا بارزا ، ويمكن أن نذكر من بين هؤلاء أبا عبد الله محمد بن أحمد السوسي ، وقد ترجم له صاحب كتاب رياض النفوس ، فذكر أن «أصله من السوس ثم انتقل الى افريقية فسكن القيروان وأوطنها وصحبه البهلول بن راشد» (1) ومن المؤكد أنه عرف تاهرت ، فأتيحت له فرصة الجلوس الى علمائها فأفاد واستفاد ، وربما كان منهم دراس بن اسماعيل أبو ميمونة . فقد سمع من شيوخ بلده ، ومن افريقية ـ المغرب الأدنى ـ ومن علمائه بها أبو بكر بن اللباد ، وان مسيره الى القيروان ، يعني بالبديهة مروره بتاهرت ، فعرف علماءها المخضرمين ـ الذين شهدوا العهد الرستمي والعبيدي ـ وعرف مؤلفات السابقين ، ألم يحمل منها الى بلدة فاس لقد كانت وفاته سنة 357 هـ / 967 م ، ولا نعلم سنة مولده ، فاذا كانت وفاته بعد ما عمّر طويلا ، فهل أتيحت له فرصة اللقاء بالشاعر بكر بن حماد أوغيره من التاهرتيين ؟

هناك عالم آخر من هذه السلسلة ، وان كنا لا نعلم الفترة التي عاش بها ، الا أنه على أية حال ، يمثل حلقة من تلك السلسلة ، ذلك هو عبد الله ابن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان وذكر ابن بشكوال أنه «طنجي فقيه موضعه وأصله من تاهرت» (2) وهذا يعني على الأقل ، أن أجداده عرفوا المغرب الأقصى .

ان خير من يمثل العلاقة الثقافية بين البلدين هو السفير الثقافي المتجول بكر بن حماد ، فقد أشرنا سابقا الى قدومه على أحمد بن القاسم ، أمير البصرة ـ بصرة المغرب ـ وقد أورد ابن عذاري أبياتا من قوله في مدح ابن القاسم منها :

ان السماحة والمروءة والندى ... جمعوا لأحمد من بني القاسم
واذا تفاخرت القبائل وانتمت ... فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلى ... وعلي العضب الحسام الصارم

---

(1) المالكي : **رياض النفوس** ، ج 1 ، ص : 128 . وذكر الزبيدي أن أبا محمد المكفوف النحوي ـ من القيروان ـ كانت اليه الرّحلة «من جميع افريقية والمغرب» ، أنظر : **طبقات النحويين واللغويين** ، ص : 257 .

(2) ابن بشكوال : **الصلة** ، ج 1 ، ص : 288 .

اني لمشتاق اليك وانما | يسمو العقاب اذا سما بقوادم
واعلم بأنك لن تنال محبة | الا ببعض ملابس ودراهم (1)

وقال في مدح أبي العيش عيسى بن ادريس صاحب جراوة :

سائل زواغة عن فعال سيوفه | ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها | والخيل تمرغ بالوشيج الذبل
وغشى مغيلة بالسيوف مذلة | وسقى جراوة من نقيع الحنظل (2)

ان ما يلفت النظر ، ما ذكره البكري من أن أحمد بن القاسم «هو الذي استجلب بكر بن حماد» (3) ، وهنا يتساءل المرء ، كيف عرف ابن القاسم وجود شاعر تاهرتي مشهور يدعي بكر بن حماد ؟ مما لا شك فيه أن شهرة هذا الأخير قد عمت أنحاء المغرب بفضل من عرفه من العلماء . فبلغت ابن القاسم عن طريق علماء بصريين ـ بصرة المغرب ـ عرفوه من قبل ، سواء في تاهرت أوفي القيروان ، ونقلوا له خبر ابن حماد ، بل وما كان ليستدعيه لولا أن سمع شيئا من شعره ، فنال اعجابه ، كذلك فان ابن عذارى يضيف أن ابن القاسم بعث اليه «ببغلة سنية وصلة جزلة وكان له فيه أمداح كثيرة» (4) ، ترى هل اقتصرت فائدة البصرة من ابن حماد على هذه القصائد ؟ هذا أمر مستبعد ، اذ من المرجح أنه قد اصطحب معه بقية أشعاره وكتبه وغير ذلك ، مما يدل على أن الفائدة كانت أعم وأشمل ، ثم هل سار ابن حماد وحيدا الى البصرة ؟ لا شك أنه سار رفقة قافلة ، ربما كانت تجارية لكنها لا تخلو من جماعة من العلماء ، ربما كان أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد واحدا منهم ، وقد كان في البصرة في تلك الفترة عدد من الشعراء ، ذكر البكري منهم محمد بن اسحق الشاعر (5) وبذلك فمن المرجح أن يكون هؤلاء الشعراء ، عقدوا ندوات أدبيّة وعلمية مع شاعر تاهرت بكر بن حماد .

---

(1) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 236 . حركات ابراهيم : **المغرب** ، ص : 141 .
(2) محمد بن رمضان شاوش : **الدر الوقاد** ، ص : 74 .
(3) البكري : **المغرب** ، ص : 130 .
(4) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 236 .
(5) البكري : المصدر السابق ، ص : 129 .

لم يشر أحد من المؤرخين الى أن ابن حماد ظهر في فاس ، الا أنه ما دامت هذه تقع على الطريق الى البصرة ، فإن مروره بها كان فرصة سانحة لأدباء وعلماء فاس أن يجتمعوا به ، ويأخذوا عنه ، لكن اقامته بها يبدو أنها لم تطل ، ذلك لأن أمراءها لم يكونوا ممن يدفع الهبات ـ كما سبق ـ وبذلك لم يجد الشاعر المتكسب بشعره ، ما يستدعيه للبقاء فيها ، على أن هذا لا يمنع أن يكون هو ومن معه قد نقلوا اليها الشيء الكثير .

اضافة الى ما تقدم ، هناك أحمد بن فتح التيهرتي ، الذيقال قصائد في مدح أبي العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم ، وكان مما قاله في مدحه قصيدة نقتطف منها أبياتا في مدح نساء البصرة :

ما حاز كل الحسن الا قينة	بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في	وجناتها هيفاء غير مفاض (1)

وذكر البكري له :

اسلح على كل فاسي مررت به	في العدوتين معا لا تبقين أحدا
قوم غذوا اللوم حتى قال قايلهم	من لا يكون لئيما لم يعش رغدا (2)

لسنا ندري على وجه الدقة ، ان كان ابن الخراز غادر تاهرت الى البصرة بصرة المغرب ـ أم أنه من مواليدها من أبوين تاهرتيين ، ثم ما دام يعبر عن اعجابه بنساء البصرة ، فهذا يسمح باحتمال أنه ارتبط بهم بعلاقات النسب ، على كل حال ، انها حلقة من تلك السلسلة التي يخفى علينا الكثير من حلقاتها .

الى جانب ذلك ، ليس من السهل اغفال دور الحجاج في عملية التبادل الثقافي ، فقد ذكر اليعقوبي أن ملحاص لخانة «يجتمع فيها حاج السوس الأقصى وطنجة» (3)، ولا شك أن هؤلاء ومعهم حجاج باقي نواحي المغرب الأقصى ، يمرون في طريقهم بتاهرت ، فتتاح لهم فرصة اللقاء بعلمائها ، كما أنهم يرافقون

(1) سلمان الباروني : **الأزهار الرياضية** ، ج 2 ، ص : 77 .
(2) البكري : **المغرب** ، ص : 117 .
(3) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 15 .

قوافل الحجاج الخارجة من تاهرت (1) ، وفي كل هذا مناسبة تم فيها عملية المزج الثقافي .

لم يكن التجار الذين أغلبهم من العلماء ، بمنأى عن المشاركة في هذه العملية ، فقد ساهموا بنصيب قل أو كثر (2) .

اتضح فيما سبق تشابه البنية الاجتماعية بين تاهرت وفاس ، ذلك أن سكان كل منهما يتألفون من قبائل بربرية وجماعات من العرب والفرس ، وبعض الأقليات كاليهود ، بمعنى أن الثقافة في العاصمتين هي مزيج من ثقافة بربرية ومشرقية اسلامية ، ومن هذا يظهر تشابه الثقافة فيهما ، مما قد يضعف من التأثر والتأثير بينهما ، ويقصره على التأثير العلمي .

يبدو أن الحركة العلمية في تاهرت كانت أوسع منها في فاس ، لأنها معبر الراحلين الى الأندلس وفاس وسجلماسة ، ولقربها من القيروان ، واعتمادها مبدأ الحرية ، ولما كانت الرحلات العلمية في الغالب ، في تلك الفترة ، باتجاه الشرق ، كان من المحتمل أن علماء فاس تأثروا بتاهرت أكثر مما أثروا بها .

ومهما كان الأمر ، فان علاقة ثقافية متينة ، ربطت فاس بتاهرت ، بغض النظر عن المذهب السائد ، أو الأسرة الحاكمة ، وما كان ذلك ليتم لولا احترام كل منهما لمبدأ السلم وحسن الجوار ، الأمر الذي أدى الى اقامة علاقات اقتصادية بينهمـــا .

3 ـ التجارة بين تاهرت وفاس :

من المفيد في بداية الأمر ، الكشف عما اذا كانت هناك علاقة تجارية بين تاهرت وفاس أم لا ، فقد أشار ابن الصغير الى أن السبل استعملت من تاهرت «الى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة» ـ كما سبق

---

(1) أشار ابن الصغير الى خروج أبي اليقظان الى الحج «فخرج مع قافلة الناس حتى ورد مكة» أنظر : **السيرة** ، ص : 27 .

(2) الطاهر احمد مكي «**يحيى بن يحيى**» دعوة الحق ، 1960 ، ص : 51 .

ـ وكلمة مغرب يفسرها الباروني بأنها المغرب الأقصى والأندلس (1) ، أي أنها مغرب بالنسبة لتاهرت ، في نفس الوقت ، يبدو أن فاس شهدت حركة تجارية نشيطة ، فذكر ابن ابي زرع أن ادريس الثاني أدار الأسواق حول المسجد الجامع ، ويؤكد ابن القاضي ذلك ، فيذكر ، أن فاس قصدها التجار وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر ، وسيقت اليها خيرات الأرض ، وقد سمح هذا العمل التجاري بظهور طبقة ثرية بدأت تتسع في مدارها التجارى ، فأصبحت فاس يتجهز منها « الى بلاد السودان والى بلاد المشرق » (2) ، بمعنى أنها بدأت تساهم في تجارة خارجية ، حتى أصبحت « اليها تقصد القوافل ويجلب الى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة » (3) ، كانت نتيجة هذا أن استجدت « في العمران وبنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار» (4) ، ويظهر بعد كل هذا أن ما ذكره ارشيبالد قد جرد من معناه ، فقد أشار الى أن مدينة فاس كانت «مركزا اداريا وزراعيا في القرن الثامن الميلادي ولكنها لم تكن مركزا للتجارة » (5) ، ويستنتج مما تقدم أنها ارتبطت بتاهرت بعلاقة تجارية .

مما يؤكد مثل هذا الارتباط وقوع العاصمتين على الطريق الرئيسي بين الشرق والغرب ، فقد ذكر قدامة بن جعفر أن وراء افريقية بلاد تاهرت ، ووراء هذه بلد المعتزلة ودارهم طنجة ـ كما سبق ـ وقد عبر الاصطخري عن ذلك فذكر بخصوص الأدارسة أن بينهم وبين افريقية تاهرت الشراة ، أضف الى هذا أن اليعقوبي ذكر تاهرت على الطريق من الشرق الى الغرب ، وأن وجود هذا الطريق يدل على أن هناك جماعات ترحل بين المدينتين ، بعض النظر عن هدف رحلتها الذي لا يخلو من غاية تجارية

---

(1) سليمان الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ص : 9 ـ 10 .

(2) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 181 وعن تجارة فاس ، أنظر : ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 19 . ابن القاضي : **جذوة الاقتباس** ، ص : 25 .

(3) الادريسي : **صفة المغرب** ، ص : 79 . أشار أرسلان شكيب الى أن قطعة من بين القطع التي عثر عليها في سويسرة كانت « مضروبة في زمان ادريس مؤسس الدولة » أنظر : **غزوات العرب** ، ص : 336 .

(4) ابن خلدون : **العبر** ، ج 4 ، ص : 29 .

(5) أرشيبالد : **القوى** ، ص : 208.

ذكر اليعقوبي أن الخارج من تاهرت باتجاه عاصمة الأدارسة يمر أولا على مملكة ابن مسالة الهواري ـ السابق الذكر ـ ومنها الى مدينة يقال لها يلل ومنها الى مدينة ايزرج ، ومن هذه الى مدينة تلمسان ، الا أن ابن حوقل يذكر أن الخارج من تاهرت يمر في بداية أمره على مدينة افكان ومنها الى وادي الصفاصف ثم الى تاتانلوت ومنها يخرج الى تلمسان (1) ، ترى هل تغير طريق تاهرت الى تلمسان بعد اليعقوبي ؟ أم أن ما ذكره ابن حوقل هي مواضع أخرى على نفس الطريق (2) ؟

لا يقدم اليعقوبي المسافة بين تاهرت وتلمسان ولا الزمن اللازم لقطعها ، الا أن ابن خرداذبة جعل ذلك الزمن « مسيرة خمسة وعشرين يوما » وهذا تقدير مشكوك في صحته ، فإن الأدريسي يذكر أنها أربعة مراحل ، فمن المستبعد أن تستغرق هذا الوقت كله ، خاصة وأن قدامة بن جعفر يذكر أن بين تاهرت وافريقية مسير ثلاثين يوما

كانت الطريق بين تاهرت وتلمسان عامرة بقبائل زناتة وهي بنو مرين ، ورتطغير وزير وورتيد وماني واومانوا وسنجاسة وغمرة ويلومان وورماكسين وتجين وورشفان ومغراوة وبنو راشد وتمطلاس ومنان وزقارة وتيمني ، وكانت ظواعن ، كما وصف ابن خرداذبة الطريق بأنها « عمران كلها » (3) أما اليعقوبي فقد وصف تلمسان بأنها « المدينة العظمى المشهورة بالمغرب » (4) ، الأمر الذي يسمح للتجار باجراء عمليات تجارية ، والتزود بما يحتاجون لمواصلة المسير الى فاس .

يخرج المسافر من تلمسان الى «المدينة التي تسمى مدينة العلويين» ومنها الى مدينة يقال لها نمالته ، ثم الى مدينة فالوش أهلها بطون البربر من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وانجفة وغيرها ، ومنها يخرج الى مملكة صالح ابن سعيد ومدينته

---

(1) عن الطريق ، انظر : اليعقوبي : **صفة** ، ص : 14 . الاصطخري : **المسالك والممالك** ، ص : 37 . ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 88 .

(2) يذكر الإدريسي الطريق من تاهرت الى ندّاي مرحلتان ثم الى تادرة مرحلة ومنها الى تلمسان مرحلة ، أنظر : **صفة** ، ص : 87 .

(3) ابن خرداذبة : **المسالك والممالك** ، ص : 88 .

(4) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 14 .

نكور (1) ، ثم الى مملكة بني ادريس ، فيدخل أول بلد منها يقال له غميرة ، ثم يغادرها الى ملحاص لخانة ، ومنها الى قلعة صدينة ثم الى حصون وعمارات على نهر لمهارنة (كذا في الأصل عند اليعقوبي) ومن هناك الى نهر سبو ، ثم « يدخل الى المدينة العظمى التي يقال لها مدينة افريقية على النهر العظيم الذي يقال له فاس » (2) .

يلاحظ أن اليعقوبي أوجز في وصف الطريق من تلمسان الى نمالته ، فكان ابن حوقل أكثر تفصيلا منه ، فذكر أن الخارج من نمالته يصل الى كرانطة ومنها الى تازا ثم الى مزاور واثم الى تابريدا ، ومنها الى صاع ثم الى جراوة أبي العيش ـ تبعد 6 أميال عن البحر ـ وجولها عدة قرى لقبائل مطغرة ويفرن وودانة ويغمر الجبل وبني راسين ، ومنها الى ترفانة (3) ، ثم الى تلمسان (4) .

يلاحظ أن اليعقوبي وابن حوقل يشتركان في ذكر تلمسان ونمالته وسبووفاس ويختلفان في وصف ما بينها ، ويبدو أن هذه المدن المذكورة ، كانت محطات رئيسية على طريق تلمسان ـ فاس ، ثم تفترق الطرق فيما عداها ، من الممكن بهذا التفسير اختلاف الزمن اللازم لقطعها ، فقد ذكر الإدريسي أن الطريق من فاس الى تلمسان تسع مراحل ، وبذلك تكون الطريق من تاهرت الى فاس ثلاثة عشر مرحلة ، في حين يجعلها الاصطخري خمسين مرحلة ، أما البكري فقد جعل الطريق من القيروان الى فاس أربعين مرحلة ، وعلى كل فان قدامة بن جعفر يجعل الزمن اللازم لقطع المسافة بين تاهرت وطنجة أربعة وعشرين يوما (5) الا أن ابن خرداذبة يجعلها أربعة وعشرين ليلة ، وهو في هذا يوقع نفسه في خطء بديهي ، أمل أبو الفداء فقد جعل الزمن من تلمسان الى فاس مسير عشرة أيام (6) .

(1) وردت عند اليعقوبي (ناكور) وفي كتاب **الاستبصار** (نكر) انظر : ص : 136 ، وعند ابن خرداذبة (فنكور) انظر : المكان السابق .

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 356 ـ 357 .

(3) وردت في «**الاستبصار**» ترنانا ، وعند البكري والإدريسي ترنانة .

(4) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 88 . وقد وردت عنده تلمسان على صورة (تنمسان) ربما من المحقق بسبب تآكل اللام .

(5) قدامة بن جعفر : **كتاب الخراج** ، ص : 265 . من سبتة الى فاس 6 أيام عند البكري ، فتكون الطريق من فاس الى تاهرت حوالي 19 يوما .

(6) أبو الفداء : **تقويم البلدان** ، ص : 123 .

قد أشرنا سابقا ـ اعتمادا على اليعقوبي ـ الى مراكب تاهرت في مرسى فروخ ، فكان من المرجح أنها جابت السواحل ، وهي محملة بالسلع التجارية ، في نفس الوقت يذكر اليعقوبي أن ماسة ـ قرية على المحيط الأطلسي ـ تحمل اليها التجارات وتأتيها المراكب الخيطية ، «التي يركب بها الى الصين»،وبهذا من المحتمل أن هذه المراكب ساهمت في تجارة تاهرت مع مدن المغرب الأقصى ، وان مراكب تاهرت قد وصلت هي الأخرى الى ماسة مرورا بموانيء المغرب مثل نكور وسبتة وطنجة وأصيلا وغيرها .

على كل حال ، فان ذكر الطريق من قبل الجغرافيين الرابط بين العاصمتين ، كاليعقوبي وابن خرداذبة وقدامة وغيرهم ، يدل أن هناك قوافل تسيير بينهما ، ويفهم من عبارة لابن الصغير أن بعضا من هذه المراكب كان ملكا لتجار تاهرتيين ـ ان لم تكن جميعها ـ ممن اشتهر بالتجارة كالرستميين والعرب ، وكان العراقيون في تاهرت ، فمن المرجح أنهم شاركوا بها ، فقد أشرنا الى أن أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميرى (1) ، اضافة الى ذلك ، فقد ذكره ابن أبي زرع ، أنه وفد على ادريس الثاني «جمعة من الفرس من بلاد العراق فأنزلهم بناحية عين علون» في مدينة فاس ، ومن المؤكد أنهم ربطوا فاس بتاهرت ، خاصة وأن أسرة فارسية تحكم تاهرت ، والى جانبهم جماعة من جنسهم ، الأمر الذي يشجع اقامة مثل تلك العلاقات .

ذكرنا أن يحيى بن يحيى بن محمد ـ الأمير الادريسي ـ دخل الحمام على النساء بسبب امرأة جميلة وقد كانت تلك المرأة يهودية ، وهذا يدل على وجود اليهود في مدينة فاس في عهد الأدارسة ، حتى وصفها البكري ـ فيما بعد ـ أنها «أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها الى جميع الآفاق» (2) ، وقد وجد هؤلاء في مناطق مختلفة من المغرب الأقصى ،فكان لهم وجود في مدينة نكور ، ويبدو أن عددهم بها كان كبيرا حتى أطلق على أحد أبوابها «باب اليهود» (3) ،

(1) كان كثير من تجار البصرة اباضية ، انظر : T.LEWICKI, *The Ibadites in Arabia and N. Africa...*, p. 73

(2) البكري **المغرب** ، ص : 115 . القزويني : **آثار البلاد وأخبار العباد** ، ص : 103 . ابن ابي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 204 .

(3) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 176

وقد سبقت الإشارة الى وجودهم في مدينة تاهرت ، والى شهرتهم بالأعمال التجارية ، الأمر الذي يؤكد مساهمتهم في تنشيط الحركة التجارية بين العاصمتين .

لقد سبق ذكر جماعة من القرويين هاجرت الى فاس ، ويبدو أن هذه الجماعة لم تنس موطنها الأصلي ، فظلت على صلة دائمة به ، فكثر خروجهم من فاس شرقا الى افريقية ، ومن المؤكد أن تكون رافقتهم جماعات أخرى من غيرهم ، ويظهر أن عدد الخارجين من فاس بصفة عامة باتجاه الشرق والداخلين اليها منه كان ملحوظا ، حتى أطلق على أحد أبوابها « باب افريقية » (1) ، ولا شك أنه كان من بين هؤلاء الداخلين والخارجين من كان على صلة بالأندلس ، فقد أشرنا سابقا ـ على سبيل المثال ـ الى وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي الذي خرج من البصرة الى الأندلس تاجرا بالوشي (ت سنة 237 هـ / 851 م) والى محمد بن موسى الرازي الذي كان كثير التردد على الأندلس فقد ساهم هؤلاء في عملية التبادل التجاري بين البلدين ، ورغم أننا لا نعرف أسماء تجار تاهرت الوافدين على فاس أو العكس ، الا أنه من الممكن أن يكون ابن الخراز أحمد بن فتح التيهرتي ـ السابق الذكر ـ مثالا ، فقد كان في البصرة ـ بصرة المغرب ـ تاجر خز (2) .

ليس من السهل تحديد السلع التي كانوا يتبادلونها ، خاصة وأن اليعقوبي بصفته معاصرا ـ لم يشر الى ذلك ، وأن العاصمتين اشتهرتا بالإنتاج الزراعي والحيواني (3) ، فمن المحتمل والحالة هذه أن معظم تجارتهما كانت بسلع مشرقية ، بسبب الفارق الحضاري بينهما وبين بغداد ، وأحيانا بسلع محلية تشتهر بها منطقة دون أخرى ، وبهذا من الممكن أن تاهرت استوردت الخز السوسى الذي اشتهر به المغرب الأقصى ، وقد أشار ابن حوقل الى وجود قصب السكر في بلاد السوس الأقصى ، ويبدو أن هذه السلعة كانت تنقل عن طريق ميناء ماسة ، فان صاحب « الاستبصار » يذكر أن من ماسة « يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والأندلس وافريقية (4) » ، كذلك من الممكن أن القطن كان يصدر الى تاهرت ،

(1) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، ص : 20 ، ابن القاضي : **جذوة المقتبس** ، ص : 16 .

(2) سليماز الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ، ص : 77 .

(3) كان « القمح بمدينة فاس بثلاثة دراهم للوسق » في عهد الإدريسي ، أنظر : ابن القاضي : **جذوة** ، ص : 114 ، ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص : 59 .

(4) مؤلف مجهول : **كتاب الاستبصار** ، ص : 211 .

فقد أشار ابن حوقل الى وجوده في البصرة ، فذكر أن « لها غلات كثيرة من القطن المحمول الى افريقية وغيرها » (1) ، كما أشار الإدريسي الى وجود النحاس الخالص ، في مدينة داي ـ قرب جبل درن ـ وأنه يحمل الى سائر البلاد ، ويضيف ابن أبي زرع أن النحاس كان موجودا على مقربة من مدينة فاس ، في نفس الوقت ، يفهم من كتاب « الاستبصار » أنه كان يصدر منها في العهد الادريسي ، ولما كانت تاهرت تفتقر الى المعادن ، كان من المحتمل أنه صدر اليها من فاس .

ساعد الأدارسة أنفسهم على ازدهار الحركة التجارية ، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ، باتباعهم سياسة العدل ، فقد أشار ابن قدامة الى أنه على بلاد طنجة « رئيس عادل وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة » (2) ، وهو ولد محمد بن ادريس ، ويبدو أنه يشير الى علي ، فقد ذكر ابن الخطيب أن هذا تمتع « بسيرة في العدل والفضل والدين وضبط الثغور وكان الناس في أيامه في أمن ودعة » (3) ، ويبدو أن حب الأدارسة للعدل كان منذ عهد الإمام الأول ، واضافة الى عدلهم ، فقد اهتموا ببناء المرافق التجارية ، فبنوا الحمامات والفنادق .

ومن المحتمل أن الحركة التجارية بين تاهرت وفاس ، قد تعرضت لبعض الهزات حين مرت على البلاد سنوات قحط ، على أن هذا لا يقلل من ازدهارها ، حتى غدت فاس كما وصفها اليعقوبي ـ « مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل » (4) .

ذكر دانييل أن « المغرب زخر في عهد الأدارسة بالمصانع التي عفا رسمها الآن (5) والتي كانت تستعمل لصك النقود ، وقد أشار كولان G. S. Colin الى مجموعة من هذه النقود الإدريسية ، وجدت في مدينة وليلي (6) ، ويهمنا

(1) ابن حوقل : **صورة** ، ص : 81 .

(2) قدامة بن جعفر : **كتاب الخراج** ، ص : 285 .

(3) هذا يجعل ما ذكره العبدري في رحلته لا ينطبق على العهد الإدريسي ، فقد ذكر أن الخارج من فاس الى الشرق يسير « في خوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه » ، انظر : **رحلة** العبدرى ، ص : 2 .

(4) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 15 .

(5) دانييل أوستاش : « **تاريخ النقود العربية** » ترجمة عبد اللطيف أحمد خالص ، مجلة البحث العلمي ، يناير 1969 ، ص : 138 .

(6) G.S. Colin, *Monnaies de la période idrisite trouvées à Volubilis*, Hespéris, 1936, t. XXII, pp. 113-125.

منها قطعتين برنزيتين ، يقرأ على الأولى : «ضرب هذا الفلس بوليلة» ، وعلى الوجه الآخر : «مما أمر به راشد بن قادم» ، ويقرأ على الثانية : «ضرب هذا الفلس بتيهرت» ، وعلى الوجه الآخر : «مما أمر به راشد بن قادم» (1) ، ويستبعد كولان أن يكون راشد هذا هومولى ادريس ، لأن اسم المولى راشد بن مرشد ، ويحتمل أن راشد بن قادم كان تابعا للعباسيين قليلا أوكثيرا ، وبذلك فمن المرجح أن يكون ضربهما قبل تأسيس دولة الأدارسة ، لأن المغرب منذ هذا التاريخ اقتطع عن الخلافة ، ومهمَا كان الأمر ، فإن هذا يؤكد على وجود الروابط الإقتصادية المتينة بين العاصمتين ويعطي لعبارة ابن الصغير المتعلقة بتجارة تاهرت الخارجية مضمونا واسعا .

من جهة أخرى ، أشار الزبيدي الى وجود الصيارفة في القيروان (2) ، ومن المؤكد أن هذا النظام انتقل الى تاهرت وفاس ، بحكم العلاقة بينهما ، ومعنى ذلك أن الصيارفة وجدوا كذلك في هاتين العاصمتين ، مما يسهل عملية التبادل التجاري ، ويكشف عن أنها لم تكن بالمقايضة فحسب ، .

مما تقدم يتضح لنا أن الأدارسة كانوا كغيرهم من الأسر الحاكمة في تلك الفترة ، عاجزين عن الوقوف أمام شعور البربر بانتمائهم الى كيان وطني واحد ، مما فرض عليهم المحافظة على حسن الجوار واقامة علاقات متنوعة اجتماعية وثقافية وتجارية وغيرها .

ب ـ تاهرت وبنو مدرار في سجلماسة :

1 ـ الموقف السياسي بين تاهرت وسجلماسة :

يبدو أن علاقة صفرية سجلماسة باباضية تاهرت تبتدىء قبيل اقامة الدولة الرستمية ، اذ أن حروب هؤلاء مع الخلافة ، ممثلة بولاة القيروان ، خلقت نوعا من الإضطراب في منطقة المغرب الإسلامي ، شغل الخلافة وسمح لصفرية مكناسة أن يستغلوا نأيهم عن القيروان ، فيجتمعوا في جنوب المغرب الأقصى

(1) انظر : من القطع النقدية عند كولان ، رقم 15 ـ 16 .
(2) الزبيدي : **طبقات النحويين واللغويين** ، ص : 252 .

ويستقلوا بأنفسهم (1) ، وكانوا زهاء أربعة آلاف ، ثم قدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود ، وباشروا العمل لبناء عاصمتهم سجلماسة سنة 140 هـ / 757 م ، وقد ذكر أرشيبالد أن تأسيس سجلماسة يرجع للرستميين (2) فان لم يكن هذا خطا عفويا ، فهو لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها في عبارته تلك ، ولا الكيفية التي شارك بها الرستميون ، فهل كان أحد أبناء عبد الرحمن بن رستم في تلك المنطقة ؟ لأن وضع الاباضية كان حرجا في القيروان في تلك الفترة ، أو ربما تم ذلك بواسطة جماعة اباضية في منطقة سجلماسة ، وكانوا على اتصال بعبد الرحمن .

على كل ، أقام عيسى بن يزيد أميرا عليهم نحو خمسة عشر عاما ، ثم نقموا عليه ، أشياء فشدوه وثاقا ووضعوه على قمة جبل ، فلم يزل كذلك حتى مات ، وتجدر ملاحظة أن عيسى هذا «من موالي العرب ورؤوس الخوارج» (3) وأنه كان أسودا ، ولو كان بربريا أسود البشرة ، لنسب الى قبيلة ما ـ على الأقل ، فيبدو أنه كان من أفارقة القيروان ، واعتنق المذهب الخارجي شأن عبد الأعلى ابن جريج الرومي أو الإفريقي ـ السابق الذكر ـ خليفة ميسرة ، وبذلك لم يكن عيسى مكناسيا ، فكان اسناد الإمارة اليه يشبه الى حد بعيد اسنادها الى عبد الرحمن بن رستم في تاهرت ـ من بعد ـ واذا كان الأمر كذلك ، فهذا يعني أنه كان مذهبيا متعصبا ، شديد العداوة للخلافة الإسلامية ، وقد عبر عن موقفه هذا بنقضه طاعة الخلافة (4) ، الأمر الذي يوحي بانه كان ـ من المحتمل ـ حليفا للرستميين في تاهرت ، في صراعهم ضد ولاة القيروان ، وربما جرت بينهما اتصالات بهذا الشأن .

ربما كان هذا الموقف أحد الأشياء التي نقموها عليه سنة 155 هـ / 771 م فشدوه وثاقا بسببها ، اذ الملاحظ أن هذه النقمة جاءت مباشرة على أعقاب

---

(1) ذكر السلاوي أنه «لما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة» ، انظر : **الاستقصا** : ج 2 ، ص : 111 . وعن تأسيس سجلماسة وابي القاسم وعيسى ، أنظر : دانييل : «**الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**» دعوة الحق ، 1969 ، ع 2 ، 5 ، ص : 6 .

(2) أرشيبالد : **القوى البحرية** ، ص : 28 .

(3) عنه انظر : ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 267 . ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 79 .

(4) ابن خلدون : المكان السابق . القلقشندي : **صبح الأعشى** ج 5 ، ص : 164 .

حصار طبنة ـ السابق الذكر ـ فمن المحتمل أن أبا قرة اليفرني قد اتصل به كما اتصل بغيره من قادة الخوارج ، صفرية واباضية ، وربما أنه حاول الاشتراك في الحصار جنبا الى جنب مع جيوش الخوارج ، بما فيها الجيش الرستمي ، الا أنه لم يظهر في الحصار ، فربما تغلب العامل البشري على العامل المذهبي ، فشده المكناسيون وقتلوه (1) ، وربما لعب أبو القاسم سمكو (سمغو) بن واسول المكناسي دورا رئيسيا في هذه النهاية ، فقد كان هو الذي بايع عيسى وحمل قومه على طاعته ، وكان «اباضيا صفريا» (2) ، وهذا يعني أنه لم يكن واضح المذهب ، مما يؤدي الى ضعف تعصبه لمذهب معين ، ويظهر أنه كان مسالما للخلافة ، لا يكن لها عداء باعتباره خارجيا ، اذ حين انتقل أمر سجلماسة اليه ، بعد مقتل عيسى ، خطب في عمله للمنصور والمهدي ، ويبدو أنه ارتأى امكانية استقلاله بدولته دونما معاداة لبغداد والقيروان ، خاصة وأن موقع سجلماسة المتطرف نحو الجنوب ، جعلها مدينة هامشية بالنسبة للدولة الإسلامية وكل هذا يشير الى أنه كان يعارض اشتراك جيش سجلماسة في حصار طبنه الى جانب الرستميين ، ولم يطل تأثير سياسة ابي القاسم على العلاقة بين العاصمتين ، لأن عبد الرحمن نفسه قد مال الى مسالمة القيروان ـ كما سبق ـ ومنذ ذلك الحين ، لم تعد عداوة تاهرت وسجلماسة لبغداد والقيروان تجمع بينهما (3) .

من جهة ثانية ، فقد ذكر الفرد بل A. Bell. ، أنه حدث في اجتماع مجلس عيسى بن يزيد أن قام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، ووصفه بأنه منافق وقتله في الحال (4) ، وهذه العبارة بالغة الأهمية ، فهي تكشف

---

(1) ربما كان سبب هذه الحادثة محاولة مكناسة نقل الإمارة اليها ، تحقيقا لفكرة الاستقلال الوطني ، ونجحوا في هذا الى حد ما ، وربما أوحى نجاحهم لابن فندين فيما بعد ليقوم على الإمام عبد الوهاب .

(2) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 268 .

(3) ذكر ابن تاويت أن عبد الرحمن «قد مد يده لبني واسول أصحاب سجلماسة ليكونوا يدا واحدة على صد ما عساه أن يلحقهم من ضرر العباسيين «أنظر : **دولة الرستميين** ، ص : 116 ، وما دام موقف ابي القاسم من بغداد كما ذكرنا ، فمن المحتمل أن ذلك وقع في عهد عيسى بن يزيد ، عهد الحماس الذهبي ، والا فان وقع اتصال فيما بعد فهو يحمل صبغة تجارية .

(4) ذكر البكري «السودان كلهم سراق حتى هذا وأشار الى عيسى «**المغرب** ، ص : 149 ،

عن نفوذ الاباضية في دولة سجلماسة ، وعن العلاقة بين المذهبين الاباضي والصفري ، وقد تجيز اعتبار سجلماسة امتدادا للدولة الرستمية ، الا انها ستفقد أهميتها كلية اذا علمنا أن أبا الخطاب ـ المذكور ـ الذي شارك في مجلس عيسى ليس هو أبو الخطاب المعافري ، فقد ذكره ابن الخطيب على صورة : «أبو الخطاب الصفري الزناتي» (1) ، وجعله حاكم سجلماسة ، تحمل أمر امارتها مدة أربع وعشرين سنة وتوفي سنة 191هـ / 806م في حين أن أبا الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري ، كان يمنيا ، وامام الاباضية في طرابلس ، وقتل سنة 144 هـ / 761 م على يد محمد بن الأشعث ـ كما سبق ـ وقد أجمع مؤرخوالاباضية ومن تأثر بهم على هذا القول ، الأمر الذي يجعل امكانية الفصل بين الشخصيتين مسألة قائمة (2) .

على أنه من المحتمل أن يكون أبو الخطاب ، أو غيره من زعماء الاباضية ، قد عرف المنطقة في بداية دخوله المغرب ، وقبل اجتماع الاباضية في صياد ، فكسب اتباعا هناك ، وبهؤلاء صارت تاهرت تمارس نفوذا في سجلماسة .

توفي أبو القاسم سمكو سنة 167 هـ / 783 م ، فولي الأمر بعده ابنه الياس ، ولم تطل مدة حكمه حيث تمكن أخوه اليسع من نقل الإمارة اليه ، وربما يدل هذا على ضعف شخصية الياس ، مما أدى الى ضعف دوره في مجال العلاقات بين تاهرت وسجلماسة ، بينما كان اليسع على العكس منه ، قوي الشخصية ، فذكر عنه أنه كان جبارا عنيدا فظا غليظا ، بدأ يمارس نشاطا توسعيا ، فذكر ابن الخطيب أنه «غزا بلاد درعة وأخذ خمس معادنها» (3) ، وأضاف ابن خلدون أنه «دوخ بلاد الصحراء»، وقد ظفر بمن عانده من قبائل البربر وقهرهم وأذلهم ،

---

(1) ابن الخطيب : **اعمال الاعلام** ، ص : 140 ، وقد انفرد من بين مشاهير مؤرخي المغرب بذكر أبي الخطاب هذا ، وورد عند البكري على صورة «أبوالخطاب» أنظر : البكري . **المغرب** ، ص : 149 . ولم يرد له ذكر في قائمة أمراء سجلماسة عند باساك ، أنظر : BASSAC : « *æidjilmassa* » **B.S.G.A.A. Nº 1930, Nº 121-124, p. 234.**

(2) قد يكون بينهما تطابق في الإسم الشخصي على اعتبار أن لقب «ابو الخطاب» يطلق على من يدعي عبد الأعلى كما يطلق لقب «أبو العباس» على من يدعي احمد .

(3) ربما كان هذا الغزو هدف اقتصادي فقد «كان حولها معادن ذهب وفضة» أنظر : **اليعقوبي** : البلدان ، ص : 359 .

ومع ذلك لم يذكر أحد من المؤرخين أنه حاول أن يتوجه بجنوده ناحية تاهرت ، ويدل هذا ـ مهما كانت الأسباب ـ أنه كان متخذا موقفا مسالما من الرستميين ، محافظا على حسن الجوار ، ربما يعود ذلك الى طبيعة مذهبه ، فهو وان كان أظهر مذهب الصفرية من الخوارج وقاتل عليه ، الا أنه كان يميل الى المذهب الاباضي حتى قال عنه ابن خلدون ، أنه كان «اباضيا صفريا» (1) ، وربما يعود ذلك الى أنه كان ثريا ، فقد هدم سور سجلماسة ، وأعاد بناءه على نفقته ، وأنفق فيه أمواله جليلة ، كما شيد بسجلماسة المصانع والقصور ، ويبدو أن تلك الأموال كانت ثمرة حركة تجارية ، كانت تاهرت أحد أطرافها ، وبذلك كان عليه أن يتخذ ذلك الموقف استجابة لمصلحته التي التقت بمصحة عبد الوهاب ، فقد ذكرنا أن هذا كان تاجرا بدوره ، وأن تاهرت كانت مضطربة في عهده ، وحتى لو صح ما ذكره ابن الصغير بشأن عظمته ، فهو لم يشر الى أن نفسه حدثته بالمسير الى سجلماسة (2) .

يبدو ان اليسع قد استفاد من تاهرت بعض الأفكار السياسية ، فقد ذكر ابن الخطيب أنه «قسم داخل السور على القبائل» (3) ، على غرار ما كان متبعا في تاهرت منذ تأسيسها ، ومن المرجح أن هذا النظام قد انتقل الى اليسع ، سواء أكان بواسطة رحلة أداها الى تاهرت قبل توليه الإمارة ، أو عن طريق اتباعه من السجلماسيين ، وقد يؤكد هذا ما شهدته العلاقة بين البلدين في عهده .

ذكر ابن خلدون أن اليسع «أصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى» (4) ، والعبارة واضحة صريحة ، فهي تكشف عن ارتباط سجلماسة بتاهرت بعلاقة النسب ، الا آنه يمكن أن يستشف منها أمور أعمق ، فهي تدل على أن اتصالات شخصية مباشرة كانت تتم بين بني مدرار والرستميين خاصة ، وبين السجلماسيين والتاهرتيين عامة ، فان حادثة الزواج هذه ،

---

(1) ابن خلدون : المكان السابق ، ربما يفهم من هذه العبارة أنه كان اباضيا أكثر منه صفريا .

(2) نذكر بأن ابن الصغير كان قد أشار الى أن عبد الوهاب وصل بجيوشه الى تلمسان وحاصر طرابلس .

(3) ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، ص : 143 . البكري : **المغرب** ، ص : 148 .

(4) ابن خلدون العبر ، ج 6 ، ص : 268 . ذكرها ابن الخطيب «هنو» أنظر : المكان السابق ، وجعله الباروني «مدرار بن الياس» أنظر : **الأزهار الرياضية** ، ج 2 ، ص : 93 .

تدل على أن اليسع نفسه كانت له سابق معرفة بتاهرت وبالرستميين مما أتاح له فرصة التعرف على أروى ، فيقبلها شريكة ابنه في حياته ، وربما تم ذلك قبل توليه الحكم ، وربما أثناء حكمه ، والمهم في الأمر ، أن هذا الزواج يكشف عن طيب العلاقة بين تاهرت وسجلماسة في عهده ، والذي كانت عهود سابقيه مقدمة لهذا الطيب ، ومن المفيد أن نحتمل من هذا الإتصال بين الأمير عبد الوهاب واليسع انهما عقدا اتفاقيات أخرى بينهما ، كانت منها تجارية ، بحكم اشتغالهما بالتجارة ، وكانت منها سياسية ، ويمكن النظر الى هذا الزواج نفسه ، أنه عنوان هذه الاتفاقيات ، واعتباره زواجا سياسيا ، كما يحدث في كل زمان ومكان ، فان عبد الوهاب كان بحاجة الى حلفاء ، فهو في موقع متقدم من القيروان ، بالنسبة للإمارات الخارجة على بغداد ، وهو يعاني فوضى ومؤامرات داخلية ، ومن جانب اليسع ، يبدو أنه كان يرى عدم قدرته على التوسع شرقا بالطرق العسكرية ، فلجأ الى توثيق العلاقة مع تاهرت بالوسائل السلمية ، فكسبها الى جانبه ، مما يمكنه أن يستمدها العون في حروبه (1) .

من المحتمل أن يكون مدرار (2) نفسه قد عرف تاهرت ، وكان على اتصال بأمرائها الرستميين ، ويبدو أن هذا الإتصال كان وثيقا ، أتاح له فرصة مشاهدة أروى ، أو سمح له أن ينال موافقة الرستميين على زواجه بها ، ومهما كان الأمر ، فان حكم سجلماسة ، انتقل إليه أثر وفاة والده ، ومن الطبيعي أن يظل على اتصال دائم بأنسابه ، وأن العلاقة ودية في شتى المجالات ، أو قل على الأقل ، أنه من الطبيعي أن تظل أروى على صلة بأهلها وموطنها ، ومن المحتمل أنها لعبت دورا هاما في التقريب بين المدراريين والرستميين ، فقد كانت على حظ وافر من العلم ، الأمر الذي يعني ، أنها ربما شاركت في الحياة السياسية في سجلماسة.

على كل ، لم يزل مدرار أميرا الى «أن اختلف الأمر بين ولديه ميمون المعروف ، بابن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم ، وابنه ميمون أيضا المعروف

---

(1) حول أهمية هذا الزواج ، انظر : الباروني : المصدر السابق .

(2) توفي اليسع سنة 208 هـ / 823 م فانتقل الحكم الى مدرار حتى سنة 253 هـ / 867 م ، انظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص : 269 . القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 166

بابن تقية» (1) ، ويبدو أن هذا الخلاف يمثل صراعا بين الموالين للرستميين ممثلين بميمون بن أروى ، وبين المحافظين علي استقلالهم وعدم الإنقياد لجهة ما ، ممثلين بميمون بن مدرار ـ والمهم في الأمر ، أن مدرار والدهما قد مال «مع ابن ميمون بن الرستمية وأخرج أخاه ابن بقية من سجلماسة » (2) وهذا الموقف أعمق مما قد يبدو لأول وهلة ، من أنه نصرة ابن علي ابن ، أنه يعني نصرته للتيار الموالي للرستميين ، مما يؤكد على سياسة مدرار تجاه هؤلاء ، وعلى طيب تلك السياسة ، ويبدو أن موقفه ذلك كان مبدئيا ، أكثر منه ارتجاليا ، اذ حين خلع أهل سجلماسة ميمون بن أروى وأعادوا مدرار الى الحكم ، حدث نفسه باعادة ابنة ميمون المخلوع وكأن هذا يعني اصراره على نصرة التيار الرستمي ، الا أنه على ما يبدو أن التيار الثاني ـ الموالي لميمون الأمير ـ كان أشد وأقوى ، فقد تمكن أتباعه من اخراج ميمون بن أروى من سجلماسة الى درعة (3) ، ثم أخرجوا أباه وأمه الى بعض قرى سجلماسة .

على كل ، يمكن أن يكون تأثير مدرار في مسار العلاقة بين تاهرت وسجلماسة قد امتد حتى وفاة أجله ، وقد كان معاصرا للإمام افلح ، الذي كان تاجرا ومسالما لبغداد والقيروان ـ كما سلف ـ وبهذا كان من المحتمل أن تكون التجارة هي عصب العلاقة بين العاصمتين ، الأمر الذي يفرض استمرارها ، حتى في فترة استبداد ابن تقية الى حين وفاته سنة 263 هـ /876 م (4) ، على أن هذا لا يقلل من دور العامل السياسي الذي يمكن وراء تلك الأحداث ، وقد أشار إليه سليمان الباروني فذكر أن اضطرابات ابن تقية ومن تبعه من الصفرية كان «خوفا من انضمام ملكهم الى ملك بني رستم» (5) فهل كان الرستميون وراء

(1) البكري : **المغرب** ، ص : 150 . ابن عذاري : **البيان** ، ج 1 ص 157 .
(2) ابن عذارى : المكان السابق ، ابن الخطيب : **أعمال الإعلام** ، ص : 143 .
(3) ابن عذارى : **البيان** ، ج 1 ، ص : 157 . وقد ذكر ابن خرداذبة أن «في يدي الخارجي الصفري درعة» أنظر : **المسالك والممالك** ، ص : 88 . وقد أشار ابن حوقل الى أن أهلها شيعة ، أنظر : ابن حوقل : **صورة** ، ص : 99 .
(4) ابن عذاري : المكان السابق . ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، ص : 144 . القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 166 .
(5) سليمان الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ، ص : 95 .

تلك الأحداث ؟ على أية حال ، ليس من المتوقع أن يكون طرأ تغيير على تلك العلاقة في فترة حكم محمد بن ميمون الأمير التي دامت سبع سنوات ، فقد كان مشغولا بحروب القبلة (الجنوب) فغزاها وملك مدينة تافلبالت ، كما كان اباضي المذهب (1) .

لم يكن وجود علاقات سياسية بين البلدين ، قائمة على الود والمسالمة ، يعني وجود أطماع سياسية ، اذ يبدو أن كلا منهما لم يكن يشغله أمر الطرف الآخر ، الا بمقدار ما يؤثر على مصلحته ، ويدل على ذلك ، موقف اليسع بن المنتصر من أحداث الفوضى التي شهدتها تاهرت في أواخر أيام الرستميين . فلم يذكر أحد من المؤرخين أنه ناصر فريقا على فريق من الأطراف المتصارعة فيها أو أنه حاول استغلال تلك الفوضى لكي يوسع حدود دولته ، علما بأنه كان قد «استكثر من الجيوش وأحسن السيرة وعزم على غزو مطغرة» (2) ، وعلما بأن تاهرت لا تبعد عن سجلماسة أكثر من عشرة مراحل ، بل أن موقفه من هجوم الشيعي على تاهرت ، يزيد سياسته تجاه الرستميين وضوحا ، فهو لم يحاول أن يحرك ساكنا ، وليس هناك ما يشير الى أنه قدم أية مساعدة لتاهرت ، أو حاول التحالف معها ، قد يعود هذا لسرعة الشيعي في قضاء أمره في تاهرت ، ولعدم بلوغه خبره في الوقت المناسب ، وحتى لو كان الأمر كذلك ، فان اهماله لأخبار الشيعي ، خاصة وهو يحتفظ بعبيد الله المهدي سجينا عنده ، يدل على أن نظره لم يكن يمتد أبعد من حدود دولته ، فهل كان للناحية المذهبية تأثير لتلك العلاقة ؟

2 ـ التبادل الثقافي بين تاهرت وسجلماسة :

لا يهمنا في هذا المجال بناء سجلماسة (3) ، بل المهم في الأمر أن القائمين عليه كانوا صفرية (4) ، وقد ولي أمرهم عيسى بن يزيد ـ كما سبق ـ الصفري

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ص 269 . السلاوي : **الاستقصا** ، ج 2 ، ص : 113 .
(2) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص : 145 . كان من الطبيعي بحكم العلاقة بين المذهبين أن يسود العداء بين العاصمتين .
(3) يعزى بناؤها الى عيسى بن يزيد ، أنظر : ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 225 ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص : 139 . مؤلف مجهول : **مفاخر البربر** ، ص : 48 نقلا عن عريب . القلقشندي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص : 165 ويعزي الى أبي القاسم سمكو انظر : ابن عذارى **البيان** ج 1 ، ص : 156 ويعزي الى مدرار بن عبد الله . أنظر : مؤلف مجهول : **كتاب** الاستبصار ، ص : 201 .
(4) ابن خلدون : المكان السابق . ابن عذاري : المكان السابق ، **الاستبصار** : المكان السابق .

المذهب ، وقد يكون هذا هو المقصود فيما ذكره أبو الحسن الأشعري ، فقد أشار بأنه «كان لرجل من الصفرية سلطان في موضع يقال له سجلماسة» (1) ومن الملاحظ أن المذهب الصفري لم يظل هو المذهب السائد في سجلماسة ، فقد ذكرنا سابقا ، أن أبا القاسم سمكو كان اباضيا صفريا ، ويبدو أن ابنه الياس قد أخذ مذهبه عنه ، فكان اباضيا صفريا ، كما أشرنا الى أن اليسع بن أبي القاسم ، كان اباضيا صفريا أيضا ، وحتى وان كان كما ذكره السلاوي صفريا ، فان هذا يدل على عدم وضوح مذهبه ، وكان خلفاؤهم من بعدهم على وتيرتهم من غموض المذهب ، فهم يتأرجحون بين الإباضية والصفرية ، ونخلص مما تقدم أن «المذهب الديني الذي كان متبعا في سجلماسة ، كان غير واضح المعالم تماما» (2) يدل على ذلك استعمال عبارة اباضي صفري ، أو وصف هذا بأنه اباضي وذاك بأنه صفري ، حتى قيل هذا في أخوين منهما وهما ميمون بن أروى وميمون بن تقية ، بل وكيف يفسر أن يكون ابن تقية هذا صفريا ويكون ابنه محمد اباضيا ؟ يبدو أنه ليس لهذا التفسير سوى استحالة تحديد المذهب المتبع تحديدا قاطعا ، أو عدم القدرة على وضع حد فاصل بين المذهبين في سجلماسة ، كما وأن العبارة السابقة ـ اباضي صفري ـ تدل على مدى تغلغل المذهب الاباضي فيها .

ان هذا الغموض المذهبي في عاصمة بني مدرار يؤدي بنا الى القول ، أنه لم يكن هناك تعصب للمذهب الصفري ، وهذا يعني ضعف تأثير الإختلاف المذهبي بين العاصمتين على مجرى العلاقة ، باتجاه يسيء اليها ، بل وربما يفهم من ذلك ، أن السجلماسيين قد ضعف حماسهم للمذهب والتزامهم بمبادئه ، ويمكن أن يكون دليلا على هذا ، ما ذكر سابقا من أن أبا القاسم سمكو ، كان يخطب في عمله للمنصور والمهدي ، ويبدو أن أمراء سجلماسة استمروا على هذه السياسة تجاه العباسيين الى حين سقوط عاصمتهم (3) ، وهم يبدون بهذا الموقف

---

(1) أبو الحسن الأشعري : **مقالات الاسلاميين** ، ص : 128 .

(2) ألفردبل : **الفرق الإسلامية** ، ص : 170 .

(3) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص : 55 ، ابن الأثير : **الكامل** ، ج 6 ، ص : 130 . القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 166 .

وكأنهم تخلوا عن خارجيتهم ، واذا صح أنهم وصلوا بتساهلهم المذهبي الى هذه الدرجة ، فيمكننا أن نقلل من تأثير الناحية المذهبية على العلاقة السياسية بين تاهرت وسجلماسة .

أما فيما يتعلق بالجانب الفكري من الناحية المذهبية ، فقد ظهر في سجلماسة الى جانب أمرائها الاباضيين ، جماعة تعتنق المذهب الأباضي ، وقد أشار ابن الصغير الى وجودهم فذكر «أن من كان من الأباضية بسجلماسة» (1) كانوا يبعثون بزكاتهم الى أبي اليقظان ، ومع أنه لم يذكر عدد هؤلاء الا أن ذكره لهم ، يدل على أنهم كانوا جماعة لا بأس بعددها ، كما أن ابن الصغير لم يذكر ان كان هؤلاء قدموا من تاهرت الى سجلماسة ، أو أنهم مواطنون سجلماسيون ، من المحتمل ، قياسا على وجود الاباضية في المغرب الأقصى ، ووجود الشراة في المنطقة بين السوس واغمات وفاس (2) ، أن يكون دعاة الاباضية قد وصلوا منطقة سجلماسة ، فنشروا المذهب الاباضي الى درجة ما ، وربما كان منهم من أخذ المذهب عن دعاة الإباضية الذين كانوا منتشرين في أنحاء المغرب ، فإن أبا القاسم سمكو لقي عكرمة في القيروان (3) ، ومن المرجح أن وجوده هناك قد أتاح له فرصة الجلوس الى سلمة بن سعد وأخذ العلم عنه ، هذا بالإضافة الى أنه من المحتمل أن بعض التاهرتيين قد وصلوا سجلماسة لدوافع مختلفة ، فكانوا دعاة للمذهب فيها .

من ناحية أخرى ، فقد ذكر ابن حوقل أن سجلماسة « سكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون» (4) ، وكانت قوافلهم بأولادهم غير منقطعة ، وقد أشرنا الى أن بعض تجار البصرة خصوصا ، كانوا اباضية ، وبذلك يكون من المرجح أن هؤلاء التجار قد نقلوا الفكر الاناضي الى سجلماسة . ومادام تجار

---

(1) ابن الصغير : **السيرة** ، ص : 46 . سليمان الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ، ص : 79 . البرادي : **الجواهر** ، ص : 18 .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 99 .

(3) السلاوي : **الاستقصا** ، ج 2 ، ص : 112 . مؤلف مجهول : **مفاخر** البربر ، ص : 48 . وذكر ابن خلدون أن « من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جدبني مدرار ملوك سجلماسة ، ادرك التابعين وأخذ عن عكرمة » انظر : **العبر** ، ج 6 ، ص : 210 .

(4) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 65 .

تاهرت ساروا بقوافلهم اليها ، فقد شاركوا بدورهم في نقل المذهب . وكانت محصلة هذه الجهود ، ظهور جماعة اباضية في سجلماسة ، وظهور الفكر الاباضي هناك .

يبدو أن الصفرية في سجلماسة ، لم تكن تشكل أكبر نسبة من السكان ، اذ بينما كان الفكر الصفري منتشرا في قبيلة مكناسة خاصة وبعض قبائل زناتة، يذكر اليعقوبي أن الغالب على سكان سجلماسة « البربر وأكثرهم صنهاجة»(1) وليس ما يدل على انتشار الخارجية في هذه القبيلة ، الا أنه من المرجح أنهم كانوا ذوي نفوذ واسع ، فقد نجحوا في اقصاء ميمون بن اروي وتولية ابن تقية . ومع هذا النفوذ ، لا يلاحظ وقوع حوادث فوضى بينهم وبين الاباضية هناك ، كتلك التي وقعت في تاهرت بين الاباضية والصفرية ، مهما كانت أسباب ذلك ، فانها لا تخلو من عامل التقارب بين المذهبين الاباضي والصفري بصورة عامة ، خاصة بعدما فشلت ثوراتهم في المشرق والمغرب .

يعود المذهبان في تأسيسهما الى عبد الله بن اباض وعبد الله بن صفار ، وهما من قبيلة واحدة هي قبيلة بني كعب من تميم(2)، وقد كانا معا في الاطار الخارجي قبل انقسام الخوارج ـ كما سبق ـ كما أن سلمة بن سعد وعكرمة ـ مولى ابن عباس ـ قدما على بعير واحد (3) ، أخذ عكرمة علمه عن ابن عباس الذي أخذ عنه جابر بن زيد ، ويتضح هذا التقارب بين المذهبين في المبادىء العامة للصفرية ، فهم يترحمون على الشيخين أبي بكر وعمر ويشتمون عثمان ، ويرون الخروج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (4) ، كما أنهم أجازوا القعود عن محاربة غيرهم من المسلمين ، وأجازوا التقية ، وأنكروا الاستعراض ـ قتل أطفال المخالفين ونسائهم (5) ـ ولم يرموا غيرهم من المسلمين بالشرك بل وقفوا منهم

---

(1) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 17 .
(2) ابن حزم : **جمهرة** ، ص : 207 .
(3) يدعو سلمة الى المذهب الاباضي ويدعو عكرمة الى المذهب الصفري ، انظر : الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 11.
(4) ابن كثير : **البداية والنهاية** ، حوادث سنة 75 هـ ، ج 9 ، ص : 11 .
(5) ليفي دلافيدا : مادة «الصفرية» **دائرة** المعارف الإسلامية ، ج 14 ، ص : 229 ـ 232 .

موقفا وسطا ، ومما يؤكد هذا الموقف ، قول ابن الصفار لابن اباض : « برىء الله منك فقد قصرت وبرىء الله من ابنْ الأزرق فقد غلا » (1) ، ويبدو أن الذي يميزهم هو موقفهم من المخالفين ، وبالتالي موقفهم من الخلافة ، أما وقد تخلوا جميعا عن مبادئهم السياسية فيما بعد ، فقد التأمت الهوة بين المذهبين وازداد التقارب ، فعاش هؤلاء جنبا الى جنب ، يمارس كل حياته الخاصة ، مثلما كانوا يعيشون في القيروان في نفس الفترة ، حيث كان يظلهم مسجدا واحدا ، يتلقون فيه علومهم ، الى أن فرق سحنون حلقهم ، ومثلما كانوا يعيشون في تاهرت نفسها ، فقد أشار ابن الصغير الى وجود الصفرية فيها (2) ، ويبدو أن هؤلاء التزموا الهدوء في تاهرت ، خاصة في أوائل عهدها ، بل أن البكري يذكر أن ميمون بن عبد الوهاب كان «رأس الاباضية وأمامهم وأمام الصفرية والواصلية» (3) وهذه العبارة تكشف عن قدم وجودهم في تاهرت ، وانقيادهم للرستميين ، وليس هناك من يذكر أنهم ثاروا أوتحالفوا مع الثائرين على الرستميين كالنكارية والواصلية ، الا أن أبا زكريا ذكر في «سيرة» أنه خرج الى الحجاني (عبد الله الشيعي) وجوه أهل تاهرت من المخالفين «ومن بها من الصفرية» (4) وشكوا اليه امارة الفرس – كما تقدم – وهذا يدل بوضوح على معارضتهم للرستميين في أواخر أيامهم ، ومن المستبعد أن يكون ذلك بتدخل من المدراريين ، لأنهم – على الأقل – لم تكن لهم سياسة توسعية باتجاه تاهرت وخشيتهم من ثورة الاباضية في سجلماسة ، فيظهر ان خلاف الصفرية مع الرستميين ، هو صراع الريف مع المدينة ، وتعبير عن التناقض الإجتماعي والاقتصادي بينهما ، فقد ذكر ابن الصغير أن أبا حاتم يوسف اجتمعت «قبائل الصحراء اليه خلا الحصن المعروف بتالغمت وأهل الصفرية

---

(1) الطبري : **تاريخ** ، حوادث سنة 65 هـ ، ج 7 ، ص : 519 وهذا الموقف يثير الشك حول صحة ما ذكره أبو يعقوب الورجلاني من أن الصفرية «حكموا على الجميع بالشرك فاستعرضوا الجميع وأجروا عليهم حكم الشرك » : أنظر : **الدليل والبرهان** ج 3 ، ص : 62 . ربما انطبق هذا على ورفجومة التي يشك في صفريتها .

(2) ابن الصغير : **السير** ، ص : 52 .

(3) البكري : **المغرب** ، ص : 67 .

(4) أبو زكريا : **السير** ، ص : 108 . الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ، ص : 292 .

فانهم مالوا الى المدينة » (1) ، ويفهم من هذا أن الصفرية كانوا من قبائل الصحراء ، وبذلك يحتمل أن يكون صراعهم قد بدأ مع بدء ظهور الفوارق بين مجتمع الريف ومجتمع المدينة في تاهرت ، ويبدو أن ظهورها ـ الفوارق ـ كان منذ عهد الإمام أفلح ، وربما قبل ذلك ، فان ابن الصغير يذكر عن الإمام افلح أنه وصف القاضي محكم الهواري بأنه «رجل نشأ في بادية ولا يعرف لدى القدر قدره ولا لدى الشرف شرفه » (2) وهو في هذا يؤكد على اقراره بالطبقية والفوارق في المجتمع التاهرتي .

مهما كان أمر هؤلاء ، فقد شكلوا احدى الروابط بين تاهرت وسجلماسة ، فمن المرجع أنهم كانوا على صلة بسجلماسة باعتبارها عاصمة الصفرية في المغرب ، وربما كانوا يستقبلون الراحلين الصفريين من سجلماسة ، وسواء أكانوا صفرية تاهرتيين موطنا ، أو سجلماسيين حلوا بتاهرت فقد عملوا على مزج الثقافة التاهرتية بالثقافة السجلماسية ، وربما دخلوا في مجادلات مع الاباضية كغيرهم من الجماعات الأخرى ، فهل نجحوا في اقناع بعض الاباضيين وكسبوهم الى جانبهم ؟ على كل ، لقد ظهر الفكر الصفري بتاهرت بحكم وجودهم فيها.

من المحتمل أن الاعتزال ظهر في سجلماسة ، فقد كان يحيط بها في تاهرت ، وايزرج والمغرب الأقصى ، وقد أشار ابن حوقل الى وجوده بين السوس واغمات على مقربة من طريق فاس ـ سجلماسة (3) فمن المرجح أن انتقاله كان بطريق الدعاية المنظمة أو بطرق التجارة ، وربما ظهر التشيع فيها ، ويبدو أن من هؤلاء من كانوا شيعة اسماعيلية ، فقد ذكر كنارد M. Canard أن أبا عبيد الله المهدي ذهب الى سجلماسة «أما بعلم سبق واما بشيء اتفق عليه»(4)، بل أن مجرد اتخاذه منها ملجأ له ، دليل على وجود الاسماعيليين فيها (5) ، ومن المرجح أن أغلبية

(1) ابن الصغير : **السير** ، ص : 52 .

(2) نفس المصدر ، ص : 24 . وحول المجتمع التاهرتي ، انظر : احسان عباس : « **المجتمع التاهرتي** في عهد الرستميين» ، الأصالة ، عدد 45 ، ص : 20 ـ 34 .

(3) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 99 .

(4) M. C'anard, *L'autobiographie d'un chambellen du mahdi «Obeid allah»*, le fatimide, Hespéris 1951, p. 237

(5) ان اختياره سجلماسة ملجأ وعدم نزوله تاهرت يدل على أن الفكر الشيعي الاسماعيلي كان قليل الإنتشار=

الشيعة فيها كانوا ممن له علاقة بالمغرب الأقصى ، بحكم الجوار والعلاقات التجارية ، وعلى كل ، فمن المحتمل أن هؤلاء الشيعة كانوا على اتصال بشيعة تاهرت .

عرفت سجلماسة الأحناف والمالكية ، فقد وجد من علمائها من رحل الى المدينة فأدرك مالكا وأخذ عنه (1) ، وقد قدم بهذه المذاهب الى سجلماسة تجار العراق من بصريين وكوفيين وبغداديين وغيرهم ، وربما كانوا دعاة تحت ستار التجارة ، اذ من المرجح أن من هؤلاء من كان حنفيا أو شيعيا أو مالكيا ، اضافة الى من كان منهم اباضيا ، وربما كان قدوم البعض من المشرق ، والبعض الآخر من نواحي المغرب كالقيروان ، التي انتشر بها المذهبان الحنفي والمالكي ـ كما سبق ـ وعلى العموم فقد أسهموا جميعا في عملية التزاوج الثقافي بين تاهرت وسجلماسة .

في نفس الوقت ، ذكر الدرجيني أن رجلا من أهل الدعوة ، يدعي ابن الجمعي ، أقبلا من بلاد المشرق تاجرا فوصل سجلماسة (2) ، ولما كانت الطريق اليها تمر بتاهرت ، فقد كان ابن الجمعي أحد العلماء التجار الذين ربطوا سجلماسة بتاهرت برباط ثقافي ، ولم يكن ابن الجمعي وحيدا في رحلته ، فقد كان في رفقته أبو الربيع سليمان بن زرقون ، ومخلد بن كيداد ، وأنهما تفقها على يديه في سجلماسة (3) ، ويذكر الفرد بل A. Bell أن ابن كيداد «درس في تاهرت على شيوخ الخوارج» (4) وهذا يؤكد على دوره في نقل الثقافة الإسلامية بين مدن المغرب ، وعلى أنه حلقة من سلسلة العلماء الذين تنقلوا بين تاهرت وسجلماسة .

= فيها ان لم يكن معدوما ، يدل على ذلك موقف زناتة منه ، فقد ذكر القاضي النعمان أن عبد الله الشيعي اختار «مائة رجل من كتامة وعاهدهم أن يخرجوا الى سجلماسة في زيّ المسافرين فخرجوا حتى اذا كانوا بالقرب من تاهرت اشتهر أمرهم وعرفوا ولم يمكنهم النفوذ فانصرفوا» ، أنظر : **افتتاح الدعوة** ، ص : 129 ـ 130 ، ويبدو أن بعضهم قتل ، فقد أضاف النعمان أن زناتة خافت» أن يقع بها لما كان تواعدها به لقتل من قتلوه من رجاله» ، نفس المصدر ، ص : 236 .

(1) ح . س : «**الثقافة والتعليم في العهد الإدريسي**» ص : 33 . وذكر السّلاوي أن سمكو بن واسول رحل الى المدينة فأدرك التابعين ، انظر : **الاستقصا** ، ج 2 ، ص : 113.

(2) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 33 . الشماخي : **السير** ، ص : 279 .

(3) الشماخي : المكان السابق . وأضاف أن ابن الجمعي توفي بسجلماسة فأخذ أبو الربيع كتبه .

(4) الفرد بل : **الفرق** ، ص : 162 . ذكر صاحب الإستبصار أن ابن كيداد «كان على مذهب الصفرية النكار» أنظر : ص : 205 والمعروف أنه كان من أهل الدعوة ثم أصبح نكاريا ، أنظر : الشماخي : المكان السابق ، فمن المحتمل أنه تأثر بالمذهب الصفري في سجلماسة .

من جهة ثانية ، أشار أبو العرب الى وجود أحد علماء سجلماسة في القيروان ، يدعي أبو يحيى حماد بن يحيى السجلماسي ، ووصفه بأنه كان « شيخا صالحا ، كان تاجرا » (1) وقد سمع منه عامة أصحاب سحنون وحملوا عنه ، فهل كان من بين هؤلاء تاهرتيون ، فأخذوا عنه ؟ ومن المحتمل أنه اجتمع ببكر بن حماد في القيروان ، ويبدو أنه كان مالكيا ، فقد كان أول من قدم بفقه عبد الملك بن الماجشون القيرواني ، وهذا يدل على وجود المالكية في سجلماسة ، وعلى احتمال لقائه بالعلماء المالكيين في تاهرت . أن اشتغال حماد السجلماسي بالتجارة ووجوده في القيروان ، يعني أنه كان كثير التنقل بين سجلماسة والقيروان ، وبالتالي كان كثير المرور بتاهرت ، فأثر وتأثر ، ويمكن أن يكون حماد دليلا على وجود غيره من السجلماسيين في القيروان ، وبالتالي فليس هناك ما يمنع أن يكون مثل هؤلاء قد فضلوا الإقامة بتاهرت ، خاصة وهي تحمل شهرة علمية وتجارية واسعة ، وهكذا يمكن القول أن تجار سجلماسة قاموا بدور الوسيط الثقافي بين العواصم الثلاث (2) .

3 ـ القوافل التجارية بين تاهرت وسجلماسة :

كان اليعقوبي أول من أشار الى وجود طريق يربط بين تاهرت وسجلماسة ، فذكر أن من « خرج من تاهرت ، سالك الطريق بين القبلة والغرب سار الى مدينة يقال لها اوزكا» (3) بها فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة ، ثم يواصل اليعقوبي تتبعه للطريق ، فيضيف أنه من مدينة أوزكا لمن سلك مغربا الى أرض لزناتة ثم يسير الى مدينة سجلماسة «ويضيف اليعقوبي المسير في هذا الطريق بأنه « في قرى ليست بآهلة وفي بعضها مفازة » وربما كانت هذه القرى بمثابة محطات للقوافل التجارية بين المدينتين ، ويصف الاصطخري سجلماسة من جهته بأنها « منقطعة لا يسلك اليها الا في القفار والرمال » (4) .

(1) أبو العرب : **طبقات** ، ص : 203.

(2) كان يرافق حماد السجلماسي ابنه يحيى الذي روى العلم عن ابن الماجشون ، أنظر : عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 362 . وقد أشار المقدسي الى وفرة علمائها أنظر : **أحسن التقاسيم** ، ص : 231 .

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 359 .

(4) الاصطخري : **المسالك والممالك** ، ص : 34 .

يقدر اليعقوبي المسافة بينهما ، بأنها من تاهرت الى أوزكا ثلاث مراحل ، ومن هذه الى سجلماسة ، سبع مراحل أو نحوها على حسب الجد في المسير والتقصير ، أي أن المسافة بينهما ـ حسب اليعقوبي ـ حوالي عشرة مراحل ، الا أن ما يلفت النظر أن الاصطخري يذكر أن المسافة « من تاهرت الى سجلماسة نحو خمسين مرحلة » ويلاحظ أن الفرق بين التقديرين واسع ، بل أن لويكي LEWICKI يذكر أن الاصطخري يقدر المسافة بمسير خمسين يوما وحسب مخطوط آخر لكتاب الاصطخري بمسير خمسة وعشرين يوما (1) ، قد يمكن أن يفسر هذا الاختلاف ـ حتى عند الاصطخري نفسه ـ بوجود أكثر من طريق بين العاصمتين ـ تاهرت وسجلماسة ـ وربما كان طريق اليعقوبي هو الطريق المباشر الوحيد بينهما ، فهل كانت طريق الاصطخري هي التي أشار اليها البكري ـ فيما بعد ـ فقد ذكر هذا أنه « على مدينة وجدة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق الى سجلماسة ، وغيرها من بلاد المغرب » (2) ، أو هو الطريق الذي أشار اليه الإدريسي ، فذكر أن القوافل تسير من تاهرت الى تلمسان ثم من هذه الى قرية تارو فجبل تامديت ومن هناك الى غايات ثم الى صدرات ، فجبل تيوي ، ثم الى فتات بئر ، ثم الى شعب الصفا ومنه الى تندلي فقرية تمسناق ومنها الى تقربت ثم الى سجلماسة (3) ، وهو يقدر المسافة بين تلمسان وسجلماسة بأربعة وعشرين مرحلة وبذلك فان المسافة بين تاهرت وسجلماسة عبر تلمسان تقدر بثمانية وعشرين مرحلة ، وهذا لا يتفق وما ذكره الاصطخري .

كان هناك طريق غير مباشر يسلكه التجار الى سجلماسة ، فتسير القوافل من تاهرت الى فاس ومنها الى سجلماسة ، ويبدو أن هذا الطريق كان متبعا ، فذكر ابن أبي زرع أن الإمام ادريس بني باب الفوارة ، من جهة القبلة للجزء الأندلسي من فاس ، «ومنها يخرج الى مدينة سجلماسة » (4) ويذكر الحموي

---

(1) T. Lewixki, *L'Etat nord-africaine de Tahert et ses relations avec le Soudan*, VIII[e] au XI[e] siècle *C.E.A.*, n° 8 1962, p. 527.

(2) البكي : **المغرب** ، ص : 82 .

(3) الادريسي : **صفة المغرب** ، ص : 82 . يبدو أن هذا الطريق كان متبعا في فترة ما ، وان كان الإدريسي يذكر أن استعماله قليل لأنه مفازة ، ويذكر صاحب **الاستبصار** أن ترنانا مدينة مشهورة على ساحل البحر وكانت محطا للسفن ومقصدا لقوافل سجلماسة وغيرها ، أنظر : ص : 135 .

(4) ابن ابي زرع : **روض** القرطاس ، ص : 20 . ابن القاضي : جذوة ، ص : 16.

أن الطريق من فاس الى سجلماسة عشرة أيام ، وذكر الادريسي أن القوافل تسير من فاس الى صفروي الى تادلة الى اغمات الى بني درعة الى سجلماسة ، ويظهر أن هناك طريق مباشر بين فاس وسجلماسة ، اذ أن ابن حوقل يعتبر اقليم اغمات «عن يسار طريق فاس سجلماسة» ويقدر الإدريسي هذا الطريق بثلاث عشر مرحلة ، الا أن ابن حوقل يرى أنه «من سجلماسة الى اغمات نحو ثماني مراحل ومثلها الى فاس» ، وعلى كل فان هذا الطريق ، بين تاهرت وسجلماسة مرورا بفاس ، يبلغ حوالي خمسة وعشرين مرحلة ، فمن المحتمل أنه الطريق الذي عناه الاصطخري في مخطوطه ـ السابق الذكر ـ .

ذكر اليعقوبي أن القوافل تخرج من سجلماسة الى اقليم درعة ، ومدينته الكبرى تامدلت (1) ، ويذكر الادريسي أن المسافة بينهما ثلاث مراحل ، أو مسير خمسة أيام حسبما ذكر صاحب كتاب «الاستبصار» ، ثم تخرج القوافل من تادملت «الى مدينة يقال لها السوس وهي السوس الأقصى» (2) مسير أربعة أيام ، وهي عن سجلماسة اثنتا عشر مرحلة (3) ، ومن هناك الى بلد أغمات ثم الى ماسة ، وهي قرية على المحيط ، تحمل اليها التجارات ويركب منها الى الصين ـ كما سبق ـ وقد أشرنا الى أنه من المحتمل أن مراكب تاهرت في مرسى فروخ قد وصلت ماسة ، وبهذا كان من الممكن القول بوجود طريق بحري يربط بين العاصمتين .

ان ذكر الطريق بين تاهرت وسجلماسة ، من قبل اليعقوبي يدل على استعماله ، وإن عدم ذكره طريقا مباشرا آخر الى جانبه ، يدل على أنه الطريق الوحيد الرابط بين العاصمتين ، وهذا يعني بالضرورة أن تاهرت كانت بوابة سجلماسة الى الشرق ، وفيما أشار إليه القاضي النعمان ، بخصوص المائة رجل الذين أخرجهم الشيعي الى سجلماسة ، السابق ذكرهم ، تأكيد على ذلك ، اذ يفهم من هذا أن الخارج من القيروان ونواحيها الى سجلماسة لابد له من المرور بتاهرت .

---

(1) عن هذا الطريق أنظر : الحموي : **معجم** ، ج 5 ص : 41 . أبوالفداء : تقويم ، ص : 123 .
ابن حوقل : **صورة** ، ص : 81 .

(2) اليعقوبي : **صفة المغرب** ، ص : 17 .

(3) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 90 .

هكذا فان التجار العراقيين من بصريين وكوفيين ، والشرقيين عامة ، كابن الجمعي وغيره ، قد عبروا تاهرت في طريقهم الى سجلماسة ، وقاموا بعمليات تجارية فيها ، كما عبرها الى جانبهم تجار القيروان ، وكان الى جانب هؤلاء تجار سجلماسيين ، كحماد بن يحيى ـ السابق الذكر ـ وغيره ممن لم يذكره المؤرخون ، وقد كشف القاضي النعمان عن وجودهم ، فذكر أن أبا عبيد الله المهدي ، هرب من طرابلس الى قسطيلية «وكان في الرفقة التي هو بها رجال من بلدان المغرب والزاب وسجلماسة» (1) ، ولما كان المهدي متخفيا «في زي التجار» (2) كان هؤلاء الرجال تجارا ، وبالتالي فهم قد عرفوا تاهرت وأسواقها ، وقد أسهم الى جانب هؤلاء التجار ، تجار تاهرت ، باعتبارها مركزا تجاريا هاما ، ولا يخلو الأمر من أن يكون بعض اباضية سجلماسة هم من تجار تاهرت المقيمين بها للتجارة ، كما أن صاحب كتاب «الاستبصار» أشار الى وجود اليهود في سجلماسة على عهد المدراريين (3) ، ومن المؤكد أن هؤلاء مع ما عرف عنهم من إهتمام بالتجارة ، قد شاركوا في الحركة التجارية (4) ، وربطوا سجلماسة بشبكة من المراكز التجارية شرقا وغربا .

هكذا كان يؤم سجلماسة تجار من بلاد مختلفة بعضهم من المشرق الإسلامي والبعض الآخر من المغرب الإسلامي ، بما فيه الأندلس (5) ، وهذا يلفت النظر الى قدراتها الاقتصادية والتي جعلت منها قطبا تجاريا . ولقد وصفها المقدسي بأنها «كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات» (6) ووصفها الحموي بأنها على نهر كبير ، زرعوا عليه البساتين والنخيل فكان عندهم التمر ستة عشر صنفا ، ويذكر الادريسي مزروعاتهم غلات القطن وغلات الكمون

(1) القاضي النعمان : **افتتاح الدعوة** ، ص : 152 .

(2) ابن ابي دينار : **المؤنس** ، ص : 55 .

(3) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 202.

(4) H. Irschierg, *The problem of the judaized berbers. J.A.H.*, vol. IV, 1963, n° 3 p. 321.

E. Laoust, *L'habitation chez les transhumants du Maroc central*, Hespéris, 1934, pp. 156-157.

(5) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 65 .

(6) المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 231 . القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 164 .

والكروياء والحنة ، ويتجهز منها الى سائر بلاد المغرب وغيرها ، وقد يفسر وجود هذه الثروة الزراعية وقوع سجلماسة على «نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل فيزرع بمائة حسب زروع مصر في الفلاحة» (1) ، الا أن هذا الوصف ينطبق على سجلماسة في القرن الرابع الهجري وما يليه ، اذ أن اليعقوبي ـ المعاصر للمدراريين ـ يصف سجلماسة بأنها مدينة على نهر يقال له زيز ، وليس بها عين ولا بئر ، ويضيف أن «زرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم ، فان لم يمطروا لم يكن لهم زرع» (2) ولم يترك اليعقوبي بهذا مجالا للشك في عدم اعتماد السجلماسيين على ماء النهر في زراعتهم ، وقد يؤيد الإطار الجغرافي الذي تقع فيه سجلماسة هذا القول ، فمن المعلوم أنها تقع في ظل جبال أطلس المغربية التي تمنع عنها المؤثرات المحيطية ، فكانت منطقة جافة سوى بعض الأدوية الفصلية ، وهذا يعني فقر سجلماسة في الانتاج الزراعي ، ويؤكد اليعقوبي هذا ، فيحصر زرعهم في «الدخن والذرة» ولا يشير بتاتا الى تلك المزروعات والبساتين السابقة الذكر .

هذا الوضع الزراعي يثير عدة تساؤلات يتعلق بعضها بالأسباب التي جعلت سكانها أخلاطا ـ على حد تعبير اليعقوبي ـ كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ، ويتعلق بعضها بالأسباب التي جعلت «أهلها قوم سراة مياسير» (3) حتى قيل إن أبا عبد الله الشيعي «تحصل له من التبر من الحلي وقرمائه وعشرين جملا أدخلها رقادة» (4) ، يبدو أن هذا الثراء يرجع الى كونها مركزا تجاريا هاما ، فقد أشار ابن حوقل الى ما يباع بها ويشتري من ابل وغنم وبقر والى «ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي افريقية وفاس والأندلس والسوس واغمات الى غير ذلك» (5) ومن المستبعد ان تصدر سجلماسة الى هذه المناطق منتوجات زراعية ، كما يبدو أنها قليلة الإنتاج الصناعي ، فذكر الحموي أن لنسائها «يد صناع في غزل

(1) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص : 90 . القلقشندي : المكان السابق .

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 359.

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 359 . وانظر : المقدسي : المصدر السابق ، ص : 31 .

(4) مؤلف مجهول : **الاستبصار** : ص : 204 .

(5) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 97 .

الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب» (1) ولم يضف الجغرافيون في تلك العهود على هذا ، ولم تكن هذه السلعة هي سبب نشاط الحركة التجارية في سجلماسة ، ولم تكن تعاني من فائض في الإنتاج الزراعي ، فمن المحتمل أن شهرتها تلك وثراءها ذلك كانا «لأنها على طريق من يريد غانة» (2) ، فكانت التجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان ، ومن المؤكد ، أن ينطبق هذا على سجلماسة بني مدرار ، فقد أشار اليعقوبي الى دورها كمنطلق من المغرب الإسلامي باتجاه بلاد السودان (3) مما كان سببا في أرباح عظيمة جذبت التجار اليها ، فحملوا اليها سلع الشرق ومنتوجات المغرب ، وبذلك فمن المحتمل أن فواكه تاهرت وصلت اليها ، وعلى كل ، فقد كانت أهميتها كمركز لمبادلاتهم التجارية ، والتزود منها للانطلاق نحو الجنوب ، وفي عودة التجار من السودان كانوا يضربون بها ما أحضروه من الذهب دنانير (4) .

بهذه المكانة التجارية التي تمتعت بها سجلماسة ، يمكن تفسير عدم وضوح المذهب السائد بها ، فان كثرة الأموال في أيدي السجلماسيين جعلت منهم جماعة مترفة ، لا يعرفون التعصب لمذهب معين ، وبها يمكن تفسير علاقة الود التي قامت بين دولة الاباضيين في تاهرت وأمراء سجلماسة ، بل يمكن القول ، أن زواج أروى كان زواجا ، يخفي وراءه مصلحة تجارية ، والا لما كان هناك ما يفرض زواجها خارج تاهرت ، وقد أتاح هذا الزواج للرستميين أن يؤمنوا سبل قوافلهم ، بل أن أرشيبالد يرى أنهم سيطروا على الطريقين الغربيين الى بلاد السودان .

لقد عملت تاهرت بسياسة أئمتها ، وبازدهارها الإقتصادي ، وبمرافقها العامة من حمامات وخانات (5) ، الى غير ذلك من العوامل ، على تنشيط الحركة

---

(1) الحموي : **معجم** ، ج 5 ، ص : 41 ، يذكر القزويني أن ثمن الازار كان ثلاثين أو أربعين دينارا ، أنظر : المكان السابق .

(2) الحموي : المكان السابق ، ابن حوقل : المصدر السابق ، ص : 96 .

(3) اليعقوبي ، **صفة** ، ص : 17 .

(4) المسعودي : **أخبار الزمان** ، ص : 66 .

(5) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 86 .

التجارية في جميع الإتجاهات . بما فيها سجلماسة ، وساعد وجود نظام الصرافة على ازدياد دور التجار الأجانب في العلاقة التجارية ، ويفهم من عبارة المسعودي السابقة ، والمتعلقة بضرب الذهب دنانير ، على أنهم كانوا يستعملونها في أعمالهم التجارية .

لقد كان تجار العراق يصلون بسلعهم الى جنوب شرق آسيا وبلاد الصين (1) فاطلعوا على نظام المعاملات والديون الذي كان معمولا به في الصين ، فقد جاء في كتاب أخبار الصين والهند ، أنه اذا «كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتابا وكتب الذي عليه الدين أيضا كتابا وعلمه بعلامة بين اصبعيه الوسطى والسبابة» (2) ، ثم جمع الكتابان ، فطويا ، ثم أعطي المدين كتابه باقراره ، فإذا جحد أحدهما غريمه أحضر كتابه ، وعلى كل ، ما دام تجار العراق هؤلاء قد وصلوا تاهرت وسجلماسة ، وما دامت مراكب ماسة ، قد كانت تقلع الى الصين ، فمن المحتمل أن هذا النظام جرى العمل به في البلدين ، وربما قامت بين تجارهما معاملات من هذا النوع .

هكذا يتضح أن علاقة نشطة ربطت سجلماسة بتاهرت ، ويبدو أنها قد أثمرت بالنسبة للطرفين ، فقد عاشت سجلماسة في جو يسوده الأمن والاستقرار ، وهذا من العوامل الضرورية لازدهار البلاد ، كما ضمنت ـ سجلماسة ـ تدفق التجار اليها باعتبارها محطة على الطريق التجاري الى بلاد السودان ، وقد كانت تستمد أهميتها من هذا الاعتبار ، مما يؤكد على مدى حرصها على اعتماد سياسة المسالمة ، وكما كان شأن تاهرت بالنسبة لفاس ، فقد كانت تاهرت تقف سدا أمام سجلماسة باتجاه الشرق ، ولكي يتضح احكام هذا السد ، يكفي تذكر أن حدود الدولة الرستمية تمتد جنوبا الى أن تشمل ورقلة ، وهكذا لو تعكر الجو بين العاصمتين ، لكان بامكان تاهرت أن تطبق الحصار على سجلماسة ، لكن مثل هذا الأمر لم يحدث ، لأن تاهرت من جهتها كانت بحاجة الى أن يسود السلم

(1) التاجر سليمان : **أخبار الصين والهند** ، باريس 1948 ، ص : 7 .
T. Lewicki, *Les premie s commerçants arabes en Chine*, *R.O.*, vol. XI, 1935, pp. 173-186.
(2) التاجر سليمان : المصدر السابق ، ص : 19 .

بينهما لكي تؤمن طريق تجارتها الى بلاد السودان ، وبالفعل ، فقد نجحت تاهرت في ذلك .

4 ـ **العوامل التي تحكمت في سير العلاقة :**

أشرنا سابقا الى أن الأدارسة كان عداؤهم بالدرجة الأولى موجها لبغداد والقيروان ، وأنهم تخلوا عن أطماعهم السياسية فيما بعد ، خاصة بعد تقسيم البلاد على أنفسهم ، كما أن المدراريين لم تكن امكانياتهم العسكرية ، وموقع عاصمتهم مما يسمح لهم بالتوسع خارج حدود بلادهم الى تاهرت ، كما أنها لم تكن دولة مهتمة بالأمور السياسية بقدر ما كانت مهتمة بنشاطها التجاري ، كما أشرنا الى أن الرستميين أنفسهم قد تخلو كذلك عن الأهداف التوسعية ، وهذا كله ساعد على انتشار السلم بين تاهرت والمغرب الأقصى ومحافظتهم على حسن الجوار .

على أن هذه العلاقة ، ما كان يكتب لها النجاح لولا العامل الديني ، ثلاثتها مدن اسلامية . الأمر الذي لا يسبب حرجا للمسافرين ، ويضعف روح الاقتتال بينها ، كما انه يربطها برباط الاخوة الدينية ، ولم يكن الخلاف المذهبي بينهما ، ليضعف من هذا الرباط ، ذلك وان كانت تاهرت اباضية وسجلماسة صفرية ، وفاس علوية مالكية ، فإنها جميعا تحلت بسياسة عدم التعصب المذهبي ، ولم يذكر أي من المؤرخين أن واحدة من هذه العواصم قامت باعتداء على أخرى لحملها على اعتناق مذهبها بحد السيف ، بل يبدو أن الالتزام بمذهب ما ، لم يكن يتجاوز حدود طبقة العلماء في أغلب الأحيان ، أما طبقة العامة ، فلم يكن يهمها أكثر من أن تعرف واجباتها الدينية ، وهذه السياسة قد أوجدت جوا من حرية التنقل بين العواصم الثلاث ، بغض النظر عن المذهب الذي يحمله المسافر .

كان موقع كل من المدن الثلاث بالنسبة للأخرى ، عاملا هاما في توثيق الصلة بينهما ، فقد كانت تاهرت تعتبر بوابة المغرب الأقصى الى الشرق ـ كما كانت فاس بوابة تاهرت الى الأندلس ـ كما سبق ـ والتي كانت تربطها بها علاقة طيبة ، وكانت سجلماسة بوابتها باتجاه السودان ، فكانت هذه العواصم تمثل رؤوس مثلث ، ارتبطت ببعضها بطرق عامرة نالمسافرين ، ومما زادها حيوية . اقتراب المدن الثلاث من بعضها ، وعدم وجود جواجز طبيعية تفصل بينها ، ومعنى ذلك أن الظروف الجغراقية كان لها تأثيرها على سير العلاقة .

أضف الى ما تقدم أهمية العامل البشري ، فان العواصم الثلاث تقع ضمن اطار بشري واحد هو مغرب البربر ، وقد أشرنا الى أن قبائله كانت تشعر بأنه وطنها المشترك ، وبهذا يمكن أن يفسر ظهور قبيلة أوربة في الأوراس ووليلي ، وقد يزيد هذه الفكرة وضوحا ، ظهور فروع لقبائل زناتية في أنحاء متفرقة من المغرب الإسلامي ، فقد ذكرنا سابقا ، وجود قبائل زواغة ولواتة ومكناسة وغيرها في منطقتي تاهرت ووليلي ، وهكذا كان تنقل المغاربة يخضع لعامل المصلحة ، ولم يكن يشعر أنه يتخطى حدودا فاصلة ، بل أن شعورهم العميق بالإنتماء الى مغرب بربري اسلامي ، كان صخرة فشلت أمامها محاولات الفئات الأجنبية لتقسيم البلاد الى دول مختلفة ، وعلى كل فان علاقة تاهرت بسجلماسة تزداد وضوحا بعد محاولة تسليط الضوء على علاقة تاهرت ببلاد السودان .

* * *

144 هـ / 761 م ـ 296 هـ / 909 م

تاهرت تعبر الصحراء الكبرى الى السودان :

يعرف القزويني بلاد السودان بأنها تلك البلاد التي « ينتهي شمالها الى أرض البربر وجنوبها الى البراري وشرقها الى الحبشة وغربها الى المحيط » (1) ويذكر ابن خلدون أن حد المغرب الاسلامي من جهة القبلة والجنوب فالرمال المتهيلة الماثلة حاجزا بين بلاد السودان وبلاد البربر ، ويضيف أن هذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب » (2) ويفهم من هذه العبارة أن ابن خلدون قد قطع كل صلة للمغرب ببلاد السودان ، بينما يشير بوسانسكي POSANSKI الى أن البحوث الحديثة دلت على وجود اتصال بين المنطقتين منذ ألف وخمسمائة عام تقريبا (3) ، ولا نعود كثيرا الى الوراء ، فان هذا الاتصال قد وجد في بداية العهد الاسلامي بالمغرب ، وهناك أمران يشيران الى هذا الموضوع فقد ذكر ابن عذاري أن ابن الحبحاب بعث حبيب بن أبي عبيدة غازيا الى السوس الأقصى فبلغ أرض السودان ، كما أن عبد الرحمن بن حبيب أقام سلسلة من الآبار تصل بين واحات المغرب الأدنى وأودغست ، ولئن حاول دوفيس J. Devise أن ينفي وقوع هاتين المسألتين ، فأشار الى أنه لا توجد آثار لتلك الآبار ، كما لم تكن للمسلمين سياسة توسعية في القرن الثامن الميلادي باتجاه السودان الغربي (4) ،

---

(1) القزويني : **آثار البلاد** ، ص : 24 .

(2) ابن خلدون : **العبر** ، ج 6 ، ص : 197.

(3) POSNANSKI, *Ghana and the origins of west African trode*,. Afric Qunrttely, 1971, vol. XI, p. 111.

(4) R. DENISE au J. DEVISSE, *Tegaoust I, recherches sur Aoudaghost*, Paris, 1970, p. 134.

الا أن مجرد ذكرهما من قبل المؤرخين يكشف ـ على الأقل ـ عن وجود اتصال ، وقد أكد فاج Fage على وجود مثل هذا الاتصال منذ العهد الأموي ، وذكر لويكي T. Lewicki أن بربرشمال افريقيا قد عرفوا منذ مدة طويلة بلاد السودان ودخلوا الطرق التجارية الى النيجر وعبروا الصحراء (1) .

على كل ، فان ما يهمنا في هذا المجال ، هو البحث عن وجود ذاك الاتصال في العهد الرستمي ، ويمكن القول أن الاتصال السابق لتأسيس الدولة الرستمية ، قد ظل متواصلا ، بدرجات متفاوتة ، حسب ظروف المغرب الأمنية ، وحاجة الأسواق الى السلع المتبادلة ، ويبدو أن هذا الأمر تؤكده نصوص المؤرخين فان الفزاري ـ المؤرخ العربي في ق 8 م ـ قد أشار الى وجود هذا الاتصال ، بين شمال افريقية وغانة في الفترة التي كتب بها مؤلفه (2) .

وقد أكد شيخ بكري Cheikh Bekri ـ على هذا الإتصال ، فذكر أن تاهرت اتجهت نحو الجنوب حيث لا يوجد حدود جغرافية ولا سياسية ، وأن حركة الذهاب والإياب بين تاهرت والسودان كانت مستمرة (3) ، وأضاف روبير دونيس R. Denise أن تجار تاهرت كانوا يتاجرون مع أودغست في القرن الثامن الميلادي (4) وقد أبرز سليمان الباروني هذه الصلات فذكر أنه قد استعملت السبل الى بلاد السودان» ، ويبدو أنه قد تأثر بابن الصغير فأخذ عنه عبارته حرفيا ، فقد ذكر هذا أنه قد «استعملت السبل الى بلد السودان» (5) ، وهذه العبارة هي أقدم ما كتب عن علاقة تاهرت ببلاد السودان (6) ، ولعل ترمنغهام قد اعتمد عليه حين أشار الى أن أئمة تاهرت قامت لهم علاقات تجارية مع السودان ، وعلى كل فإن عبارة ابن الصغير ، تظهر أهميتها في أنها تكشف

(1) T. Lewicki, *Arabic external sources*, p. 10.

(2) Trimingham, *A history of Islam*, p. 50.

Oliver, *Wast africa before the Europeans*, p. 249.

(3) Cheikh Bekri, *Le kharidjisme*, p. 104.

(4) R. Denise, *Les fouilles de Tagdaoust*, *J.A.H.*, 1971, p. 472.

(5) ابن الصغير : **السيرة** ، ص 13 . الباروني : **الأزهار** ، ج 2 ، ص : 88 .

(6) حول هذا الموضوع انظر : ..... T. Lewicki : *Traits d'histoire du commerce.*

بجلاء عن وجود علاقة بين المنطقتين ، وتأتي في أنها تتعلق بتاهرت في عهد عبد الرحمن ابن رستم .

هناك عدة معطيات تؤكد على هذا الوجود ، فقد أشرنا سابقا الى ما ذكره ابراهيم فخار من أن روبير سرج R. Serge ، قد حدثه في نواكشوط عن عثورهم على قبور يرجع تاريخها الى القرن الثاني الهجري ، وهي تضم الكثير من أنواع العملات والأواني التي هي رستمية أو أندلسية الأصل ، ويزداد هذا القول أهمية اذ اعلمنا أن سكان افريقيا السوداء كانت من عادتهم أن يدفنوا بضائع التاجر مع جنازته ، مما مكن سرج أن يعرف بعض أسماء التجار الاباضيين (1)، وعلى اعتبار أن علاقة تاهرت بالسودان ، هي جزء من علاقة المغرب الإسلامي به ، يمكن أن نورد نصا للمالكي يفيد في التأكيد على وجود هذه العلاقة ، فقد ذكر أن أبا عبد الله بن زرارة بن عبد الله كان جالسا عند الإمام مالك « فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ان لي أبا ببلد السودان ، ولي أما أنا معها ، فأبي يكتب الي بالنهوض اليه وأمي تنهاني عن الخروج اليه » (2) ، وهي تكشف عن صلة القيروان بالسودان في عهد الإمام مالك ، وبالتالي تؤكد على صلة تاهرت بها ، ويذكر شيخ بكري ـ نقلا عن الدرجيني ـ شيخا من أعلام الطبقة الثانية هو عبد الحميد الفزاني كان يسكن في بلاد السودان ، وهو من سكان الجناح الشرقي للدولة الرستمية ، كما ذكر القاضي عياض أن رجلا استأذن القاضي سحنون في أن يبني قنطرة يجوز عليها الى داره فأبى القاضي « لأن كسبه كان من بلد السودان » (3) وهذه الرواية تكشف عن صلة المغرب بما فيه تاهرت بالسودان في الفترة السابقة لوفاة سحنون سنة 240هـ / 854 م ، اضافة الى ما تقدم ، فان المجتمع التاهرتي نفسه يدل على وجود تلك الصلة ، فقد ذكرنا سابقا وجود طبقة العبيد بين طبقات المجتمع .

سياسة تاهرت تتخطى الصحراء :

كان الفزاري ـ السابق الذكر ـ قد أشار الى وجود دولتين في السودان هما :

---

(1) ابراهيم فخار : « **الجماعات الأباضية** » الثقافة ، 1971 ، ع 3 ، ص : 116 .

(2) المالكي : **رياض النفوس** ، ص : 197 .

(3) القاضي عياض : **المدارك** ، ج 1 ، ص : 618 .

غانة ووارم ، التي تقع في حوض مصب نهر السنغال ، ودولة نخلة (1) أيضا ، وقد كتب هذا في عهد الامام عبد الوهاب ، واعتمادا عليه فقد كانت مساحة مملكة غانة والتي يسميها الفزاري بلد الذهب (2) ، ألف فرسخ في ثمانين ، ومساحة مملكة وارام 200 فرسخ في 80 فرسخا ، ومساحة مملكة نخلة ـ نجالا ـ 120 فرسخا في 60 فرسخا ، الا أن لويكي T. Lewicki يرى أن الفزاري قد خلط بين وحدتي القياس : الفرسخ والميل ، فاعتبرهما وحدتين متساويتين ، ورأى ـ لويكي ـ أن مساحة غانة 2000 ميلا في 160 ميلا ومساحة وارام 400 ميلا في 160 ميلا ، ومساحة نخلة 240 ميلا في 160 ميلا ، وبناء على هذا ، فان مملكة غانة كانت تشمل في أواخر القرن الثامن الميلادي المنطقة الواقعة على طرف الصحراء ، شرقي السنغال الحالي ، وغربي حوض بحيرة تشاد ، أي أن سلطة ملوك غانة ـ حسب الفزاري ـ تمتد خارج منطقة غانة (3) على بلاد سنغاي ، من النيجر الأوسط ، وعلى شمال شرق وشرق منحني النيجر ، باتجاه أدرار ـ افوقاس واير Aïr وهذا يعني أنها كانت تضم منطقة جاو Gao وتادمكة ، بينما ذكر الحموي أن غانة تتصل من غربيها ببلاد مفازة ومن شرقيها ببلاد ونقارة وبشمالها بالصحراء ، التي بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية ، ويبدو أنه ليس هناك تحديد مضبوط لبلاد غانة ، وعلى كل فانها كانت قد بلغت أوج عظمتها في ظل أسرة السوبينك Soninke التي تمكنت بالقوة من استلام زمام الحكم في البلاد في نهاية القرن الثامن الميلادي (4) ، لكن توماس هوجكين Thomas-Hodgkin يرى أن غانة كان يحكمها شعب الساراكولي الذي ظل يسيطر

---

(1) تقع على الساحل الجنوبي لبحيرة تشاد ، ووردت عند لويكي :

انظر :

T. Lewicki, *Traits d'histoire du commerce*, p. 9.

T. Lewicki, *L'Etat nord-africaine de Tahert* p. 517.

(2) Mauny, *Tableau géographique*, p. 25.

(3) طرخان ابراهيم علي : **امبراطورية غانة الاسلامية** ، ص : 30 . تأسست دولة غانة قبل 184هـ / 800 م وسقطت 469 هـ / 1077 م . وعن غانة أنظر : عبد القادر زبادية : **مملكة سنغاي** ، ص : 16 ـ 20 .

دانييل ماك كول : **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة** ، ص : 97 ـ 101 .

(4) Fage, *An introduction to the historyof west Africa*, p. 18.

على المنطقة الواقعة شمالي نهر السينغال والنيجر منذ القرن الثامن الميلادي وقبل ذلك (1) ، فهل استولى السونينك على الحكم من يد شعب السرا كولي ؟

على كل ، فان بوسنانسكي Posnanski يؤكد على وجود دولة غانة في الفترة المذكورة ـ القرن الثامن الملادي ـ ، وقد كان من ملوكها بنتجوي دكوري Bentigui Doukoure الذي كان يحكم حوالي عام 174 هـ / 790 م ثم خلفه تكلان الذي حكم في مطلع القرن التاسع الميلادي ، ثم خلفه تلوتان أو بولاتان الذي حكم حتى سنة 222 هـ / 837 م ، وقد كان ملوكها عظماء الشأن ؛ فقد ذكر المسعودي أن « تحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك كلها فيها الذهب » (2) ، وهذا الوصف قد ينطبق على عهد المسعودي ـ ق 4 هـ ـ اذ أن غانة قد حصلت في هذا العهد على فوائد بسبب الفوضى التي سادت بربر صنهاجة لاحتلال أودغشت (3) ، وربما ينطبق على عهد اليعقوبي ويكون المسعودي قد تأثر باليعقوبي ، اذ يلاحظ تشابه كبير بين عبارتيهما بشأن ملك غانة ، وكذلك لأسبقية اليعقوبي الذي ذكر الممالك التي كانت تحت يد ملك غانة ، فكانت مملكة عام ومملكة سامة وغيرهما ، أي أن هذا هو الوضع السياسي في غانة أواخر القرن الثالث الهجري ، ويلاحظ أنه يختلف عما كان عليه في عهد الفزاري ، فبينما لم يكن خارجا عن سلطتها سوى مملكتي وارام ونخلة في عهد هذا الأخير وكان ملكها أقوى ملك في السودان الغربي (4) ، لم يبق تحت سلطتها سوى ممتلكتي عام وسامة في عهد اليعقوبي وهذا يعني أن هناك ممالك عدة ، خرجت عن سلطتها ، ومع أن أوائل الجغرافيين المسلمين لم يذكروا هذا الخروج ، ولا الى كيفية وقوعه ، كما أنهم لم يشيروا الى تطور الوضع السياسي لمملكة غانة ، ولا يهمنا هذا بقدر ما يهمنا ما يكشف عنه هذا الخروج وهو أن الوحدة السياسية للسودان الغربي تحت

---

(1) توماس هوجكين Thomas Hodskin : « **ممالك السودان الغربي** » فصلة من كتاب : فجر التاريخ الافريقي » لطائفة من أساتذة الجامعات البريطانية ، ص : 27 . ويؤكد فاج Fage على موقعها في هذه المنطقة : FAGE, *A short history of Africa*, 1970, p. 68.

(2) المسعودي : **أخبار الزمان** ، ص : 66 .

(3) MAUNY, *The question of Ghana*, p. 208.

(4) BOVILL, *Caravans of the ald sahara*, p. 44.

حكم ملوك غانة التي تكلم عنها الفزاري ، لم توجد بعد مائة عام ـ أي في عهد اليعقوبي ، وأن غانة كانت في أوج عظمتها في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وكانت سيدة السودان الغربي ، ثم بدأت تسير في انحدار الى أن انحسر نفوذها عن معظم الممالك التي كانت خاضعة لها .

كان الغرض من هذا العرض للحياة السياسية في غانة ، محاولة الكشف عن علاقة تاهرت السياسية بتلك المملكة ، فقد أشرنا سابقا الى ما ذكره ابن الصغير بخصوص استعمال السبل الى بلاد السودان في عهد عبد الرحمن بن رستم ، الا أن ابن الصغير لم يقدم تفاصيل تذكر عن تلك العلاقة التي ربطت تاهرت بتلك البلاد ، ولا عن البلاد نفسها ، لكنه يشير فجأة الى حلول محمد بن عرفة ـ السابق الذكر ـ على ملك السودان سفيرا من قبل الامام افلح ، فذكر أن محمد بن عرفة « كان قد وفد على ملك السودان بهدية من قبل أفلح بن عبد الوهاب » (1) ومن الجدير بالملاحظة أن السفارة في ذلك العهد ، كان لها معنى غيره في هذه الأيام ، فهي لم تكن وظيفة من وظائف الدولة الدائمة ، وانما كانت مهمة طارئة يسندها الخليفة أو الأمير الى من يشاء ، وتنتهي بانتهاء المهمة (2) ، ولم يكن ابن عرفة يحتل منصبا معينا في تاهرت كأن يكون متولي القضاء أو خزينة الأموال أو منصبا عسكريا ، لكنه كان رجلا يرتفع به حسبه الى البيوت العربية ، كما كان وسما جميلا (3) وقد استطاع أن ينال اعجاب ملك السودان بما أراه من هيبته وجماله وفروسيته اذا ركب الخيل ، حتى عبر الملك عن اعجابه بقوله له « أنت حسن الوجه حسن الهيبة والأفعال » (4) ويبدو أن تلك الصفات من شرف النسب ، وحسن الأدب ، وخفة الروح ، وجمال الهيئة ، كانت مؤهلات السفير ، لما تتركه من أثر في قلوب الملوك ، ولم يكن هذا القول ينطبق على ابن عرفة وحده ، بل كان ذلك عرفا مألوفا في تلك الفترة ، اذ يلاحظ أنه ينطبق على سفير آخر لكنه

(1) ابن الصغير : **السيرة** ، ص : 31 Ch. Bekri, *Le kharidjisme*, p. 105.

(2) حسين مؤنس : «**غارات النورمانيين على الأندلس**» ، ص : 51 .

(3) ابن الصغير ، **السيرة** ، ص : 31 .

(4) نفس المكان .

أندلسي أرسل الى ملك النورمان ، ذلك هو يحيي الغزال (1) ، الذي كان ارساله الى ذلك الملك ردا على سفارة قدمت من قبل ملك النورمان الى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فقد ذكر ابن دحية انه « لما وفد على السلطان عبد الرحمن أرسل ملك المجوس يطلب الصلح بعد خروجهم من اشبيلية ... رأي أن يراجعهم بقبول ، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم » (2) ، فهل يمكن ـ قياسا على هذا ـ أن تكون هناك سفارة سودانية قد حلت من قبل ملك السودان على الامام الرستمي ، فرد عليها هذا بارسال ابن عرفة مرافقا لها في طريق عودتها ؟ أم أن الظروف القائمة اضطرت الامام افلح الى ارسال تلك السفارة ؟ وهل كانت هذه أول سفارة تاهرتية تنزل على ملك السودان أم سبقتها سفارات أخرى ؟ .

على كل ، فان ابن الصغير لم يشر الى أهداف تلك السفارة ولا الى النتائج التي حققتها ، لقد كانت أهداف سفارة عبد الرحمن بن الحكم الى النورمان ليتعرف أمورهم ويكسب ودهم ويأتيه من خبرهم بالنبأ اليقين ، ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد أراد أن يكسبهم الى جانبه ، لما عرف من عدائهم للفرنجة ، فهل يمكن أن تنطبق هذه الأهداف على السفارة الرستمية الى بلاد السودان؟ أن اهتمام افلح باختيار السفير وارساله هدية معه الى ملك السودان ، يؤكد على اهتام الامام افلح خاصة والرستميين عامة بتوثيق الصلات مع ذلك الملك ، الذي لم يكشف ابن الصغير عن هويته ، فلم يذكر اسمه ، ولا عاصمته بل ولا مملكته .

لقد وقعت تلك الزيارة في الفترة بين سنة 180 هـ / 796 م ـ 230 هـ / 846 م تقريبا ، وهي توافق عهد عظمة مملكة غانة وسيطرتها على معظم السودان الغربي ـ كما سبق ـ وهذا يجعل من المحتمل أن تلك السفارة كانت الى تلك المملكة (3) ،

---

(1) عنه أنظر : حسين مؤنس : «**غارات النورمانيين**» ، ص : 42 ـ 54 . فذكر أن جماله كان من الأسباب التي حدت بعبد الرحمن الى انتدابه للسفارة . انظر : ص : 47 . وذكر أبو الخطاب بن دحية (ت سنة 633 هـ / 1235 م) أن عبد الرحمن أرسل الغزال سفيرا لما كان « عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والأقدام والدخول االخروج من كل باب» انظر : **المطرب في أشعار أهل المغرب** ، نشر حسين مؤنس نصا في بحثه : **غارات النورمانيين** ، ص : 54 .

(2) ابن دحية : **المطرب** ، النص السابق .

(3) T. LEWICKI, *Arabic externat sources*, p. 26.
Ibid, Traits d'histoise du commerce, p. 10.

أي الى الملك تكلان ، أو الى خليفته تلوتان (بولاتان) ، ومن المرجح أنها كانت تحمل صبغة تجارية بالدرجة الأولى ، وحتى ولو كانت تحمل مسحة سياسية ، فهي خدمة للمصالح الاقتصادية ، اذ من المستبعد أنها من أجل المحافظة على حسن الجوار ، لأن الصحراء الكبرى كفيلة بذلك ولئن أمام تاهرت لم تكن لديه سياسة توسعية ، على الأقل الى تلك البلاد النائية ، في نفس الوقت ، من المستبعد أن يكون لملك غانة مثل تلك السياسة ، اذ لو كان الأمر كذلك ، لكان من الأجدي له أن يمد ببصره الى مملكة وارام أو مملكة نقالا (نخلة) ، ويبدو أن محاولة الرستميين لتوثيق العلاقة مع ملك غانة تندرج في اطار الاهتام الرستمي بالتجارة مع السودان ، ومكملة لتوثيق علاقتهم بسجلماسة ، بزواج أروى ، ويعود هذا الاهتمام الى الامتداد الشاسع لامبراطورية غانة ، بمعنى سيطرة ملك غانة على مراكز تجارة السودان الغربي .

لم تستمر غانة على عظمتها طيلة فترة وجود الدولة الرستمية ، فقد لاحظنا أن بعض الممالك التي كانت خاضعة لها ، قد ظهرت منفصلة عنها في عهد اليعقوبي ، مما يوحي أن علاقة غانة بجيرانها قد ظهرت أقرب الى الصراع المستمر منه الى الهدوء والمسالمة (1) ، وقد كان من بين هؤلاء الجيران ملك غسط (2) ، فقد أشار اليه اليعقوبي وذكر أنه « يغزوبلاد السودان » (3) ولا شك أن المقصود ببلاد السودان في هذه العبارة ، تلك البلاد المجاورة لمملكة أودغست ، بما فيها غاية ، الا أن دوافع هذا الغزو غامضة فهل كانت رد فعل لخضوعهم من قبل ؟ أم أنه صراع ضد ثراء غانة ؟ أم لأهداف سياسية ، وهي توحيد المنطقة تحت سيادتها ؟ لقد كانت ـ كما وصفها اليعقوبي ـ تقع في واد عامر فيه المنازل ، ومن عمارتها ، وفرة التجار الوافدين اليها ، مما يعني أنها أصبحت دولة غنية ، وقد كانت الرئاسة

---

(1) طرخان ابراهيم علي : **امبراطورية غانة** ، ص : 85 .

(2) وردت على هذه الصورة عند اليعقوبي ، كما وردت على صورة أودغست ، انظر : القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج 5 ، ص : 172 . نقلا عن العزيزي . ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص 91 . ووردت على صورة أودغشت ، أنظر : الادريسي : **صفة** ، ص : 32 . **الاستبصار** ، ص : 215 . ج . ييفر G. Yver **دائرة المعارف الإسلامية** ، ج 3 ، ص : 113 مقال «أودغست» .

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

فيها لصنهاجة ، وبالتحديد في قبيلة لمتونة ، التي صارت من بين الجيران الذين توقفوا عن دفع الجزية لملك غانة ، وكانوا يتحينون الفرصة للخروج عليه ، الى أن بلغوا أوج عظمتهم في أواخر القرن الثالث الهجري ، فنازلوا غانة وأمعنوا في زحفهم حتى دخلوا أودغشت واتخذوها حاضرة لهم (1) .

على كل حال ، فانه يستشف مما ذكره اليعقوبي بشأن غزو ملك غسط بلاد السودان ، أن هذه كانت مستقلة في عهد اليعقوبي ، وغير خاضعة ، رغم أنه لم يذكرها بين ممالك السودان ، ربما كان يعتبرها دولة بربرية باعتبار الرئاسة فيها لصنهاجة ، ويبدو أن تأسيس مملكة أودغست الحقيقي كان مصاحبا لتأسيس المملكة الرستمية ، فقد ذكر ابن الخطيب بحصوص اللمتونيين فيها ان أول ملوكهم الأمير لونان اللمتوني المتوفي سنة 222 هـ / 7 ـ 836 م ، ثم ولي بعده حفيده يالتوين بطي بن فيولوتان بن تيكان الى أن توفي سنة 287 هـ / 900 م ، ثم خلفه ابنه تلين بن يالتن الى حين وفاته سنة 336 هـ / 947 م (2) .

ان طيلة فترات حكم هؤلاء الملوك ، خاصة يالتوين يدل على التقدم الذي أحرزته أودغست في جميع الميادين ، وربما كان هو الذي عناه اليعقوبي ـ فيما سبق ـ هذا يعني ظهور عنصر جديد على المسرح السياسي في بلاد السودان الغربي ، له أهميته ودوره في الاشراف على الطريق التجاري الغربي ، وهذا يجعل من المحتمل أن تاهرت قد حرصت على اقامة نوع من الاتصال بهؤلاء الملوك ، في نفس اطار اهتمامها بتجارة السودان ، وذلك لضمان تأمين الطريق وتقديم التسهيلات لتجارها وربما ضمن خطة في محاولة لاحتكار تلك التجارة (3) ، ومن الممكن أن يفسر هذا بنشاطها في توثيق علاقتها بدول المراكز التجارية مثل سجلماسة وغانة ، وبناء على أن الهدف الرستمي كان تجاريا ، فمن المحتمل أن علاقتها بأودغست استمرت الى حين سقوط تاهرت .

(1) نقلا عن العزيزي ، أنظر : أبو الفداء : **مختصر تاريخ البشر** ، ص ؛ 137 . حسن أحمد محمود : **الاسلام والثقافة العربية** ، ص : 231 .

(2) يصف ابن الخطيب يرلونان بأنه ملك عظيم دان له من ملوك السودان واتقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكا وكان يركب في مائة ألف نجيب ، انظر : أعمال الاعلام ، ص : 225 .

(3) أشار دوفيس الى هذا الاحتكار ، انظر : S. Denise at J. Devisse, *Tagdaouqt U, recherches*, p. 138.

يبدو أن الوضع السياسي للسودان الغربي لم يظل مقتصرا على وجود دول غانة ونقالا ووارام ، كما كان عليه في عهد الفزاري ، فقد قدم اليعقوبي في كتابيه : البلدان الذي أنجزه في سنة 278 هـ / 891 م ـ 285 هـ / 898 م وكتاب تاريخ البلدان الذي أنجزه سنة 291 هـ / 904 م ـ 292 هـ / 905 م (1) قدم معلومات لا تتفق وتلك التي قدمها الفزاري قبله وهذا يعني أن تطورات سياسية قد حدثت في المنطقة في خلال القرن التاسع الميلادي ، فقد ذكر اليعقوبي من بين ما ذكر مملكة أخرى كانت قائمة في عهده ، تلك هي مملكة كوكو (2) ومن المرجح أن اليعقوبي استقى معلوماته عن السودان الغربي من التجار المسلمين الذين زاروا المنطقة أثناء اقامته في مصر ، أو كما يرى لويكي أثناء اقامته بالمغرب والتي كانت بعد سنة 873 م / 874 م ، وهوـ اليعقوبي ـ يصف تلك المملكة بأنها « أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمها أمرا » (3) ، هذا يعني أن مملكة غانة لم تعد هي الاعظم ، وقد سبقت الاشارة الى أن نفوذها كان يشمل مملكة كوكو ، مما يدل على أن هذه قد نجحت في الخروج عن سلطة غانة ، والتوقف عن دفع الجزية ويبدوأن كوكو لم تحتفظ باستقلالها فحسب ، بل راحت تبسط جناحيها على الممالك المجاورة ، حتى كانت كل الممالك تعطي لملكها الطاعة ، فقد ذكر اليعقوبي أن تحت ملك كوكو « عدة ممالك يعطونه الطاعة ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلدانهم » (4) . وقد حدد اليعقوبي تلك الممالك ، فكانت منها مملكة المروـ وهي مملكة واسعة لملكها مدينة يقال لها الحيا ، ومملكة مرد ـ (هكذا في أصل نص اليعقوبي) ومملكة الهربر ومملكة صنهاجة ، ومملكة ندكرير (هكذا وردت) ومملكة الزيانير ، ومملكة أرور ومملكة بقاروت ، فهذه الممالك كلها تنسب الى مملكة الكوكو (5) ، ويلاحظ

---

(1) T. Lewicki, *L'Etat nord-africaine de Tahart*, p. 610.

(2) كوكو اسم المدينة ، وقد كانت مركزا سياسيا قديما لقبيلة سنغاي **Songhai** ووردت : كوكو . جوجو ، جو ، جاو ، انظر : Lewichi *L'Etat*, p. 520 ووردب عند موني : كوكو . كنكو ، كنكو !
Mawij, *Notes d'archéologie au sujet de Goe*, B.I. *F.A.N.*, 1951, p. 737.

(3) اليعقوبي **تاريخ البلدان** ، ص : 220 .

(4) نفس المكان.

(5) نفس المكان

أن اليعقوبي اكتفى بذكرها دون ذكر ملوكها أو عواصمها ، بل انه لم يحدد مواقعها ، وقد تمكن ماركارت Marquart أن يحدد مواقع ثلاثة منها ، فكانت الأولى هازبين Hazbin أو Azbin وهي حاليا اير Aïr وكانت الثانية مرندة Marinda وموقعها شمال أزبين على الطريق التجاري القديم بين غانة ومصر (1) ، أما الثانية فكانت مملكة صنهاجة البربرية والتي كانت عاصمتها غسط (أودغست) السابقة الذكر ، شمال غانة ، ورغم أنه يصعب تحديد مواقع الممالك الأخرى الا أنه يمكن وضعها في الشمال الشرقي والشمال الغربي من جاو Gao (2) ، وعلى الأقل ، فان معرفة هذه الثلاثة ممالك يدل على أن ملك جاو كان يشرف في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على الطرق الرئيسية الصحراوية ، التي كانت تربط السودان الغربي بالمغرب الاسلامي ومصر . واذا صح ما ذكرناه سابقا من أن مملكة أودغست كانت مستقلة عن غانة ، ويغزو ملكها بلاد السودان ، فان مملكة صنهاجة التي أشار اليعقوبي الى أنها كانت خاضعة لملك كوكو ، ليست صنهاجة أودغست بل ربما كانت مملكة ثانية لممثلي الصحراء ، وفي هذه الحالة يمكن أن يزداد اهتمام تاهرت بأودغست وضوحا ، ويكون اشراف ملك جاو مقتصرا على الطريقين الشرقي والأوسط .

من الواضح أن اتساع رقعة مملكة جاو كان على حساب مملكة غانة ، التي فقدت كثيرا من ممالكها ومن عظمتها ، ولم تعد كما كانت عليه في عهد الفزاري ، لكن المؤرخين الأوائل ، لم يشيروا بشيء من التفصيل الى كيفية وقوع تلك التطورات كيف انتقلت جاو من مملكة خاضعة في نهاية القرن الثامن الميلادي الى مملكة مسيطرة في نهاية القرن التاسع الميلادي ، ومتى حدث هذا الانتقال ؟ وما هي التطورات التي شهدها هذا القرن من الزمن ؟ لقد ذكرها الخوارزمي في أوائل القرن التاسع الميلادي (3) لكنه لم يكشف عما اذا كانت عاصمة لمملكة مستقلة عن مملكة غانة ، كما ظهرت عليه فيما بعد عند اليعقوبي (4) ، على كل ، ان لم تكن

(1) حول هذا الطريق وموقع مرندة أنظر :
T. Lewicki *A repas du nom de l'assis de koudra, J.A.H.*, 1965, vol VI, n° 3, p. 298.

(2) *IBid, L'Etat*, p. 520-525.

(3) Mauny, *Notes d'archéologis*, p. 887.

(4) T. Lewicki, *L'Etat nord-africaine*, p. 520-521.

تكن كذلك ، فمن المرجح أنها كانت ـ في بداية القرن التاسع الميلادي ـ مركزا كبيرا وهاما للتجارة الصحراوية (1) ، وجلبت اهتمام الرستميين اليها ، فأقاموا معها علاقات سياسية .

لم يشر أوائل مؤرخي العصور الوسطى السابق ذكرهم ـ الفزاري ، الخوارزمي اليعقوبي ، وغيرهم ـ الى وجود علاقة سياسية بين تاهرت وجاو ، وقد وردت أقدم اشارة لهذا الموضوع ، في عبارتين تتعلقان بالامام افلح نفسه ، تكشفان عن اهتمام الرستميين بجاو ، وعن اهتمام افلح خاصة بزيارة ملكها ، فقد ذكر الدرجيني أن هذا الامام « قد أراد السفر الى جوجو » (2) ، ويبدو أن الدرجيني قد تأثر بأبي الربيع سليمان بن عبد السلام الويسياني فقد ذكر هذا أن الامام افلح « أراد السفر الى جوجو فلما برز رحله خرج اليه الامام عبد الوهاب والده ... قال له ارجع ... فرجع » (3) وهذا يعني أن رغبته في زيارة ملك السودان لم يكتب لها التنفيذ ، ويرجع ذلك الى أن والده عبد الوهاب سأله في أمور فقهية فأخطأ في « مسألة واحدة لم يجب عنها ولم يعرفها فأمره أبوه بالرجوع عن السفر وقال له أقم ليلا (هكذا في الاصل وهي لئلا) تدخل عليا الوبا (هكذا في الأصل وهما عليّ الربا) فرجع بعد أن تجهزوا وأبرز رحلة » (4) .

يلاحظ أن هذه الرغبة قد راودت افلح في عهد والده ، وقبل أن يصبح اماما ، وقد كان مهتما بالتجارة ـ كما سبق ـ بل ويتضح من عدوله عن السفر للسبب السابق الذكر ، أن رحلته كانت تحمل هدفا تجاريا ، وأنها لم تكن ردا على سفارة من قبل ملك جوجو ، وقد جرت العادة أن لا يقوم كبار الشخصيات والأغنياء بالتجارة بأنفسهم بل يوكلون ذلك الى عبيدهم ورجالهم ، فما الداعي لأن ينوي افلح زيارة السودان بنفسه ؟ ربما كان بدافع حب الاستطلاع ، فهو

---

(1) ذكر فاج Fage أن دول الامبراطوريات في السودان نشأت حول المدن التجارية الكبرى مثل غانا ومالي وجاو : أنظر : FAGE. *An atlas of Africain history*, London, 1960, p. 17

(2) الدرجيني : **طبقات** : ورقة 94 مخطوطة .

(3) أبو الربيع سليمان الويسياني : السير ، نص نشره لويكي T. LEWICKI انظر : T. LEWICKI, *L'Etat*. p. 528.

(4) الدرجيني : المكان السابق.

يريد معرفة تلك البلاد التي اشتهر أمرها ببلاد الذهب والعبيد ، ومن المحتمل أنه كان يريد تنظيم العلاقات التجارية بين تاهرت وجاو (1) ، وستكون اقامته في بلاط ملك جوجو فرصة للتعرف عليه وعقد اتفاقيات مختلفة معه ، وللتعرف على سوق جاو عن كثب ، ولو كان هدف افلح الذهب وحده ، لوجد كفايته في ذهب غانة الذي وصف بأنه أنقى وأجود ذهب العالم ، فمن المرجح أنه كان يسعى لتنظيم عملية تصدير الرجال العبيد من جاو الى تاهرت ، لينقلوا من هناك الى بلاد قرطبة .

لم يذكر الويسياني أو الدرجيني شيئا عن الحالة السياسية في جاو ، عندما أشار الى رغبة أفلح في السفر اليها ، هل كانت مجرد مركز تجاري ، أم مدينة كبرى ؟ أم عاصمة لمملكة واسعة تخضع لها ممالك أخرى كما كانت عليه في عهد اليعقوبي ؟ أي هل أراد السفر اليها كمنطقة تجارية خاضعة لمملكة غانة ، أم كدولة مستقلة ؟ لأن معرفة هذا قد يجعل من المحتمل أن جاو كانت هي الأخرى بحاجة الى تجار تاهرت لتزويد ها بالسلاح مقابل تزويدهم بالرجال العبيد ، على كل ان عزم افلح على زيارة جاو في تلك الفترة أي قبل سنة 180 هـ / 796 م يدل على وجود علاقة تربط المغرب الاسلامي بالسودان الغربي بوجه عام ، وتربط تاهرت به بوجه خاص ، اذ من المستبعد أن يكون أفلح قد كان رائدا في ربط تاهرت بالسودان ، وكشف مجاهل الصحراء ، ومن المرجح أنه كان سيرافق قافلة تجارية اعتادت السفر الى تلك الجهات ، وسلكت مسالك الصحراء ، وهذا نفسه يسند عبارة ابن الصغير المتعلقة باستعمال السبل الى بلد السودان في عهد عبد الرحمن ابن رستم ، ومن هذا يمكن الخروج بتحديد لابتداء علاقة تاهرت بالسودان .

---

(1) T. **Lewicki**, *L'Etat*, p. 524.
Ibid, The Ibadites in Arabia and, p. 120.

(2) ارجع لويكي : العلاقات التجارية بين شمال افريقيا والسودان الى القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي ، انظر : T.Lewicki l'état. p. 524. ابراهيم فخار : « البولونيون وتاريخ المغرب الوسيط ، ص 52 وينسب لويكي الى ماركارت **Marquart** وبوفيل **Bovill** تحديدهما لابتداء تلك العلاقة بالقرن الثالث الهحري الموافق للقرن التاسع الميلادي ، أي أنهما يؤخرانه قرنا من الزمن .

يبدو ، أن هناك أمورا ملحة كانت تضطره للاتصال بملك جاو ، فظل مصمما على اجراء اتصال به ، وما دامت محاولته في عهد والده قد فشلت ، فلم يكتب له السفر ، وما دامت ظروفه الجديدة قضت باستلامه امامة تاهرت ، الأمر الذي يحول دون قيامه بتنفيذ رغبته ، فقد قام بارسال محمد بن عرفة ـ السابق الذكر ، ومن المرجح أنه وجهه الى حيث كان يرغب هو نفسه بالسفر ، أي الى بلاد جوجو (2)، اذ أن وصول ابن عرفة بلاد السودان من قبل افلح ، تعبير عن تكليفه بالمهمة التي كان ينوي أفلح القيام بالزيارة لأجلها ، وان تصميم أفلح على هذا الموضوع ، وارساله شخصية هامة ـ ابن عرفة ـ دليل على الأهمية التي يعلقها على هذه الزيارة ، وعلى أهمية الدوافع اليها ، واذا صح ما ذكره الويسياني والدرجيني بشأن افلح ، وما ذكره ابن الصغير بشأن ابن عرفة ، فان أمورا ملفتة للنظر تطفو على السطح ، تدور حول اختصاص أفلح جاو بالرغبة في زيارتها وبارسال ابن عرفة ، دون سواها من ممالك السودان ، ثم ان المؤرخين لم يشيروا الى أن أحدا من الأسرة الحاكمة في فاس أو سجلماسة أو القيروان أو غيرها ، بل شخصية هامة منها ، قد عزم على زيارة بلاد السودان ، وقد كانت هذه العواصم مرتبطة بتلك البلاد شأن تاهرت ، قد يدل هذا على أن الغاية من وراء تلك الزيارة لم تكن تجارة الذهب وحسب .

كما كان شأن الدرجيني والويسياني مع أفلح ، فقد كان شأن ابن الصغير ومن تأثر به مع ابن عرفة ، فهو لم يحدد تاريخ تلك الزيارة ، ولا الهدف منها ، وهو لم يذكر الطريق التي سلكها ، ثم لم يشر الى اسم الملك أو عاصمته أو مملكته ، ولم يذكر الاشياء التي حملها ابن عرفة معه هدية ، ثم ماذا ترتب عن تلك الزيارة ، من المحتمل أن هديته كانت من السلع التي تفتقر اليها بلاد السودان ، ويبدو أن هذه الهدية قد تركت أثرا في نجاح الزيارة ، وقد يكون اعجاب ملك السودان بابن عرفة ، وتلفظه بعبارات الاطراء دليل على هذا النجاح .

ان عبارة ابن الصغير المتعلقة ببلاد السودان قد أثارت غموضا حول الملك المعني بالأمر ، لوجود أكثر من مملكة في بلاد السودان ، وقد كانت أولها ، من

(1) T. Lewicki, *Traits d'histoire*, p. 12.

Ibid, *Arabic external*, p. 26.

الجهة الشرقية ، على عهد اليعقوبي ، مملكة الزغاوة «وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم ... ويسمى ملكها كاكرة» (1) والزغاوة هؤلاء هم جنس من أجناس السودان ، وقد كانوا حتى عهد الادريسي «عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة من الابل والمعز» (2) وقد كان ظهور «مملكة كانم شرقي بحيرة تشاد في حوالي عام 184هـ / 800م (3) ، ويبدو أنها تطورت حتى غدت مملكة واسعة كبيرة منها على النيل مما يحاذي النوبة ويحاربون النوبة» (4) ، وربما كانت حدودها هذه في وقت اليعقوبي ، لأنها كانت المملكة الوحيدة في السودان الأوسط على عهده ، ويذكر فاج Fage ـ نقلا عن المهلبي ـ أنها كانت مملكة عظيمة من ممالك السودان ، تصل حدودها الشرقية الى النوبة وبينهما مسير عشرة أيام ، وطولها مسير خمسين يوما (5) .

ان من ينظر الى خريطة السودان الأوسط والمغرب الاسلامي سيلاحظ أن ارتباط مملكة الزغاوة كان أشد ما يكون بمنطقة فزان(6) ، خاصة مدينة زويلة وما وراءها ، أي جبل نفوسة والمغرب الأدنى (7) فقد ذكر اليعقوبي أن سكان زويلة قوم مسلمون اباضية وأكثرهم زواعة ، وكان بين هؤلاء «أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة» (8) ، ويضيف أن وراء زويلة مدينة كوارها «قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم بربر وهم يأتون بالسودان» (9) ويشير اليعقوبي نفسه الى مصدر هؤلاء السودان ، فذكر أنهم «يخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم» ، وقد بدت زويلة وكأنها وقفا على تجار جبل نفوسة والقيروان من بين تجار المغرب

(1) اليعقوبي : **تاريخ البلدان** ، ص : 219 .

(2) الادريسي : **صفة** ، ص : 34 .

(3) D.H. Jones «**شعوب ممالك السودان الأوسط**» ضمن كتاب فجر التاريخ الافريقي : تأليف لجنة من الأساتذة ، ص : 47 .

(4) المسعودي : **أخبار الزمان** ، ص : 66 . أبو الفداء : **مختصر** ، ص : 153 .

(5) Fage, *A ahart history of Africa*, p. 47.

(6) حسين مؤنس : فزان ودورها في انتشار الاسلام في افريقية ، ص : 87 .

(7) Brett, *Ifriqiya as a markat for saharan trade*, p. 147-364

(8) اليعقوبي **صفة** ، ص : 6 .

(9) نفس المكان.

(10) نفس المكان .

الاسلامي ، فقد ذكر الشماخي أن أبا عبيدة ـ حاكم الجبل كان يحسن اللغة الكانمية ، وهذا دليل على شدة الاتصال بينهم (1) ، وأما القيروان فمما يدل على نشاطها في بلاد السودان الأوسط ، أن أحد أبوابها كان يطلق عليه باب زويلة (2).

قد يمكن الخروج مما تقدم بنتيجة مفادها أن علاقة تاهرت كانت أشد ما تكون مع السودان الغربي ، وبذلك من المستبعد أن يكون لأئمة تاهرت ذاك الاهتمام ببلاد الزغاوة ، وأن يكون ابن عرفة قد حل على ملكها ، ويصبح من المرجح أن عبارة ابن الصغير تلك كانت تشير الى مملكة جاو بالدرجة الأولى ، وربما الى مملكة غانة ، وأن وجود التجار الخراسانيين والبصريين ، وانفتاح زويلة على المشرق وعلى منطقتي اطرابلس والمغرب الأدنى ، يخرج ذاك الطريق الشرقي ـ طريق زويلة ـ عن دائرة السيطرة الرستمية في نفس الوقت ، من المعتقد أن تجار تاهرت قد سبقهم الى أسواق غانة التجار المسلمون القادمون من سجلماسة وزيز ودرعا والسوس الأقصى (3) ، وربما سيطر هؤلاء على الطريق الغربي الى بلاد السودان ، مما دفع بتاهرت الى توثيق علاقتها بسجلماسة بزواج أروي ، والتعاون معها على تشجيع التجارة مع غانة (4) ، ومن هنا وضع رغبة افلح بزيارة السودان وبسفر ابن عرفة في هذا الاطار.

قوافل تاهرت في بلاد السودان الغربي :

ارتبطت تاهرت ببلاد السودان الغربي بطريقين رئيسيين ، الأول طريق غربي يمر عبر سجلماسة والثاني شرقي بالنسبة للأول يمر عبر ورقلة (5) .

لقد تعرضنا فيما سبق الى الطريق من تاهرت الى سجلماسة ، وقد كانت عاصمة بني مدرار هذه مدخلا لبلاد السودان ، فقد ذكر اليعقوبي أن الطريق تبدأ « من سجلماسة لمن سلك متوجها الى القبلة يريد أرض السودان » (6) ، ويؤكد

---

(1) عن تجارة جبل نفوسة مع السودان الأوسط ، انظر : T. Lewicki, *Traits d'histoire*, p. 20.

(2) المقدسي : **أحسن التقاسيم** ، ص : 226 :

(3) T. Lewiski, *L'Etat nord-africaine de Tahart*, p. 535.

(4) *Ibid* , *Traits de histoise*, p. 11.

(5) *Ibid Arabic external sources*, p. 26.

(6) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

الحموي هذه الأهمية ، وهو وان كان متأخرا ، الا أنه قد تأثر بسابقيه ، فذكر أن التجار تسافر « من سجلماسة الى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة » (1) وهو في هذا شأنه شأن أبي حامد الغرناطي الذي ذكر أن التجار يخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة » (2) باتجاه بلاد السودان ، وقد شهدت سجلماسة حركة تجارية باتجاه تلك البلاد ، ولاشك أن هذا النشاط له علاقة بتجارة تاهرت مع بلاد السودان الغربي ، وقد كانت التجارة في عهد ابن حوقل « غير منقطعة منها الى بلد السودان » . ورغم أن هذه الصورة التي قدمها ابن حوقل كانت في القرن الرابع الهجري ، وهي تمثل سجلماسة تحت ظل الحكم الفاطمي ، الا أن هذا لا يفقدها أهميتها كمدخل لبلاد السودان .

يبدو أنه كان هناك أكثر من طريق تؤدي الى غانة انطلاقا من سجلماسة فقد ذكر اليعقوبي أن المسافر يخرج من سجلماسة « ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية » ويضيف أنه من هناك « يسير الى بلد يقال له غسط » (3) وهذا يعني أن أنبية تعتبر مركزا على الطريق بين سجلماسة وأود غست ، الا أن اليعقوبي ينتهي بهذا الطريق الى هذه المدينة ، ولا يشير الى امتداده الى غانة ، هل هذا تعبير عن ضعف أهمية هذا الطريق في عهده ؟ أم أنه تجاهل ذكره ، لأنه تجاهل السودان الغربي بشكل عام ؟ على كل ، فان ابن حوقل قد أشار الى أن الطريق يستمر الى مدينة غانة ، فهل كان ذلك لأن ابن حوقل قدم تفاصيل أكثر من اليعقوبي ؟ أم لأنه وصل أودغست ـ كما يرى بعض المؤرخين سنة 340هـ / 951م ، أم أن هذا الطريق ازدادت أهميته في العهد الفاطمي ، فامتد الى غانة ؟ أما الطريق الثاني بين سجلماسة وأودغست ، فقد أشار اليه المسعودي ، فذكر أن الطريق من تافيلالت ـ سجلماسة ـ الى بلاد السودان كان يمر بتاغازا Tagaza (4)، ويبدو أن أهمية هذا المكان ، تعود لتوفر مناجم الملح فيه (5) فكان على بعض التجار أن يمروا به في طريقهم الى غانة .

---

(1) الحموي : معجم ج 2 ص : 361 ، صلاح الدين منجد : **مملكة مالي** ، ص : 15 .
Bovill, *Caravans*, p. 44-40.

(2) أبو حامد الغرناطي : **تحفة الألباب** ، ص : 42 .

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

(4) Gautier, *L'or de Soudan dans l'histoire, A.H.E.S.*, 1935, p. 114.

(5) ذكر البكري « تانتتال » على مسيرة عشرين يوما من سجلماسة ، انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 171 .

في نفس الوقت ، هناك طريق يبدأ من سجلماسة الى مدينة تامدلت ، واعتمادا على اليغقوبي فإن الطريق يخرج منها الى السوس الأقصى ، وقد جعل ابن حوقل سجلماسة والسوس الأقصى وأودغست رؤوس مثلث « أقصر أضلاعه من السوس الى أودغست »(1) وهذا يكشف عن وجود طريق رابط بين السوس الأقصى وأدغست في القرن الرابع الهجري ويبدو أنه نفس الطريق الذي أشار اليه ابن الفقيه . يذكره الطريق من طرقلة ـ احدى مدن السوس ـ الى غانة (2) وربما هو نفسه الذي عناه صاحب كتاب « الاستبصار » حين أشار الى أن باغمات كان « ينزل التجار على القديم لأنها كانت دار التجهير للصحراء » (3)، وبالتالي كان هناك طريق بين سجلماسة وأودغست عبر السوس الأقصى ، وقد ذكر البكرى هذا الطريق ، فمن سجلماسة الى مرغاد ومنها الى اجروا ثم الى وادي درعة ومنه الى تامدلت ، وأضاف ان المسافر يخرج من تامدلت الى بئر الجمالين ، فيمر في شعب ضيق ثم يخرج الى جبال أزور الى أن يصل ماء تندفس ، ومن هناك يخرج الى بيروين هيلون ثم الى تازقي ثم الى يطونان ومنها الى اوكازنت فوانزمين ، ثم يسير في بلد واران الى ماء اغرف ومن هناك الى افرتندى ومنه الى جبل ازجونان ثم يسير في أرض صنهاجة الى أن يصل الى شرف عال مشرف على اودغست .

هل كان هذا الطريق متبعا في العهد الرستمي ؟ فقد ذكر البكري أن الطريق من أودغست الى بلد تامدلت أربعون مرحلة ومن تامدلت الى سجلماسة احدى عشر مرحلة أي أن الطريق من سجلماسة الى أودغست احدى وخمسون مرحلة (4) وكان اليعقوبي قد ذكر أن الخارج من سجلماسة الى أرض السودان « يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة» (5) واذا كانت أنبية هي أرض صنهاجة التي ذكرها البكري ، كان الطريق الذي أشار اليه اليعقوبي مقاربا للطريق الذي أشار اليه البكرى او هو نفسه ، خاصة وأن هذا الاخير قد تأثر

(1) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 91 .

(2) ابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** ، ص : 87 . LEWICKI: *Arabic external*, p. 28.

(3) مؤلف مجهول : **كتاب الاستبصار**، ص : 207 .

(4) عن هذا الطريق ، انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 156 ، 158 ـ 159 ، 163 .

(5) اليعقوبي · **البلدان** ، ص : 360 .

بمحمد بن يوسف الوراق (ت سنة 363هـ / 973م) القريب العهد بالدولة الرستمية ، ويذكر لويكي Marquart اعتماد على رأي ماركارت T. Lewicki أن أنبية هي اتحاد من مسوفة وجدالة والمتونة، وهي قبائل صنهاجية ، وكان هذا الاتحاد موجودا منذ عهد الفزاري الذي يشير الى وجودها بين سجلماسة وأودغست (1) ، ويبدو أنه كان الى جانب هذا الطريق ، طريق آخر ، فذكر البكري أنه عندما وانزمين ـ السابق الذكر ـ «يجتمع جميع طرق بلاد السودان» (2) فمن أين تنطلق هذه الطرق ؟ وهل كان منها طريق ينطلق من سجلماسة مباشرة ؟ واذا كان كذلك ، فهل كان على عهد الرستميين ؟

ان اليعقوبي بعدما انتهى بطريقه الى ماسة ، وأراد الانتقال الى ذكر الطريق الى أودغست لم يبدأ ذلك من ماسة أو أغمات اوتامدلت ، بل عاد الى سجلماسة ، ليجعل منها منطلقا ، وهذا يجعل من المرجح أن طريق سجلماسة ـ أودغست ، لايمر بتامدلت ، والا لما كانت هناك ضرورة للبدء من سجلماسة ، ويبدو أن هذا الطريق هو أحد الطرق الذي يلتقي بطريق تامدلت ـ أودغست في انزمين وهذا أمر محتمل ، فان التجار القادمين من تاهرت والشرق ليسوا بحاجة الى معادن السوس لكي يعرجوا على تامدلت في طريقهم الى السودان الغربي ، لقد كانوا بحاجة الى طريق قصير مباشر ، بهذا من الممكن أن يكون تامدلت في عهد اليعقوبي معبرا لتجار السوس وفاس والأندلس .

لقد أشار البكري الى وجود طريق ساحلي ـ على المحيط الأطلسي ـ فذكر أنه من واد السوس الى مدينة نول ثلاث مراحل في عمارة جزولة ولمطة ، وأضاف أنه من نول الى جزيرة أيوني القريبة من اوليل مسير شهرين ، ويبدو أنه كان متبعا ، فقد ذكر أن هناك « معدن الملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطيء البحر ومن هناك تتحمله الرفاق » (3) ، وقد ربط التجار أوليل بسجلماسة بطريق مسير أربعين مرحلة (4).

---

(1) T. Lewicki, *L'Etat nord-africaine*, p. 52-325.

(2) البكري : **المغرب** ، ص : 157 .

(3) البكري : **المغرب** ، ص : 171 . الادريسي ، **صفة** ، ص : 2 .

(4) نفس المصدر ، ص : 3 ـ 4 .

حاول دوفيس أن يقلل من أهمية هذا الطريق بين سجلماسة وأودغست معتمدا في ذلك على أن اليعقوبي قد ذكر الطريق باتجاه شرق ـ غرب ، فمن تاهرت يخرج المسافر الى تلمسان ثم الى فاس ، أويخرج من تاهرت الى سجلماسة ومنها الى تامدلت ثم الى ماسة ـ كما سبق ـ ورد هذه الأهمية الى الفاطميين واستنتج من ذلك أن الطريق الى أودغست كان ينطلق من القيروان (1) ، الأ أن من يتمعن نصوص اليعقوبي ، يلاحظ أنه حقا أشار الى طريق شرق ـ غرب ، الا أن ذلك كان يتعلق بالمغرب الاسلامي ، بل بالخلافة الاسلامية ، فقد بدأ من أقصى المشرق الاسلامي وأراد الانتهاء في أقصى المغرب الاسلامي ، ويلاحظ أيضا أن اليعقوبي لم يشأ أن يقحم نفسه في موضوع بلاد السودان ، ويمكن أن يستوحي ذلك من أنهاء كتابه بعدمافرغ من المغرب الاسلامي مكتفيا بقوله عن السودان « وممالكهم كثيرة » (2) فان عدم تعرض اليعقوبي لوصف هذا الطريق لا يقلل من أهميته ، وان مجرد ذكره له يدل على أنه مشهور ، لكنها شهرة نسبية .

قد تقدمت الاشارة الى أن اليعقوبي يجعل المسافة بين سجلماسة ومركز أنبية مسير خمسين مرحلة ، ويذكر ابن حوقل بعد ذلك أن من سجلماسة الى ودعست شهرين ، واذا كانت طريق ابن حوقل هي طريق اليعقوبي ، كانت المسافة بين مركز أنبية وأودغست مسير عشرة أيام (3) ، الا أن صاحب «الاستبصار» يشير الى أن الطريق بين سجلماسة وأودغست نحو خمسين مرحلة ، بينما جعلها أبو الفداء ـ نقلا عن العزيزى ـ نيف وأربعين مرحلة ، الا أن عبارة العزيزى وردت محددة في « صبح الأعشى » فذكر القلقشندى ـ نقلا عن العزيزى ـ أن الطريق بين المدينتين ستة وأربعون مرحلة (4) ، أما بالنسبة للطريق من أودغست الى غانة ، فقد ذكر أبن حوقل أنها « بضعة عشر يوما » ، ويبدو أن المؤرخين لم يتفقوا بشأنها ، فقد جعلها الادريسي اثنتا عشر مرحلة ، وجعلها البكرى خمسة عشر مرحلة ، أما صاحب كتاب « الاستبصار » فقد ذكر أن منها الى غاتة نحو عشرين مرحلة وقد ابتعد موني

(1) R. Benise at J. Bevisse, *Tagdaoust I, recherches*, p. 135.

(2) اليعقوبي : **صفة** ، ص : 17 .

(3) يعتبر لويكي Lewicki المرحلة بمسير يوم ، انظر : Lewicki, l'état, p. 529.

(4) عن هذا الطريق ، انظر : ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 91 . القلقشندي **صبح الأعشى** : ج5 ص : 172 . مؤلف مجهول : **كتاب الاستبصار** ، ص : 215 .

Mouny عن هؤلاء ، فذكر أن غانة على مسير أربعة ليالي من أودغست ، فهل اعتمد على أبي الفداء ؟ فقد ذكر هذا أنه الى غانة تسير التجار المغاربة من سجلماسة ... نحو خمسين يوما » (1) وبناء على ذلك فهو يعتبر المسافة بين أودغست وغانة الفرق بين خمسين مرحلة وستة وأربعين ، الا أننا اذا أخذنا بمتوسط المسافات السابقة ، كانت المسافة بين سجلماسة وغانه مسير حوالي 60 ـ 63 يوما ، وهو تقدير يقارب ما ذكره البكري ، فقد أشار بدوره الى أنه بين سجلماسة وغانة مسيرة شهرين في صحراء ويبدو أن هذه الاختلافات بين المؤرخين يعود الى تشعب المسالك في بعض الطرق ، وربما الى الجد في السير والبطء فيه ، ويتجلى تأثير هذا فيما ذكره الحموى ، فقد أشار الى الطريق من سجلماسة الى غانة ذهابا مسير ثلاثة أشهر ، في حين من غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ودون ذلك ، وكنا قد أشرنا سابقا الى أن الطريق من تاهرت ـ سجلماسة مباشرة نحو عشرة مراحل ، وهكذا يمكن القول أن المسافة بين تاهرت وغانة عبر سجلماسة حوالي سبعون مرحلة .

يصف اليعقوبي المنطقة التي يمر بها طريق سجلماسة ـ أودغست بأنها «مفازة صحراء ويؤكد الاصطخرى هذا ، فيذكر أنه» بين المغرب وبلد السودان مفاوز منقطعة» (2) وهو يتفق في هذا مع ابن حوقل في وصفه المنطقة بأنها «مفاوز وبرارى منقطعة قلية المياه متعذرة المراعي» (3) ووصفها العزيزى بنفس الصفة ، فذكر أن الطريق الى أودغست «في رمال ومفاوز» (4) ولم يكن السير في هذه المفاوز عشوائيا بل كانت تتحكمْ به سهولة المنطقة وتوفر الماء ، ولهذا ذكر الاصطخري أنها «لاتسلك الا من مواضع معروفة » (5) ويبدو أن هذه المواضع تصل بين أبار ماء ، فذكر العزيزي أن الطريق من سجلماسة الى اودغست نيف وأربعون مرحلة » على مياه معروفة » (6)

---

(1) عن الطريق ، انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 168 . الادريسي : **صفة** ، ص : 32 . ايفر : مقال « اودغست » ص : 113 دائرة المعارف الاسلامية .

(2) عن هذه الصحراء أنظر : الاصطخري : **المسالك** ، ص : 37 ، ابن حوقل ؛ **صورة** ، ص :100 ، القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج5 ، ص : 172 .

(3) أنظر أبو الفداء : **مختصر تاريخ البشر** ، ص : 125 ـ 157 ، الاصطخري : المكان السابق .

(4) القزويني : **آثار البلاد** ، ص : 57 . صلاح الدين منجد : **مملكة مالي** ، ص : 24 .

(5) أشار البكري الى وجود آثار ماء في الطريق ، عنها ، أنظر : البكري : **المغرب** ، ص : 156 ـ 157 . الحموي : **معجم** ، ج2 ، ص : 361 .

وقد ذكر الفقيه أبو الربيع الملتاني أن في طريق غانة من سجلماسة أشجارا عظيمة مجوفة ، يجتمع في تجاويفها مياه الأمطار ، فيشربها السابلة في مرورهم الى غانة ولولا تلك المياه التعذر عليهم المسير الا أن هذا القول أمر مستبعد ، لقلة الأشجار في الصحراء ، بل لعدمها ، ولندرة نزول الأمطار عليها ولشدة الحرارة بها ، والمرجح ان هناك آبار ماء تنزل عليها القبائل ويحمل منها التجار حاجيتهم ، وقد كانوا يحملونها من بلاد لمتونة ، فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا الى الماء نحروا جملا وترمقوا بما في بطنه ، ذلك أنهم كانوا يستصحبون جمالا خالية لا أوقار عليها ، ويعطشونها قبل ورود هم الماء نهارا وليلا ، ثم يسقونها الى أن تمتلىء أجوافها والى جانب تزود التجار بالماء ، كانوا يحملون معهم الزاد ما يكفيهم ذهابا وايابا ، وذكر أبو حامد الغرناطي أنهم كانوا يحملون معهم الزاد لستة شهور وهو من المواد الغذائية المجففة التي تحتمل تلك المدة الطويلة (1) ويحملون الخيام يستظلون بها وقت الهجير ومن المرجح أنهم حملوا أسلحة يستعملونها للدفاع عن النفس اذا اقتضت الضرورة وطبولا يضربونها اذا وصلوا بلاد التبر ، أو لاعلان انطلاق القافلة من مدينة ما ، فيجتمع التجار.

كان التجار يكابدون شدة الحر في مسيرهم بين سجلماسة وبلاد السودان وربما هبت عليهم ريح جنوبية وهي المعروفة برياح السيركو ، فنشفت مياههم بقربهم وتعود شدة الحرارة الى طبيعة المنطقة الصحراوية ، والى وقوعها في المنطقة المدارية ، وقد أشار الزبيدى الى معاناة المسافرين من شدة الحر ، فذكر عن المهرى (ت سنة 253 هـ / 867م) في القيروان ، قوله : دخل علينا اعرابي من اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج الى تاهرت ثم إلى بلد السودان فأتى عليه يوم له وهج وحر شديد وسموم في تلك الرمال فنظر الى الشمس مصحرة راكدة فقال : أما والله لئن عززت في هذه الرمال لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت (2).

(1) حملوا الدقيق ، فذكر البكري أن اللمتونيين لم يروا الخبز « الا أن يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم ويتحفونهم بالدقيق » البكري : **المغرب** ، ص : 146 .

(2) الزبيدي : **طبقات** ، ص : 251 ـ 252 . القزويني : **آثار البلاد** ، ص : 169 . ذكر البكري : «نظر رجل من أهل تاهرت توقد الشمس بالحجاز ، فقال : احرقي ما شئت ، فوالله انك بتاهرت لذليلة» انظر : **المغرب** ، ص : 67 .

ذكر ابن خلدون ان بطون صنهاجة كثيرة منها بلكانة وانجفة وشرطة ولمتونة ومسوفة وجدالة (كدالة) ومندلة وغيرها ، وأضاف أن مواطنهم بالصحراء بين البحر المحيط وغدامس ، ثم خص بالذكر قبائل مسوفة ولمتونة وكدالة وشرطة وذكر أن مواطنها بالصحراء (1) ، ويبدو أن هذه القبائل كانت تقع على طريق التجار من سجلماسة الى غانة ، فقد أشرنا الى ذكر اليعقوبي لأنبية التي قال أنها من صنهاجة ، وكما سبق فإن أنبية هي تحالف من جدالة ومسوفة ولمتونة (2) ، وقد كانت مواطن هذه الأخيرة ـ لمتونة مابين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، وهم الى هؤلاء أقرب ، فلا تفصلهم عنهم الا عشرة مراحل ، ويذكر ابن خلدون أن موطنهم يعرف بكاكدم ، وليست هناك أية قبيلة أخرى تفصلها عن أودغست ، ويبدو أنهم يمتدون شمالا الى مدينة نول (3) ، الا أن موني Oliver يرى أنها تتركز في منطقة ادرار (4) . أما قبيلة جدالة ، فهي خلف بني لمتونة ، ومع امتداد المحيط عند اوليل ليس بينها وبينه أحد أما قبيلة مسوفة فقد ذكرها ابن حوقل على الطريق بين أودغست وسجلماسة ، وتعتبر مدينة آزكى من بلاد مسوفة ، وهي عن سجلماسة ثلاثة عشر مرحلة ، ومنها الى نول سبع مراحل ، وقد كان هؤلاء يعملون ادلاء للتجار ، فكانوا يذهبون الى سجلماسة ليرافقوا القوافل الى السودان (5) كذلك كانت قبيلتا جزولة ولمطة بين وادى السوس ومدينة نول ، وكذلك من المرجح أن المسافر بين سجلماسة وأودغست كان يمر بقبيلتي مسوفة ولمتونة .

لقد كان سكان الصحراء « من قبائل البربر متعزبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العارية » (6) ، ويؤكد البكر هذا بقوله غن لمتونة أنهم « ظوا عن رحالة في الصحراء» (7) ، وذكر صاحب الاستبصار أنه بين سجلماسة وغانة «صحراء

---

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 310 ـ 311 .

(2)

(3) الإدريسي : **صفة** ، ص : 59 ، مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 215 .

(4) MAUNY, *Tableau géographique*, p. 136.

(5) LEVIZION, *Ibn-Hawcal, the chawe*, p. 220.

(6) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 98 .

(7) البكري : **المغرب** ، ص : 164 .

مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة قليلة الماء،يسكنها قوم من مسوفة رحالون لا يستقر بهم مكان ، ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون اليها » (1) وقد كان هؤلاء الرحالة يتلثمون ، فذكر ابن حوقل بشأنهم ، أنهم لم يشاهد لهم من وجوههم غير عيونهم وذلك أنهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك ، ويبدو أن هذه العادة كانت فيهم في القرون السابقة ، فقد ذكر اليعقوبي أن أنبية من صنهاجة في صحراء « ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم » (2) وأن حرارة الصحراء قد فرضت عليهم أن لا يلبسوا قمصا انما يتشحون بثيابهم ، وقد كانوا يحيون حياة بدوية،فقد كانوا لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا ، انما اعتمادهم على الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ، وقد كانوا كذلك في عهد اليعقوبي ، فوصفهم بأن « معاشهم من الأبل ليس لهم زرع ولا طعام » (3) ، وبذلك فان اليعقوبي قد حدد أنعامهم ، ويبدو أن المؤرخين قد أجمعوا على هذا الوصف ، فإن ابن حوقل بدوره يذكر أنهم « لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق وفيهم من لم يسمع بهما الا بالمثل » (4) وهذا الوصف لا ينطبق على الجماعات المجاورة لسجلماسة ، لأن قربهم منها قد أفادهم ، فأضاف ابن حوقل أن من بأداني سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه والشعير ويزرعونه والتمور والطيبات ، وقد أثرت الصحراء في طبائعهم وصفاتهم ، فكانوا فيهم « البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة في الجرى والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة » (5) .

لقد عرف المغرب الاسلامي العربات ـ كما سبق ـ ومهما قيل عن استعمالها في النقل ، فإن أوليفر Oliver يقرر أنها لم تكن ملائمة للنقل عبر الصحراء (6)

(1) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 201 ، 212 .

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

(3) نفس المكان .

(4) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 98 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 212 . وأضاف هذا أنه ربما مرت بهم القوافل فينحخون ملوكهم ورؤساءهم بالخبز والدقيق » أنظر : ص : 214 .

(5) نفس المصدر ، ص : 98 .

(6) Oliver Davies, *West Africa before the Europeans*, p. 246.

ويبدو أن التجار قد استعملوا الحصان في تجارتهم هذه فان الشيخ أبا نوح الصغير ـ عاش في القرن الرابع الهجري ـ «كان له أربعون فرسا ، وله فرس عتيق ، وعليه حج ، وعليه سافر الى تادمكت قيمته مائة وخمسون دينارا » (1) وربما كان هذا أبا سعيد بن يخلف المزاتي المديوني ، من بلاد الجريد أو من منطقة الزاب ، فقد قام برحلة على ظهر حصان الى تادمكت في النصف الثاني من القرن العاشر ، الا أن استعمال الحصان كان محدودا ، فهو وأن كان يمتاز بسرعته ، الا أنه لا يستطيع أن يتحمل مشاق الصحراء كالسير في كثبان الرمال ، وتحمل العطش لفترة طويلة ، ولهذاه الأمور فقد كان الجمل أكثر استعمالا للنقل ، باعتباره سفينة الصحراء ، لتحمله مشاقها وقد ذكر الحموى أن التجار كانوا يحملون الجمال الوافرة القوية » (2) ومما يدل على هذا الاستعمال ، ان التجار كانوا اذا نفذ الماء ، يلجأون الى المياه التي في بطون الابل يذبحونها ويشربون مياه أجوافها ، وقد ذكر الادريسي أنه كان للتاجر «المائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة» (3) ، ويبدو أنه كان الى جانب هذه الوسائل البرية ، وسيلة بحرية ، فقد ذكر القلقشندى بخصوص أودغست أن «السفن تصل اليها في البحر المحيط من كل بلد» (4) .

ومع أن أودغست ليست ساحلية ، الا أن المقصود ـ ربما ـ الوصول بالسفن الى موازاتها ، وقد ذكر الادريسي ما يفيد في الكشف عن استعمال المراكب البحرية ، فذكر ـ مشيرا الى جزيرة أوليل ـ « أن المراكب تأتي الى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها الى موقع النيل وبينهما مقدار مجرى ، فتجرى في النيل » (5) ـ نهر السنغال ـ الا أن هناك من ينكر هذا الاستعمال ، فقد ذكر ترمنغهام Trimingham أن الاتصالات بين شمال افريقيا وبلاد السودان كانت برية تماما (6) ، وقد ، أكد

---

(1) الويسياني أبو الربيع سليمان : نص نشره لويكي Lewiski في بحثه : *Quelques extraits*, p. 15.

(2) الحموي : **معجم** ، ج2 ، ص : 361 . وقد عرف المغرب الجمل منذ وقت مبكر ، حوالي مئة عام ، قبل الميلاد.

(3) الادريسي : **صفة** ، ص : 66 .

(4) القلقشندي : **صبح الأعشى** ، ج5 ، ص : 172 .

(5) الادريسي : **صفة** ، ص : 2.

(6) TRIMINGHANAM, *A history of Islam*, p. 40.

عالم الآثار الفرنسي موني Mouny هذا ، ورد ذلك الى استحالة العودة من السنغال الى المغرب ، لأن الرياح تهب على ساحل الصحراء باتجاه الجنوب (1) .

كان للسفر الى السودان فصل معين ، تمليه ظروف طبيعية ، فقد ذكر ابن حوقل أن الصحراء «لاتسلك الا في الشتاء وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصدر» (2) الا أن الادريسي يقدم ذلك عن ابن حوقل ، فيشير الى أن «هذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف» (3) ، ويستنتج من قوليهما أن القوافل تتجه الى السودان بعدما ينتهي وهج الصيف ، لأن الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض ، وقد لا يكون نظام معين لمسيرهم اليومي بين تاهرت وسجلماسة ، لكنهم عند انطلاقهم من هذه الأخيرة ، فانهم يوقرون جمالهم في السحر الاخير ويمشون الى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ، ويشتد الحر على الأرض ، فيحطون أحمالهم ويقيدون جمالهم ، ثم يخيمون على انفسهم ظلالا تقيهم من حر الهجير وسموم القائلة ، ويقيمون كذلك الى أول وقت العصر ، فيرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم الى أن يحل الظلام ، فيحطون رحالهم حيثما وصلوا ويبيتون ليلتهم الى الفجر ، ثم يبدأ مسيرهم ثانية (4) .

كانت تسير القوافل في بحر من الرمال ، لا يستطيع اجتيازه الا من خبر مجاهل الصحراء ، وعرفها ، فاذا ضلت قافلة ، فقد تجد هلاكها في تلك الرمال ، لذلك كان التجار يتواعدون خارج تاهرت فاذا تم اجتماعهم ، ساروا الى سجلماسة ، ومنها عبروا الصحراء ، وربما كانوا على موعد مع تجار سجلماسة ، فيجتمعون في قافلة واحدة ويبدو أنه كانت بعض الجماعات تعترض طريق القافلة أحيانا ، فقامت شبه اتفاقية بينهم وبين قبائل الصحراء ، التي كانت لها معرفة بالبر وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه ـ كما سبق ـ فكانت تقدم للتجار بعض الطعام كاللحم واللبن والماء ، كما تقوم بحراستهم وارشادهم ، فتقدم لهم الادلاء ، الذين كانوا يهتدون بالنجوم والجبال في القفار ، مقابل هذه المساعدة كانت تحصل هذه القبائل على فوائد من تلك القوافل

(1) MAUNY, *The question of Ghana*, p. 201.

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 100 .

(3) الادريسي : المصدر السابق ، ص : 31 .

(4) نفس المكان .

فهي تعتبر وسيلة اتصالها بالخارج ، ومنها تحصل على حاجاتها ، وأكثر من ذلك فقد ذكر ترمنغهام Trimingham أن قوة صنهاجة ترجع الى سيطرتها على الطرق التجارية ، فكانت تجبي ضرائب على كل القوافل التي تمر في منطقتها (1) ، ويبدو أنه تأثر بابن حوقل الذي أشار الى أن بدو الصحراء كانت « لهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان وبذلك قوام بعض شؤونهم » (2) ولم يدفع التجار لصنهاجة فحسب ، بل ان ملوك السودان كانوا يحصلون عليها ، فقد ذكر بوفيل Bovill. أن ملك غانة كان يأخذ دينارا ضريبة على حمل الملح الداخل الى بلده ، وديناري على الحمل الخارج منها (3)، وربما كانت هذه الضرائب مقابل ما يقدم للتجار من خدمات ، وربما كانت ضمن نظام جمركي يدل على وجود تنظيم اقتصادي للبلاد .

يصل التجار بعد تلك المشاق الى مدينة أودغست ، التي لم يحدد أوائل الجغرافيين المسلمين موقعها من الصحراء تماما ، فاذا كانت هي غسط التي ذكرها اليعقوبي ، فانه لم يورد عنها شيئا ، وكل ما يفهم مما ذكره أنها ترتبط بسجلماسة بطريق قبلي وأنها في « واد عامر » (4) ، أما ابن خرداذبة فهو لم يشر الى وجودها بتاتا ، لكنها بدأت تظهر في المؤلفات المتأخرة عن القرن الثالث الهجري ، دون تحديد لموقعها ، فان المهلبي — العزيزى — يصفها بأنها مدينة بين جبلين وهي مصر من الأمصار الجليلة ، ويبدو أن هذين الجبلين كانا بين صحراء لمتونة وبلاد السودان ، لكن هذا تحديد واسع ، ولم يكشف ابن حوقل عن هذا الغموض ، رغم ما قيل عن زيارته للمدينة ، فقد ذكر بعدها عن سجلماسة ، ووصفها بأنها « مدينة لطيفة أشبه ببلاد الله بمكة ... لأنها بين جبلين ذات شعاب » (5) ، وهي معلومات لا تفي بالغرض المطلوب،كذلك كان شأن البكري ، وربما كان عذره أنه لم يزر الصحراء ، وأنه لم يعثر على تحديد لموقعها بين المؤلفات التي اعتمد عليها ، وقد كان منها كتاب محمد

(1) TRIMINGHAM, *A history of Islam*, p. 52.

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 99 .

(3) طرخان ابراهيم علي : المرجع السابق ، ص : 67 .

(4) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

(5) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص : 91 .

ابن يوسف الوراق الذي استقى بعض معلوماته مباشرة ومشافهة ، فذكر البكري نفسه قول ابن الوراق : « أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي ، شيخ من أهل الحج والخير قال : أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار أودغست » ـ كما سبق ـ وهذا يؤكد اعتماد البكري على مؤلفات سابقيه من الجغرافيين ، ومع ذلك فقد اكتفى بوصفه أودغست أنها « مدينة كبيرة آهله رملية يطل عليها جبل كبير لا ينبت شيئا (1).

ترى هل كانت طريقة تحديد الموقع من قبل ، تعتمد على ذكر المسافات ، وعناصر جغرافية كجبل او واد أو نحو ذلك ؟ فإن الادريسي أيضا يصفها بنفس الطريقة ؛ فيذكر أنها مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة .

ظل هذا الغموض يسيطر على تحديد موقع أودغست ، الى أن اكتشف لافورج La Forgue آثارها سنة 1358 هـ / 1939 م ، وهو يرى أنها تقع اما جنوب ركيز Rkiz أو في Affolé ، اذ أن وصف الجغرافيين السابق ينطبق على هاتين المنطقتين (2) ، ويضيف أن هناك ضرائب في ركيز Rkiz الجنوبية يحيط بها من الجنوب جبل غير خصب كالذي ذكره البكري ، هذا الجغرافي الذي ينطبق وصفه للمدينة على خرائب في منطقة نوداش Noudache على بعد 50 كم شمالى ـ شرق Tamchaket والتي يسميها السكان الحاليون Togdaost او Tagdäoust ويرى دلافوس Delafosse من جهته أنها تقع على بعد 60 كم شمال شرق كيفا Kiffa (3) ، في نفس الوقت فإن بارت Barthe يحدد موقعها على خط طول 10 ـ 11 غربا ، وخط عرض 18 ـ 19 شمالا (4).

مهما كان الأمر ، فان غسط التي ذكرها اليعقوبي ، قد كانت لها شهرة على الطريق الى بلاد السودان الغربي ، وان ذكر اليعقوبي لها دون غانة ، يدل على أنها كانت تتمتع بشهرة أوسع . وقد كانت في عهده واد عامر فيه المنازل ، أي أنها كانت كما وصفها لافورج Laforgue مبنية بالحجارة والصلصال لكنها لم

---

(1) البكري : **المغرب** ، ص : 158.

(2) LAFORGUE, *Notes sur Aoudaghost. D.T.S.G.A.O.*, 1922, p. 31.

(3) DELAFOSSE, *Haut-Sénégal,Niger* t, 2 p. 13.

(4) LAFORGUE, *Op cit.*, p. 29.

تكن مدينة بمعنى الكلمة ، فلم تكن تضم أكثر من بضع آلاف من الأثرياء ، كانوا يسكنون هذه المنازل ، والمرجح أنهم من بربر لمتونة بينهم بعض التجار الأجانب بينما يرى دوفيس J . Devisse أنها كانت مدينة سيئة التنظيم وبيوتها أكواخ حقيرة (1) ، وربما كان هذا الوصف يصدق على ما حولها من الجماعات الظاعنة ، الذين كانوا يسكنون سهلها الرملي والظهر المشرف عليها من الشمال واذا كانت أودغست مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل ، وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة وعامرها قليل ، وليس بها كبير تجارة ، ولأهلها جمال ومنها يتعيشون ، في عهد الادريسي ، فقد كانت على العكس من ذلك في عهد البكري ، فكانت مدينة كبيرة آهلة رملية ، وحولها بساتين النخل ، وبها آبار عذبة،والغنم والبقر أكثر شيء عندهم» (2) ويمكن القول أنها لم تكن كذلك في عهد الحكم السوننكي لها ، ولا في اوائل الحكم الصنهاجي ، وذلك لأنهم لم يكونوا مستعدين لممارسة تجارة منطقة بعيدة باتجاه سجلماسة (3) ، ثم تطورت بفضل من قدم اليها من التجار الذين استقر بعضهم فيها ، ويظهر هؤلاء في عهد ابن الوراق الذي أخذ عنه البكري فكان « سكانها أهل افريقية وبرفجانة ونفوسة ولواتة وزناتة وتفزاوة هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من ساير الأمصار» (4) .

مهما كان الأمر ، فإن أودغست لم يكن لها انتاج محلي تعتمد عليه في حياتها الاقتصادية ، فكانت شهرتها التي جذبت اليها التجار ، ترجع الى أنها تمثل نهاية طريق سجلماسة ، وبداية طريقين،أحدهما يصل الى أوليل ـ بلد الملح ـ ، وثانيهما يمتد الى غانة ، وقد اكد ابن حوقل على وجودهما فذكر عن الأول أنه مسيرشهر ، وذكر عن الثاني أنه مسير بضعة عشر يوما ، وهذا يعني أن على أودغست أن تحافظ على استمرار وصول الملح والذهب اليها ، ومما ساعد في ذلك ، حاجة ملك غانة لهذا الملح ، فانه لا قوام لهم الا به ، مما فرض على هذا الأخير أن يحافظ من جهته على علاقته بملك أودغست ، فذكر ابن حوقل أن حاجة ملوك غانة وكوغة « الى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام » (5)

(1) R. Denise et J. Devisse, *Tagdaoust I, recherches*, p. 121.
(2) البكري : **المغرب** ، ص : 158 .
(3) R. Denise et J. Devisse, *Tagdaoust I, secherches*, p. 141.
(4) البكري : المكان السابق .
(5) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 98 .

فهل يقصد ابن حوقل ملح أوليل ؟ أم ملح تاغازا ـ تانتتال ـ ؟ فقد أشار البكري الى وجودهما ، وبلوغ التجارلهما (1) ، ثم هل كان تجار الشمال الذين يصلون أودغست يذهبون الى ملح أوليل ، ويقومون باستخراجه بأنفسهم ؟ أوكانوا يشترونه من تجار منطقة المناجم الملحية ؟ يفهم من كلام الادريسي أن أوليل من بلاد السودان وليست من بلاد الاسلام (2) ، وبذلك ربما كان الملح الذي أشار اليه ابن حوقل من منجم تاغازا ، وقد ذكر موني Mauny أن ملح هذا المنجم بدأ يلعب دورا في التجارة ابتداء من ق8 ـ ق9م ضمن النشاط التجاري الصحراوي .

على كل ، لقد استفاد تجار تاهرت من هذه الحركة التجارية في أودغست وساهموا بها ، وتنقلوا بينها وبين غانة بسلعهم المختلفة ، وهذا ليس بغريب مادامت تاهرت تتمتع بشهرة واسعة ، وهي عراق المغرب ـ كما سماها اليعقوبي ـ ويؤمها التجار المشارقة ، ولها ميناء بحري (3) ، وقد جذب ذهب غانة تجارها ، فكان عليهم أن يقطعوا الطريق بين أودغست وغانة ، استمرارا لطريق سجلماسة ـ أودغست ، فهو يمر في نفس الظروف الجغرافية ، في صحراء قليلة الأنس ولا عامر بها (4) .

ذكر المسعودي أن ملك غانة «يتصل ببلاد معادن الذهب» وأضاف أن تحت يده عدة ملوك « وممالك كلها فيها الذهب » (5) وليس هناك من يشير الى وجود مناجم الذهب في غانة نفسها ، فان البكري يذكر أن «حواليها من معادن التبر كثير» (6) ، ويفهم مما سبق ، أن مناجم الذهب توجد في مناطق وراء غانة وبذلك فان أهمية غانة تتمثل في سيطرتها على الطريق المؤدي الى تلك المناجم ، فقد كان التجار يدخلون منها في المفازات الى بلاد التبر ، ولولاها لتعذر الدخول اليهم لأنها في موضع

---

(1) البكري : **المغرب** ، ص 171 .
(2) الادريسي ، **صفة** ، ص : 2 . كما أشار دوفيس الى وجود صعوبة في تهريب الملح من أوليل ، انظر :
(3)
(4) الادريسي : المصدرالسابق ، ص : 31 .
(5) المسعودي : **أخبارالزمان** ، ص : 65 ـ 66 .
(6) البكري : المصدرالسابق ، ص : 179 .

منقطع . لذلك كان التجار حين ينزلون المدينة ـ غانة ـ «يتطيبون ثم يستصحبون الأدلاء ، ويستكثرون من حمل المياه ويأخذون جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر فيمرون بطريقهم » (1) ، وقد أشار البكري بخصوص ملك غانة أن « أفضل الذهب في بلاده ماكان بمدينة غياروا . (2) .

تعرض أوائل المؤرخين المسلمين الى غانة ، لكنهم لم يحددوا موقعها تماما ، فقد أشار اليعقوبي والمسعودي وأبن حوقل وغيرهم أنها في بلاد السودان ، الا أن الحموي يذكر أنها « مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان » (3) ، ويبدو أن الادريسي حاول تحديد موقعها فذكر أن أرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مفزارة (4) ومن شرقيها ببلاد ونقارة ، وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر ، وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية ، ويلاحظ أنه تحديد غير دقيق ، وقد ظهرت عدة محاولات لتعيين موقع مدينة غانة ، فقد ذكر لافورج Laforgue أنه من المستبعد أن تقع غانة في منطقة الجوف أي شمال المركز الحالي الولاتة Oualata ويرى أنها تقع الى الغرب من خط والاتا ـ نيما Néma (5) . كذلك يذكر دلافوس Dolafosse أن الانجليزي وليم دي بوروف William des Borough قد حدد موقعها غرب تمبكتو ، وأن Darthe جعله على خط 7 غربا ، 18 شمالا ، أي انها تقع على بعد 60 كم جنوب والاته ، وأن كوبولاني Coppollani قد ذكر أنها تقع على مقربة من نيما Néma ، ويعلق دلافوس بأن هذا القول أقرب الى الصحة (6) . ويضيف أن بعض العلماء حاولوا تحديد موقعها في كانو Kano الواقعة في نيجيريا الحالية . أما الضابط Desplaenes فذهب الى الاعتقاد بأنها تقع على بعد 450 كم جنوب والاتة معتمدا على وجود مدينة قريبة من باماكو تحمل اسم غانة ، أما دلافوس نفسه فيحدد موقعها قرب

(1) الحموي : **معجم** ، ج6 ، ص : 261 مادة (غانة) . القزويني : **آثار البلاد** ، ص : 57 .

(2) البكري : **المغرب** ، ص : 176 .

(3) الحموي : المصدر السابق ، ج6 ، ص 263 .

(4) والاصح أنها مفازة مثلما وردت عند الحموي سابقا في نفس العبارة .

(5) LAFORGUE, *Notes sur Aoudgost*, p. 38.

كومبي ، وفيما يتعلق بالرأي الذي يدور حول كومبي ، فإن موني Mouny يشير الى أن صاحب كتاب الفتاش كان أول من أشار الى أنها عاصمة بلاد غانة ، على أن هناك مكانين باسم كومبي في بلاد السودان هما كومبي صالح وكومبي ديوفي ، ويضيف أنه بعد حفريات 1333 هـ / 1914م ، 1358هـ / 1939م ، 1369هـ / 1949م ، 1370هـ / 1950م ، 1371هـ / 1951م ، فمن الصعب التأكيد على أن كومبي صالح هو موقع كومبي غانة ، الا أن بعض المؤرخين الفرنسيين يرون أن هذا هو الرأي الصحيح (1) .

يصف أبو الفداء غانة بأنها تقع على ضفتي نيلها ، وأنها « مدينتان احداهما يسكنها المسلمون والأخرى الكفار » (2) ، وهو يتفق في هذا مع البكرى الذي وصفها بأنها « مدينتان سهليتان احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون والأخرى مدينة الملك ، ويبدو أن صاحب الاستبصار قد تأثر بهذا الوصف فذكر أنها « مدينتان احداهما يسكنها الملك والأخرى يسكنها الرعية والتجار والسوقة » (3) ، أما الادريسي فيشير من جهته الى أنها مدينتان على ضفتي البحر الحلو ، يقصد نهر السنغال ، الا أن موني يصفه بأنه لم يكن لديه المعلومات المباشرة عن السودان الغربي مثلما لم تكن لديه عن أوربا (4) ، ويرفض – موني – وصف غانة بأنها مدينتان ، من جهة أخرى ، فإن وصف البكري لمدينة المسلمين بأنها كبيرة ، فيها اثنا عشر مسجدا ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون والفقهاء وحملة العلم ، وحولها آبار غذبة ، منها يشربون وعليها يزرعون الخضروات،ووصفه لمدينة الملك بأنها على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة ، مبانيهم بالحجارة وخشب السنط ، وأن « تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه » (5) ان هذا الوصف قد ينطبق عليها في عهده ، اذ من المستبعد أن يكون المسلمون قد صار لهم هذا الوجود والنفوذ الواسع في القرنين الثاني

---

(1)

(2) أبو الفداء : **مختصر تاريخ البشر** ، ص : 157 ، أشار البكري الى وجود المسلمين في غانة منذ العهد الأموي ، فذكر أن ببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه الى غانة في صدر الاسلام ، انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 179 .

(3) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 220 .

(4) *Ib. d, op. cit.*, n. 206.

(5) البكري : **المغرب** ، ص : 175 .

والثالث الهجري ، بل من المحتمل أن تكون غانة قد شهدت اقامة أوائل المسلمين في هذين القرنين .

يبدو أن المناطق التي كانت تزود غانة بالذهب هي غيارروا ، فذكر البكرى بخصوص ملك غانة أن أفضل الذهب في بلاده ما كان بمدينة غيارروا ـ كما سبق ـ وهي تبعد عنها مسير ثمانية عشر يوما ، فكان التجار يخرجون من غانة الى مدينة سامقندي أربعة أيام ومنها الى بلد يسمى طاقة يومان . ثم الى خليج من النيل يقال له زوغوا مسيرة يوم ، وقد كان الملك يختار الكتل الذهبية ، ويترك التبر الدقيق للناس ، وربما دخل هذا في اطار التنظيم الاقتصادي لغانة ، والذي كان يمس التجار الوافدين ، فان البكرى يذكر أنه « لولا ذلك لكثر الذهب بأيدى الناس حتى يهون » (1) ، وضمن نفس الاطار فقد كان للملك على حمل الملح دينار ذهب في ادخاله البلد وديناران في اخراجه وله على حمل الناس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل . الأمر الذي أدى الى ثرائه وقد ازداد ثراء « بما لديه من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم وله » (2) وقد امتد تأثير هذا الثراء الى سجلماسة ، فكان أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب (3) ، ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يمتد هذا الثراء الى تاهرت ، فكان الامام عبد الوهاب نفسه من كبار أثريائها ، وكانت أمواله بشكل خاص من الذهب .

كان طريق آخر يربط تاهرت ببلاد السودان ، وهو شرقي بالنسبة للطريق الأول ، فقد كان التجار يخرجون من تاهرت الى حصن ابن كرام عبر متيجة ومنه الى امارة هاز ثم الى بلد بني دمر ، وهم قوم من زناتة على مرحلة من تاز ، ثم يصل التجار مدينة أربة وهي أول مدن الزاب من الجهة الغربية ، ومنها الى مدينة يقال لها مقرة ، أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداج ، وعلى مقربة منها قوم من بني تميم يقال لهم بنو الصمصامة ،

---

(1) نفس المصدر ، ص : 177 .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 98 . فاج Fage : **موجز تاريخ افريقية** ، ص : 68 .

(3) الحموي : **معجم** ، ج5 ، ص : 41 .

وهم مخالفون لابن الأغلب (1) ، وقد أشار ابن حوقل الى مرور هذا الطريق بمدينة المسيلة قبل وصول مدينة مقرة (2) ، ومن هذه تسير القوافل الى مدينة طبنة التي كان ينزلها الولاة ، وكان أهلها أخلاطا من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر ، وتعتبر مدينة الزاب العظمى ، ومنها الى مدينة بسكرة ، التي وصفها البكري بأنها مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار ، وبأنها مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين كثيرة ويضيف أن أهلها على مذهب أهل السنة (3) ، ويبدو أن وصف أهلها بأنهم على المذهب ، راجع للتقارب بين المذهب الاباضي والسنة ، أو أعتماده على مؤرخ مني ، فقد ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجرى أن أهلها من الخوارج الاباضية (4) ، ثم من مدينة بسكرة يخرج التجار الى مدينة ورقلة (ورجلان) وقد ، ذكر الادريسي أن المسافة بين المسيلة ومقره مرحلة ومن هذه الى طبنة مرحلة ، بمعنى أن المسافة بين المسيلة وطبنة مرحلتان ، الا أن البكري جعلها ثلاثة مراحل ، وأضاف الادريسي أن المسافة بين المسيلة ووارقلان (ورقلة) اثنتا عشرة مرحلة (5) أي أن المسافة بين طبنة وورقلة حوالي عشرة مراحل ، ووصفها بأنها مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة ، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم ، وهم وهبية اباضية (6) . وقد أكد لويكي على أهمية الدور الذي لعبته ورقلة في تجارة السودان ، فكانت نقطة انطلاق كسجلماسة ، ويرى أن علاقتها بتلك البلاد كانت موجودة في القرن التاسع الميلادي ، أي في عهد الدولة الرستمية ، التي امتد سلطانها حتى شمل ورقلة جنوبا ، وعلى كل ، فان التجار يواصلون طريقهم من ورقلة الى تادمكة مرورا بمنطقة أدرار ــ أفوقاس (7) ــ أي أن هذا الطريق يمر بمنطقة الهقار ــ الهكارة ــ

---

(1) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 351 ــ 352 .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 86 ــ 87 . البكري : **المغرب** ، ص : 143 ــ 144 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 52 .

(4) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص : 93 .

(5) الادريسي ، **صفة** : ص 88 ، 120 .

(6) T. Lewicki, *La répartition géographique*, *R.O.* 1967, p. 31.

(7) *Ibid*, *Traits*, p. 14.

وعن أدرار ــ افوقاس : انظر : Mauny, *Tableau*, pp. 118. 120.

ويبدو أن هذه التسمية جاءت من قبيلة هوارة ، فقد ذكر ابن خلدون أن بعض هذه القبيلة « قطع الرمل الى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه افريقية ويعرفون بنسبهم هكارة » (1) . وقد ذكر البكرى أن من أراد السفر من تاد مكة الى القيروان ، سار« في الصحراء خمسين يوما الى وارجلان »(2)

كانت تاد مكة مركزا تجاريا هاما ، شمال شرق منحني نهر النيجر ، ما تزال خرائبها ماثلة الى الآن ، ويطلق عليها خرائب السوق ، وهي على بعد 45 كلم شمال غرب كيدال Kidal ويذكر موني Mouny أن هذه الاثار تعود الى أواخر القرن السادس عشر الميلادى وأوائل القرن السابع عشر (3) ، وقد وصف البكري مدينة غانة ومدينة كوكو ، وأن أهلها بربر مسلمون ، يلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك ، ودنانير تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة . وهو ـ البكري ـ يذكر أن المسافة بين تادمكة ومدينة كوكوا تسع مراحل (4) ، ويصف هذه الأخيرة بأنها مدينتان ، مدينة الملك ومدينة المسلمين وزيهم كزي السودان ، وهم يعبدون الدكاكير ـ الأصنام ـ أما الأدريسي ، فيصفها بأنها مدينة مشهورة الذكر في بلاد السودان كبيرة ، وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال ، فيمر بها ومنه شرب أهلها ، وان ملكها قائم بذاته ، وله حشم كثير ، وقواد أجناد وزي كامل ، وهم يركبون الخيل والجمال ، ولباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم وتجارهم يلبسون القداوير والأكسية . وجلتهم يلبسون الأزر ، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم (5) ، ويضيف أبو الفداء ، أن كوكو مقر صاحب تلك البلاد ، وهو كافر يقابل من غربيه مسلمي غانة ومن شرقيه مسلمي الكانم ، ولئن كان هذا متأخرا ، فهو يكشف عن أن حدودها الشرقية كانت

---

(1) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 286 .

(2) البكري : **المغرب** ، ص : 182 . مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص : 224

(3) T. Lewicki, *L'Etat*, p. 534.
Mauny, *op. cit.*, p. 117.

(4) البكري : **المغرب** ، ص : 181 ، 183 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 223 . تعني تادمكة : هيئة مكة .

(5) الادريسي : **صفة** ، ص : 11 .

تمتد الى كانم وحدودها الغربية الى غانة . وقد أشرنا سابقا الى أنها ذكرت من قبل اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي ، ويرى ترمنغهام Trimingham أنها وجدت في القرن التاسع الميلادي في واد النيجر الأوسط (1) ، وقد وصفها المهلبي بأنها مدينتان : احداهما شرقي نهر النيجر وتدعى سرناط Sarnat وبها أسواق ويرتادها التجار من جميع البلاد ، والثانية غربي النهر ، وهي مدينة الملك يقيم بها مع حاشيته (2) ، وهي تقع على الطريق القادمة من الشمال والمارة بتلمسي Tilamsi وكانت احدى الأسواق التي تصلها قوافل الشمال عبر ورقلة (3) .

يؤكد دوفيس J. Devisse على أن طريق ورقلة ـ تادمكة ـ جاو كان أهم طريق يربط السودان الغربي بالشمال الافريقي في القرن التاسع الميلادي (4) فهل كان تجار تاهرت يصلون ورقلة عبر منطقة الزاب أم كان هناك طريق مألوف سلكه الامام يعقوب عند فراره ؟ ويحتمل الويكي T. Lewicki أن طريق تاهرت ـ جاو كان يمر قريبا من الطريق الغربي ـ السابق الذكر ـ ، وأضاف أن ملك أودغست كان على علاقة مع ملك غانة وملك جاو ، وهذا مرتبط بسياسته الاقتصادية ، فقد كان مهتما بتطوير التجارة بين سجلماسة وكل من غانة وجاو (5) .

يبدو أن مدينة كوكو أو جوجو لا تمتلك مناجم للذهب ، ويفهم هذا مما ذكره الادريسي سابقا بشأن ورجلان ، كما ذكر لويكي أن التاجر الاباضي أبا موسى الويسياني قد خرج من الجريد الى غانة ووصل الى مدينة غيارة ، في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ، لو كانت كوكو تمتلك مثل تلك المناجم ، لكان الأجدي لهؤلاء التجار وأمثالهم أن لا يحملوا أنفسهم مشاق الوصول الى غانة ، ومع هذا افتقار الى المناجم ، فقد كانت مركزا تجاريا هاما في تلك المنطقة ، ويظهر أن هذا راجع الى موقعها على نهر النيجر ، فكان طريقا سهلا ربطها ببلاد السودان ومناجم الذهب في ونقارة وغيرها ، كذلك ، كانت حلقة وصل

---

(1)

(2)

(3) وحول هذا الطريق أنظر :

(4)

(5) T. Lewicki, *L'Etat*, p. 531. IBID, *The Ibadites in arabia*, p. 120.

بين تجار الشمال والسودان . فذكر البكري أن تجارتها بالملح الذي يحمل من منطقة توتك الى تادمكة وبينهما ست مراحل ، ثم الى كوكو (1) ، حيث يتم توزيعه ، ومما زاد في أهميتها ، وقوعها على الطريق الرابط بين بلاد السودان الغربي ومصر ، فذكر ابن حوقل أن الطريق من غانة الى كوغة نحو شهرومنها الى سامة دون الشهر ثم الى كزم نحو الشهر أيضا ومن ثم الى كوكو شهر ، ومنها الى مرندة شهر (2) .

اذا كان هذا هو وضع جوجو بالنسبة لمناجم الذهب ، فما الدوافع لان يعمل الرستميون على توطيد علاقتهم بملكها كما سبق ؟ يبدو أن مادة الذهب لم تكن السلعة الرئيسية في تجارة تاهرت ـ جوجو ، فقد كان هؤلاء يحصلون عليها بواسطة الطريق الغربي ، ان الأمر لا يخلو من وجود سلع أخرى للتبادل التجاري ، لكن الأهم في ذلك ، هو اتصاف رجالها بالقوة ـ كما سلف ـ ، ومن جهة أخرى ، فقد أشار البكري الى وجود طريق يربط كوكو بمملكة يقال لها الدمدم (3) ، أولملم ، ويذكر الادريسي من جهته أن أهل غيارة « يغيرون على بلاد لملم يسبونهم ويأتون بهم ويبيعونهم » (4) ، أي أنه يمكن القول أن بلاد لملم هذه تعتبر مصدرا للعبيد ، الذين كانوا يصلون الى تاهرت عبر طريق كوكو ـ ورقلة ـ تاهرت ، وقد ساعد مرور هذا الطريق بمناطق اباضية مثل ورقلة وبسكرة على تسهيل أمورهم التجارية ، مما يساعد على ترجيح احتمال قيام الرستميين بامداد قرطبة بالعبيد ، بل ان ترمنغهام Trimingham يرى أن حكام كوكو أنفسهم قد ربطوا عاصمتهم باسبانيا الأموية .

---

(1) حول استعمال نهر النيجر للملاحة انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 183 .

(2) ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 91 ، الا أن الادريسي وأبا الفداء قد ذكرا أن الطريق بين كوكو وغانة مسيرة شهر ونصف ، أنظر : الادريسي : **صفة** ، ص 12 . أبو الفداء : **مختصر** ، ص : 157 . وذكر البكري طريقا آخر بين المدينتين : من غانة الى أوغام الى رأس الماء الى تيرقي الى بلاد سغمارة ثم الى كوكو ، انظر : البكري : المصدر السابق ، ص : 180 ـ 181 .

(3) البكري : المصدر السابق ، ص : 183 . الدمدم = اللملم ، انظر : طرخان : **امبراطورية غانة** ، ص : 74

(4) الادريسي : المصدر السابق ، ص : 9 .

الى جانب الطريقين المتقدم ذكرهما . طريق تاهرت ـ سجلماسة ـ غانة . وطريق تاهرت ـ ورقلة ـ كوكو ، كان هناك طريق ثالث شرقي بالنسبة لهما . وقد كان مستعملا بشكل خاص من قبل تجار الجناح الشرقي للدولة الرستمية وأعني به جبل نفوسة (1) ، الى جانب تجار القيروان والشرق الاسلامي . وقد أشار كثير من الجغرافيين المسلمين الى هذا الطريق ، فقد ذكر البكري أن من أراد الطريق من نفوسة الى مدينة زويلة (2) ، فانه يخرج الى مدينة جادو ، ثم يسير ثلاثة أيام في صحراء ورمال الى تيري ، وهو في سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل ، ثم يصعد ذلك الجبل فيمشي في صحراء مستوية نحو أربعة أيام فيصل الى بئر أودرف ، ثم يلقى جبالا شامخة تسمى تارغين يسير فيها الذاهب ثلاثة أيام، حتى يصل الى تامرما ، ومنه يواصل مسيره مدة يومين الى سباب ، تلك البلد التي تشتهر بزراعة النيلة ، ثم يسير منها في صحراء يوما فيصل زويلة ، أما ب . ج مارتين B.G. Martin فيشير الى أن الطريق يخرج من جبل نفوسة الى ودان ، التي يصفها اليعقوبي ، بأن أهلها مسلمون اباضية . وهم الغالبون عليها ويكثر عندهم التمر ولا يؤدون خراجا (3)، ثم يمتد الطريق من هناك الى فزان التي وصف اليعقوبي أهلها بأنهم أخلاط من الناس ، لهم رئيس يطاع فيهم وبلد واسع ومدينة عظيمة ، ومن فزان يمتد الطريق الى زويلة (4)، التي قال عنها البكري بأنها من اطرابلس بين المغرب والقبلة ، والتي وصفها اليعقوبي بأن أهلها قوم مسلمون اباضية كلهم يحجون البيت الحرام ، وبأنها تشتهر بالجلود الزويلية ، وأنها أرض نخل وذرة ، ثم أشار الى أهميتها التجارية كمنطلق نحو الجنوب ، تشبه في ذلك ورقلة وسجلماسة فذكر، أن أهلها يخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان

---

(1) عن الجبل انظر : اليعقوبي : **البلدان** . ص : 346 . ابن حوقل : **صورة** . ص : 92 ـ 93 .

(2) عن زويلة . انظر : الاصطخري : **المسالك والممالك** . ص : 34 ـ 36 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** . ص : 146.
L. HESS. *The itinerary of Ben-Jamin of Tudela. J.A.H.*, 1965, VI. p. 19-22.

(3) اليعقوبي : **البلدان** . ص : 345 . بعث ابن الأشعث جيشا . « الى زويلة وودان فافتتحهما وقتل من بهما من الاباضية وقتل عبد الله بن حيان الاباضي وكان رأس أهل زويلة » ابن عذاري : **البيان** . ج 1 . ص : 73 .

(4) انظر خريطة تمثل هذا الطريق: B.G. MARTIN *Kanem, Bornu and the Fezzan, J.A.H.* 1969, p. 20

لقربهم منهم ، وأشار الى وجود أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة ـ كما سبق ـ الذين اشتهروا بالتجارة ، وقد أكد البكري على هذه الأهمية فوصفها بأنها « مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها ، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم » (1) ، وهذا وصف ينطبق على العهد الرستمي ، لأن البكري يعتمد في ذلك على ابن الوراق .

يخرج المسافر من زويلة باتجاه الجنوب ، فيصل الى كوار ، فقد ذكر اليعقوبي أن وراء زويلة بلد كوار بها قوم من المسلمين يأتون بالسودان (2) ، ويشير B.G. Martin الى أن الطريق يمر على مرزوق ثم تاجارحي Tajarhi ثم يخترق جبال تمو الى كوار ، ويصف حسين مؤنس المنطقة بين فزان وكوار بأنها حمادة ، ولا تسلك الا من ممر فيه الآبار والواحات ، يربط زويلة ببلاد السودان (3) . وقد كان بعض التجار يواصلون طريقهم جنوبا الى كانم التي تقع شمال شرق بحيرة تشاد ، وبينها وبين زويلة أربعون مرحلة ، وهم وراء صحراء بلاد زويلة ، وسودان مشركون (4) ، ومنهم من يتجه الى كوكو (جاو) ، وقد أشار ابن حوقل الى هذا الطريق ، وذكر أنه من زويلة الى مرندة مسير شهرين ومن هناك الى كوكو مسير شهر (5) ، وهذا يعني أن نشاط تجار زويلة لم يقتصر على بلاد كانم ، بل امتد الى السودان الغربي ، ويذكر لويكي بخصوص الطريق من جبل نفوسة وزويلة الى كوار أنها كانت تمر عبر الجاترون Gatrun ، وتمو ثم يات Yat ومنها الى سجدين Seguedine ، ويضيف أن تجار مدينة جادو كانوا يمرون في منطقة غرب الطريق السابق الذكر (6).

---

(1) البكري : المكان السابق .

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 345 . وحول كوار ، انظر MAUNY, *Tableau*, p. 141.

(3) حسين مؤنس : **فزان** ، ص : 89 .

(4) البكري : **المغرب** ، ص 11 .

(5) ابن حوقل : **صورة** ، ص : 91 .

(6) T. LEWICKI, *The Ibadites*, p. 126. IBID, *Ttraites*, 120.
وعن تجارة جبل نفوسة مع السودان عبر زويلة أنظر :

لقد أكد الشماخي على وجود تجارة واسعة بين الجبل وبلاد كانم ، ويفهم ذلك من اشارته الى أن أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني ــ عامل جبل نفوسة من قبل الامام عبد الوهاب ــ كان يحسن التكلم باللغة الكانمية الى جانب اللغة العربية والبربرية (1) ، وان دل هذا على شيء ، فانه يدل على اتصاله المتواصل ببلاد كانم ، وربما اقامته هناك فترة طويلة ، وهذا يرجح وصول تجار الجبل الى السودان الغربي ــ كما سيتضح ــ ويبدو أن مملكة الزغاوة (2) ــ بلاد كانم ــ قد استفادت من تجار تهاهذه ، حتى غدت احدى ممالك السودان الكبرى ، فقد وصفها المسعودي بأنها مملكة « واسعة كبيرة منها على النيل مما يحاذي النوبة ويحاربون النوبة » (3) . وعلى كل ، فانه تجدر ملاحظة سيطرة الاباضية في جبل نفوسة على مداخل هذا الطريق ، مما يوسع دائرة نفوذ تاهرت على الطرق المؤدية الى بلاد السودان ، ويمكن بهذا تفسير حرص قرطبة على توطيد علاقتها بتاهرت .

بعد كل ما تقدم ، من المفيد استعراض السلع التي كانت تخضع للمبادلات التجارية بين تاهرت خاصة وشمال افريقيا من جهة وبين بلاد السودان الغربي ، فقد أشرنا سابقا ــ اعتمادا على ابن حوقل ــ الى حاجة ملوك غانة كوغة الماسة الى الملح الصادر اليهم من بلاد الاسلام ، وبالخصوص من مناجم تاغازا وأوليل وتوتك (4) ، فقد ذكر أبو حامد الغرناطي أن التجار كانوا يحملون الملح الى غانة انطلاقا من مدينة سجلماسة ، وقد أشار صاحب الاستبصار الى أن من عجائب الصحراء وجود معدن الملح بها ، تحفر عنه الأرض ، تحت قامتين أو أكثر ، « ويتجهز به الى بلاد السودان » غانة وغيرها (5) . أما القزويني فيذكر من جهة ثانية ، أن شغل أهل تاغازا يتمثل في « جمع الملح طول السنة ، يأتيهم القفل في كل سنة مرة يبيعون الملح ويأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم والباقي يؤدونه الى ساداتهم

---

(1) الشماخي : **السير**، ص : 185 .

(2) الزغاوة : « هم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم ويسمى ملكهم كاكره » ، اليعقوبي ، **تاريخ** ، ص : 219 .

(3) المسعودي : أخبار ، ص : 66 . وصف اليعقوبي منازلهم بأنها اخصاص من القصب وليسوا بأصحاب مدن ، انظر : المصدر السابق ، المكان السابق .

(4) بشأن هذه المناجم ، انظر : البكري : **المغرب** ، ص : 171 ، 183 .

(5) مؤلف مجهول : **الاستبصار**، ص : 214 .

من مسوفة » (1) ، ونظرا لحاجة السودان الى هذه المادة ، فقد كانت مرتفعة الثمَن ، فكان التجار يبادلونه بوزن أو وزنين من الذهب أو أكثر على حسب كثرة التجار وقلتهم (2) ، أي حسب مبدأ العرض والطلب ويذكر دوفيس Devisse نقلا عن موني Mauny أن حمل الجمل أي 125 ـ 150 كغم ، يعود بكمية من الذهب تتراوح بين 760 ـ 1140 غم ذهب باعتبار أن القيمة المتوسطة للدينار تعادل 3,8 غم ذهب (3) ، ويذكر ابن حوقل أن ثمن حمل « الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار » (4) وقد انخفض سعره فيما بعد ، فذكر القزويني أنه كان يباع كل وقر بمائة دينار ، وفي بعض الأحيان ، كان يباع العبد من أهل السودان بكمية من الملح لا تعدو قدر حجم قدمه ، فكان الملح يقطع على هيئة اللوح الكبير ويحمل على الجمال ، فاذا صار الى السودان ، يجعل تحت قدم العبد منه مقدار نعل فيكون قيمة له ثم أصبح ثمن العبد بعد انتشار مادة الملح في أسواق السودان يعادل حمل جمل ، وقد أكد فاج Fage على تصدير مادة الملح الى بلاد السودان من الصحراء الكبرى ، وبالخصوص الى غانة التي تقوم بدورها في توزيعه على مناطق الجنوب . وأشار لويكي بدوره الى أهمية الملح ، فذكر أنه كان يشكل أساس ثروة الملك ، فكان يحتفظ به في المخازن ، فقد كان بمثابة العملة ، فذكر البكرى أن « تجارة أهل بلد كوكوا بالملح وهو نقدهم » (5) ، ويبدو أن هذا الملح كان حلا لمشكلة حصول تجار الشمال على مادة الذهب ، اذ لم تكن سلع هؤلاء التجار الزراعية أو بضاعتهم المحلية لتغطي ثمن الذهب ، وباستعمال الملح في المبادلات التجارية ، ظهرت تجارة منظمة للذهب ، وقد لعب دوره هذا ابتداء من القرن الثامن ـ التاسع الميلادي ، اذا كان للملح مثل هذه الأهمية كان حرص الرستميين على توثيق صلاتهم بسجلماسة عملا مدروسا ، اذ

---

(1) القزويني : **آثار البلاد** ، ص : 26 .

(2) أبوحامد الغرناطي : **تحفة الالباب** ، ص : 42 . Bovill *Caravans, p.* 42.

(3) J. Devisse, *Tegdaoust*, pp. 112-113.

(4) ابن حوقل : **صورة** ، ص : 98 .

(5) البكري : **المغرب** ، ص : 183 . Lewicki, *L'Etat*, p. 535.

سيمكن تجار تاهرت من الحصول على الملح سواء من أسواق سجلماسة أومن منحم تاغازا نفسه .

لم تقتصر صادرات الشمال الى الجنوب على الملح . فقد ذكر صاحب كتاب « الاستبصار » أن أكثر ما يتجهز الى مدينة كوغة بالملح االودع والنحاس المسبوك والتاكوت وهو أنفق شيء عندهم للدبغ به ، وأضاف بخصوص مدينة سلى أن تبايع أهلها « انما هو بالذرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن » (1)،وقد كشف الإدريسي بدوره عن الصادرات الى الجنوب ، فذكر أن التجار يدخلون بلاد السودان،بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصدف والاحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع » (2) . وقد أكد الحموي من جهته على هذا ، فأشار الى أن التجار تسافر من سجلماسة الى غانة ، « وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر ... وخرز الزجاج الأزرق وأسورة نحاس أحمر وحلق وخواتم نحاس » (3) . ويبدو أنه كان للخرز أهمية في تلك البلاد ، وذلك،لأن نساء كفار تكرور يسترن قبلهن بخرزات العقيق ينظمنها في الخيوط ويعلقنها عليهن ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم ، كذلك مما يؤكد تصدير الثياب الى بلاد السودان ما ذكره لويكي Lewicki نقلا عن أبي الربيع الويسياني فقد أشار الى أن أبا صالح الياجراني ـ من سكان بلاد الجريد في القرن الثالث الهجري ـ قد جهز جملا ليركبه الى تادمكة « فقال له رجل آخر : احمل لي على جملك حمل ثياب » (4) ، ومن المرجح أن تاهرت كانت تعتبر مصدرا هاما لانتاج الثياب خاصة الصوفية لثروتها الحيوانية الواسعة ، والكتانية لجودة زراعة الكتان في نواحيها .

---

(1) مؤلف مجهول : **الاستبصار** . ص 220 . 217 . ذكر عن كوغة في نفس المكان أنها أكثر بلاد السودان ذهبا .

(2) الادريسي : **صفة** . ص : 66 .

(3) الحموي : **معجم** . ج2 . ص : 361 . حسن أحمد محمود : **الاسلام والثقافة العربية** . ص : 72 . 211 .

(4) T. Lewicki. *Duelques extraits.* p. 4.

من جهة أخرى ، فقد ذكر بوسنانسكي Posnanski أنه قد عثر في منطقة Igho Vkwu على بعد خمسة وعشرين ميلا شمال شرق أونيتشا Onitsha في جنوب النيجر ، من قبل عالم الآثار Thurstan بين سنتي 1379 هـ/1959م ـ 1384 هـ/ 1964 م ، عثر على أكثر من ثلاثين سوارا من نحاس وبرنز وخزف ، وقد تبين بواسطة الكربون أنها تعود الى القرن التاسع الميلادي (1) ، وأشار دونيس Denise من جهته ، الى أنه قد تم العثور في تقداوست Tegdaoust (أودغست) على أواني فخارية مستوردة من المغرب الاسلامي ، ومن بينها أباريق كروية للواحد منها مصفاة في وسط وأسفل العنق ، وهي مقعرة ومثقبة لمنع دخول الحشرات والغبار وتنظيم صب الماء ، ومنها مصابيح زيتية ، والمصباح عبارة عن وعاء دائري قليل السعة ، وفوقه قمع للملء ، ثم ما يشبه المنقار يمر منه فتيل (2) ، وان تصدير مثل هذه المصابيح يستلزم تصدير مادة الزيت لاستعمالها في الاضاءة على الأقل .

اضافة الى ما تقدم ، فقد أكد صاحب كتاب « الاستبصار » على تصدير النحاس الى بلاد السودان ، فذكر بخصوص مدينة ايجلي ـ من بلاد السوس ـ أن بها يعمل « النحاس المسبوك يتجهز به الى بلاد السودان » (3) وقد أكد بوسنانسكي posnanski على نقل النحاس من شمال افريقيا الى البلاد السودان ، وذكر نقلا عن الحسن (ت سنة 339 هـ / 950 م) أن الذهب كان يقايض بالنحاس الذي أرسل الى الجنوب ، وكان على شكل قضبان بطول 70 سم وزنة القضيب حوالي (باوند) (4) ـ رطل ـ ولا تقتصر تجارة النحاس على تجار المغرب الأقصى ، بسبب وجود النحاس هناك مثل مدينة داي ، بل قام بها مختلف تجار المغرب الاسلامي ، فقد حدث سكن الصائغ ـ من معاصري ابن فروخ ـ في القيروان قال : « كنت أعمل السلاسل من نحاس وأطليها بماء الذهب الذي يجعل في اللحم

---

(1) Posnanski, *Ghana*, p. 114.

(2) Denise, *Les fouilles de Tagdaoust*, p. 485-487.

(3) مؤلف مجهول : الاستبصار، ص : 212 . الادريسي : صفة ، ص : 3 ، 74 .

(4) Posnanski, *Loc.cit.*

وابعث بها تباع ببلد السودان (1) » ومن المرجح أن مثل هذا العمل قد ظهر في تاهرت في تلك الفترة .

لقد أشار ابن الفقيه الى أن طعام أهل غانة « الذرة واللوبيا » (2) ، وأشرنا سابقا الى أن قبائل الصحراء نفسها لم تكن تعرف القمح الا مما يقدمه التجار ، ومن هذا من الجائز أن يكون التجار قد حملوا معهم هذه المادة الى بلاد السودان ، فقد أشار الى ذلك الادريسي ، فذكر أنه ربما جلبت الحنطة الى أهل زغاوة من بلاد ورقلان وغيرها ، ولما كانت تاهرت تشتهر بانتاج الحبوب ــ كما سبق ــ وكانت ورقلة مدينة صحراوية، أمكن القول ، أن تجار تاهرت قد ساهموا بقسط وافر في نقل تلك الحنطة الى زغاوة وغيرها من بلاد السودان ، وقد أضاف الادريسي ، أنه « ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة الا ما يجلب اليها من التمر من بلاد سجلماسة أوبلاد الزاب ويجلبه اليهم أهل ورقلان » (3) ، وهذا يجعل من المحتمل أيضا أن تجار تاهرت قد حملوا التمر الى السودان ، والى جانب هذه السلع وغيرها ، فقد كان للعنبر دور في الحركة التجارية هذه ، فكان سلعة هامة تصدر الى السودان لاستعماله في عدة أمور كالتطيب لكثرة بخره ، وللسحر والتعوذ من الجن وتحنيط الموتى (4) ، وبصفة عامة ، فان تجار تاهرت قد حملوا منتوجات شمال افريقيا والأندلس والشرق الاسلامي الى بلاد السودان .

كانت قوافل التجار تعود محملة بسلع السودان ، ومن بينها الذهب ، فقد ذكر اليعقوبي أن في بلاد ملك غانة معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك في بلادهم الذهب (5) ، وأشار الادريسي أن « بلاد ونقارة هذه هي بلاد الذهب » (6) وذكر

(1) المالكي : **رياض النفوس** ، ص : 117 .
(2) ابن الفقيه : **المسالك والممالك** ، ص : 87 .
(3) الادريسي : **صفة** ، ص : 4 ، 35 .
(4) ابراهيم فخار : **البولونيون وتاريخ المغرب الأوسط** ، ص : 52 .
(5) اليعقوبي : **تاريخ** ، ص 220 . المسعودي : **أخبار الزمان** ، ص : 66 .
(6) الادريسي : المصدر السابق ، ص : 8 . BOVILL, *Caravons*, p. 59.
وعن وجود الذهب في ونقارة انظر : OLIVER, *West Africa*, p. 259.
وهو يشير الى أن اكتشاف الذهب كان سابقا لعهد الرومان الا أن صعوبة الصحراء حالت دون استثماره بشكل مفيد .

البكري من جهته أن أفضل الذهب في بلاد غانة ما كان بمدينة غياروا وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما ، ويضيف البكري من جهته أن مدينة كرغة حواليها من معادن التبر كثير ، وهي أكثر بلاد السودان ذهبا ، كما يوجد الذهب في جالام Galem وبوري Bouré وبامبوك (1) Bambouk وقد أشرنا الى أن التجار يستصحبون الأدلاء ، والسماسرة من غانة ، ويتجهون الى بلاد التبر ، ولهم خط لا يجاوزه أحد منهم ، فاذا وصلوا اليه ، ضربوا طبولا تسمع على بعد ليعلم السود بوصولهم ،ثم يضع التجار الأمتعة والأكسية وينصرفون ، فيأتي السودان « ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون ويأتي أصحاب الأمتعة ، فان أرضاهم والا عادوا ورجعوا فيعود السودان فيزيدونهم حتى تتم المبايعة (2) » . ويضيف المسعودي ، أنه ربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين فوضعوا النيران في الأرض ، فيسيل الذهب فتسرقه التجار ثم يهربون ، لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر ، وربما فطنوا لهم فيخرجون في آثارهم ، فان أدركوهم قتلوهم ، ولم يشر المسعودي الى هوية هؤلاء التجار ، من سكان المدن السودانية أومن القادمين اليها من الشمال ، الا أن لويكي T. Lewicki يرى أن سلع تجار تاهرت كانت بالدرجة الأولى الذهب من أرض بلاد التبر الواقعة بين نهر السنغال وفالم Faleme وبافنج Bafing ، ويبدو أن بعض التجار كانوا يحصلون عليه من أسواقه فذكر أبو الفداء ، أن التجار لا يحضرون من غانة غير الذهب الأحمر ، ويضيف صاحب الاستبصار ، أنه من أودغست يجلب الذهب الابريز الخاص خيوطا مفتولة (3) .

---

(1) R. Denis, *Les feuilles*, p. 472. Posnanski, *Ghana*, p. 114.

أشار المسعودي الى أن الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله ويعملونه مثل اللبن ، أنظر : **أخبار الزمان** ، ص : 66 . بينما أشار اليعقوبي الى أن **ذهب** تادملت يوجد كالنبات ويقال أن الرياح تسفيه «ويصف ذهب مصربانه كالزرنيخ الأصفر.

(2) المسعودي : المصدر السابق ، ص : 65 .

(3) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 216 . وعن ذهب **السودان** أنظر :

Gautier, *L'os de Soudan*, *N.M.E.S.*, 1935, p. 113-123.

يرى دوفيس J. Devisse أن كمية مسحوق الذهب التي كانت تستعمل للمبادلات التجارية ليست كبيرة ، وغير كافية لسد ثمن الملح ، ويضيف أن الشرق الاسلامي لم يكن يعتمد على ذهب السودان الغربي بدرجة رئيسية ، ثم يشير الى ضعف دور الذهب وأهميته في القرن الثامن والتاسع الميلادي ، ويرى أن استعماله كان بالدرجة الأولى للطرق والصياغة ، وهذا يعني أن دور ذهب السودان لم يكن عالميا ، وأنه كان من اهتمام دول المغرب الاسلامي في تلك الفترة (1) ، ويبدو أنه اعتمد في أحكامه هذه على ما ذكره اليعقوبي بشأن وجود الذهب في تامدلت ، وبشأن اعتماد الشرق الاسلامي على ذهب مصر ، فهوبعدما يعدد مناجم الذهب هناك ، يذكر أنها هي « التي يصل اليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر » (2) ، وحتى لو كان الأمر كذلك ، فان موني Mauny يذكر من جهته أن السودان الغربي ظل الممول الرئيسي للعالم الغربي ، بمادة الذهب ، منذ القرن الثامن الميلادي وحتى اكتشاف أمريكا (3) ، ومن المرجح أن تاهرت ـ بحسب موقعها ـ قد كان لها دور هام في هذا الشأن وعلى كل حال ، فان ذهب السودان قد وصل تاهرت ، وكان الامام افلح نفسه يمتلك كمية طائلة منه ، كان لها أثرها في بناء الدولة الرستمية ، وقد اعترف الامام افلح بهذا فقال : « لولا أنا ومحمد بن جرني وبيبب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام » ـ كما سبق ـ .

شكل العبيد سلعة هامة الى جانب الذهب ، حظيت باهتمام تجار الشمال ، فقد أشار اليعقوبي في ذكره لزويلة ، أن تجارها كانوا يأتون بالعبيد من بلاد السودان ، وقد أكد الاصطخري هذا فذكر أن « هؤلاء الخدم السود أكثرهم يقع الى زويلة (4) » ، وقد أشرنا سابقا الى ما ذكره الادريسي من أن أهل غيارة يأتون بالعبيد من أرض لملم فيبيعونهم الى تجار غانة ، وأضاف أنهم يسرقونهم ليلا ، ويخفونهم حينا من الدهر ، ثم يبيعونهم الى التجار الداخلين اليهم بالبخس من

(1) R. Denise et J. Devisse, *Tagdaoust I, recherche*, p. 113-134-136.

(2) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 335 .

(3) Mauny, *The question of Gana*, p. 209.

(4) الاصطخري : **المسالك والممالك** ، ص : 36 . مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 146 .

الثمن ، ويخرجونهم الى أرض المغرب الأقصى (1) ، وبطبيعة الحال ، الى تاهرت وبينما أشار صاحب « الاستبصار » الى أنه كان يجلب من أودغست سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمئة دينار كبار وأزيد ، فقد ذكر لوبز L. Lopez أن العبد كان يباع بأقل من قيمة حصان (2) ، وقد كان هؤلاء العبيد يدربون ويعلمون ، وقد أكد البلخي على أنهم كانوا يخصون (3) ، فكانوا خدما في المنازل والمزارع ، وكانوا جنودا ، وكان يصدر منهم الى الشرق الاسلامي فقد كشف الاصطخري عن هذا بقوله : « ... والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان ... » (4) وهو نفس ما أورده ابن حوقل حين ذكر أن من بين ما يجهز من المغرب الى المشرق الخدم المجلوبون من بلاد السودان ، وتكشف هذه العبارة عن دور التجار المغاربة في جلب الرقيق من السودان وبيعهم في بلاد المشرق الاسلامي ، وهي تؤكد على أن العبيد كانوا سلعة ، اهتم بها التجار خاصة في عهد الخلافة العباسية ، حيث توقفت الفتوحات ، فتوقف معها الأسرى ، فازدادت الحاجة الى العبيد ، كما اتسع وجودهم في المدن المغربية ، فقد سبقت الاشارة الى وجودهم في تاهرت ، ومما يؤكد وجود مثل تلك التجارة مع بلاد السودان ، ما ذكر عن أبي محمد عبد الله بن محمد السدراتي ـ عاش في القرن الخامس الهجري ـ فقال : سافر خالي الى القبلة فجعل تجارته صامتا واشترى جملا لركوبه ومعه رجل حضري ، فجاء الحضري الى خالي فقال له ؛ أي أجعل تجارتي ؟ فقال له : لا أدري ، فجعل الحضري تجارته رقيقا ، فقفلوا الى أهليهم ، فكان أبو محمد لا تعب عليه ولا نصب ، اذا ارتحل الناس ركب جمله ،واذا نزل ضرب خيمته ويستريح ، وكان الخضري يتعب وينصب في الخدم ، والرقيق هزلت

---

(1) الادريسي : **صفة** ، ص : 33 . يعود فاج Fage بتجارة العبيد الى القرن الثاني الميلادي ، انظر :
FAGE, *Slavery in west African history, J.A.H.*, 1969, vol X, p. 198.

(2) مؤلف مجهول : **الاستبصار**، ص : 216
R. LOPEZ, *Medieval trade in the Mediterranean world*, New-York, 1966, p. 42.

(3) البلخي : **البدء والتاريخ** ، ج 4 ، ص : 69 . ذكر ابن عذاري أنه حين خرج ابن طولون للإستيلاء على القيروان كان جيشه يتألف من 800 فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه ، أنظر : **البيان** : ج 1 ، ص : 118 .

(4) الاصطخري : **المسالك والممالك** ، ص : 37 .

هذه ، وجاعت هذه ، ومرضت هذه ، وهربت هذه ، وأبومحمد جالس في الظل وماله صرة في صرة (1) ، وهذه الرواية وان كانت تعود الى فترة متأخرة ، الا أنها يمكن أن تكون صورة تنطبق على العهد الرستمي .

. كان التجار يحملون من بلاد السودان الغربي الدرق اللمطية ، فذكر الادريسي أنه بمدينة نول تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع ولا أصلب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعا ، وبه يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها (2) ، وأضاف أبوحامد الغرناطي ، أنه يتخذ من جلد حيوان اللمط تراس يقال لها الدرق اللمطية ، وهي خفيفة لينة لا ينفذها النشاب ولا يؤثر فيها السيف تكون بيضا كالقراطيس ، ويوجد حيوان اللمط هذا في بلاد لمطة . فذكر ابن حوقل أنه « من سجلماسة الى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوما » (3) ويوجد في بلاد لمتونة ، ومنها أودغست ، وذكر القزويني أن « قيمة كل واحد منها ثلاثون دينارا » (4) والمهم في الأمر ، أن هذه الدرق قد وصلت تاهرت ، وقد كشف الدرجيني عن ذلك حين تعرض لحرب افلح بن عبد الوهاب مع يزيد بن فندين ، فذكر أن أفلح «جعل يتقي بدرقته حتى لم يجد فيها حصنا يتقي به شيئا فرمى بها» (5).

اضافة الى ما سبق ، كان التجار يجلبون الجلود من بلاد السودان ، خاصة جلود النمور ، المتوفرة بكثرة هناك ، بل والنمور نفسها ، فقد كانت احدى السلع التي تصل المشرق من بلاد البربر والمغرب (6) ، والنمور هذه من بلاد السودان ، كذلك جلد حيوان البطي التي يعمل منه المجن ، وذكر القزويني أن ثمن المجن الواحد ثلاثون دينارا ومن خاصيته أن الحديد لا يؤثر فيه (7) ، وكان من بين السلع كذلك ، الصمغ ، وقد أشار البكري الى وجوده في منطقة أودغست والى وصوله

---

(1) T. LEWICKI, *Quelques*, p. 11.

(2) الادريسي ، **صفة** ، ص : 59.

(3) ابن حوقل : **صورة** ، ص : 91 .

(4) القزويني : **آثارالبلاد** ، ص : 58 .

(5) الدرجيني : **طبقات** ، ج 1 ، ص : 54 .

(6) الجاحظ : **التبصيربالتجارة** ، نشرحسن حسني عبد الوهاب ، ص : 21
ابن الفقيه : **مختصر** ، ص : 87 .

(7) القزويني : **آثارالبلاد** ، ص : 26 .

الأندلس وبذلك فمن المرجح أنه وصل تاهرت أيضا ، وذكر الفردبل بدوره مثل تلك الصادرات ، وأشار الى أن السودان هم أصحاب جلود النمور وهي لباسهم ومن أرضهم تحمل الى بلاد الاسلام ، وتستعمل للسروج ، كذلك يحمل من بلادهم الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي يتخذ منه الأمشاط كالقرن ، والى جانب هذه السلع العاج وريش النعام ، ويذكر لويكي أن عبد الحميد الفزاني ـ عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ـ سافر الى بلاد الزنوج طلبا لكحل العين (1) Eye-Drug

يلاحظ أن المواد التي كانت تستعمل في المبادلات التجارية مواد كمالية ، وقد يفسر الطلب عليها الى الاستقرار الذي شهدته البلاد الاسلامية في العهد العباسي ، فهل كان هذا الدافع الوحيد للتجار المسلمين لكي يتحملوا تلك المشاق ، فيخترقوا الصحراء الى بلاد السودان ؟ يرد ابن خلدون ذلك الى أن نقل السلع من البلد البعيد المسافة أوفي شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا واكفل بحوالة الأسواق ، لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها ، فيقل حاملوها ويعز وجودها ، واذا قلت وعزت غلت أثمانها ، لهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا ، ويشير ابن خلدون الى بعد الطريق ومشقته واعتراض المفازة الصعبة والمخطرة ولا يركب خطر هذا الطريق وبعده الا الأقل من الناس ، فتجد سلع بلاد السودان قليلة ، فتختص بالغلاء وكذلك سلع بلاد المغرب لديهم ، فتعظم بضائع التجار من تثاقلها ويسرع اليهم الغني والثروة (2) وبذلك فمن المرجح أن كبار أثرياء تاهرت كانوا ممن عمل بالتجارة الى بلاد السودان .

قد يتساءل المرء عن كيفية تعامل تجار المسلمين مع أهل السودان رغم اختلاف اللغة ، ومن المحتمل أن المترجمين قاموا بدور هام في هذا المجال ، وربما كان هؤلاء

---

(1) T. Lewicki, *Arabic external sources*, p. 67.

(2) ابن خلدون : المقدمة ص : 716 . وقد أشار ابن حوقل الى ثراء مدينة سجلماسة كمثال على ثراء مدن المغرب الإسلامي التي لها علاقة تجارية مع بلاد السودان فذكر أن « قوافلهم غير منقطعة الى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال » أنظر : ابن حوقل : **صورة الأرض** ، ص : 65 .

ممن أقام في بلاد السودان مثل والد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار ، وغيره كثيرون ، وربما كانوا في حالة عدم وجود المترجمين ، يلجأون الى النظام الذي أتبعه تجار المسلمين في بلاد الصين ، كما سبق ذكره ، فقد كان هؤلاء «يتبايعون بالاشارة يدا بيد اذا كانوا لايفهمون اللغة» (1) ويكتبون بالدين كتبا . ويدل على هذا ما ذكره ابن حوقل بشأن مشاهدته صكا « كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغست وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار» (2) .

لم يقتصر نشاط تاهرت التجاري مع بلاد السودان على تجارها ، بل كانت معبرا الى تلك البلاد ، ويمكن أن يستدل على ذلك مما ذكره الزبيدي بخصوص أبي هلال اليمني ، الذي ورد القيروان ، ثم خرج الى تاهرت في طريقه الى بلد السودان ـ كما سبق ـ وقد ازدادت أهمية تاهرت كمعبر في القرن الثالث الهجري بعدما تحول تجار مصر ـ غانة عن الطريق المباشر بينهما ، الى شمال افريقيا ، ومن ثم الى غانة ، فذكر ابن حوقل أن الرياح كانت تهب « على قوافلهم ومفردتهم فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه الى سجلماسة» (3) .

الأثر الثقافي للتجارة مع السودان الغربي :

يستفاد مما تقدم أن تجار تاهرت قد حلوا بالسودان الغربي منذ عهد مؤسسها عبد الرحمن ، وهذا يعني حدوث اتصال واحتكاك مباشر بين هؤلاء وبين السود ، فقد ذكر الادريسي أن أهل كوكو ـ على سبيل المثال ـ « يداخلون التجار ويجالسونهم » (4) ولم تكن كلمة تاجر تختص بالسلع فحسب ، بل كان لها مفهوم واسع ، فكان التاجر غالبا من العلماء ، فذكر لويكي نقلا عن ابي الربيع الويسياني أن الشيخ عبد الحميد الفزاني « عالم كبير من علماء أهل الدعوة كان في بلاد السودان » (5) في القرن الثالث الهجري ، اهوان لم يكن تاهرتيا ، الا أنه

(1) التاجر سليمان : **أخبار الصين والهند** ، ص : 8 .

(2) ابن حوقل : **صورة** ، ص : 65 . وعن هذا الصك انظر :
Levtzion, *Ibn Hawqal, the cheque*, p. 223-230.

(3) ابن حوقل : نفس المكان السابق .

(4) الادريسي : **صفة** ، ص : 11 .

(5) Lewicki, *Quelques*, p. 4.

يمكن أن يكون مثالا ينطبق على تجار تاهرت ، وقد أكد B.G. Martin على أن التاجر كان يحمل الى جانب سلعه آراءه الدينية (1) ، ولما كان هؤلاء التجار من العرب والبربر المسلمين ، فقد حملوا معهم الثقافة الاسلامية ، فكانوا مبشرين لتلك الثقافة في بلاد السودان ، ويرى دوفيس J. Devisse أن هؤلاء التجار في الغالب من الاباضية والصفرية (2) ، ومما يرجح هذا جملة من التجار الاباضيين ممن وصل تلك البلاد ، كأبي نوح الصغير وأبي نوح سعيد بن يخلف ، وأبي صالح ــ السابق ذكرهم ــ وأبي القاسم يونس الفرسطائي ، الذي قتل في موقعة مانو سنة 283هـ 896 م ، وأبي موسى هارون بن أبي عمران وأبي موسى الويسياني (3) ، ويعود أغلب هؤلاء الى القرن الرابع الهجري ، لكنهم كانوا حلقات من سلسلة التجار الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، حتى أنهم لم يشيروا الى تاجر واحد من تاهرت . ومما ساعد على نقل الثقافة الاسلامية الى تلك الجهات ، اقامة بعض التجار هناك ــ كما سبق ــ ، نذكر منهم ابا يزيد مخلد بن كيداد ، فقد كان « مولده ببلد السودان » (4) ، وذكر الويكي بدوره رجلا من بني ويسين يقال له تملي ــ عاش في القرن الرابع الجهري ، ــ كان يقيم في تادمكة ويبعث منها الأموال الى بلده في القصور (5) وهذان وان لم يكونا تاهرتيين ، الا أنهما يكشفان عن فكرة اقامة تجار الشمال في بلاد السودان ، والتي ليس هناك ما يمنع تطبيقها على تجار تاهرت .

يصف البكري سكان أودغست بأنهم خليط من قبائل بربرية مثل نفوسة ولواته ــ كما سبق ــ ولئن كان وجودهم بارزا في عهد البكري ، فمن المحتمل أن أوائلهم كانوا منذ عهد الدولة الرستمية ، كما أنه من الممكن أن يكون بعضهم من تجار قبائل تاهرت المعروفة ، وبذلك يكون من المرجح أن هؤلاء قد ساهموا

---

(1) B.G. MARTIN, *Kanem, Bornu and the Fezzan*, p. 17.

(2) R. DENISE et J. DEVISSE, *Tagdaoust*, p. 138. وعن التجار الى بلاد السودان لويس برنارد : « العرب المسلمون في افريقيا » ضمن كتاب فجر التاريخ الافريقي ، ص : 23 ويرى فاج Fage أن دخول الاسلام الى السودان يرجع الى العرب ، انظر : FAGE, *An atlas*, p. 8.

(3) عن هؤلاء ، انظر :
T. LEWICKI, *Quelques*, p. 4-19-20.
IBID, *Arabic external sources*, p. 68.

(4) ابن أبي دينار: **المؤنس**، ص : 57. المقريزي : **اتعاظ الحنفا**، ص : 109.

(5) T. LEWICKI, *Quelques*, p. 18.

في مزج الثقافة الاسلامية في تاهرت بالثقافة السودانية الى حدما ، وتركوا آثارا اسلامية في تلك النواحي ، فقد عثر شاخت J. Schacht على آثار النشاط الديني والثقافي للجماعات الاباضية ، فلاحظ أن شكل مدرج المنارة الواسع الانتشار في السودان الغربي ، أخذ من اباضية الجريد ، بينما أخذ شكل المحراب من اباضية ميزاب ، أي أنهما يرجعان الى فن العمارة الدينية الاباضية في شمال افريقيا (1) ، وربما كانت هندسة محراب ميزاب صورة عن محراب مسجد تاهرت ، وأما النسبة الى ميزاب فترجع الى عدم معرفة فن الهندسة المعمارية الدينية في تاهرت ، لعدم وجود آثار تكشف عن ذلك (2) ، وعلى كل من المحتمل أن يكون هذا الفن قد وصلت بذور منه الى بلاد السودان خاصة اذ ا كان موقف ملوك السودان من التجار كموقف صاحب الصين منهم ، فقد ذكر التاجر سليمان أن « رجلا مسلما يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخي ملك الصين ذلك واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين » (3) ، واذا كان الأمر كذلك فان اقامة الصلاة تستدعي اقامة مسجد على نمط مسجد تاهرت ، على اعتبار أن التجار اباضيون .

ذكر الشماخي أن اعتناق ملك غانة الاسلام يرجع الى علي بن يخلف تاجر وعالم اباضي عاش في القرن الخامس الهجري (4) ، لكن هذا لا يعني أن غانة لم تعرف الاسلام قبل ذلك ، بل يمكن القول أنها عرفت بذور الثقافة الاسلامية ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (5) ، وهناك رواية تشير الى « أن الملك

---

(1) J. SCHACHT, *Sur la diffusion des formes d'architectuse r,igieuse êusumane à travers le sahara, T.I.R.S.* 1954, t. XI, p. II.

(2) كل ما عرف عن مسجد تاهرت أنه كان عبارة عن بيت فيه اثنتا عشرة دعامة أسطوانية الشكل مرتبة على ثلاثة صفوف تشكل خمسة أساليب وأربع بلاطات وكانت عشرون قبة مربعة القاعدة تعلوبيت الصلاة ، انظر : بورويبة : « **الفن الرستمي بتاهرت وسدراته** » **الاصالة** ، ع41 ، ص : 189 .

(3) التاجر سليمان : **أخبار الصين والهند** ، ص : 7 .

(4) عن قصة مالك غانة مع علي بن يخلف ، أنظر : الشماخي : **السير** ، ص : 457 ، ووردت نفس القصة عند البكر دون الإشارة الى علي بن يخلف في حين أشار الى أنها وقعت مع ملك بلد اسمه ملل . البكري : **المغرب** ، ص : 178 .

(5) T. LEWICKI, *Arabic*, p. 26. بينما يرد ترمنغهام ذلك الى القرن السابع الميلادي ، أنظر : TRIMINGHAM *A history of Islam*, p. 27.

تلوتان Tloutan أوبولاتان Boulatan وهو ابن تكلان Ibn Taklane اعتنق الاسلام حوالي عام 223 هـ / 837 م » (1) . ويذكر ابن خلدون أن ملثمي الصحراء كانوا على دين المجوسية الى أن ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة » (2) ، ومن جهة ثانية ، يشير موني Mouny ـ نقلا عن المهلبي ـ أن ملك كوكو أعطى القدوة لشعبه باعتناقه الاسلام ، ولما كان المهلبي من مؤرخي القرن الرابع الهجري ، كان ذلك يعني أن « دخول الاسلام كوكو تم قبل هذا التاريخ ، على أنه من الصعب أن نرسم لهذه الفكرة صورة أكبر ، فان اليعقوبي يصف ملك غسط ، وهي على صلاتها القوية بالمغرب الاسلامي ، أنه « لا دين له ولا شريعة » (3) كما ذكر صاحب « الاستبصار » أن سكان مدينة تكرور كانوا على ما كان عليه سائر السودان في المجوسية وعبادة الدكاكير وهي بلغتهم الأصنام (4) ، حتى أسلموا سنة 435 هـ /1043 م ، وهذا نفسه لا يقلل من أهمية الدور الذي لعبه التجار في نشر الثقافة الاسلامية ، والذين كان نشاطهم أول طريق سلمي سلكته هذه الثقافة الى تلك البلاد ، ولو بشكل تمهيدي .

ان تأثير الشمال الثقافي في الجنوب ظل بسيطا طيلة العهد الرستمي ، فلم يعم الاسلام جهة من جهات السودان الغربي ، كما يلاحظ ، أن نشاط تجار تاهرت كان ضمن الاطار العام لنشاط تجار الشمال الافريقي ، ومنه فان تاهرت قد أثرت ثقافيا في بلاد السودان ، لكنه تأثير نسبي ، وربما يعود ذلك الى أن تلك البلاد لم تكن في اطار الخلافة الاسلامية ، بحيث ترسل اليها بعثات مهمتها التبشير فقط ، وربما لهذا السبب لم تقم بغداد أو أية جهة أخرى بارسال مثل هذه البعثات ، فان الرستميين لم يشغلوا أنفسهم بنشر المذهب ـ كما سبق ـ وبذلك فان هدف التجار الى السودان كان تجاريا بحتا ، نتج عنه بطبيعة الأمر ، أثر ثقافي (5) ، أي أن التبشير الثقافي في بلاد السودان ، في تلك الفترة كان عملا فرديا عفويا .

(1) طرخان : **امبراطورية غانة** ، ص : 46 .

(2) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص : 373 .

(3) اليعقوبي : **البلدان** ، ص : 360 .

(4) مؤلف مجهول : **الاستبصار** ، ص : 217 .

(5) أشار ابن بطوطة الى وجود المذهب الاباضي في قرية زاغري في بلاد السودان وربما ترجع بذور هذا الوجود الى العهد الرستمي ، انظر : ابن بطوطة : **الرحلة** ، ص : 680 .

الأمور التي خضعت لها علاقة تاهرت بالسودان :

كان الشمال الافريقي قد أخذ يتأثر بالخضارة العباسية ، في وقت كانت بلاد السودان تعاني من التخلف والجهل ، أي أن هناك فارقا حضاريا بين الشمال والجنوب ، مما يعني أن تأثر السودان بمسلمي شمال افريقيا كان أوسع من تأثيرهم فيهم ، أو أنه كان هناك فيض حضاري من الشمال نحو الجنوب ، ويؤكد فاج Fage أن النفوذ الحضاري الذي دخل بلاد السودان من جهة الشمال ، لم يكن تابعا لحضارة البحر المتوسط بقدر تبعيته الحقيقة للبربر (1) ، وقد أسند لويكي T. Lewicki هذا النفوذ الى التجار الاباضيين بشكل رئيسي ، ويبدو أنه تأثر بانتشار المذهب الاباضي الواسع ، وبما ذكره المؤرخون من أسماء بعض التجار الاباضيين ، الا أنه تجدر ملاحظة أن أسماء هؤلاء التجار قد وردت في مصادر اباضية أو متأثرة بها ، من شأنها أن تهمل ذكر تجار المذاهب الأخرى ، كذلك ، فان المؤرخين من هذه المذاهب قد أهملوا الاشارة الى أسماء تجار من مذاهبهم ضمن اهمالهم الحياة الاقتصادية للمغرب الاسلامي بصفة عامة . وهذا لا يعني عدم وجودهم ، لأن هؤلاء وأولئك كانوا في الغالب من القبائل البربرية التي تعيش في أرض واحدة ، في ظروف متشابهة الى حد ما ، فليس ما يبرر قصر النشاط عبر الصحراء على الجماعات الاباضية ، أو على ناحية معينة من المغرب ، والأرجح أنه نشاط قام بفضل جهود جماعات مختلفة تنتمي الى قبائل ومذاهب مختلفة ، بل ان انطلاق التجار من تاهرت لا يعني أنهم اباضيون مثلما أن انطلاقهم من سجلماسة لا يعني أنهم صفريون .

يفهم مما تقدم بخصوص الصحراء أنها كانت تمثل حاجزا طبيعيا بين الشمال والجنوب ، وهي وان لم تحل دون اختراق التجار لها ، الا أنها حدت من هذا الاختراق ، ولم يكن يتمكن منه الا كل مغامر ، وذو امكانيات عظيمة . وبطبيعة الحال ، فان عددهم قليل اذا ما قيس بدرجة صلة التاهرتيين بجيرانهم في القيراون أو فاس ، كذلك ، فقد أثرت الصحراء على العلاقة العسكرية ، فلم يذكر التاريخ أن فكر الرستميون بارسال حملة الى تلك البلاد ، واذا قامت علاقة سياسية فهي

---

(1) فاج Fage **موجز تاريخ افريقية** ، ص : 69 .

خدمة للناحية التجارية ، ومن جهة أخرى ، فقد عرف المغرب الاسلامي استقرارا في العهد الرستمي ، نتج عنه تطور اقتصادي ، وحاجة الى الكماليات ، فكثر الطلب على سلع السودان ، خاصة الذهب والعبيد ، كما أن موقع بلاد السودان قد حرمها من بعض المنتوجات ، وجعلها بحاجة الى منتوجات الشمال ، كما كان لظروف الخلافة العباسية دور في ذلك ، بما عرفته من استقرار ، وثراء ، وتوقف مورد الأسرى ، الأمر الذي زاد من نشاط التجاربين الشرق والغرب ، يحملون سلع السودان .

* * *

الخاتمة

يتبين مما تقدم ، أن الاباضية ممثلين بالرستميين ، قد نجحوا في تأسيس دولة خاصة بهم ، في منطقة المغرب الأوسط ، هي الدولة الرستمية وارثة الدولة الخطابية ، وكان ظهورها تعبيرا عن سوء سياسة الخلافة الاسلامية بصفة عامة ، وعن نمو الروح الوطنية في المنطقة ، فكانت دولة بربرية اسلامية ، أسندت رئاستها الى أسرة فارسية لاعتبار مذهبي .

ـ اتسعت حدود هذه الدولة ، فامتدت من تلمسان الى سرت ، باستثناء بعض المناطق ، وقد تعاقب على حكمها عدد من الائمة الرستميين ، وهم وان توصلوا الى هذا باسم المذهب ، الا أنهم لم يظلوا مذهبيين ، بمعنى أنهم كانوا يخرجون عن اطار المذهب حين يشعرون بتهديد مصالحهم ، ومن هذا يتبين أنهم اذا كان وجودهم ضروريا في بداية الأمر ، فقد أصبح عبئا على الدولة فيما بعد ، فقامت عدة محاولات تعتبر تجسيدا للتيار الوطني للتخلص من حكمهم ، لكن الرستميين عرفوا كيف يفشلون هذه المحاولات بأية وسيلة .

ـ فرض الواقع الداخلي للدولة على الرستميين انتهاج سياسة معينة ،فقد ملت المنطقة بأسرها تلك الثورات والاضطرابات ، والتي أدت الى تدهور الأوضاع في البلاد ، ومهما كانت دوافعها ، فمالت القبائل المختلفة الى السلم والهدوء ، خاصة وأن منطقة تاهرت مزدحمة بالسكان ، فكان على الرستميين أن يسلكوا سياسة التعايش السلمي مع جيرانهم ، ويحافظوا على استقلال البلاد ، ويحترموا مبدأ [الحرية ، والعدل ، والمساواة ، وغيرها .]

ـ ازدهرت تاهرت وتطورت في ظل هذه المباديء ، ولم يكن بوسعها أن تتقوقع على نفسها ، فأقامت علاقات مختلفة مع جيرانها ، بل ومع المشرق

الاسلامي ، فعلى الصعيد السياسي ، يظهر بوضوح اختلاف النظم السياسية في المغرب الاسلامي ، في القيروان نظام سياسي يمثل الخلافة العباسية ، وفي قرطبة نظام أموي سني مالكي ، وفي فاس نظام علوي على شعب مالكي ، وحتى في سجلماسة يقوم نظام صفري ، وقد عرفت هذه الأنظمة بخلافها مع الاباضية قبل قيام الدولة الرستمية ، أما بلاد السودان ، فكانت أجنبية تماما ، تختلف عن تاهرت بشريا واجتماعيا ودينيا وسياسيا ، ومع كل هذا ، فقد تمكنت تاهرت أن تكيف سياستها وهذه التناقضات ، فظهرت مرتبطة بعلاقات مختلفة مع هذه الأنظمة ، فقد نجحت في موادعة القيروان والمحافظة على حسن جوارها في عهد الامام عبد الوهاب أو والده عبد الرحمن ، وعرفت كيف تحافظ على هذه الموادعة فتظل سارية المفعول ، وهذا رغم تعاقب أمراء وأئمة على العاصمتين ـ القيروان وتاهرت ـ يختلفون أمزجة وسياسة ومذهبا .

نجحت تاهرت في توثيق علاقاتها السياسية بقرطبة ، يدل على هذا ظهور شخصيات رستمية في بلاط الأمويين في قرطبة ، وظهور شخصيات اندلسية في تاهرت ، وموقف الرستميين من الخارجيين على قرطبة ، ولشد ما كانت العلاقة وثيقة ، فقد ظهرت تاهرت وكأنها تدور في فلك قرطبة ، ولم يكن الأمر كذلك ، الا أن عظمة امارة الأمويين أوحت للمؤرخين بهذا الأمر .

استطاعت تاهرت توثيق علاقتها السياسية مع صفرية سجلماسة ، ويمكن اعتبارزواج أروى عملاِ سياسيا أكثرمنه حادثة زواج ، ويمكن ربط هذا الاهتمام ، باهتمامها في توثيق علاقتها ببلاد السودان ، يتجلى هذا بارسال سفارة على رأسها محمد بن عرفة وهذا في مجموعه ، يدل على حرص الرستميين على توطيد علاقتهم بجيرانهم ، مما يسمح باحتمال اجراء اتصالات بين فاس وتاهرت لنفس الغرض .

ما كانت تاهرت لتتمكن من هذا النجاح ، لولا رغبة الأطراف الأخرى في هذه السياسة ، ويمكن أن تعود هذه الرغبة الى استجابة أمراء المغرب الاسلامي لآمال مجتمعاتهم ، وترجع هذه الآمال في حد ذاتها الى أن قبائل المغرب قد أدركت عدم جدوى الخصومات المذهبية ، خاصة بعدما ضعف حماسهم للمذهب ، تلك الخصومات التى كانت سببا في تدهور أوضاعهم ، ولما رأت هذه

القبائل تكالب الأمراء على كراسي الحكم لم تعد تتقبل الاقتتال فيما بينها ، من أجل هذا الطرف أو ذاك ، كما يبدو أنه سيطر عليها شعور بالانتماء القومي ، وربما أدرك أمراء دول المغرب الاسلامي هذا الأمر ، فاختفت رغبتهم في تسيير الجيوش ، لتحل محلها رغبة في أن يسود السلم المنطقة . وربما أن هؤلاء الأمراء قد قنعوا بما هم فيه .

من المرجح أنه نتيجة لهذه السياسة ، لم تنشب حروب بين دول المنطقة رغم اختلاف نظمها السياسية ، اذ توقفت الحروب على حدود الأغالبة بعد حادثة طبنة ، كما استبعدت حادثة العباسية ــ التي أوردها عدد من المؤرخين ــ من بين الحوادث التاريخية ، وتبين أن حصار « طرابلس » وموقعة « مانو » ، يدخل في اطار السياسة الداخلية لدولة الأغالبة ، ونفس الهدوء ظهر على حدود تاهرت الشمالية والغربية ، فلم تسجل حوادث عسكرية بين الرستميين وأمويي الأندلس ، بل ان تاهرت كانت تساعدهم على بناء جيشهم بامدادهم بالرجال ، كما لم تسجل بين تاهرت وفاس أوسجلماسة ، مما يؤكد على رغبة دول المنطقة أن تتعايش سلميا ، لتتفرغ لأمورها الداخلية ، وحتى ملوك السودان ، قد كانت لهم مثل تلك الرغبة ، فلم يفكر الرستميون في تسيير جيوشهم الى جنوب الصحراء ، كما لم يفكر أولئك الملوك من جهتهم بمثل هذا الأمر ، ومهما كانت الاسباب ، فمن المرجح أن عامل المصلحة المتبادلة كان من بينها .

يبدو أن هذه السياسة قد أتت أكلها ، فقد ساعد الأمن والاستقرار على نشاط الحركة العلمية في تاهرت ، فغدت مركز اشعاع ثقافي في بلاد المغرب الاسلامي ، اليها يفد الطلاب والعلماء ، ومنها ينطلقون الى مختلف عواصم المنطقة ، وبفضل سياسة الحرية و« الباب المفتوح » ، فقد ظهرت مختلف المذاهب في تاهرت ، وقام علماء هذه المذاهب باجراء اتصالات باخوانهم في المدن المغربية الأخرى ، كما تعددت حلقات الجدل والمناظرة التي كانوا يعقدونها في العاصمة الرستمية ، وهذا يدل على اهتمام التاهرتيين بالعلم ، وتطور الحركة العلمية في تاهرت ، ودورها في نشر العلم في المنطقة ، وكان خير من يمثل هذا الأمر بكر بن حماد التاهرتي ، وكنتيجة لهذا ، فقد امتزجت الثقافتان : المغربية والأندلسية بالثقافة الاسلامية ، فظهرت ثقافة جديدة ذات طابع ديني .

تزداد أهمية تاهرت الفكرية في أنها كانت منطلقا لانتشار بعض المذاهب الاسلامية مثل الاعتزال ، الى غيرها من المناطق ، كما امتد تأثيرها الفكري الى بلاد السودان ، فكان ظهور الاباضية هناك في عهد ابن بطوطة دليلا على ذاك التأثير ، ومع أن هذا الظهور متأخر عن العهد الرستمي ، ومع ما قيل عن فضل علي ابن يخلف في نشره المذهب الاباضي في غانة ، الا أن هذا لا ينفي فضل أوائل تجار تاهرت في نقل الفكر الاسلامي عامة الى جنوب الصحراء .

انعكس تأثير تلك السياسة على الوضع الاقتصادي للبلاد ، فقد كثرت الأموال بأيدي الناس ، وازدهرت التجارة ، فانطلقت القوافل خارج تاهرت ، الى مختلف النواحي والجهات ، فنالت تاهرت شهرة تجارية ، فاقت سواها من عواصم المغرب ، وقد ساعدها موقعها على اكتساب هذه الشهرة ، وساعد الرستميين بدورهم بسياسة العدل والمساواة ، وحفظ الأمن وتوفير المرافق التجارية ، وكان من الممكن أن يكون دورهم أكبر لو تخلوا عن سياسة الدسائس والمنازعات ، وعلى كل ، فقد تمكنت قبائل تاهرت من توجيه الرستميين لاتباع سياسة عامة تساعد على رفع المستوى الاقتصادي للمنطقة .

سارت قوافل تاهرت الى القيروان والشرق الاسلامي ، وسارت شمالا الى قرطبة بحرا ، وبرا مرورا بفاس ، في نفس الوقت ، سارت جنوبا الى بلاد السودان مرورا اما بسجلماسة أو ورقلة ، وازدادت أهميتها كمعبر الى تلك البلاد ــ بلاد السودان ــ بعد توقف الطريق الرابط بين غانة ومصر ، والمعلوم أن هذه القوافل كانت تحمل ثقافة الى جانب السلع . والمهم في الأمر ، أن هذا الاتساع التجاري يدل على مدى ما وصلت اليه تاهرت من ازدهار ورخاء .

أدى هذا الاحتكاك بين التاهرتيين وغيرهم ، سواء في تاهرت أو خارجها ، الى اقامة علاقات اجتماعية تمثلت في صداقات ومصاهرات ، ونحو ذلك ، والى تأثر وتأثير في نواحي مختلفة .

ـــ ينتهي بنا القول الى أن الدولة الرستمية كانت أول دولة مستقلة عن جسم الخلافة العباسية ، وأول دولة اسلامية مستقلة ظهرت في المغرب الأوسط ، وقد ارتبطت بعلاقات واسعة مع جيرانها رغم التناقض القائم ، عادت تلك العلاقات

بالفوائد على جميع الأطراف ، وكانت المصلحة فوق كل اعتبار ، وهي التي أملت سياسة الدولة العامة ، الى جانب الشعور بالانتماء الى أصل واحد ، وارض واحدة .

* * *

قائمة المصادر والمراجع

1 – ابراهيم علي طرخان :
امبراطورية غانة الاسلامية ، المطبعة الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، 1390 هـ/ 1970 م ، القاهرة .

2 – ابراهيم محمد عبد الباقي :
الدين والعلم الحديث ، نشر المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1964 .

3 – ابن الابار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) ت سنة 658 هـ / 1260 م :
ب
1) **الحلة السيراء** ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ط 1 ، القاهرة 1963 نشر الشركة الوطنية للطباعة والنشر.
2) **التكملة لكتاب الصلة** ، صححه ونشره عزت العطار الحسيني ، 1375 هـ / 1956 م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مكتبة المثنى ، بغداد .

4 – ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي) ت 688 هـ / 1270 م :
عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت 1965 م .

5 – ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني) ألف كتابه 1110 هـ / 1698 م :
المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، مطبعة 20 مارس ، نشر المكتبة العتيقة ، تونس 1967 م .

6 – ابن أبي زرع (ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) ت ق 8 هـ / 14 م :
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تصحيح وطبع كارل يوحن نور نبرغ ، طبع في مدينة أوبسالة بدار الطباعة المدرسية 1843 م .

7 ـ ابن أبي الضياف (أحمد) :
اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق ونشر لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار ، تونس ، 1963 م .

8 ـ ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري) ت 630 هـ / 1232 م :
الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، ط2 ، 1387 هـ / 1967 م بيروت .

9 ـ ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود القرطبي) ت 578 هـ / 1183 م :
كتاب الصلة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، 1966 ، القاهرة .

10 ـ ابن بطوطة (ابوعبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي) ت 779 هـ / 1377 م :
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المعروفة برحلة ابن بطوطة ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1379 هـ / 1960 م .

11 ـ ابن حزم (أبومحمد علي بن سعيد الأندلسي) ت 456 هـ / 1064 م :
1) **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1321 هـ .
2) **جمهرة أنساب العرب** ، نشر وتحقيق وتعليق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، 1368 هـ / 1948 م .

12 ـ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) ت بعد 367 هـ / 977 م :
كتاب صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

13 ـ ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين الأندلسي) ت 469 هـ / 1076 م :
المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، نشر لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة 1390 هـ / 1971 م .

14 ـ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) ت حوالي 272 هـ / 885 م :
المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، 1889 م .

15 ـ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الله السلماني) ت 776 هـ / 1374 م :
أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، القسم الخاص بالأندلس : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط2 ، دار المكشوف بيروت ، 1956 ، **والقسم الثالث : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط** ، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء 1964 م :

16 ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت 808 هـ / 1406 م :
1) **المقدمة** ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، بدون تاريخ .
2) **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت 1959 م .
17 ـ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ت 681 هـ / 1282 م :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، 1972 م .
18 ـ ابن دحية (الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فروة الكلبي) ت 633 هـ / 1235 م :
المطرب في أشعار أهل المغرب ، نص نشره حسين مؤنس في بحثه « غارات النورمانيين على الأندلس » مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، 1950 م .
19 ـ ابن جراج القسطلي (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) ت 421 هـ / 1030 م :
ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق محمود علي مكي ، ط2 ، بيروت ، الشركة المتحدة للتوزيع ، 1969 م .
20 ـ ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) ت بعد 290 هـ / 903 م :
الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن 1891م ، نشر مكتبة المثني ، بغداد .
الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن 1891 م ، نشر مكتبة المثني ، بغداد .
21 ـ ابن سعيد (المغربي عبد الملك) ت 672 هـ / 1274 م :
المغرب في حلي المغرب ، تحقيق ونشر شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1953 م.
22 ـ ابن الشباط (محمد بن علي التوزري) :
صلة السمط وسمة المرط ، قطعة في وصف الأندلس وصقلية ، نشر أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد 1967 م .
23 ـ ابن الصغير (كان حيا أواخر ق 3 هـ / 9 م) :
سيرة الأئمة الرستميين ،أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد في الجزائر 1905 ، نشر موتيلنسكي ، باريس 1908 .
24 ـ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت 257هـ / 871م :
فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر : نشر لجنة البيان العربي ، القاهرة .

25 ـ ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) ت 327 هـ / 938 م :
العقد الفريد ، ط3 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1384 هـ / 1965 م .

26 ـ ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي)
البيان المغرب في أخبار المغرب ، مطبعة المناهل ، بيروت 1947 ـ 1950 .

27 ـ ابن العماد الحنبلي (ابو الفلاح عبد الحي) ت 1089 هـ 1678 م :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، بدون تاريخ.

28 ـ ابن غالب (محمد بن أيوب الأندلسي) ق 6 هـ / 12 م :
فرحة الأنفس ، قطعة نشر لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الأول ، الجزء الثاني ، 1375 هـ / 1955 م .

29 ـ ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي) ت 403 هـ / 1013 م :
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، 1373 هـ / 1954 م ، نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

30 ـ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني) توفي بعد 290 هـ / 902 م :
مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1302 هـ / 1885 م .

31 ـ ابن القاضي (أحمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية) :
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، 1309 هـ / 1891 م ، فاس .

32 ـ ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي) ت 367 هـ / 927 م :
تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين 1377 هـ /1958 م .

33 ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر عماد الدين الحافظ الدمشقي) ت 774 هـ / 1373 م :
البداية والنهاية ، ط2 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1974 م .

34 ـ ابن وضاح (محمد القرطبي الأندلسي) ت 286 هـ / 899 م :
البدع والنهي عنها ، تصحيح وطبع محمد أحمد دهمان ، مطبعة الاعتدال دمشق ، 1349 هـ .

35 ـ أبو زكريا (يحي بن أبي بكر الورجلاني) ت 471 هـ / 1078 م :
كتاب السيرة وأخبار الأئمة . مخطوط مكتبة الشيخ اطفيش ، بني يزقن ، الجزائر .

36 ـ أبوزكريا (يزيد بن محمد بن اياس الازدي) ت 334 هـ / 945 م :
تاريخ الموصل ، تحقيق ، علي حبيبة ، القاهرة 1387 هـ / 1967 م .

37 ـ أبوزهرة محمد :
1) **أبوحنيفة** ، ط2 ، القاهرة ، دارالفكرالعربي ، 1947 م .
2) **مالك** ، دارالفكرالعربي ، القاهرة ، 1963 م .

38 ـ أبوالعرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني) ت333 هـ / 944م :
طبقات علماء افريقية وتونس ، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ، الدارالتونسية للنشر ، 1968 م .

39 ـ أبوالفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) ت 732 هـ / 1331 م :
1) **تقويم البلدان** ، اعتنى بتصحيحه وطبعه ، رينود ودسلان ، باريس ، دارالطباعة السلطانية ، 1840 م .
2) **المختصرفي أخبارالبشر** ، بيروت ، دارالكتاب اللبناني ، بدون تاريخ .

40 ـ أبوالنصرعمر :
الخوارج في الاسلام ، ط3 ، بيروت ، 1970 م .

41 ـ أبواليقظان (ابراهيم بن الحاج عيسى الميزابي) ت 1393 هـ / 1973 م :
ديوأن ابي اليقظان ، ط1 ، المطبعة العربية ، الجزائر ، 1350 هـ .

42 ـ احسان عباس :
تاريخ الأدب الأندلسي ، بيروت ، دارالثقافة ، 1974 م .

43 ـ أحمد مختارعمر :
النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي ، الجامعة الليبية ، مطبعة دارالكتب ، بيروت ، لبنان ط1 ، 1391 هـ / 1971 م .

44 ـ الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي) ت 560 هـ / 1166 م :
صفة المغرب وأرض السودان ومصروالأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1968 م .

45 ـ الادريسي (محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني) ت 1276 هـ / 1859 م :
الدررالسنية في أخبارالسلالة الادريسية ، ط3 ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، مكتبة القاهرة ، 1380 هـ / 1960 م ، القاهرة .

46 ـ ارشيبالد :
القوى البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط . تعريف أحمد محمد عيسى مطبعة مصر. القاهرة . بدون تاريخ .

47 ـ الازكوي (سرحان بن سعيد) ألف كتابه 1141 هـ / 1728 م :
كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نص نشره فاروق عمر فوزي ، ضمن بحثه « ملامح من تاريخ حركة الاباضية » المؤرخ العربي ، ع2 ، بغداد 1975 .

48 ـ الاشعري (أبوالحسن علي بن اسماعيل) ت 324 هـ / 935 م :
مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، تصحيح هـ . ريتر ، استانبول ، مطبعة الدولة 1929 ـ 1930 م .

49 ـ الاصطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي) ت بعد 340هـ / 951م :
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، دار القلم ، القاهرة ، 1381 هـ / 1961 م .

50 ـ اطفيش محمد بن يوسف :
1) **الرد على العقبي** ، المطبعة المديرية الحجرية ، تونس 1321 هـ .
2) **شامل الأصل والفرع** ، طبعه وصححه ابراهيم اطفيش الجزائري ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1348هـ / 1929 م .

51 ـ الفرد بل :
الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، 1969 م .

52 ـ الباروني (أبو الربيع سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي) ت 1359 هـ / 1940 م :
1) **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية** ، الجزء الثاني ، مطبعة الأزهار البارونية .
2) **مختصر تاريخ الاباضية** ، مطبعة الارادة ، نشر مكتبة الاستقامة ، تونس ، 1357 هـ / 1938 م .

53 ـ الباروني (عبد الله بن يحيى النفوسي) :
رسالة سلم العامة والمبتدئين الى معرفة أئمة الدين ، مطبعة النجاح مصر ، ذو الحجة 1324 هـ .

54 ـ باشا محمد مختار :
كتاب التوفيقات الالهامية ، ط1 ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر ، 1311 هـ / 1893 م .

55 ـ بدوي عبده :
مع حركة الاسلام في افريقية ، المطبعة الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . 1970 م .

56 ـ البرادي (أبوالقاسم بن ابراهيم) ق8هـ / 14م :
الجواهر المنتقاة ، مطبعة محمد يوسف الباروني ، القاهرة ، 1302 هـ .

57 ـ البكري (أبوعبيد عبد الله بن عبد العزيز) ت 487 هـ / 1094 م :
1) **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ، مطبعة الحكومة ، الجزائر ، 1857 م نشر مكتبة المثنى ، بغداد .
2) **جغرافية الأندلس وأوروبا** ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1387 هـ / 1968 م.

58 ـ البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر البغدادي) ت 279هـ / 892م :
فتوح البلدان ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، ط1 ، المطبعة المصرية بالأزهر 1932 م .

59 ـ البلخي (أبوزيد أحمد بن سهل) ت 322 هـ / 934 م :
البدء والتاريخ ، ط2 ، مكتبة الاسدي ، ميدان بهارستان ، طهران 1962 .

60 ـ البلخي أبوالقاسم وآخرون :
فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق ، فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر ، 1393 هـ / 1974 م .

61 ـ التازي عبد الهادي :
جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف ، نشر ادارة الشؤون الثقافية ، المملكة المغربية ، بدون تاريخ .

62 ـ التنوخي (محمد بن سحنون بن حبيب بن ربيعة) ت 256 هـ / 869 م :
آداب المعلمين ، نشر وتصحيح وتعليق ، حسن حسني عبد الوهاب ، مطبعة العرب ، تونس ، 1350 هـ / 1934 م .

63 ـ توماس ارنولد :
الدعوة الى الاسلام ، تعريب ، حسن ابراهيم حسن وآخرون ، القاهرة مكتبة النهضة ، 1970 م .

64 ـ الجاحظ (أبوعثمان عمروبن بحرالكناني الليثي) ت 255 هـ / 868 م :
التبصير بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، 1966 م .

65 ـ الجعبيري فرحات :
نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة ، المطبعة العصرية ، تونس ، 1975م

66 ـ الحبيب الجنحاني :
القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي ، الدار التونسية للنشر ، 1968 م .

67 ـ حركات ابراهيم :
المغرب عبر التاريخ ، ط1 ، مطبعة دار السلمي ، الدار البيضاء 1965 .

68 ـ حسن ابراهيم حسن :
1) **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ، ط7 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1964 م .
2) **النظم الاسلامية** ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1939 .

69 ـ حسن أحمد محمود :
1) **الاسلام والثقافة العربية في افريقية** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1963م .
2) **العالم الاسلامي في العصر العباسي** ، ط1 ، مطبعة المدني ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1966 م .

70 ـ حسن حسني عبد الوهاب :
الامام المازري ، منشورات لجنة البعث الثقافي الافريقي ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1348 هـ .

71 ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الرومي) ت 627 هـ / 1229 م :
1) **معجم البلدان** ، بيروت ، 1957 م .
2) **معجم الأدباء وطبقات الشعراء** ، اعتنى بنسخه وتصحيحه ، د.س. مرجليوت ، مطبعة هندية بالموسكي ، مصر ، 1927 م .

72 ـ الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الازدي) ت 488 هـ / 1095 م :
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966 م .

73 ـ الخربوطلي علي حسني :
1) **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي** ، دارالمعارف بمصر ، 1959 م .
2) **الدولة العربية الاسلامية** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1380 هـ 1960م .

74 ـ الخشني (أبوعبد الله محمد بن حارث القروي) ت 361 هـ / 971 م :
قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، نشرجوليان ريبرا ، مدريد ، 1914 م .

75 ـ الدباغ (أبوزيد عبد الرحمن بن محمد الانصاري الاسيدي) ت 696 هـ / 1297 م :
معالم الايمان في أهل القيروان ، تحقيق ، ابراهيم شبوح ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1968 م .

76 ـ دبوزعلي :
تاريخ المغرب الكبير ، ط1 ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي ، 1964 م .

77 ـ الدرجيني (أبوالعباس أحمد بن سعيد) ت حوالي 670 هـ / 1272 م :
طبقات المشائخ بالمغرب ، مخطوط مكتبة الشيخ اطفيش ، بني يزقن ، الجزائرونسخة أخرى ، تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1394 هـ / 1974 م .

78 ـ الرازي فخرالدين :
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، مراجعة علي سامي النشار ، نشرمكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1356 هـ / 1938 م .

79 ـ الرقيق القيرواني (أبو اسحق ابراهيم بن القاسم) ت بعد 417 هـ / 1026 م :
تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، نشررفيق السقطي ، تونس 1968 م .

80 ـ الزاوي طاهرأحمد :
1) **أعلام ليبيا** ، ط1 ، دارأحياء الكتب العربية ، نشرمكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا .
2) **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** ، ط2 ، دارالمعارف ، مصر ، 1963 م .

81 ـ زبادية عبد القادر :
مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ، 1493 م ـ 1591 م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر .

82 ـ الزبيدي (أبوبكرمحمد بن الحسن) ت 379 هـ / 989 م :
طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم ، ط1 ، 1373هـ/ 1954 م .

83 ـ الزركلي خير الدين :
الأعلام ، ط3 ، بيروت ، 1969 م .

84 ـ زكي محمد حسن :
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف ، مصر ، 1945 م .

85 ـ السالمي (عبد الله بن حميد) ق 14 هـ / 20 م :
اللمعة المرضية من أشعة الاباضية ، الكتاب الرابع ، ضمن مجموع ستة كتب المطبعة العربية ، الجزائر ، 1968 م .

86 ـ السبكي (تاج الدين عبد الوهاب أبو نصر) ت 771 هـ / 1369 م :
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1967 م .

87 ـ سعد زغلول عبد الحميد :
التاريخ العباسي والأندلسي ، مكتب كريدية اخوان ، بيروت ، 1976 م.

88 ـ السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) ت 1315 هـ / 1897 م :
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، 1305 هـ .

89 ـ سليمان التاجر (ت 237 هـ / 851 م) :
أخبار الصين والهند ، تحقيق وتعليق ، جون سوفاجي ، باريس 1948 م .

90 ـ السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر محمد التميمي) ت 562 هـ / 1166 م :
كتاب الأنساب ، مارجليوث ، ليدن ، 1912م .

91 ـ سيدة اسماعيل كاشف :
مصر في عصر الولاة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سلسلة الألف كتاب رقم 241

92 ـ الشابي محمد المسعود :
الأغالبة نظامهم الاداري والسياسي ، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ، الدار التونسية للنشر ، 1970 .

93 ـ شكيب أرسلان :
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1966 م .

94 ـ الشماخي (أبو العباس أحمد بن سعيد) ت 928 هـ / 1521 م :
1) **كتاب السير** ، طبع في القاهرة ، 1301 هـ .

2) **مقدمة التوحيد وشروحها** ، صححها وعلق عليها ، ابراهيم اطفيش ، القاهرة ، 1353 هـ .

95 ـ صلاح الدين منجد :
مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، ط1 بيروت ، دارالكتاب الجديد ، 1963 م .

96 ـ الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت 599 هـ / 1203 م :
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع بمدينة مجريط (مدريد) بمطبع روخس ، 1884 م .

97 ـ الطبري (أبوجعفر محمد بن جرير) ت 310 هـ / 922 م :
تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1358 هـ / 1939 م ، نشر المكتبة العصرية ، بغداد .

98 ـ العبدري (أبوعبد الله محمد بن محمد بن علي) ت 688 هـ / 1289 م :
رحلة العبدري المسماة بالرحلة المغربية ، تقديم وتحقيق وتعليق ، محمد الفاسي ، الرباط ، 1968 م .

99 ـ عبد العزيز سالم :
1) **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس** ، ط1 ، دارالمعارف ، لبنان .
2) **تاريخ المغرب العربي الكبير** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، 1966 ، القاهرة .
3) **التاريخ والمؤرخون العرب** ، القاهرة ، دارالكتاب العربي للطباعة والنشر ، 1967م

100 ـ العدوي ابراهيم أحمد :
بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي والعربي ، ط 1 ، المطبعة الفنية الحديثة 1970م .

101 ـ علي الخفيف :
فرق الزواج في المذاهب الاسلامية ، معهد الدراسات العربية العالية ، مطبعة الرسالة ، عابدين ، 1958 م .

102 ـ عمر رضا كحالة :
معجم قبائل العرب ، دارالعلم للملايين ، بيروت 1388 هـ / 1968 م .

103 ـ عنان محمد عبد الله :
دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى بداية عهد الناصر ، ط3 ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، 1960 م .

104 ـ الغرناطي (أبو حامد محمد بن أبي الربيع الأندلسي) ت 565 هـ / 1169 م :
تحفة الألباب ، نشرح . فراند ، المجلة الآسيوية ، 1925 ، باريس .

105 ـ فاج جون ورولاند أوليفر : **موجز تاريخ افريقية** ، ترجمة دولت أحمد صادق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1965 م .

106 ـ الفاسي (أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي) :
الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب صاحب التاج مولانا ادريس ، ط1 ، 1098 هـ ط2 ، 1314 هـ ، فاس .

107 ـ فروخ عمر :
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، ط1 ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، 1378 هـ / 1959 م .

108 ـ القاضي (عياض بن موسى بن عمرو اليحصبي السبتي) ت 544 هـ / 1149 م :
1) **ترتيب المدارك وتقريب المسالك المعرفة أعلام مذهب مالك** ، تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1387هـ / 1967م .
2) **تراجم أغلبية** ، نشر : محمد الطالبي ، الجامعة التونسية ، تونس ، 1968 م .

109 ـ القاضي (النعمان أبو حنيفة بن أبي عبد الله بن حيون) ت 363 هـ / 973 م :
رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق : وداد القاضي ، مطبعة دار الكتب ، ط1 ، بيروت ، 1970 م ، نشر دار الثقافة ، بيروت .

110 ـ قدامة (بن جعفر أبو الفرج) ت بعد 320 هـ / 932 م :
كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، بريل ، 1889 م ، نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

111 ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) ت 682 هـ / 1283 م :
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .

112 ـ القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري) ت 821 هـ / 1418 م :
صبح الأعشى في كتابة الانشاء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

113 ـ الكتاني (محمد بن جعفر بن ادريس) :
الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس ، 1307 هـ / 1889 م ، فاس .

114 ـ كراتشكوفسكي :
تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1963 م .

115 ـ لقبال موسى :
المغرب الاسلامي ، مطبعة البعث ، ط 1 ، الجزائر ، 1969 م .

116 ـ ليفي بروفنسال :
حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

117 ـ المالقي (أبوالحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي) :
تاريخ قضاة الأندلس ، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا ، المكتب التجاري للطباعة والنشروالتوزيع ، بيروت بدون تاريخ .

118 ـ المالكي (أبوبكر عبد الله) ت 453هـ 1061م :
رياض النفوس في طبقات علماء افريقية وزهادهم ، تحقيق ونشر حسين مؤنس 1951 .

119 ـ المبرد (أبوالعباس محمد بن يزيد) :
الكامل في اللغة والأدب « باب الخوارج » ، ط2 ، منشورات دارالحكمة ، دمشق ، 1972 م .

120 ـ المجدوب عبد العزيز :
الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، الدارالتونسية للنشر ، تونس 1975م.

121 ـ محمد بن رمضان شاوش :
الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، ط1 المطبعة العلوية ، مستغانم ، 1385 هـ / 1966 م .

122 ـ المزاتي (أبويعقوب يوسف خلفون) ق 6 هـ / 12 م :
أجوبة ابن خلفون ، تحقيق وتعليق : عمروخليفة النامي ، دارالفتح ، بيروت ، ط1 . 1394 هـ / 1974 م .

123 ـ المسعودي (أبوالحسن علي بن الحسين بن علي) ت 346 هـ / 957 م :
1) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، دار الأندلس ، بيروت ، ط1 . 1385هـ / 1965 م .
2) **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران** . طبع عبد الحميد أحمد الحنفي ، ط1 ، مصر ، 1357 هـ / 1938 م .

124 ـ المقديسي (أبوعبد الله محمد بن أحمد) ت 378 هـ / 988 م :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط2 ، مطبعة بريل ، ليدن 1906 م .

125 ـ المقري (شهاب الدين أبو العباس التلمساني) ت 1041 هـ / 1631 م :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة .

126 ـ المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت 845 هـ / 1442 م :
1) **الخطط المقريزية** ، مطبعة الساحل الجنوبي ، بيروت .
2) **اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ، تحقيق ونشر : جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1367 هـ / 1948 م .

127 ـ الملطي (أبو الحسين محمد بن أحمد) ت 377 هـ / 987 م :
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، تصحيح ، س . ديدرينغ ، استانبول ، مطبعة الدولة ، 1936 م .

128 ـ مؤلف مجهول (ق 4 هـ / 10 م) :
أخبار مجموعة ، طبع في مدينة مجريط (مدريد) ، مطبعة ربدنير ، نشر مكتبة المثني ، بغداد ، 1867 م .

129 ـ مؤلف مجهول (ق 6 هـ / 12 م) :
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، كلية الآداب ، منطقة جامعة الاسكندرية ، 1958 م .

130 ـ مؤلف مجهول (ق 8 هـ / 14 م) :
مفاخر البربر ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، الرباط ، 1934 م .

131 ـ مؤنس حسين :
1) **فتح العرب للمغرب** ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، 1947 م .
2) **شيوخ العصر في الأندلس** ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، توزيع مكتبة مصر القاهرة 1965 م .

132 ـ الميلي مبارك :
تاريخ الجزائر القديم والحديث ، مطبعة بدران وشركاه ، بيروت ، 1963م ، نشر مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر.

133 ـ ناجي حسين :
ثورة زيد بن علي ، مكتبة النهضة ، بغداد ، مطبعة الآداب ، النجف ط 1 ، 1386 هـ / 1966 م .

134 ـ نالينو :
التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط2 القاهرة ، مكتبة النهضة ، 1946 م .

135 ـ نفيس أحمد :
جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان ، مطابع ونشر دار القلم ، القاهرة .

136 ـ نقولا زيادة :
الرحالة العرب ، دار الهلال ، 1956 م ، القاهرة .

137 ـ هويدي يحيى :
تاريخ الفلسفة الاسلامية في القارة الافريقية ، مكتبة النهضة المصرية ، 1966 م .

138 ـ الورجلاني (أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي) ت 570 هـ / 1175 م :
الدليل والبرهان ، طبعة حجرية ، المطبعة البارونية ، القاهرة 1306 هـ .

139 ـ الويسياني (أبو الربيع سليمان عبد السلام) ق 6 هـ / 12 م :
السير ، نصوص نشر لويكي في مجلة « فوليا أوريانتاليا » ، 1959 م ، 1961/1960م

140 ـ اليافعي (أبو محمد عبد الله أسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي) ت 768 هـ / 1366 م .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط2 ، 1390 هـ / 1970 م .

141 ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) ت 284 هـ / 897 م :
1) **تاريخ البلدان** ، دار الفكر ، بيروت ، 1375 هـ / 1956 م .
2) **البلدان** ، نشر . م . ج . جويه ، ط2 ، بريل ، ليدن ، 1892 م .
3) **وصف افريقية الشمالية** ، مأخوذة من كتاب البلدان ، اعتناء ونشر هنري بيريس ، الجزائر ، 1380 هـ 1960 م .

* * *

الأبحاث

— ابن تاويت محمد :

1) **بزوغ الثقافة العربية بالمغرب** ، مجلة تمودا Tamouda تطوان 1956 م .

2) **دولة الرستميين** ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد 1957 م .

3) **بين أموي الأندلس والأدارسة** ، تطوان ، 1963 م .

— احسان عباس :

1) **المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين** ، الأصالة ، جمادي الأول 1395هـ / ماي 1975 م .

2) **مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد** ، الأصالة ، محرم 1397 هـ / جانفي 1977 م .

— ج . ايفر :

أودغشت ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج3 ، ص : 113 ـ 114 .

— البسيري أحمد أحمد :

التاريخ الحربي للمغرب ، دعوة الحق ، مايو1960م .

— بورويبة رشيد :

الفن الرستمي بتاهرت وسدراته ، الأصالة ، عدد 41 ، محرم 1397 هـ / جانفي 1977م، الجزائر .

— التازي عبد الهادي :

الامام داود بن ادريس ، دعوة الحق ، ع7 ، أفريل 1960 م .

— الجنحاني الحبيب :

تاهرت عاصمة الدولة الرستمية ، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية ، عدد 40 ـ43 ، تونس ، 1975 م .

ـحسن حسني عبد الوهاب
رواة اللغة والأدب في العصر العربي الأول ، ضمن «الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين» دراسات مهداة من أصدقائه وتلاميذه ، اشراف عبد الرحمن بدوي ، دار المعارف ، مصر ، 1962 م

— ح . س :
الثقافة والتعليم في العصر الادريسي ، مجلة اللقاء ، عدد 4 جوان 1968 ، الرباط .

— الحاج سعيد عيسى :
المذهب الاباضي وعلاقته بالمذاهب الأخرى ، محاضرات الملتقى الخامس للفكر الاسلامي الجزائر ، 1971 م .

— دانييل أوستاش :
تاريخ النقود العربية ، ترجمة عبد اللطيف أحمد ، مجلة البحث العلمي ، يناير 1969 م .

— دانييل ماك كول :
الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة ، تعريب محمد الحمداوي ، دعوة الحق الاعداد 2 ، 5 ، 6 ، 9 ، 10 ، الرباط 1969 م .

— رينيه باست :
ابراهيم بن الأغلب ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج 1 ، ص : 37 .

— زهدي يكن :
مذهب الزيدية ، مجلة العربي ، عدد 53 ، نيسان 1963 م .

— سليمان بن داود :
1) **دور الجزائر في نشر الحضارة الاسلامية بالاندلس** ، محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي ، الجزائر 1392 هـ / 1971 م .
2) **مقابلة شخصية بتاريخ** 1975/5/30 م ، وأخرى بتاريخ 1975/6/14 م . الجزائر .

— الشابي علي :
نشوء المذهب الخارجي بافريقية والمغرب ، مجلة الفكر ، ع 9 ، جوان 1967 م . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس .

— طائفة من أساتذة الجامعة البريطانية :
فجر التاريخ الافريقي ، ترجمة الواحد الامباني ، الدار القومية للطباعة والنشر بدون تاريخ ، الفصول :

توماس هوجكين : **ممالك السودان الغربي** .
برنارد لويس : **العرب المسلمون في افريقيا** .
د . هـ . جون : **شعوب ممالك السودان الأوسط** .

— طالبي محمد :
العلاقات بين افريقية والأندلس في القرن الثالث الهجري ، دفاتر تونس **Cahiers de tunisie** ج28 ، ع69_70 ، تونس 1970 م .

— عبد الستار أحمد الفراج :
1) **سحنون** ، مجلة العربي ، ع 165 ، أوت 1972 ، الكويت .
2) **عبد الله بن غانم** ، مجلة العربي ، ع 166 ، سبتمبر 1972 م .

— عمار الطالبي :
أبو عمار الكافي والنسق الكلامي ، الأصالة ، ع 41 ، محرم 1397 هـ / جانفي 1977 م ، ص 172_179 .

— عبد العزيز سالم :
سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس ، المؤرخ العربي ، ع2 ، بغداد ، 1975 م .

— عبد العزيز بنعبد الله :
وحدة المغرب العربي ، تطوان ، ع 1 ، الرباط ، 1956م .

— فاروق عمر فوزي :
ملامح من تاريخ حركة الاباضية ، المؤرخ العربي ، ع2 ، بغداد ، 1975 م ،

— فخار ابراهيم :
1) **الجماعات الاباضية في شمال افريقية** ، الثقافة ، ع3 ، سبتمبر 1971 م .
2) **دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب** ، محاضرات الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، ورقلة ، 1977 م .
3) **البولونيون وتاريخ المغرب الوسيط** ، الأصالة ، ع14 15 ، الجزائر . 1393 هـ / 1973 م .
4) **رسالة شخصية** بتاريخ 1975/5/14 ، قسنطينة .

— كنون عبد الله :
ادريس الأكبر وادريس الأصغر ، دعوة الحق ، ع4 ، 1969 ، ص 41 ـ 47 .

— لقبال موسى :
1) **الحركة الخارجية المغربية** ، المجاهد الثقافي ، ع5 ، مارس 1968 م .
2) **طبنة بين ماض حافل عريق وحاضر متواضع غريب** ، المجاهد الثقافي ماي 1968 م .
3) **من قضايا التاريخ الرستمي** ، الأصالة ، ع41 ، محرم 1397 هـ / جانفي 1977 م .
— ليفي بروفنسال :
« **اشبيلية** » ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج2 ، ص 203
« **أمية** » : **بنوأمية** ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج2 ، ص 682 .
— مارسيه جورج :
ناهرت ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج10 ص : 92 ـ 95 .
— ماريا خيسوس فيغيرا :
1) **محمد وعبد الرحمن بن رستم في قرطبة** ، الأصالة ، ع45 جمادي الأولى 1395 هـ / ماي 1975 م ، الجزائر .
2) **رسالة شخصية** بتاريخ جوان 1977 ، مدريد .
— محسن جمال الدين :
الأندلسيون الأوائل من حملة الثقافة العربية ، مجلة كلية الآداب ، بغداد حزيران 1968 م .
— محمود الباجي :
الشيخ محمد شوية ، مجلة الفكر ، 1962 م ، تونس .
— محمود السمرة :
1) **أول سفير عربي الى بلاط ملوك أوروبا** ، مجلة العربي ، ع51 ، فبراير 1963 م .
2) **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى** ، مجلة العربي ، ع150 .
— المدني أحمد توفيق :
مدخل لدراسة الدولة الرستمية واسهامها في التطور الفكري والحضاري ، الملتقى الحادي عشر للفكر الاسلامي ، صفر 1397هـ / فبراير 1977م .
— المصنف لشنوفي :
الخلافات في الاسلام ، تقديم الكتب ، حولية الجامعة التونسية ع4 ، 1967 م .
— مكي الطاهر أحمد :
يحيى بن يحيى ، دعوة الحق ، 1960 م ، الرباط .

– مكي محمود :

1) **الخوارج بالاندلس** ، تطوان ، ع1 ، 1956 م .

2) **التاهرتي بكربن حماد** ، مجلة العربي ، ع53 ، أفريل 1963 ، الكويت.

– المهدي البوعبدلي :

لمحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين ، الأصالة ، ع 41 ، محرم 1397هـ / جانفي 1977م ص 193 ـ 206 .

– مؤسس حسين :

1) **ثورات البربر في أفريقية والأندلس** ، مجلة كلية الأدب ، جامعة القاهرة ، مايو 1948م .

2) **غارات النورمانيين على الأندلس سنة 229 هـ ـ 245 هـ** ، المجلة التاريخية المصرية 1949م.

3) **تعليق حول نص جديد لفتح العرب للمغرب** ، صحيفة المعهد المصري ، مدريد 1954م.

4) **الجغرافية والجغرافيون في الأندلس** ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ، 1959 ـ 1960 م .

5) **فزان ودورها في انتشار الاسلام في افريقية** ، مجلة كلية الآداب ـ ليبيا ، 1969م .

– ناجي حسن :

الأثر الاقتصادي في الحياة السياسية في صدر الاسلام والعصر الأموي ، المؤرخ العربي ، ع2 ، بغداد ، 1975 م .

– هاشم ياغي :

ملامح من الثقافة الأندلسية ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، عمان ، آيار 1971 م .

– وداد القاضي :

ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية ، الأصالة ، جمادي الأولى 1395 هـ / ماي 1975 م، الجزائر .

* * *

1) *A.H.E.S.: Annales d'histoire économique et sociale.*

2) *A.E.S.C.: Annales, économies, sociétés, civilisation.*

3) *A.Q.: Africa Quarterly.*

4) *B.S.G.A.A.N.: Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord.*

5) *B.C.E.H.S.O.F.: Bulletin du comité d'études histotiques et scientifiques de l'Afrique Occidentale française.*

6) *B.T.S.G.A.O.: Bulletin trimestriel de la société de géographie et d'archéologie d'Oran.*

7) *B.I.F.A.N.: Bulletin de l'institut française d'Afrique noire.*

8) *C.E.A.: Cachier d'études africaines.*

9) *F.O.: Folia Orientalia.*

10) *J.A.H.: The journal of African history.*

11) *J.W.H.: Journal of the World history.*

12) *R.O.: Rocznik Orientalistyczny.*

13) *R.E.I.: Revue d'étude islamic.*

14) *R.A.: Revue africaine.*

15) *R.H.C.M.: Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb.*

16) *S.I.: Studia islamica.*

17) *T.I.R.S.: Travaux de l'institut de recherches sahariens.*

BASSAC. — *Sidjilmassa, B.S.G.A.A.N.*, 1930.

R. BLACHÈRE et H. DARMOUN. — *Géographes arabes du moyen-Age*, Paris, 1957.

M. BRETT :

1) *Northern Africa, Islam and modernisation*, London, 1973.
2) *Ifrigiya as a market for saharan trade from the* 10 *th* – 12 *th* century, J.A.H., Vol., n° 3, 1969.

R. BOUROUIBA. — *Tahert à l'époque rostemide*, « ALGÉRIE-ACTUALITÉ » N° 495, 1975.

G.W. BOVILL. — *Caravans of the old sahara*, London, 1935.

M. CANARD. — *L'autobiographie d'un chambellan du mahdi «Obeidallah», le Fatimide*, Hespéris, 1951, p. 237.

CHEIKH BEKRI. — *Le kharidjisme berbérie*, «Extraits des annales de l'Institut d'études orientales», TXV, 1957, Alger.

G.S. COLIN. — *Monnaies de la période idrisite trouvées à Volubilis*, Hespéris, 1936, T. XXII, fasc. 1.

J.K. COOLEY. — *Baâl, Christ, and Mohammed, Religion and revolution in north Africa.*, Printed in the U.S.A., Published in Great Britain, 1967.

O. DAVIES. — *West Africa before the europeans*, London, 1967.

M. DELAFOSSE. — *Haut-Sénégal*, Niger, Paris, 1912. (Le Ghana et le Mali), *B.C.E.H.S.A.O.F.*, 1924, t.IX. n° 3.

DENISE ROBERT, SERGE ROBERT et JEAN DEVISSE. — *Tegdaoust* 1, *recherches sur Aoudaghost.* t. 1, Paris, 1970.

DENISE ROBERT. — *Les feuilles de Tegdaoust*, J.A.H., t. XI, 1971.

J.D. FAGE :

— *An introduction to the history of W. Africa*, Cambridge, The university press, 1955.
— *An atlas of african history*, London, 1958.
— *A history of West Africa*, Printed in the great Britain, 1969.
— *Slavery in West African history*, *J.A.H.*, vol. X. n° 3, 1969.

E.F. GAUTIER. — *L'or du Soudan dans l'histoire*, *A.H.E.S.*, 1935.

E. GELLNER and CHARLES MICAUD. — *Arabs and Berbers*, first published in great Britain, 1973.

S.D. GOITEIN. — *Studies in Islamic history and institutions*, Leiden, brill, 1968.

H.W. HAZARD. – *Atlas of Islamic history*, Princeton, 1952.

R.L. HESS. — *The itinerary of Ben-Jamin of tudela*, *J.A.H.*, Vol VI, 1965.

H.Z. (J.W) Hirschberg. — *The problem of the judaised Berbers*, *J.A.H.*, vol. IV. n° 3, 1963.

IMAMMUDDIN. — *Some aspects of the socio-économic and culturel history of muslim Spain*, 711-1492 AD., Leiden, Brill, 1965.

P. LAFORGUE. — *Notes sur Aoudghost*, *B.T.S.G.A.O.*, 1922.

E. LAOUST. — *L'habitation chez les transhumants du Maroc central*, Hesperis, 1934, t. 18.

H. LAOUST. — *Les schismes dans l'islam*, Payat, Paris, 1965.

N. LEVTZION. — *Ibn-Hawgal the cheque and awdaghoste*, *J.A.H.*, 1968, vol. IX., n° 2.

LEVI-PROVENCAL. — *Histoire d'Espagne musulmane*, Ed. G.P., Maisonneuve, Paris, 1950.

T. LEWICKI :

– *Arabic external sources for the history of Africa to the South of Sahara*, Krakow. 1969.
— *Notice sur le chronique ibâdite d'Ad-Dargini*, *R.O.*, 1936, t. XI.
— *Mélanges berbères-ibâdites*, *R.E.I.* 1936
— *Une chronique ibâdite, Kitab As-Siyer d'Abûl-Abbâs As-smmahi*, *R.E.I.*, 1934.
— *Etude ibâdites nord-africaines*, 1, Warszawa, 1955.
— *La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age*, *R.O.T.* 21, 1957.
— *Les subd'visions de l'ibâdiyya*, *S.I.*, 9 1958.
– *Les historiens, biographes: et traditionnistes ibadites-Wahbites de l'Afrique du Nord du VIII^e au XVI^e siècles*, *F.O.*, vol. III, 1961/62, p. 1-134.
— *Les premiers commerçants arabes en chine*, *R.O.*, vol. XI, 1935, p. 173-186.
— *Les ibâdites dans l'Arabie du Sud au Moyen-Age*, *F.O.*, 1959, t, l, fasc. l, Krakow.
— *Un document ibâdite inédit sur l'emigration des Nafûsa du Gabal*, *F.O.*, t. 1/2, 1959.
— *Les ibâdites en Tunisie au Moyen-Age*, conferenze publicate a cura dell'Accademia di scienze e lettre Rome, 1950.

— *Quelques extraits inédits aux relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires Ibâdites nord-africains au pays du Sudan, F.O.*, 1960/1961.
— *L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII^e et au IX^e siècle, C.E.A.*, n° 8, 1962.
— *Traits d'histoire du commerce transsaharien marchands et missionnaires ibadites au Soudan occidental et central au cours des VIII^e-XII^e siècle*, Etnographia polska, vol. VIII, 1964.
— *A propos du nom de l'Oasis de Koufra, J.A.H.*, vol, VI, n° 3, 1965.
— *The ibâdites in Arabia and Africa, J.W.H.*, UNESCO, 1971. XIII/1.

M. LOMBARD. — *L'or musulman du VII-XI^e siècle A.E.S.C.*, avril-juin 1942, n° 2.

R. LOPEZ. and I.W.RAYMOND. — *Medieval trade in the méditerranean world*, New-York, 1955, Printed in Great Britain, Glasgow.

G. MARCAIS, *La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen-Age*, Paris, 1946. *L'Afrique du Nord-française dans l'histoire*, Lyon, 1955.

G. MARCAIS et A. DESSUS-LAMARE. — *Tihert, Tagdemt, R.A.*, 1946.

R. MAUNY :
— *Notes sur aoudaghost, B.I.F.A.N.*, 1942, t. 2, n° 1-2.
- *Notes d'archéologie au sujet de Gao, B.I.A.N.*, 1951.
— *The question of Ghana*, Africa, 1954, vol. XXIV.
— *Tableau géographique de l'ouest africaine au Moyeo-Age*, mémoire de l'Institut français d'Afrique noire, n° 61, Dakar, 1961.

G.C. MILES. — *The coinage of the Umayyads of Spain.* The AmericanNumismatic Society, New-York, 1950.

B.G. MARTIN. — *Kanem, Bornu, and the Fezzan, J.A.H.*, 1969. XI.

A. NEGRE. — *La fin de l'Etat rostemide, R.H.C.M.*, juillet 1967, n° 6 et 7.

R. OLIVER and J.D. FAGE. — *A short history of africa*, Printed in Great Britain, 1970.

M. POSNANSKI. — *Ghana and the origines of west african trade, A.Q.*, 1971, vol. XI. n° 2.

J. SCHACHT. — *Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le sahara, T.I.R.S.*, 1954, t. XI.

SMOGORZEWSKI. — *Un poème abâdite sur certaines divergences entre les mâlikites et les abâdites, R.O.*, 1919-1925.

STROTHMANN. — *Berber und ibâditen*, Der Islam, 1928-XVII.

M. TALBI. — *Les Bida, S.I.*, 1960, vol. XII.
— *Kairouan et le malikisme espagnol*, en «Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévy-Provençal, Paris, 1962.
— *L'émirat aghlabide*, Paris, 1967.

J.S. TRIMINGHAM. — *A history of Islam in west africa.* Oxford university press, London, Glasgow, New-York, 1962.

M. VONDER HEYDEN. — *La Berbérie orientale sous la dynastie des benou 'Arlab.* Paris, 1927.

ZAMBOUR. — *Manuel de généologie et de chronologie pour l'histoise de l'Islam, Hanovre*, 1927.



طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـــ 1984

كان [illegible] لضعف اطلاعي على تاريخ المغرب الإسلامي ، في [illegible] حلة دراستي الثانوية [illegible] اثناء اقامتي [illegible] الجزائر ودراستي الجامعية بها . فقد بدا [illegible] في نفسي الاهتمام بتاريخ هذه [illegible] ، خاصة تاريخ الجزائر ، بحكم ارتباطي بها [illegible] تحررها من الاستعمار دام اثنين وثلاثين ومائة سنة . فأخذت تدور في نفسي تساؤلات [illegible] كانت هذه الدولة الحالية هي اول دولة جزائرية مستقلة [illegible] من أجل هذا [illegible] الاهتمام فكان دافعا لي [illegible] الدولة الرستمية ، لأنها تمثل اول وجود سياسي [illegible] وقد اتجهت رغبتي [illegible] الى علاقاتها الخارجية ، لانها تكشف عن [illegible] دورها في المحيط الحضاري [illegible]

سعر في الجزائر : [illegible] د.ج